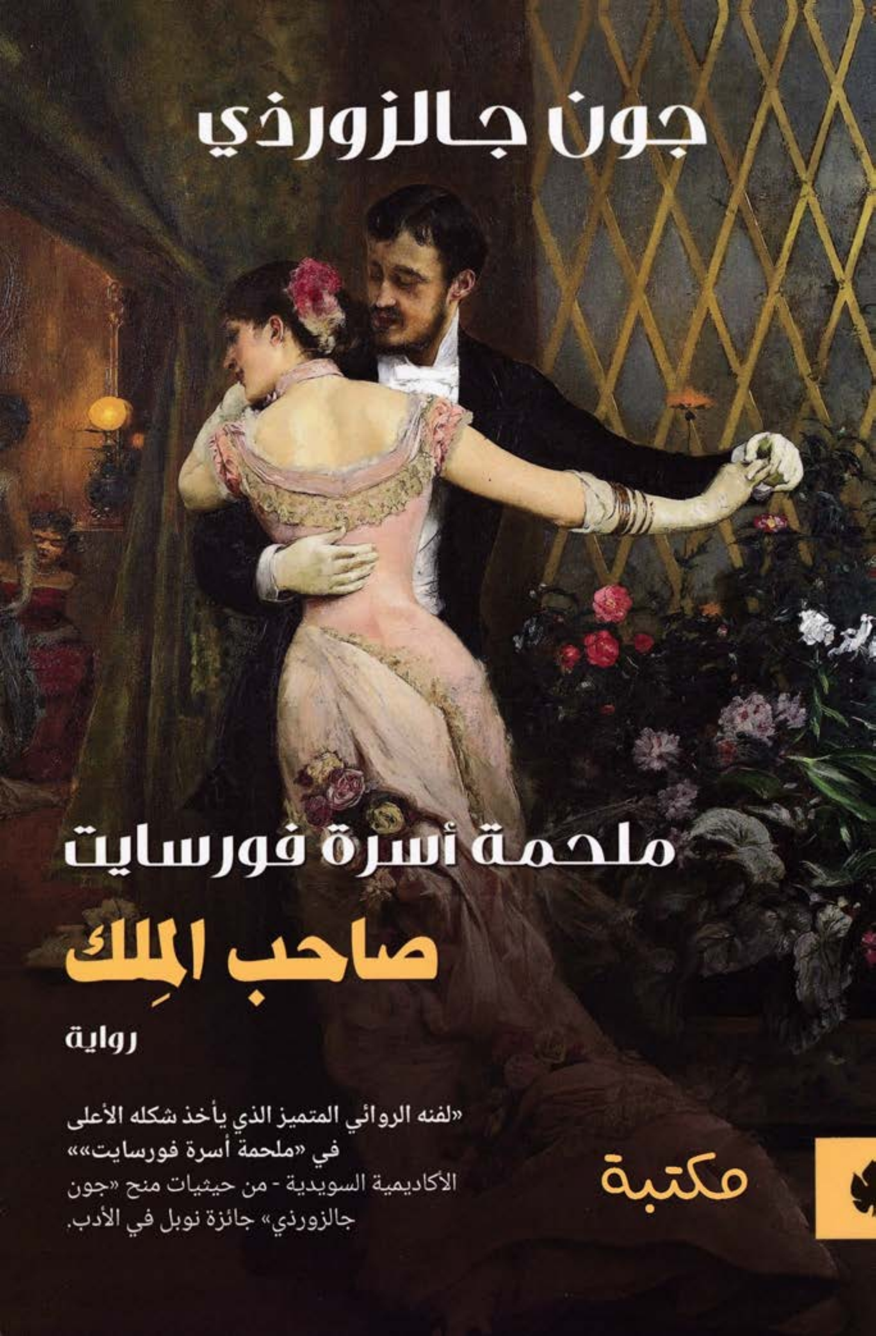

جون جالزورذي

ملحمة أسرة فورسايت

صاحب المِلك

رواية

«لفنه الروائي المتميز الذي يأخذ شكله الأعلى
في «ملحمة أسرة فورسايت»»
الأكاديمية السويدية - من حيثيات منح «جون
جالزورذي» جائزة نوبل في الأدب.

مكتبة

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

telegram @soramnqraa

صاحب المِلك

جون جالزورذي

ملحمة أسرة فورسايت

صاحب المِلك

مكتبة
t.me/soramnqraa

ترجمها عن الإنجليزية

محمد مفيد الشوباشي

الكرمة

الكرمة

لمزيد من المعلومات عن الكرمة: facebook.com/alkarmabooks

العنوان الأصلي:

The Man of Property

The Forsyte Saga (Vol. I)

جون جالزورذي، ١٩٠٦

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

حقوق الترجمة © محمد مفيد الشوباشي

جالزورذي، جون، ١٨٦٧-١٩٣٣.

صاحب الملك : رواية / جون جالزورذي؛ ترجمهما عن الإنجليزية محمد مفيد الشوباشي - القاهرة: الكرمة للنشر، ٢٠١٩.

٤٦٤ ص؛ ٢٠ سم.

١- القصص البريطانية.

أ- الشوباشي، محمد مفيد (مترجم).

ب- العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١٧٧٩١ / ٢٠١٨

٢ ٤ ٦ ٨ ١٠ ٩ ٧ ٥ ٣ ١

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

لوحة الغلاف: «نهاية الحفلة الراقصة» لـ«روخيليو إجوسكيثا» (١٨٤٥-١٩١٥)

«ستجيب: إن العبيد ملك لنا».

«تاجر البندقية».

إلى «إدوارد جارنيت».

مقدمة

كان العنوان: «ملحمة أسرة فورسايت» مخصصًا في الأصل للجزء المسمى «صاحب المِلك»، ولكن اتخاذه اسمًا لمجموعة «أخبار أسرة فورسايت» أرضى إصرار السجية «الفورسايتية» المغروسة في نفس كل واحد منا. وقد يعترض معترض على كلمة «ملحمة» باعتبار أنها تنطوي على ما هو بطولي، وأنه ليس في هذه الصفحات إلا قدر ضئيل من البطولة. ولكن الكلمة استعملت مع السخرية المناسبة؛ ومع كلٍّ، فإن هذه القصة الطويلة، برغم تناولها الأشخاص الذين يرتدون سترات «الفروك» في عصر الثياب ذات الحواشي المزخرفة والمذهبة، ليست مجردة من حرارة الصراع التي لا غنى عنها. وبصرف النظر عن ضخامة هيكل العصر القديم وما فيه من تعطش للدماء على نحو ما وصلت إلينا أخباره في القصص الخيالية والخرافية، فإن رجال الملاحم القديمة كانوا بلا ريب «فورسايتيين» فيما اتصفوا به من غرائز التملك، والأدلة ضد تعرضهم لغزوات الجمال والعاطفة ضعيفة، وهم في ذلك أشبه بـ«سويذن» و«سومز»، وحتى بـ«جوليون الصغير». وإذا بدا أن أشخاص قصص البطولة، في الأيام التي لم يكن لهم قط وجود، انبثقوا من واقع ملابساتهم على نحو غير خليق بـ«فورسايتي» من العهد الفيكتوري، ففي وسعنا أن نتأكد من أن الغريزة القبلية كانت، حتى في هذا العهد، هي القوة الرئيسية، وأن «هذه الأسرة» وحاسة التشبث بالحياة المنزلية، وبالتملك،

لها أهميتها، حتى اليوم، فيما يبذل من جهود لمناقشتها «على ذلك النحو الذي لا ينتهي».

وعلى هذا كتب كثيرون، وادَّعى كل منهم أن أسرته هي «الأسرة الفورسايتية» الأصلية، وبلغ هذا حدًّا كاد يشجع المرء على الاعتقاد في أن نوع هذه الأسرة نموذجي.

إن آداب السلوك تتغير، وأساليب الحياة تتطور؛ ومنزل «تيموثي» في شارع «بيزوتر» يصبح «وكرًا» لكل ما لا يصدق، إلا ما يتعلق بأمور الحياة الجوهرية؛ ونحن لن نرى له مثيلًا مرة أخرى، ولعلنا نرى مثيلًا لأناس كـ«جيمس» و«جوليون الكبير». بيد أن أرقام شركات التأمين، وأحكام القضاة، تعود فتؤكد لنا أن فردوسنا الأرضي ما زال موئلًا مليئًا بالخيرات، حيث الجمال والحب، وهما المغيران المتوحشان، يتسللان إليه، ويختلسان الأمان من تحت أنوفنا. وكما أنه لا بد أن ينبح الكلب في وجه فرقة موسيقية تعزف على آلات نحاسية، فلا بد أن يهب أمثال «سومز» في طبيعته البشرية، لا بد أن يهبوا في وجه التفكك الذي يحوم حول إطار الملكية الشخصية.

وقول القائل: «دع الماضي الميت يدفن موتاه» يمكن أن يكون خير ما يقال لو أن الماضي يموت في يوم من الأيام. إن استمرار الماضي نعمة من تلك النعم «الفاجعة المضحكة» التي ينكرها كل عصر جديد يظهر على المسرح واثقًا من نفسه، متشدقًا بحقه في الجديد الأمثل. ولكن ليس هناك عصر جديد على هذا النحو! فالطبيعة البشرية، تحت ستار تغير مزاعمها وملابسها، لا تزال، وما تزال قريبة جدًّا من أن تكون «فورسايتية» وقد تصبح، فضلًا عن كل شيء، حيوانًا أسوأ من ذلك بكثير.

وإذا عدنا بنظرنا إلى العهد الفيكتوري الذي صوَّرنا نضجه وتصدعه وسقوطه، على نحو ما، في قصة «ملحمة أسرة فورسايت»، رأينا الآن أننا إنما قفزنا من «المقلاة» إلى «النار»، وإنه يكون من الصعوبة بمكان أن نقيم الحجة على صدق الدعوى التي تقول إن حالة إنجلترا في عام ١٩١٣ أفضل

من حالتها في عام ١٨٨٦ عندما اجتمع «الفورسايتيون» في منزل «جوليون الكبير» ليحتفلوا بانعقاد الخطبة بين «جون» و«فيليب بوزيني».

وفي عام ١٩٢٠، عندما اجتمعت تلك الأسرة ثانية لتبارك «ميكاييل مونت» بخطبة «فلور» كانت إنجلترا في حالة تفكك وإفلاس شديدين كما كانت تمامًا، خلال ثمانينيات القرن الماضي، متجمدة منخفضة المعدل على نحو شديد أيضًا، وإذا كانت هذه الأقاصيص دراسة علمية للانتقال حقًّا، فلعله ينبغي للمرء أن يطيل النظر إلى بعض العوامل مثل ابتكار الدراجات والسيارات والطيارات، وحلول عهد الصحف الزهيدة الثمن، وتقوُّض الحياة الريفية، واتساع المدن؛ وميلاد السينما. والناس لا يستطيعون السيطرة على مخترعاتهم، فقصارى ما يستطيعون أن يطوروا تكيفهم إزاء الظروف الجديدة التي خلقتها تلك المخترعات.

ولكن هذه الرواية الطويلة ليست دراسة علمية لعصر من العصور؛ ولكن يرجح أن تكون تجسيدًا أمينًا للاضطراب الذي يحدثه الجمال في حياة الناس.

وشخصية «آيرين»، وهي لا تبرز في القصة أبدًا إلا من خلال الأشخاص الآخرين ـ كما قد يحتمل أن يدرك القارئ ذلك ـ إنما هي إثبات لتعدي الجمال المقلق على عالم يدين بالتملك.

والمرء يلاحظ أن القراء، وهم يخوضون في البحار المالحة لهذه «الملحمة» يزدادون ميلًا إلى الإشفاق على «سومز»، ويظنون أنهم يثورون بذلك على مزاج الكاتب الذي ابتدعه. إنهم بعيدون كل البعد عما يظنون، فمبتدعه يشفق أيضًا على «سومز» الذي تتحصل حياته في أنها المأساة البسيطة المستعصية لرجل غير محبوب لم يتبلد حسه إلى الحد الذي يجعله غير واعٍ تمامًا لهذه الحقيقة، وحتى «فلور» لا تحب «سومز» إلى الحد الذي يشعر بأنها ينبغي أن تصل إليه في حبها له.

ولكن القراء، إذ يشفقون على «سومز»، قد يميلون إلى النفور من «آيرين».

وهم على أي حال يرون أنه ليس بالفتى السيئ، ولا يد له فيما وقع من خطأ، وكان ينبغي لـ«آيرين» أن تغفر له، إلى آخر ما هناك. وإنهم، بتشيعهم لأحد الجانبين، يفوتهم إدراك الحقيقة البسيطة التي تكمن في ثنايا القصة بأكملها؛ وهي أنه حينما يتجرد أحد طرفي الرابطة الزوجية تجردًا تامًّا حاسمًا من الجاذبية الجنسية، يعجز أي قدر من الشفقة أو الحكمة أو الواجب أو ما لا ينبغي عن التغلب على النفور الكامن في الطبيعة. وسواء أكان ذلك ينبغي أم لا ينبغي، فهو أمر خارج عن الموضوع، لأن الواقع أن ذلك لا ينبغي أبدًا وحينما يبدو أن «آيرين» جافية قاسية ـ على نحو ما يحدث في «غاب بولون» و«رواق جوبينور» ـ فهي تتصرف تصرفًا عمليًّا في تبصر، مدركة أن أقل إذعان إنما هو «مقاس البوصة» الذي يسبق المستحيل. هو المقاس المنفر.

ولدى نقد الشكل الأخير الذي اتخذته هذه الملحمة قد يعترض المرء على أن «آيرين» و«جوليون» ـ هذين الثائرين على حق الملكية ـ يطالبان بحق الملكية الروحية لابنهما «جون»؛ ولكن الاعتراض على هذا النحو يكون في الحق مغالاة في النقد. لأنه ما من أب أو أم يمكن أن يسمحا بزواج الفتى من «فلور» دون أن يقفا على الحقائق الواقعية؛ والحقائق الواقعية هي التي تحدد تصرف «جون»، لا إقناع والديه. أضف إلى ذلك أن «جوليون» لا يقوم بإقناع ابنه لحسابه، ولكن لحساب «آيرين»، ويصبح قيام «آيرين» بالإقناع تكرارًا: «لا تفكر فيَّ أنا، ولكن فكر في نفسك»، وكون وقوف «جون» على الحقائق الواقعية يحمله على التحقق من مشاعر أمه، أمر يصعب اتخاذه دليلًا على أنها، برغم كل شيء، «فورسايتية».

وبرغم أن الاصطدام بالجمال، ودعاوى الحرية في عالم يدين بحق الملكية، هي الميول الرئيسية في «ملحمة أسرة فورسايت»، فإنه لا يمكن تبرئتها من تهمة تحنيط الطبقة فوق المتوسطة. وكما أن قدماء المصريين كانوا يضعون حول مومياواتهم ما يحتاجون إليه في حياتهم المستقبلة من ضرورات الحياة، حاولت أنا أيضًا أن أضع حول أشخاص العمة «آن» والعمة «جولي»

والعمة «هيستر»، و«تيموثي» و«سويذن» و«جوليون الكبير» و«جيمس»، وأولادهم، شيئًا يكفل لهم التمتع بفترة قليلة من العيش فيما بعد. حاولت أن أضع قليلًا من ترياق التحنيط في الحركة السريعة «للتقدم» المتحلل.

وإذا كان مقدرًا للطبقة فوق المتوسطة ـ هي وغيرها من الطبقات ـ أن «تنتقل» إلى الانحلال، فإنها وهي محنطة هنا في هذه الصفحات، ترقد تحت أنظار العابرين، في «متحف الأدب» الواسع غير المرتب ليتطلع إليها مَن يتطلع. إنها ترقد هنا «في مرقها» وهو «حاسة الملكية».

«جون جالزورذي»

١٩٢٢

الجزء الأول

الفصل الأول

في منزل «جوليون الكبير»

إن الذين حظوا بميزة حضورهم لوليمة عائلية من ولائم أسرة «فورسايت» رأوا ذلك المشهد اللطيف الموجه، مشهد أسرة فوق المتوسطة في أوج أبهتها. ولكن إذا كان أي واحد من أولئك المميزين يتحلى بموهبة التحليل النفسي، «وهي موهبة مجردة من القيمة المالية، وأفراد أسرة «فورسايت» ينكرونها، كما ينبغي» فإنه يرى مشهدًا ليس مبهجًا فحسب، ولكنه موضح كذلك لمشكلة إنسانية غامضة. وفي عبارة أوضح، يستخلص مثل هذا الرجل، من اجتماعات أفراد تلك الأسرة، وليس بينها فرع يميل إلى الآخر، أو ثلاثة أفراد يقوم بينهم شيء يستحق أن يُدعى تعاطفًا، يستخلص شاهدًا على ذلك التماسك الغامض المقرر الذي يجعل الأسرة وحدة على مثل تلك الضخامة في بناء المجتمع، وصورة على مثل هذا الوضوح للمجتمع مصغرًا.

لقد سمح له أن يرى السبل المعتمة للتقدم الاجتماعي، وأن يدرك شيئًا عن الحياة القائمة على النظام القبلي، وعن تدافع الحشود المتوحشة، وعن صعود الأمم وسقوطها. إنه أشبه برجل يرقب شجرة تنمو من منبتها ـ وهي نموذج للإصرار والانفصال والنجاح وسط موت مئات أخرى من نباتات أقل ليفًا وعصارة وإصرارًا ـ يراها في يوم من الأيام مخضلة الإزهار، مكتملة الإبراق، يكاد يكون رخاؤها منفرًا وهي في أوج ازدهارها.

والرقيب الذي يتصادف حضوره إلى منزل العجوز «جوليون فورسايت» الواقع في «ستانهوب جيت» يوم ١٥ من يونيو عام ١٨٨٦، قد يرى أسرة «فورسايت» وهي في أوج ازدهارها.

وهذه كانت المناسبة المتاحة لإقامة «اجتماع عائلي» بقصد الاحتفال بخطبة السيد «فيليب بوزيني» للآنسة «جون فورسايت»، حفيدة «جوليون الكبير». وحضر أفراد الأسرة مزهوين بقفازاتهم الخفيفة، وصداراتهم المصنوعة من جلد الجاموس، وزينتهم وستراتهم من طراز «الفروك». وحضرت حتى العمة «آن» التي نادرًا ما تغادر الآن ركنها من غرفة جلوس أخيها «تيموثي»، الخضراء اللون، حيث تجلس طوال يومها مشتغلة بالقراءة والتطريز في كنف عود للزينة، من حشائش «البمباس»[١] مصبوغ وموضوع في «زهرية» ذات لون أزرق خفيف، وتحيط بالسيدة صور ثلاثة أجيال من أفراد أسرة «فورسايت»، حتى العمة «آن» كانت هناك، وكان ظهرها المتصلب، وجلال وجهها الشائخ الهادئ يجسدان التشبث بفكرة الأسرة.

إذا ارتبط واحد من أسرة «فورسايت» بخطبة، أو تزوج، أو حان مولده، حضر سائر أفراد الأسرة. وإذا مات فرد منهم، ولكن أحدًا منهم لم يمت بعد. إنهم لا يموتون، فالموت مناقض لمبادئهم. وقد لاذوا بذلك التحوط الغريزي، تحوط الأشخاص ذوي الحيوية المتوقدة الذين ينفرون من الجور على ما يملكون.

وحينما أوشك أفراد أسرة «فورسايت» أن يختلطوا في ذلك اليوم بحشد الضيوف الآخرين، ظهر بينهم ما هو أكثر من مجرد النظرة المهذبة العادية، والتوكيد السريع المستفسر، ومظاهر الاحترام المشرقة، كانوا كأنما قد تأهبوا لتحدي شيء ما. وانتشر بين صفوفهم التشمم الذي يبدو عادة على وجه «سومز فورسايت»، لقد كانوا محترسين.

---

(١) نبات ينتشر في سهول أمريكا اللاتينية. (المترجم).

وإن الرغبة اللاشعورية في الإساءة التي انطوى عليها موقفهم هي التي ألفت في بيت «جوليون الكبير» ذلك الاجتماع العائلي الذي هو اللحظة السيكولوجية في تاريخ الأسرة، وهي التي جعلته فاتحة لمأساتهم.

كان أفراد أسرة «فورسايت» مستائين من شيء ما، لا بحسبانهم أفرادًا، بل بوصفهم أسرة. وقد عبر هذا الاستياء عن نفسه بالإتقان المضاف إلى ثيابهم، وبوفرة مجاملات الأسرة، والمبالغة في إظهار أهميتها، ثم بالتشمم.

إن الخطر، وهو ما لا بد منه لإظهار الصفة الأساسية لأي مجتمع أو رهط أو فرد من الأفراد، هو الذي تشممه أفراد أسرة «فورسايت». إن استشعار الخطر قد صقل دروعهم، وبدا عليهم لأول مرة، بحسبانهم أسرة، أنهم يشعرون شعورًا غريزيًّا بكونهم على اتصال بشيء غريب غير مأمون.

وكان تجاه البيانو رجل ضخم البنيان، طويل القامة، يكسو صدره العريض بصدارين ودبوس فصه من ياقوت، بصدارين بدلًا من الصدار الحريري الواحد، والدبوس ذي الفص الماسي، وهما ما يُلبسان عادة في مثل هذه المناسبات. وكانت لوجهه الحليق المربع العجوز، ذي اللون الشبيه بلون الجلد المدبوغ المصفر، وذي العينين الشاحبتين، كانت له نظرته بالغة الجلال، البادية فوق قاعدتها الحريرية.

هذا هو «سويذن فورسايت». وكان أخوه التوأم «جيمس» بقرب النافذة حيث يستطيع أن ينال قسطًا من الهواء النقي أكبر من نصيبه العادل ـ وكان «جوليون الكبير» يدعو هذين الأخوين البدين والنحيل ـ و«جيمس» يزيد طوله على ست أقدام، مثل «سويذن» البدين، ولكنه كان شديد النحول حتى كأنما قدر له، منذ مولده، أن يظل رصيد نحوله متوازنًا، ومحافظًا على معدله.

كان يتأمل المشهد، منحنيًا انحناءته الدائمة، وتبدو على عينيه هيئة الاستغراق الراسخ في وساوس قلق خفي يقطعه، فترة بعد فترة، تفحص متنقل سريع، أو أحداث تقع حوله. وكانت وجنتاه نحيلتين بفعل طيتين

متوازيتين، وشفته العليا الطويلة الحليقة، محوطة بسالفين مهيبين. ولم تكف يداه عن تقليب قطعة خزف.

وعلى مسافة غير بعيدة كان ابنه الوحيد «سومز»، وهو فتى شاحب، متقن الحلاقة، أسود الشعر، أقرب إلى الصلع. كان يحرك ذقنه من جنب إلى جنب، منصتًا إلى سيدة تلبس ثوبًا رماديًّا، رافعًا أنفه في هيئة «التشمم» سالفة الذكر، وكأنه يستهجن بيضة يعلم أنه لا يستطيع هضمها. وكان من خلفه ابن عمه «جورج» الطويل القامة، وهو ابن «روجر»، خامس أبناء «فورسايت». وبدت على وجهه السمين نظرة خبيثة وهو يدبر مزحة من مزحه التهكمية.

كان هناك شيء متعلق بهذه المناسبة أثر فيهم جميعًا.

وجلست ثلاث متجاورات في صف واحد، هن العمة «آن»، والعمة «هيستر»، (وهما عانستا أسرة «فورسايت») و«جولي»، (مختصر اسم «جوليا») وهذه الأخيرة لم تغفل كل الإغفال في فجر شبابها عن الزواج بـ«سيبتموس سمول»، وهو رجل ضعيف البنية. وقد عاشت من بعده سنوات عديدة. وهي تعيش الآن مع أختيها الكبرى والصغرى في منزل «تيموثي» بشارع «بيزوتر»، و«تيموثي» هو سادس إخوتها وأصغرهم سنًّا. وكانت كل سيدة من هؤلاء السيدات الثلاث تحمل في يدها مروحة، وكل سيدة منهن صبغت وجهها بصبغة خفيفة، وتزينت بشيء من الريش أو الحلي اللافتة للنظر مما يشهد على جدية المناسبة.

وفي وسط الغرفة، تحت «النجفة»، وقف كبير الأسرة، «جوليون الكبير» نفسه، إذ أصبح المضيف، وهو في الثمانين من عمره، يبدو مهيبًا بشعره الأبيض البديع، وجبهته الشبيهة بالقبة، وعينيه الصغيرتين الرماديتين الداكنتين، وشاربه الأبيض الضخم الذي يتدلى وينتشر تحت مستوى فكه القوي؛ وكانت له نظرة رب الأسرة. وبدا متمكنًا من شباب دائم برغم نحول خديه، وأخاديد فوديه. ووقف منتصب القامة تمامًا، ولم تفقد عيناه الثابتتان شيئًا من بريقهما الصافي. وهكذا كان الأثر الذي أحدثه هو الترفع عن شكوك

من هم أصغر سنًّا ونفورهم. وبما أنه قضى سنين لا تحصى متبعًا هواه، فقد اكتسب حقًّا مقررًا في ذلك، ولم يخطر قط ببال «جوليون الكبير» أنه لا بد له من أن يكسو وجهه بنظرة الشك أو التحدي.

وكانت هناك فروق كثيرة وتشابه كبير بينه وبين إخوته الأربعة الحاضرين وهم «جيمس» و«سويذن» و«نيكولاس» و«روجر». فكل واحد من هؤلاء الإخوة كان بدوره شديد الاختلاف عن أخيه، ولكنهم، مع ذلك، كانوا أيضًا متشابهين.

ومن خلال اختلاف هذه الوجوه في قسماتها وتعبيراتها يمكن أن يلاحظ المرء على أنوفهم نوعًا من الرسوخ، كامنًا تحت الاختلافات الظاهرة، طابعًا وجوههم بطابع سلالتهم. وهو أقدم في التاريخ من أن يُقتفى أثره، وأبعد في القدم، وأكثر دوامًا من أن يناقش، إنه «دمغة» الأسرة فعلًا، وضامن ثرواتها.

ومن بين الجيل الأصغر ظهر الطابع نفسه على «جورج» الطويل الشبيه بالثور، وعلى «أرشيبالد» الشاحب المتحمس، و«نيكولاس» الشاب ذي العناد اللطيف التجريبي، و«أوستيس» الصارم الوجه، المصر على رأيه في غرور ـ وقد يكون هذا الطابع في هؤلاء أقل دلالة، ولكن المرء لا يخطئه ـ إنه دليل على شيء في روح الأسرة لا يُمحى.

وكانت هذه الوجوه المختلفة المتشابهة إلى حد كبير، تعبِّر من وقت لآخر، خلال عصر ذلك اليوم، عن ريبة لا شك أن الرجل الذي اجتمعوا ليعرفوه هو موضوعها.

كان معروفًا عن «فيليب بوزيني» أنه شاب غير موسر، ولكن فتيات أسرة «فورسايت» سبق أن خطبن لأمثاله، وتزوجنهم فعلًا. فليس هذا إذن هو الذي جعل الريبة تخامر عقول أفراد تلك الأسرة. وما كان في وسعهم أن يفسروا أصل ريبة غمض أمرها وسط ضباب القيل والقال العائلي. ولا شك أن حكاية قيلت عن قيامه بواجب الزيارة للعمة «آن»، والعمة «جولي»، والعمة «هيستر»، مرتديًا قبعة رمادية اللون غير منشاة ـ قبعة رمادية اللون،

غير منشاة، وليست حتى جديدة ـ شيء مغبر لا شكل لقالبه. «شيء غريب جدًّا يا عزيزي، شيء شاذ جدًّا!». وقد حاولت العمة «هيستر»، وهي تمر من الغرفة الصغيرة المظلمة، أن تنزعها عن المقعد (والعمة «هيستر» قصيرة مرمى النظر نوعًا) ظنًّا منها أنها قط غريب شائن، فإن لـ«تومي» مثل أولئك الأصدقاء الشائنين! وانزعجت عندما وجدتها لا تتحرك.

وكما يجد الفنان دون انقطاع ليستكشف أمرًا تافهًا، ذا دلالة، يجسد الطبيعة الكاملة لمشهد، أو لمكان، أو لشخص، كذلك استمسك أولئك الفنانون عن غير وعي ـ أفراد أسرة «فورسايت» ـ استمسكوا بداهة بتلك القبعة. لقد كانت هي شيئهم التافه ذا الدلالة، هي التفصيل الذي تضمن معنى المسألة كلها. فقد سأل كل واحد منهم نفسه: «هيا خبرني، هل كنت أقوم «أنا» بتلك الزيارة لابسًا تلك القبعة؟». وأجاب كُلٌّ بقوله: «لا!» وأضاف من كان منهم أوسع خيالًا: «إن ذلك لم يكن ليخطر ببالي أبدًا!».

وضحك «جورج» مكشرًا عن أنيابه عندما سمع الحكاية. لقد وضح أن القبعة أصبحت النكتة العملية المستعملة! وكان هو نفسه خبيرًا بأمثالها. قال:

ـ إنه لمتعال جدًّا! هذا القرصان الهمجي!

وتقاذفت الأفواه كلمة «القرصان» هذه حتى أصبحت الطراز المفضل للإشارة إلى «بوزيني».

وحدث لعمات «جون» أن لُمنها بعد ذلك على مسألة القبعة، فقد قلن لها:

ـ نحن نظن أنه ينبغي لك يا عزيزتي ألا تدعيه يفعل ذلك.

وأجابت «جون» على طريقتها المستبدة المتحمسة كما يقتضي الأمر، بحسبانها تجسيدًا صغيرًا للإرادة.

ـ أوه! وماذا يهم؟ إن «فيل» لا يعرف ما يرتديه أبدًا!

ولم يقر أحد إجابة مستهجنة إلى هذا الحد. رجل لا يعرف ما يرتديه؟ لا... لا!

ماذا يكون حقًّا ذلك الشاب الذي أحسن لنفسه صنعًا بخطبة «جون»،

وريشة «جوليون الكبير»، المعترف بها؟ إنه مهندس معماري، ولكن ذلك ليس في حد ذاته سببًا كافيًا للبس مثل تلك القبعة. ولم يحدث أن كان واحد من أسرة «فورسايت» مهندسًا معماريًا، ولكن أحدهم عرف مهندسين معماريين لم يقدموا قط على لبس مثل تلك القبعة لدى القيام بزيارة رسمية في الموسم اللندني. خطر... آه، خطر!

ولم تكن «جون» تدرك ذلك بالطبع، ولكنها كانت سيئة السمعة برغم أنها لم تتجاوز التاسعة عشرة. ألم تقل للسيدة «سومز» ـ وهي سيدة تبدو دائمًا في أجمل ملبس ـ إن ريش الزينة مبتذل؟ وقد أقلعت السيدة «سومز» فعلًا عن التجمل بريش الزينة، لكم كانت عزيزتنا «جون» رهيبة الصراحة!

بيد أن هذه الهواجس، وهذا الاستنكار، وهذا الشك المكتمل الأصالة، لم يمنع أسرة «فورسايت» من أن يجتمع شملها في وليمة «جوليون». والاجتماع العائلي في «ستانهوب جيت» نادر الحدوث جدًّا. فهو لم ينعقد مرة واحدة منذ اثنتي عشرة سنة، لم ينعقد بالفعل منذ موت زوجة «جوليون».

ولم يحدث قط أن اكتمل اجتماعهم على هذا النحو؛ ذلك أنهم إذ التأم شملهم بدافع خفي على الرغم من خلافاتهم، قد اتخذوا أهبتهم ضد خطر مشترك، ووقفوا متساندين رأسًا إلى رأس، وكتفًا إلى كتف، كالماشية حين يحضر كلب إلى الحقل، متهيئين للانقضاض على المعتدي، ووطئه بالأقدام حتى يموت. ومما لا ريب فيه أنهم حضروا كذلك لتكوين فكرة عن نوع الهدايا التي ينتظر منهم أخيرًا أن يقدموها. فبرغم أن هدايا العرس كانت تقسم درجات على هذا النحو: «أية هدية ستهدينها؟»، ««نيكولاس» سيهدي ملاعق!». فالأمر كان يتوقف كثيرًا على الزوج. فهو إذا كان رقيقًا، نظيف الملبس، يدل مظهره على اليسر، أصبح ذلك أدعى إلى إهدائه أشياء لطيفة، لأنه ينتظر منهم ذلك. وفي نهاية الأمر كان كل منهم يقدم الهدية الصائبة اللائقة تمامًا بعد قيام الأسرة بترتيب أنواع الهدايا، والوصول إلى ذلك تبعًا لما بلغته الأسعار في سوق الأوراق المالية. وتتم تسوية أمر هذه

اللطائف المحكمة الاختيار في منزل «تيموثي» المريح، المبني بالطوب الأحمر، الواقع في «بيزوتر»، المشرف على الحديقة العامة حيث تقيم العمات «آن» و«جولي» و«هيستر».

ووجد انزعاج أسرة «فورسايت» ما يبرره في مجرد ذكر القبعة، ولَكَم هو غير ممكن، وغير صائب لأية أسرة أن تشعر بشيء غير الانزعاج نظرًا إلى المظاهر التي لا بد أن تميز أبدًا الطبقة العظيمة فوق المتوسطة!

وبباعث هذا الانزعاج وقف «بوزيني» يتحدث إلى «جون» بجوار الباب الأبعد. وكان لشعره الملتف مظهر شعر مجعد، وكأنه أدرك ما يدور حوله من أمور غير عادية. وكانت هيئته تدل كذلك على أنه يسخر في سره.

وقال «جورج» وهو يحادث أخاه «أوستيس» على انفراد:

ـ يبدو كأنه سيستطيع أن يسيطر على الأمر، القرصان الجريء.

هذا الرجل «ذو الهيئة الغريبة جدًّا» ـ كما نعتته بذلك السيدة «سمول» فيما بعد ـ كان متوسط القامة، متين البنيان، ذا وجه شاحب داكن الاحمرار، وشارب في لون الرماد، ووجنتين ناتئتي العظم، وخدين غائرين. وارتدت جبهته منحدرة إلى قمة رأسه، وتقببت فوق عينيه في انتفاخ كالجباه التي تُرى في أقفاص الأسود بحدائق الحيوان. وكانت عيناه خمريتي اللون، غافلتين مبلبلتين أحيانًا. وأبدى سائق عربة «جوليون الكبير» الملحوظة الآتية للساقي بعد أن أوصل «جون» و«بوزيني» إلى المسرح:

ـ لست أدري كيف أكوِّن رأيًا عنه. إنه يبدو لي تمامًا كنمر نصف أليف.

وفي كل حين وحين كان يتقدم فرد من أسرة «فورسايت»، ويدور مائلًا إلى جنبه، ويرمقه بنظرة.

ووقفت «جون» إلى الأمام لتدفع عنه هذا الفضول الفارغ، إنها «نتفة من شيء صغير»، كما قال بعضهم عنها مرة، «وكل ما فيها شعر وروح»، ولها عينان زرقاوان جريئتان، وفم حازم، ولون متألق. ويبدو وجهها وجسمها دقيقين جدًّا بالنسبة لهامتها المكللة بشعرها الأحمر الذهبي.

ووقفت امرأة طويلة، ذات وجه حسن تنظر إلى كل منهما، مفترة الثغر عن ابتسامة مبهمة، وهي التي شبهها أحد أفراد الأسرة يومًا بإلهة وثنية.

كانت يداها المكسوتان بقفاز رمادي اللون من صنع فرنسا، متقاطعتين إحداهما فوق الأخرى. وكان وجهها المتجهم الفاتن يتجه إلى ناحية لا تتغير، وقد تعلقت به عيون جميع الرجال القريبين منه. وتمايل وجهها، وكان متزن الحركة إلى حد أن بدا كأن الهواء نفسه هو الذي يحركه. وكان في خديها دفء، ولكنهما اصطبغا بلون طفيف. وكانت عيناها الواسعتان السوداوان رقيقتين، ولكن كانت شفتاها ـ وهي تسأل سؤالًا، وترد جوابًا، وتبتسم تلك الابتسامة الغامضة ـ كانت شفتاها هما اللتان نظر إليهما الرجال. كانتا شفتين حساستين، سريعتي التأثر، عذبتين. وبدا كأنما يشيع من خلالهما دفء وعطر كدفء الوردة وعطرها.

وإذ شُغل الزوجان المخطوبان بالذين يتفحصونهما لم يشعرا بالإلهة القابعة في مكانها. وكان «بوزيني» أول من لاحظها، وسأل عن اسمها.

وأخذت «جون» حبيبها إلى المرأة ذات الوجه الجميل، وقالت:

ـ «آيرين» أعز صديقاتي. أرجو أن تصبحا صديقين حميمين.

ولدى صدور أمر السيدة الصغيرة ابتسم ثلاثتهم. وبينما كانوا يبتسمون، ظهر «سومز فورسايت»، في هدوء من خلف السيدة ذات الوجه الجميل، وهي زوجته. وقال:

ـ آه! قدميني إليها أنا أيضًا!

كان قليلًا ما يبعد في الواقع عن جوار «آيرين» في الحفلات الرسمية العامة، بل حتى حين تفرض مقتضيات الاختلاط الاجتماعي بُعده عنها. كان يرى وهو يتتبعها أينما ذهبت بعينين يبدو فيهما تعبير غريب عن ترقبها والتشوف إليها.

وكان أبوه «جيمس» لا يزال، وهو قريب من النافذة، يفحص العلامات المنقوشة على قطعة الخزف.

وقال للعمة «آن»:

- إني أعجب كيف سمح «جوليون» بهذه الخطبة، فقد قالوا لي إنه لا أمل في انعقاد زواجهما قبل سنوات و«بو... وزيني» (نطق الكلمة على وزن يخالف ما جرت عليه العادة من استعمال حرف «الواو» غير ممدود) و«بو... وزيني» لا يمتلك شيئًا. وإني حملت «وينيفريد»، حينما تزوجت «دارتي»، على تسديد ديونه إلى آخر «بيني» - وهذا توفيق سعيد أيضًا - فإنهما كانا لا يملكان وقتذاك شيئًا!

ورفعت العمة «آن» إليه بصرها من مقعدها المكسو بالمخمل. وكانت جدائل شعرها الملتفة الرمادية تعصب جبينها، وهذه الجدائل التي لا تتغير بمرور عشرات السنين قضت في الأسرة على الشعور بالزمن. ولم تجب، فهي لا تتكلم إلا نادرًا، مقتصدة في صوتها المسن؛ ولكن نظرتها كانت لدى «جيمس»، القلق الضمير، في مقام الرد.

وقال:

- حسنًا، لم تكن حيلة في أن «آيرين» لا تملك مالًا، فإن «سومز» كان على عجل شديد من أمره، وكان يحوطها برعاية دقيقة متوثبة إلى حد كبير.

وإذ وضع كأسه على البيانو في نكد جال بعينيه في الحشد القريب من الباب.

وقال على غرة:

- في رأيي أن ما حدث ليس أقل صوابًا في حالته التي هو عليها.

ولم تسأله العمة «آن» أن يفسر هذا القول الغريب، فهي تعلم ما كان يفكر فيه. إذا كانت «آيرين» لا تملك مالًا فإنها لا يمكن أن تكون حمقاء إلى حد ارتكابها لأي فعل خاطئ؛ ذلك أنهم يقولون... يقولون إنها طلبت أن تبيت وزوجها في غرفتين منفصلتين. ولكن «سومز» لم يكن لديه بالطبع.

وقطع عليها «جيمس» سلسلة تأملاتها:

- ولكن، أين «تيموثي»؟ ألم يأتِ معهم؟

وشقَّت ابتسامة رقيقة طريقها من بين شفتي العمة «آن» المطبقتين:

ـ لا، إنه لم ير من الحكمة أن يأتي وكل هذه الدفتيريا حول المكان، وهو شديد التعرض للعدوى.

وأجاب «جيمس»:

ـ نعم، إنه يعني بنفسه عناية شديدة. وليس في وسعي أنا أن أوفر لنفسي مثل العناية التي يوفرها لنفسه.

وليس من السهل أن يقول الإنسان أهو الإعجاب أم الحسد أم الاحتقار هو الذي غلب على هذه الملاحظة.

وكان «تيموثي» قليلًا ما يراه أهله فعلًا. إنه عضو الأسرة المدلل. وقد اتخذ نشر الكتب حرفة له، واشتم منذ سنوات، عندما كانت الحرفة في كامل مدها، اشتم ركودها الذي لم يحل بعد فعلًا، ولكن كان لا مفر في نهاية الأمر من أن يحل، كما انعقد إجماع الرأي على ذلك. وبعد أن باع حصته من رأس مال شركة تشتغل على الأخص بإنتاج كتب دينية، استثمر المال المتحصل، غير الخفي بحال، في شراء سندات الحكومة التي تدر ربحًا قدره ثلاثة في المائة، واتخذ لنفسه، بهذا التصرف، موقفًا منعزلًا، إذ لم يكن أحد من أسرة «فورسايت» يرضى عن ربح لماله يقل عن أربعة في المائة. وهذا الانعزال قوَّض شيئًا فشيئًا؛ ولكن على نحو أكيد، روحًا لعلها أفضل من الروح المجبولة عامة على الحرص. وقد أصبح على الأغلب أسطورة، أو نوعًا من «تجسيد الأمان» يحوم كالشبح خلف دنيا أسرة «فورسايت». وهو لم يرتكب يومًا رعونة الزواج، وإرباك نفسه على أي حال بالأطفال.

واستأنف «جيمس» الربت على قطعة الخزف:

ـ إن هذه ليست «ورسيستر» القديمة الحقيقية. وأحسب أن «جوليون» قال لك شيئًا عن هذا الشاب (الخاطب). وهو بحسب كل ما استطعت معرفته، عاطل من العمل، ليس له دخل، وليست له صلات تستحق الذكر. ولكني لا أعرف بعد ذلك شيئًا، فما من أحد يفضي إليَّ بشيء.

ولكن العمة «آن» هزت رأسها، ومرت رجفة على وجهها المعقوف، المربع الذقن، وتشابكت أصابع يديها العنكبوتية وشد بعضها على بعض، وكأنها تعبئ في دهاء إرادتها من جديد.

وكانت تحتل مكانة خاصة بين أفراد أسرة «فورسايت» جميعًا إذ هي تكبرهم ببضع سنوات. وكانت عزائمهم تخور أمام وجهها النزيه، وهم جميعًا وصوليون أنانيون ـ وإن لم يفوقوا جيرانهم في ذلك قطعًا ـ وإذا أصبحت الفرص المواتية شديدة الإغراء، فماذا كانوا يملكون غير تجنب تلك السيدة!

واستأنف «جيمس» قوله وهو يثني رجليه الطويلتين النحيلتين:

ـ ليتصرف «جوليون» على طريقته الخاصة، وهو لا ولد له.

وتوقف عن القول إذ تذكر أن «جوليون الصغير»، ولد «جوليون الكبير»، وأبو «جون» لا يزال على قيد الحياة، وهو الذي تورط تلك الورطة، وحطَّم حياته بهجر زوجته وابنته، والهرب مع تلك المربية الأجنبية.

واستأنف قوله على عجل:

ـ حسنًا، إذا أراد الإقدام على هذه الأمور فأحسب أنه قادر على ذلك. والآن ماذا سيعطيها؟ أحسب أنه سيعطيها ألفًا كل عام، فليس هناك أحد غيرها سيترك له نقوده.

ومد يده ليصافح رجلًا نشطًا، نظيف حلاقة الذقن، لا يكاد رأسه يحمل شعرة واحدة، له أنف طويل أفطس، وشفتان مكتنزتان، وعينان شهباوان باردتان تبدوان تحت حاجبين قائمي الزاوية.

وغمغم قائلًا:

ـ حسنًا يا «نك»، كيف حالك؟

وفي سرعة كسرعة الطائرة، ونظرة كنظرة تلميذ عاقل على نحو غير طبيعي، وضع في تلك الراحة الباردة أطراف أصابعه التي كانت أشد برودة، وانتزعها بسرعة (وهو قد جمع ثروة كبيرة، بطريقة مشروعة تمامًا، من الشركات التي كان مديرًا لها). وقال متجهمًا:

ـ أنا في حالة سيئة. قضيت طوال الأسبوع في حالة سيئة. لا أنام الليل. ولم يستطع الطبيب معرفة السبب. وهو طبيب ماهر، ولولا ذلك ما رضيت به، ولكني لم أفز منه إلا بقوائم الحساب.

وقال «جيمس» منزلقًا إلى كلامه في حدة:

ـ الأطباء! إني استدعيت جميع أطباء لندن لواحد أو لآخر من أفراد أسرتنا. ولم تكن ثمة نتيجة مُرضية يمكن استخلاصها منهم. إنهم يقولون لك أي شيء. وها هو ذا الآن «سويذن». أي خير صنعوه له؟ ها هو ذا أضخم مما كان في أي وقت مضى. إنه هائل الجسم، ولم يستطيعوا إنقاص وزنه. انظر إليه!

وجاء «سويذن فورسايت» يتبختر صوبهم، فارع القامة، مربع البنيان عريضه، ذا صدر شبيه بصدر الحمام الهزاز وهو في صداره البهي، وقال بطريقته المتظرفة، مفخمًا حرف الحاء بقوة (هذا الحرف الصعب النطق كاد يكون لديه في الحفظ والصون تمامًا):

ـ إرر... كيف حالكما؟ كيف حالكما؟

وكان كل أخ من هؤلاء الإخوة الثلاثة يتخذ هيئة تهويل ما به عندما ينظر إلى أخويه الآخرين علمًا منه، عن خبرة، أنهما سيحاولان أن ينكرا علله.

وقال «جيمس»:

ـ كنا نقول توًا إنك لم تنقص قط سمنة.

وحملق «سويذن» بعينيه الشاحبتين المستديرتين باذلًا جهد من يحاول الاستماع. وقال مائلًا إلى الأمام قليلًا:

ـ لم أنقص سمنة؟ أنا في حال طيبة، ولست مثلك كسلك من الأسلاك التي تربط بها أوراقك.

ولكنه مال ثانية إلى الوراء راجعًا إلى حالة السكون، خشية من أن يفقد صدره منظر اتساعه، ذلك أنه لا يقدر شيئًا تقديرًا كبيرًا مثل تقديره للمظهر الممتاز.

وأدارت العمة «آن» عينيها من كل واحد منهم إلى الآخر. وكانت نظرتها

متساهلة قاسية. ونظر الإخوة الثلاثة بدورهم إلى «آن». كانت قد بدأت تتضعضع. امرأة مدهشة! ستة وثمانون عامًا إن لم تنقص عن ذلك يومًا. وقد تعيش عشر سنوات أخرى، ولم تكن قوية البنية قط. ولم يتجاوز «سويذن» و«جيمس» التوأمان عامهما الخامس والسبعين و«نيكولاس» كان مجرد طفل في السبعين أو قرابة تلك السن. كانوا جميعهم أقوياء، ونتيجة ذلك كانت مربحة، فإن حالات صحتهم النسبية كانت من بين جميع أشكال أملاكهم هي بالطبع التي تهمهم أكثر من غيرها.

وواصل «جيمس» قوله:

ـ أنا نفسي في حال طيبة، ولكن أعصابي مضطربة، فإن أتفه الأمور تزعجني إزعاجًا مميتًا. لا بد لي أن أذهب إلى عين مائية للاستحمام.

وقال «نيكولاس»:

ـ عين مائية! إني جربت «هاروجيت» فوجدتها لا خير فيها. إن ما أحتاج إليه هو هواء البحر. وليس هناك شاطئ أفضل من شاطئ «يارماوث»، فإذا ذهبت إليه نمت حينذاك.

وقاطعه «سويذن» قائلًا في بطء:

ـ كبدي في حالة سيئة. وأشعر بألم مفزع هنا.

ووضع يده على جنبه الأيمن. وغمغم «جيمس» وعيناه عالقتان بقطعة الخزف:

ـ أنت بحاجة إلى تمرينات رياضية.

ثم أضاف على عجل:

ـ وأنا أشعر بألم هناك أيضًا.

واحمر وجه «سويذن» مشبهًا الديك الرومي حين يعود إلى هيئة وجهه العتيق. وقال:

ـ تمرينات رياضية! أنا أزاول الكثير منها، أنا لا أستعمل في النادي مصعده أبدًا.

وجاهر «جيمس» في سرعة:

ـ أنا لا أعرف ذلك، أنا لا أعرف شيئًا عن أي واحد من أفراد الأسرة. ليس هناك أحد ينبئني بأي شيء.

وحدق فيه «سويذن» محملقًا، وسأله:

ـ ماذا تصنع لعلاج ألم هنا؟

وأشرق وجه «جيمس». وبدأ يقول:

ـ أنا أتناول مزيجًا...

ـ كيف حالك يا عمي؟

ووقفت «جون» أمامه وارتفع وجهها الصغير المستبد من قامتها القصيرة إلى قامته الفارعة. وامتدت يدها.

وتبدد الإشراق من وجه «جيمس»، وقال وهو يتأملها:

ـ كيف حالك؟ سترحلين إذن إلى «ويلز» غدًا لزيارة عمات خاطبك الشاب؟ ستجدين أمطارًا غزيرة هناك، هذه ليست «ورسيستر» القديمة الحقيقية.

وربَّت على الخزف:

ـ إن «الطاقم» الذي أهديته لأمك يوم تزوجت أصيل غير مزيف.

وصافحت «جون» أعمامها الكبار الثلاثة واحدًا بعد واحد، ودارت إلى العمة «آن»، فغشيت وجه السيدة العجوز نظرة جمة العذوبة، وقبلت خد الفتاة في حرارة مرتعشة. وقالت:

ـ حسنًا، يا عزيزتي، ستتغيبين إذن مدة شهر كامل!

ومرت الفتاة التي اهتمت العمة «آن» بوجهها النحيل الصغير، وتابعتها عينا السيدة العجوز المستديرتان، الرماديتان في مثل لون الصلب، اللتان بدأت تحل فوقهما غشاوة كظل الطائر، تابعتها في لهفة بين الحشد المتعالي الضجيج، ذلك أن الناس بدأوا في توديع أصحاب الحفل. وشُغلت أطراف أصابعها ثانية ـ وبعضها يضغط على بعضها الآخر ـ شُغلت ثانية بتعبئة إرادتها لمواجهة رحيل فتاتها النهائي الذي لا مفر منه.

وخطر لها: «نعم. كان الجميع يحيطونها بقصارى لطفهم. وجاء أناس كثيرون للغاية لتهنئتها. ينبغي أن تكون سعيدة جدًا».

ووسط الحشد المزدحم إلى جانب الباب ـ حشد الحسني الملبس، المنحدرين من أسر المحامين والأطباء، ورجال سوق الأوراق المالية، وجميع أهل الحرف التي تجل عن الحصر ممن ينتمون إلى الطبقة فوق المتوسطة ـ وسط هذا الحشد لم يزد أفراد أسرة «فورسايت» على عشرين في المائة منه. بيد أن الجميع بدوا في عين العمة «آن» من أفراد أسرتها ـ ولا شك أنه لم يكن كبير فرق بين الفريقين ـ إنها لم تر إلا من هم من نفس لحمها ودمها. كانت هذه الأسرة دنياها. وهي لا تعرف غيرها. ولعلها لم تعرف أي أسرة غيرها قط في يوم من الأيام. كانت أسرار أقربائها الصغيرة، وأمراضهم، وارتباطهم بروابط الخطبة والزواج، وأحوالهم المعيشية، وهل هم يربحون المال. كان ذلك كله ملكها، ومصدر بهجتها، وحياتها. وليس وراء ذلك إلا إبهام، وظلال ضبابية من الوقائع، وأناس ليست لهم أهمية حقيقية. هذا هو ما كان عليها أن تقدمه عندما يحين دور وفاتها. وهذا هو ما خلع عليها تلك الأهمية، ذلك الاهتمام الخفي بالنفس، وهو ما لا يستطيع أحد منا احتمال الحياة بدونه. وهذا هو ما تعلقت به في لهفة ونهم يزداد يومًا بعد يوم. وإذا كانت الحياة تنفلت منها، فإن «هذا» هو الذي ستتمسك به إلى النهاية.

وفكرت في أبي «جون»، في «جوليون الصغير» الذي هرب مع الفتاة الأجنبية. آه! أي لطمة محزنة وجَّهها لأبيه ولهم جميعًا! مثل هذا الفتى الذي يُرجى منه الكثير! إنها لطمة محزنة، برغم أنه لم تحدث فضيحة علنية، لحسن الحظ السعيد، إذ لم تسع زوجه للطلاق! إنه لعهد بعيد! وعندما ماتت أم «جون»، بعد ذلك بثماني سنوات، تزوج «جوليون الصغير» بتلك المرأة، وأصبح لهما ولدان الآن، هذا ما سمعته. بيد أنه أضاع مع ذلك حقه في الحضور إلى هنا، وخدعها عن تحقيق كبريائها العائلية الكاملة، وحرمها سرورها الحق برؤيته وتقبيله، هو الذي كانت شديدة الفخر به! مثل هذا

الشاب الذي كان يُرجى منه الكثير! والتهبت الفكرة بمرارة الإهانة التي أصابت من قديم قلبها العجوز العنيد. وعلق بعينيها قليل من الدمع فجففته خفية بمنديل من أجود أصناف الشفوف.

وقال صوت صدر من خلفها:

ـ حسنًا، عمتي «آن»؟

ونظر «سومز فورسايت»، وهو مسطح الكتفين، نظيف الحلاقة، مسطح الخدين، مسطح الخصر، وكان هناك مع ذلك شيء مستدير خفي حول مظهره عمومًا، نظر خافض البصر منحرفه إلى العمة «آن» كأنما هو يحاول أن يرى من خلال جانب أنفه. وسألها:

ـ وما رأيك أنتِ في الخطبة؟

وحطت عينا العمة «آن» عليه في زهو. فهو أكبر أبناء إخوتها منذ رحيل «جوليون الصغير» عن عش أسرته. وهو المفضل لديها الآن، فقد عرفت فيه أمينًا وفيًا على «روح» الأسرة، لا مفر من أن يفلت قريبًا من نطاق عنايتها. وقالت له:

ـ إن الشاب حسن جدًّا. وهو فتى وسيم الشكل. ولكني أشك في أنه العاشق الملائم تمامًا للعزيزة «جون».

ولمس «سومز» طرف نجفة ذهبية مرقشة بدهان «اللاكيه». وقال وقد بل إصبعه خلسة، ومسحه في نتوء النجفة المعقد:

ـ إنها ستروِّضه. دهان «اللاكيه» هذا قديم أصيل. وأنت لا تستطيعين الحصول عليه في هذه الأيام. إنه يدر الربح لو بيع في حانوت «جويسون».

وكان يتحدث ملتذًّا بقوله، وكأنما أحس أنه يبهج عمته «آن» العجوز. وهو نادرًا ما كان يتمادى في الإفضاء بما يكنه على هذا النحو:

ـ ولا ضير في أن أبيعه أنا بنفسي، فإنك تستطيعين الحصول على ما تحددين من سعر لدهان «اللاكيه» القديم.

وقالت العمة «آن»:

ـ أنت بارع جدًّا في تصريف كل هذه الأمور. وكيف حال العزيزة «آيرين»؟

وماتت ابتسامة «سومز» على ثغره، وقال:

ـ حسنة جدًّا، هي تشكو الأرق. إنها تنام مدة أطول مما أنامها بكثير.

ثم نظر إلى زوجته التي كانت تحادث «بوزيني» وهما إلى جانب الباب.

وتنهدت العمة «آن»، وقالت:

ـ لعله لا ضير عليها إذا هي لم تهتم بـ«جون» كل هذا الاهتمام، فإن لـ«جون» العزيزة طبيعة شديدة الصراحة!

واحمر وجه «سومز». وانتقل الاحمرار في سرعة إلى خديه المسطحين، ثم بين عينيه، حيث تركز هناك، وظل طابعًا يدل على الخواطر المقلقة. وانفجر قائلًا:

ـ لست أدري أي شيء يروقها في هذا المذبذب الضئيل؟

ولكنه دار إذ لاحظ أنهما لم يعودا وحدهما، وبدأ يفحص النجفة من جديد. وسمع صوت أبيه يقول، وكان قريبًا منه:

ـ قالوا لي إن «جوليون» اشترى بيتًا آخر، لا بد أن لديه مالًا كثيرًا، لا بد أن له مالًا أكثر من القدر الذي يعرف ماذا يصنع به. يقولون إنه يقع في ميدان «مونبيلييه»، بالقرب من بيت «سومز»! إنهم لم ينبئوني بذلك قط، إن «آيرين» لا تنبئني بشيء مطلقًا.

وسمع صوت «سويذن» يقول:

ـ موقع عظيم. وهو لا يبعد عني أكثر من مسيرة دقيقتين. وأنا أصل في العربة من بيتي إلى النادي في ثماني دقائق.

وكانت مواقع البيوت التي يملكها أفراد أسرة «فورسايت» ذات أهمية حيوية بالنسبة لهم. ولم يكن ذلك غريبًا أيضًا ما دام روح نجاحهم كله كان مجسدًا في تلك البيوت.

كان أبوهم، وهو من سلالة مزارعين، قد جاء من «دورسيتشاير» فيما يقرب من أوائل القرن.

و«دوسيت فورسايت الأعلى» ـ إذ هكذا اعتاد أن يدعوه خلصاؤه ـ كان يحترف البناء بالحجر، ثم ارتقى إلى منصب «رئيس بنائين». وانتقل في أواخر أيامه إلى لندن حيث ظل يبني حتى مات، ودفن في «هايجيت». وخلف ما يربو على ثلاثين ألف جنيه تركة موزعة على أولاده العشرة وكان «جوليون الكبير» يشير إليه ـ فيما إذ أشار إليه أصلًا ـ فيقول عنه «رجل صعب، من النوع الغليظ لا يتحلى بقدر كافٍ من التهذيب». وشعر الجيل الثاني من أسرة «فورسايت» أن جدهم لا يشرفهم في حقيقة الأمر كثيرًا، والميزة الأرستقراطية الوحيدة التي وجدوها في سلوكه هي أنه اعتاد شرب نبيذ «ماديرا».

والعمة «هيستر»، وهي حجة فيما يتعلق بتاريخ الأسرة، وصفته على النحو التالي: «لست أذكر أنه اضطلع قط بعمل ما، في حين وجودي على الأقل. لقد كان... إرر... مالك بيوت يا عزيزتي. وكان شعره يقرب في اللون من شعر عمك «سويذن». وهو أقرب إلى أن يكون ربعة القوام. طويلًا؟ ليس... فارع الطول». (كان طوله يبلغ خمس أقدام وخمس بوصات، ووجهه مرقشًا). «إهابه غض. وأنا أذكر أنه اعتاد شرب نبيذ «ماديرا». ولكن اسألي عمتك «آن» كيف كان أبوها؟ إنه... إرر... اضطر أن يتخلص من الأرض الواقعة في «دورسيتشاير»، بالقرب من البحر».

وفي مرة من المرات ذهب «جيمس» ليرى بنفسه أي نوع من الأصقاع هذا الذي جاءوا منه. فوجد مزرعتين قديمتين، وأثر عربات نقل خدَّد الأرض الحمراء، واتجه منحدرًا إلى طاحون قائمة بقرب الشاطئ. وهناك كنيسة صغيرة شهباء، حائطها الخارجي سُند بدعائم. وكنيسة أخرى أصغر من الأولى، ولونها الرمادي أشد دكنة. والجدول الذي يدير الطاحون يقبل مزبدًا متكونًا مما يزيد على عشر سواقٍ، وكانت هناك خنازير تحوم حول مصبه. وخيم ضباب على المنظر الطبيعي. ويبدو أن أفراد أسرة «فورسايت» الأقدمين ظل يسرُّهم، مدة مئات السنين، أن يسيروا أيام الآحاد، أحدًا بعد

أحد، منحدرين من ذلك الجحر، خائضين بأقدامهم في الطين، متجهين بوجوههم صوب البحر.

وسواء أداعبت «جيمس» الآمال في عثوره على ميراث أو شيء ممتاز هناك، سواء أحدث ذلك أم لم يحدث، فقد عاد إلى المدينة بطريقة سقيمة، وراح هنا وهناك يبذل محاولة مثيرة للعواطف كيما يستخلص أحسن ما يمكن استخلاصه من مهمة سيئة.

وقد قال:

ـ ليس هناك شيء يمكن استخلاصه من ذلك المكان الريفي السائر على وتيرة واحدة، القديم قدم الجبال، إلا أقل من القليل.

وقدم المكان أشعرهم بالراحة. و«جوليون الكبير»، الذي تجيش في صدره أحيانًا نزاهة مندفعة، كان يشير إلى أجداده على أنهم: «من سراة الفلاحين، وأحسب أنهم من أصل صغير جدًّا». ولكنه كان يكرر مع ذلك كلمة «سراة الفلاحين» كأنما هي تزوده بالفراء.

وكان أفراد أسرة «فورسايت» هؤلاء قد وفقوا جميعًا توفيقًا كبيرًا في خدمتهم لأنفسهم إلى حد أصبح لكل منهم ما يدعى «مكانة أكيدة». كانوا يجنون الأرباح من مختلف الأشياء كافة، وإن كانوا لم يجنوها بعد ـ باستثناء «تيموثي» ـ من سندات دَين الحكومة، لأنهم لم يتهيبوا شيئًا في الحياة مثل استثمار أموالهم بتلك الفائدة التي تبلغ ٣ في المائة. وكانوا يجمعون الصور أيضًا، ويبذلون المعونات إلى الهيئات الخيرية من النوع الذي قد يعود بالنفع على المرضى من أفراد أسرتهم.

وقد ورثوا عن أبيهم البنَّاء موهبة فيما يتعلق بالآجر والمونة. ولعلهم كانوا في الأصل أعضاء في طائفة من الطوائف البدائية، ولكنهم أصبحوا الآن، وفقًا لمجريات الأمور الطبيعية، أعضاء في هيئة كنيسة إنجلترا، وجعلوا زوجاتهم وأولادهم يحضرون، مع نوع من المواظبة، إلى كنائس «متروبوليس» الأقرب إلى «المودا»، فالشك في مسيحيتهم يسبب لهم دون ريب، ألمًا ودهشة.

وكان بعضهم يتبرع بالمال لصندوق الفقراء بالكنيسة، وهكذا يعبر بأفضل الطرق العملية عن ميله إلى تعاليم المسيح.

وكانت منازلهم الواقعة على مسافات معينة حول الحديقة العمومية تقف حارسة كالديدبانات، خشية من أن يفلت قلب لندن النقي، ذلك القلب الذي تتركز فيه رغائبهم، يفلت من قبضاتهم، ويدعهم أدنى مرتبة في تقديرهم، هم ذاتهم، لأنفسهم.

كان «جوليون الكبير» يسكن في «ستانهوب بليس»، و«جيمس» وأسرته في «بارك لين»، و«سويذن» وسط البهاء المتفرد لأشجار البرتقال والدور الزرق في «هايد بارك مانسينز» ـ وهو لم يتزوج قط، ليس هو الذي يتزوج! ـ وأسرة «سومز» في عشها بحي «نايتسبريدج». وأسرة «روجر» في «برنسيزجارنز» (و«روجر» هو «الفورسايت» العجيب الذي أدرك ونفذ فكرة جعل أبنائه الأربعة يزاولون حرفة جديدة، فهو يقول «اجمع ملكيات المنازل، ليس شيء يضارع ذلك! أنا لم أصنع غير ذلك في حياتي»).

ثم تسكن أسرة «هيمان» ـ السيدة زوجة «هيمان» هي الأخت المتزوجة من بين الإخوة والأخوات «فورسايت» ـ تسكن فوق تل «كامبدين» في منزل عال شبيه الشكل بالزرافة، يبلغ طوله حدًّا يصيب رقبة من يتطلع إليه بالتيبس. وتسكن أسرة «نيكولاس» في «لادبروك جروف»، بمسكن فسيح، وكان شراؤه صفقة رابحة جدًّا. وأخيرًا، وليس آخرًا، يسكن «تيموثي» في شارع «بيزوتر» أي حيث تعيش «آن»، و«جولي»، و«هيستر»، في ظل حمايته.

ولكن «جيمس» كان طوال ذلك الوقت مستغرقًا في التأمل. وقد سأل الآن مضيفه وأخاه عن الثمن الذي دفعه لذلك البيت الواقع في ميدان «مونبلييه». وكان هو نفسه قد أمضى هذين العامين الأخيرين يرقب بنظره بيتًا يقع هناك، ولكن أي ثمن باهظ طلبوه!

وحكى «جوليون الكبير» تفاصيل الشراء.

ورد «جيمس»:

ـ اثنتان وعشرون سنة تنقضي في السعي؟ وهو نفس البيت الذي كنت أنا في إثره، إنك دفعت فيه ثمنًا باهظًا!

وقطب «جوليون الكبير».

وقال «جيمس» مسرعًا:

ـ ليست المسألة أني أريده، فهو لا يلائم مأربي لثمنه هذا. و«سومز» يعرف ذلك المنزل جيدًا ـ وهو يقول لك إن ثمنه باهظ ـ ورأيه يستحق الوقوف عليه.

وقال «جوليون الكبير»:

ـ أنا لا أهتم برأيه مثقال ذرة.

وغمغم «جيمس»:

ـ حسنًا. ولك أن تتبع طريقتك الخاصة، إنها فكرة طيبة. وداعًا! إننا سنركب العربة إلى «هيرلينجهام». وقد قالوا لي إن «جون» سترحل إلى «ويلز». وستجد نفسك وحيدًا غدًا فماذا ستصنع وأنت بمفردك؟ الأفضل أن تحضر إلينا وتتغدى معنا!

ورفض «جوليون الكبير» الدعوة. ونزل إلى باب الدار الرئيسي ليشيعهم إلى عربتهم، وغمز لهم بعينه وقد نسي الآن صفته، وجلست السيدة «جيمس»، ووجهها إلى ناحية الخيل، وهي عالية القامة جليلة الهيئة، ذات شعر أسمر محمر، وجلست «آيرين» إلى يسارها، وجلس الزوجان، الأب والابن، أمام زوجتيهما، وكأنهما يترقبان شيئًا، ولاحظهم «جوليون الكبير» والعربة تبتعد بهم تحت ضوء الشمس وهم يتأرجحون ويقفزون فوق زنبرك الحشايا، صامتين متمايلين مع كل رجة من عربتهم.

وقطعت السيدة «جيمس» الصمت في أثناء مسير العربة:

ـ أرأيت أبدًا مثل هذه المجموعة من الناس الشديدي الغرابة؟

وأومأ «سومز» وهو يرمقها من طرفَي جفنيه، ورأى «آيرين» تختلس إليه نظرة من نظراتها التي لا يسبر غورها. ومن المحتمل جدًّا أن كل فرع من

أفرع أسرة «فورسايت» أبدى هذه الملاحظة وهم يغادرون الاجتماع العائلي ببيت «جوليون الكبير».

وكان من بين آخر من انصرف من الضيوف، الأخ الرابع والأخ الخامس من الإخوة «فورسايت»، وهما «نيكولاس» و«روجر» اللذان سارا معًا مصوبين خطواتهما عبر «هايد بارك»، متجهين صوب محطة «بريد ستريت» لقطار الأنفاق. وكانا كأفراد أسرة «فورسايت» الآخرين الذين بلغوا سنًّا معينة، يقتنيان عربات خاصة، ولا يركبان «عربات الأجرة» ما داما يستطيعان تجنب ذلك بأية وسيلة كانت.

وكان اليوم مشرقًا، وأشجار «هايد بارك» في تمام حسنها المورق في منتصف يونيو. ولم يبدُ أن الأخوين لاحظا الظاهرة الطبيعية التي عاونت برغم ذلك على بث المرح في التريض والمحادثة.

وقال «روجر»:

ـ نعم، إنها امرأة جميلة زوجة «سومز» هذه. قيل لي إنهما ليسا على وفاق.

هذا الأخ كان مرفوع الجبين، وكان أنضر لونًا من أفراد أسرة «فورسايت» جميعًا. وقد أخذت عيناه ذواتا اللون الرمادي الخفيف تقيسان، أثناء مسيره، «واجهات» المنازل الواقعة على الشارع. وكان من آن لآخر يصوب نحوها مظلته ليقف، بحسب تعبيره، على مستويات ارتفاعاتها المختلفة.

وأجاب «نيكولاس»:

ـ إنها لا تملك مالًا.

وكان هو نفسه قد تزوج امرأة تملك قدرًا طيبًا من المال، وقد أتيح له من باب الشفقة أن ينتفع به انتفاعًا موفقًا، إذ كان ذلك في العصر الذهبي قبل أن يبرم عقد ملكية المرأة المتزوجة.

ـ ماذا كان أبوها؟

ـ كان اسمه «هيرون»، ويعمل مدرسًا على ما قيل لي.

وهز «روجر» رأسه، وقال:

ـ ليس من وراء ذلك مكسب.

ـ قيل إن جدها لأمها كان تاجر أسمنت.

وأشرق وجه «روجر»، وواصل «نيكولاس» قوله:

ـ ولكنه أفلس...

وصاح «روجر»:

ـ آه سيلقى «سومز» منها المتاعب... تذكَّر كلماتي... سيلقى المتاعب، إن لها نظرة غريبة.

ولعق «نيكولاس» شفتيه:

ـ إنها امرأة جميلة.

وأزاح جانبًا واحدًا ممن يطلبون تمهيد الطريق أمام المارة كان يعترض بصره.

وسأله «روجر» على الأثر:

ـ كيف فاز بها؟ لا بد أن ملابسها تكلفه مالًا كثيرًا!

وأجاب «نيكولاس»:

ـ قالت لي «آن» إنه صار نصف مخبول هيامًا بها، وقد رفضت الزواج به خمس مرات. و«جيمس» ثائر الأعصاب من جراء ذلك، وهذا واضح عليه.

وعاد «روجر» فقال:

ـ آه! إني أشفق على «جيمس»، فهو يلاقي المتاعب مع «دارتي».

وكانت رياضة المسير قد زادت لونه اللطيف اشتدادًا.

وظل يلوح بمظلته ويرفعها أكثر من عادته المألوفة إلى مستوى عينيه.

وكذلك اكتسب وجه «نيكولاس» هيئة ظريفة. وقال:

ـ إني أراها شديدة الشحوب، ولكن وجهها رائع!

ولم يحر «روجر» جوابًا. وقال في النهاية مستعملًا أسمى ما في قاموس أسرة «فورسايت» من عبارات المدح:

ـ إني أسميها ممتازة الشكل، «بوزيني» الشاب هذا لن يفعل شيئًا يعود عليه بالنفع. ويقولون في دار «بورتكي» إنه أحد أولئك الشبان الفنانين، ولديه فكرة عن تحسين فن المعمار الإنجليزي. وذلك لا يدر ربحًا! وإني أود سماع ما يقوله «تيموثي» في ذلك.

ودخلا المحطة:

ـ ستركب أي درجة؟ إني سأركب الدرجة الثانية.

وقال «نيكولاس»:

ـ الدرجة الثانية ليست لي. إنك لا تعرف أبدًا ما قد تصاب به هناك.

وحصل على تذكرة ركوب الدرجة الأولى إلى «نوتينج هل جيت». وحصل «روجر» على تذكرة للدرجة الثانية إلى «ساوث كنسينجتون». وعندما دخل القطار المحطة بعد ذلك بدقيقة افترق الأخوان، وركب كل منهما «الديوان» الخاص به. وشعر كل منهما بالكدر لأن أخاه الآخر لم يعدل عاداته حتى يكفل لصحبتهما مدة أطول قليلًا. وقال «روجر» لنفسه بحسب ما عبر عنه بخواطره:

ـ إن «نيك» عنيد سخيف دائمًا.

وهذا ما عبر عنه «نيكولاس» لنفسه:

ـ كان «روجر» دائمًا فتى شكسًا!

ولم يتصف أفراد أسرة «فورسايت» إلا بقدر قليل من رقة العاطفة. وأي وقت يتسع لهم ليصبحوا عاطفيين في مدينة لندن الكبيرة التي غزوها وانغمسوا فيها؟

الفصل الثاني

«جوليون الكبير» يذهب إلى الأوبرا

في الساعة الخامسة من اليوم التالي جلس «جوليون الكبير» وحده، وبين شفتيه «سيجار»، وعلى المائدة القائمة إلى جانبه قدح من الشاي. كان متعبًا، وغلبه النعاس قبل أن يتم تدخين سيجاره. وقد حطت ذبابة على شعره، وبدا صوت تنفسه ثقيلًا في السكون الناعس. وجعلت شفته العليا، تحت شاربه الأبيض، تردد الأنفاس في تصويب وتصعيد. وإذا سقط «سيجاره» من بين أصابع يده المعرقة المجعدة، وهوى إلى المدفأة الفارغة، احترق حتى رعته النار.

وكانت غرفة المكتب الصغيرة المظلمة، ذات النوافذ المصبوغة الزجاج بقصد حجب المنظر، مكتظة بالمخمل الأخضر الداكن، وخشب الماهوجني الزاخر بالنقوش، وهو أثاث اعتاد «جوليون الكبير» أن يقول عنه: «لا تعجب إذا بيع يومًا بثمن مرتفع».

كان يجد متعة حين يخطر له أنه سيستطيع في الحياة الآخرة أن يحصل على ثمن أكبر لقاء ما أعطى.

وفي الجو الفاخر القاتم الخاص بالغرف الخلفية في بيت من بيوت أسرة «فورسايت» أفسد شارب «جوليون» الأثر «الرمبرانتي» لصورة رأسه الكبير المجلل بالشعر الأبيض، المسند إلى وسادة تكسو ظهر كرسيه العالي، ذلك

الشارب الذي أكسب وجهه شيئًا من هيئة رجل عسكري. وكانت هناك ساعة قديمة ظلت معه منذ عهد ما قبل زواجه الذي مضى عليه خمسون عامًا، كانت تدق دون انقطاع مسجلة في حماسة حتى الثواني التي تتسرب دون عودة من حياة صاحبها الهرم.

وهو لم يهتم قط بهذه الغرفة، فالعام يمر بعد العام وهو لا يكاد يدخلها إلا ليأخذ سيجاراته من الخزانة اليابانية القائمة في الركن، والغرفة اليوم تأخذ بثأرها.

كان صدغاه المقوسان مثل سقفين من قش يعلوان ما تحتهما من تجويف، وعظام وجنتيه الناتئة، وذقنه، كانت قسماته هذه كلها قد ازدادت حدة في أثناء نومه. وحل فوق وجهه اعتراف بأنه رجل هرم.

واستيقظ. لقد رحلت «جون»! وكان «جيمس» قد قال له إنه سيصبح وحيدًا. إن «جيمس» ظل شيئًا تافهًا طوال عمره، وتذكر «جوليون» وهو يشعر بالرضا، أنه اشترى المنزل دون علم «جيمس» الذي نال جزاءه لتمسكه بالثمن. إن الشيء الوحيد الذي فكَّر فيه ذلك الرجل هو المال، ومع ذلك دفع هو ثمنًا أكبر مما ينبغي؟ كان الأمر يتطلب جهدًا كبيرًا، ولربما كان في حاجة إلى كل ما يملك من مال قبل الموافقة على مسألة «جون». لم يكن ينبغي له قط أن يسمح بتلك الخطبة. إنها قابلت «بوزيني» في مكتب «بينز، بينز وبيلديبوي» المهندسين المعماريين. وهو يعتقد أن «بينز» الذي يعرفه من قبل ـ والذي يشبه قليلًا المرأة العجوز ـ يعتقد أنه زوج أم ذلك الشاب، ومنذ ذلك الوقت لم تكف عن ملاحقته. فهي عندما تصر على شيء لا يوقفها شيء عنه. وقد كانت تُشغل دائمًا بنوع أو بآخر من المفلسين. إن هذا الفتى لا مال له، ولكنها أصرت على أن تُخطب له، هذا الفتى الطائش، غير العملي، الذي سيوقع نفسه في مشاكل لا نهاية لها.

وجاءت إلى جدها يومًا، وتحدثت إليه بطريقتها التهويشية، وأضافت، وكأنما فيما أضافته أي عزاء:

ـ إنه رائع حقًّا. وكثيرًا ما عاش على غذاء الكاكاو وحده مدة أسبوع!
ـ وهل يريد منكِ، أنتِ أيضًا، أن تعيشي على غذاء الكاكاو؟
ـ أوه، لا. إنه أخذ يجاري الحياة الآن.

وأخرج «جوليون الكبير» سيجاره من تحت شاربه الأبيض الملطخ الطرف بأثر القهوة، ونظر إليها، إلى تلك النتفة الصغيرة التي سيطرت على قلبه كل تلك السيطرة. وكان يعرف عن «مجاراة الحياة» أكثر مما تعرف حفيدته. ولكنها بعد أن ربتت بيديها على ركبتيه، حكَّت وجهه بذقنها، مرسلة صوتًا كهرير القط. وانفجر صائحًا في قنوط عصبي وقد نفض رماد سيجاره:

ـ إنكن جميعًا متشابهات، ولا يرضيكن إلا الحصول على ما تردن... إذا كان لا بد أن يصيبك الهم، فلا بد لك من ذلك؛ إني نفضت يدي من الأمر.

وعلى ذلك نفض يديه من الأمر، مشترطًا ألا يتم زواجهما قبل أن يكون لـ«بوزيني» دخل يبلغ أربعمائة جنيه في العام على الأقل.

وقال لها:

ـ لن أستطيع أن أعطيك شيئًا كثيرًا.

وهذه صيغة اعتادت «جون» سماعها.

ـ ولعل هذا الذي غاب عني اسمه يزودك بالكاكاو.

وهو لم يكد يتبين منها شيئًا منذ بدأ الأمر. صفقة خاسرة! إنه لا يفكر في إعطائها قدرًا كبيرًا من المال ليمكن شخصًا لا يعرف شيئًا عنه، من العيش عاطلًا. لقد خبر مثل هذا الأمر قبلًا، وليس ثمة خير يمكن أن ينجم عنه أبدًا. وأسوأ ما هناك أنه لم يكن له أمل في زعزعة إرادتها. فهي في مثل عناد البغل، وكانت كذلك دائمًا منذ طفولتها. إنه لم يكن يتبين النهاية التي سيؤول إليها الأمر. وعلى المرء أن يفصل ثوبه على قدر ما لديه من نسيج. إنه لن يستسلم حتى يرى «بوزيني» وقد أصبح له دخل خاص به. كان واضحًا وضوح الشمس أن «جون» ستكابد المتاعب مع ذلك الفتى،

فهو ليست لديه فكرة عن المال أكثر مما لدى البقرة. أما عن ذلك الاندفاع إلى «ويلز» لزيارة عمات الفتى، فقد توقع تمامًا أن تكون أولئك السيدات حاقدات كعجائز القطط.

وحملق «جوليون الكبير» دون حراك في الحائط، ولكنه لو لا تفتح عينيه لأمكن أن يكون نائمًا، وفكرة افتراضه أن «سومز»، الثعلب الصغير، يمكن أن يمده بنصيحة! كان دائمًا ثعلبًا صغيرًا بأنفه المرفوع في الهواء! وفي استطاعته بعد ذلك أن يقيم إقامة رجل صاحب مِلك، في منزل يملكه في الريف! رجل صاحب مِلك! همف! هو كأبيه يتشمم الصفقات دائمًا، إنه فتى وغد متمالك الأعصاب!

ونهض. وإذ اتجه إلى الخزانة بدأ يمون علبة سيجاراته بحزمة «طازجة» منها، ورصَّها في تنسيق. ولم تكن سيئة بالنسبة لثمنها، ولكنك لا تستطيع أن تحصل في الأيام الراهنة على سيجار جيد، فليس ثمة منه ما يضارع تلك السيجارات «الممتازة» من صنع محلات «هانسون وبريدجر». فتلك كانت سيجارات حقًّا!

وهذه الفكرة التي تسربت إليه تسرب العطر حملته إلى تلك الليالي الرائعة، ليالي مطعم «ريتشموند» إذ كان بعد تناول عشائه يجلس ليدخن في شرفة «التاج والصولجان» مع «نيكولاس تريفري» و«تراكير» و«جاك هيرينج» و«أنتوني ثورنورذي». كم كانت سيجاراته طيبة وقتئذ! مسكين «نيك» الصديق القديم، لقد مات، و«جاك هيرينج» مات، و«تراكير» مات بسبب زوجته تلك، و«ثورنورذي» أصبح مضعضعًا على نحو بشع (ولا عجب، وله تلك الشهية للأكل).

يبدو أنه هو وحده الذي بقي من بين رفاق تلك الأيام جميعًا، ما عدا «سويذن»، بالطبع، وهذا أصبح ضخم القامة على نحو شنيع حتى إنه لم يعد يصلح لمشاركته في أي أمر.

من الصعب أن يصدق أن ذلك مر عليه كل هذا الوقت الطويل؛ وهو

يشعر بأنه ما زال شابًا. وكان هذا الخاطر أشد مرارة من جميع الخواطر التي مرت بباله، وهو واقف هنا يعد سيجاراته. لقد ظل شابًا ناضر القلب برغم رأسه الأشيب ووحدته. وفي عصر أيام الآحاد تلك، عندما كان يقطن في «هامستيد هيث»، ويتمشى مع ابنه «جوليون الصغير»، لفترة من الزمن، في شارع «سبانيارد» قاصدين إلى «هايجيت»، أو إلى «تشايلدز هل»، ثم يعودان إلى «هيث» ثانية لتناول العشاء في «جاك ستروز كاسل»، كم كانت سيجاراته لذيذة وقتذاك! ومثل ذلك الطقس الجميل! لم يعد طقس جميل الآن.

وعندما كانت «جون» لا تزال تدلف وهي في الخامسة، اعتاد أن يصطحبها كل يوم أحد بعد أحد إلى حديقة الحيوان، مبتعدًا بها عن السيدتين الفاضلتين أمها وجدتها، وهناك كان يرفع مظلته إلى أعلى قفص الدببة العزيزة على الطفلة، واضعًا في طرفها كعكًا بمثابة طُعم لها. كم كانت سيجاراته لذيذة وقتذاك!

السيجارات! إنه لم يفلح حتى في الاحتفاظ بحاسة تذوقه، حاسة تذوقه الشهيرة التي اعتاد الناس في الخمسينيات أن يقسموا بها، وأن يقولوا في معرض حديثهم عنه: ««فورسايت»، أفضل متذوق في لندن». هذه الحاسة الذوقية التي مكنته ـ بمعنى من المعاني ـ أن يجمع ثروته، ثروة تاجري الشاي الشهيرين، «فورسايت» و«تريفري»، إذ كان لشايهما الذي لم يضارعه شاي تاجر آخر نكهة رومانسية، وسحر أصالة متفردة كل التفرد. وقد خيم حول بيت «فورسايت» و«تريفري» التجاري في المدينة جو من الممارسة العملية والسرية، من المعاملات الخاصة، بوساطة سفن خاصة، في موانئ خاصة، مع شرقيين من طراز خاص.

لقد عمل في هذا المشروع التجاري! إن الناس كانوا يعملون في تلك الأيام! وهؤلاء الكلاب الصغار لا يكادون يعرفون معنى كلمة «عمل». إنه ألمَّ بالتفاصيل جميعها، ووقف على كل ما يدور حوله، وسهر عليه طوال ليله أحيانًا. وكان يختار وكلاءه بنفسه دائمًا، ويتباهى بنفسه لذلك. واعتاد

أن يقول إن إدراكه لحقيقة الناس كان سر نجاحه، وممارسته لقدرته الفذة في الاختيار كانت جانب العمل الوحيد الذي مال إليه حقًّا. لم تكن هناك مهنة تستعصي على رجل في مثل براعته. وهو الآن يشعر بشجن حاد لدى التفكير في ذلك العهد، حتى بعد أن تحول بيته التجاري إلى شركة باسم «ليميتيد ليابيليتي»، وبعد أن تدهورت تلك الشركة (كان قد تخلى عنها وحصل على نصيبه منها منذ زمن طويل). وكم كان يمكن أن يضطلع بما هو خير من هذا؟ كان يمكن أن ينجح نجاحًا باهرًا في المحاماة! بل لقد فكر حتى في دخول مجلس النواب. وكم من مرة قال له «نيكولاس تريفري»: «إنك لقادر على القيام بأي عمل يا «جو» لولا تشبثك بهذه العناية الشديدة بنفسك!». يا لصديقي «نيك» العزيز! إنه لصديق طيب حقًّا، ولكنه كان فتى عربيدًا! «تريفري» السيئ السمعة! إنه لم يعتن بنفسه قط أي عناية، وقد مات. وعدَّ «جوليون الكبير» سيجاراته بيد ثابتة. وخطر له أن يتساءل ألا يكون قد عني بنفسه عناية أشد مما ينبغي.

ووضع علبة سيجاراته في صدر سترته وزررها. وصعد في درجات السلم الطويل إلى حجرة نومه، مائلًا على إحدى قدميه، ثم على الأخرى دواليك، مستعينًا بالدرابزين. كان البيت فسيحًا جدًّا، وهو سيتركه وينزل في فندق بعد أن تتزوج «جون»، هذا إذا تزوجت «جون» هذا الفتى أصلًا بحسب ما يظن، فما الفائدة من الاحتفاظ بنصف «دستة» من الخدم ينعمون بخفض العيش دون عمل؟

وجاء الخادم مستجيبًا لدق الجرس، وهو رجل ضخم ملتحٍ، خفيف الوطء، ذو قدرة غريبة على الصمت. وطلب إليه «جوليون الكبير» أن يخرج له كسوة الخروج، فهو سيخرج ليتعشى في النادي:

ـ منذ متى عادت العربة بعد الذهاب بـ«جون» إلى المحطة؟

ـ منذ الساعة الثانية.

ـ دعها تحضر إذن في السادسة والنصف.

والنادي الذي دخله «جوليون الكبير» عندما كانت الساعة تدق السابعة، هو إحدى تلك المؤسسات الخاصة بالطبقة فوق المتوسطة، والتي شهدت أيامًا أفضل من الأيام الراهنة. ونم ذلك النادي على حيوية مخيبة للأمل برغم تحدث الناس عنه، ولعل ذلك حدث نتيجة للتحدث عنه. لقد تعب الناس من تكرار قولهم إن نادي «دسيونيون» أصبح في آخر أيامه. وود «جوليون الكبير» لو يقول ذلك أيضًا، غير أنه تغاضى عن هذه الواقعة بطريقة مثيرة حقًّا لأعضاء النادي الصميمين.

وكثيرًا ما كان «سويذن» يسأله في غيظ شديد: «لماذا تظل تحتفظ بعضويتك في ذلك النادي؟ لماذا لا تنضم إلى نادي «بوليجلوت». إنك لا تستطيع أن تجد نبيذًا في سائر أندية لندن مثل نبيذنا «هايدسيك»، وتدفع ثمنًا للزجاجة منه يقل عن عشرين شلنًا». ثم يضيف خافضًا صوته: «لم يبق منه إلا خمسة آلاف زجاجة، وأنا أعاقره كل ليلة من ليالي حياتي».

وكان «جوليون الكبير» يجيب: «سأفكر في الأمر». ولكنه كان كلما فكر في الأمر اعترضته دائمًا مسألة «رسم الدخول» الذي يبلغ خمسين جنيهًا، ثم انتظار أربع سنوات أو خمس سنوات لقبوله عضوًا فيه. بيد أنه ظل يفكر في الأمر.

كان أكبر سنًّا من أن ينتمي لحزب الأحرار، وقد كف منذ عهد بعيد عن الإيمان بنظريات ناديه السياسية. بل لقد عُرف عنه حتى تلميحه إليها بأنها «نفاية حقيرة»، وقد سرَّه بقاؤه عضوًا برغم المبادئ المناقضة لمبادئه. وكان يشعر دائمًا باحتقار ذلك النادي إذ انضم إليه منذ سنوات عديدة عندما رفضوا قبوله عضوًا في نادي «هوتش بوتش» نظرًا لاشتغاله «بالتجارة»، وكأنه ليس ندًّا لأي واحد منهم! وازدرى بالطبع النادي الذي «قبله». إن أعضاءه كمية مهملة، وكثيرون منهم يعملون في المدينة سماسرة بسوق الأوراق المالية، ومحامين ودلالين، وأي شيء لم يحترفوه! ولم يكن «جوليون الكبير» يقدر كثيرًا الطبقة التي ينتمي إليها، شأنه في ذلك شأن أغلب من يتحلون بخلق

متين، وإن لم يتصفوا بقدر كبير من الأصالة. كان يتبع في أمانة عاداتهم الاجتماعية وغيرها، في حين كان يراهم في السر «كمية مبتذلة».

وكانت السنون والحكمة ـ وله نصيب في كل منهما ـ قد أطفأتا ذكرى هزيمته في نادي «هوتش بوتش»، ولكن ذلك النادي ظل في خاطره حتى الآن «ملك النوادي». وكان يمكن أن يقضي كل تلك السنين وهو نفسه عضو فيه، ولكن نظرًا إلى الطريقة القذرة التي اتبعها «جاك هيرينج»، مرشحه للعضوية، لم يدركوا ماذا كانوا يصنعون إذ حالوا دون قبوله. ولماذا! إنهم قبلوا ابنه «جو» في الحال، وهو يعتقد أن ابنه ما زال عضوًا هناك، فقد تسلم خطابًا منه، صادرًا من النادي منذ ثماني سنوات.

إنه لم يقترب من نادي «دسيونيون» منذ أشهر خلت. وقد زينوا المكان بزخارف منوعة كالتي يخلعها الناس على الدور العتيقة، والسفن القديمة عندما يتلهفون على بيعها.

وخطر له: «إن لون غرفة التدخين فج! ولون غرفة الطعام حسن».

لقد استحوذ على لبه لونها البني القاتم، المنمق بلون أخضر خفيف.

وأمر بإحضار عشائه. وجلس في نفس الركن، بل لعله جلس إلى نفس المائدة (فالأشياء لا تتقدم كثيرًا في نادي «دسيونيون» ذي المبادئ التي تكاد تكون راديكالية)، نفس المائدة التي اعتاد أن يجلس إليها «جوليون الكبير» منذ خمسة وعشرين عامًا، عندما كان أبوه يصطحبه إلى «دوري لين» في أثناء عطلته الدراسية.

وكان الغلام يحب المسرح. وتذكر «جوليون الكبير» كيف كان يجلس أمامه مُخفيًا انفعاله تحت ستار فتور حريص، لكنه شفاف.

وطلب لنفسه أيضًا نفس العشاء الذي كان الغلام يختاره دائمًا، حساء، ولحم طير، وضلع ضأن، وفطيرة محشوة بالفاكهة. آه! لو أنه كان فقط يجلس إزائي الآن!

كلاهما لم يتقابل مدة أربعة عشر عامًا. ولم تكن هذه أول مرة تساءل

فيها «جوليون الكبير» خلال هذه الأعوام الأربعة عشر هل هو قمين أن يُلام قليلًا فيما يتعلق بأمر ابنه. إن واقعة الحب التعسة التي جرت بين ابنه وتلك الفتاة النفيسة ذات الدلال، المدعوة «داناي ثورنورذي»، ابنة «أنتوني ثورنورذي»، وزوجة السيد «بيلوا» الآن، هي التي ألقت به على أعقابه بين ذراعي أم «جون». ولعله كان أحرى به أن يعرقل عجلة زواجهما، فقد كانا صغيري السن. بيد أنه كان شديد اللهفة على أن ينعقد زواج «جو» بعد التجربة التي مست إحساسه. ووقعت الطامة بعد أربع سنوات! وكان من المستحيل، طبعًا، أن يؤيد مسلك ابنه بشأن تلك الطامة. فالعقل والتهذيب ـ هذا المزيج من العاملين الفعالين اللذين يؤيدان مبادئه ـ أدليا إليه بتلك الاستحالة، ولكن قلبه صرخ معترضًا. إن تحجر الضمير البشع في مثل هذا الأمر لا يشفق على القلوب. وكانت هناك «جون» الصغيرة الحجم، الملتهبة الشعر، التي تعلقت بكل جزء منه، والتفت وتلوت حوله، حول قلبه الذي فُطر على أن يكون لعبة، وملاذًا حبيبًا للأشياء الصغيرة العاجزة. وقد رأى ببصيرته المتميزة أنه لا مفر من أن يفترق عن أحدهما؛ فليس هناك حل وسط يمكن أن ينفع في مثل هذا الموقف. وفي هذا تكمن فاجعته، وساد «الشيء» الصغير العاجز، إنه لن يجري مع الأرانب، ثم يصطادهم مع كلاب الصيد. وعلى ذلك ودَّع ابنه.

واستمر ذلك الوداع إلى الآن.

واقترح أن يواصل إمداد «جوليون الصغير» بمرتب مخفض، ولكن اقتراحه هذا قوبل بالرفض، ولعل ذلك الرفض جرح شعوره أكثر من أي شيء آخر، لأنه بدد آخر متنفس لعاطفته المحتبسة. وقام على قطيعتهما مثل ذلك الدليل الواضح المتين الذي لا يقيمه إلا نقل للملكية، وقبول مثل تلك الهبة أو رفضها.

وكان عشاؤه بلا طعم. وزجاجة «الشمبانيا» جافة المشرب مريرته، فهي ليست مثل «فوف كليكو»، «شمبانيا» الأيام السالفة.

وخطر له وهو يشرب فنجان القهوة أن يذهب إلى مسرح «الأوبرا»، ذلك أنه قرأ في جريدة «التايمز» ـ فهو لا يثق بالصحف الأخرى ـ إعلانًا عن برنامج المساء. كانت «الأوبرا» المعروضة هي «فيديليو».

ولم تكن ـ من باب الرحمة ـ إحدى التمثيليات الملفقة الحديثة، الصامتة الحركات، من تأليف الفتى الألماني «فاجنر».

وبعد أن وضع على رأسه قبعة «الأوبرا» القديمة التي بدت ـ وقد تفرطحت حافتها من الاستعمال، وعظم حجمها ـ بدت كرمز لأيام أعظم من الأيام الراهنة وبعد أن شد على يديه قفازًا من جلد رقيق أزرق اللون تفوح منه بقوة رائحة الجلد الروسي بسبب مجاورته المستمرة لعلبة السيجار في جيب المعطف. بعد ذلك سار الرجل فركب عربة بعجلتين.

وقعقعت العربة في مرح على طول الطريق، وصُدم «جوليون الكبير» بنشاطها غير المرغوب فيه.

وقال لنفسه: «لا بد أن تكون هذه الفنادق مربحة للغاية». فمنذ سنوات قليلة لم يكن هناك شيء من هذه الفنادق الكبيرة. واستغرق في تأمل مرض عن عقارات يملكها في أماكن مجاورة، لا بد أن سعرها يرتفع وثبًا وقفزًا! يا لها من تجارة!

ولكنه بدأ من ثم يستغرق في تأمل من تلك التأملات الغريبة، غير الشخصية التي ليست بحال من خصائص أسرة «فورسايت» والتي تنطوي جزئيًّا على سر سموه على أفرادها. كم الرجال صغار؟ وكم هم كثيرون! وماذا سيكون مصيرهم جميعًا؟

وزلت قدمه وهو ينزل من العربة، وأعطى الرجل أجرة ركوبه بالضبط، وسار إلى شباك التذاكر كي يحجز لنفسه مقعدًا، ووقف هناك ومحفظة نقوده في يده، فهو يحمل نقوده دائمًا في محفظة، ولا يوافق أبدًا على حملها مهملة في جيوبه كما يفعل كثيرون جدًّا من شباب هذه الأيام، وأحنى الموظف رأسه خارج الشباك كما يخرج الكلب العجوز رأسه من وجاره، وقال بصوت ينم على الدهشة:

ـ ماذا! إنه السيد «جوليون فورسايت». نعم إنه هو! لم نرك يا سيدي منذ سنين! عجبًا! الزمن لم يعد كما كان. ماذا! إنك اعتدت أنت وأخوك، وذلك «الدلال» ـ السيد «تراكير»، والسيد «نيكولاس تريفري» ـ اعتدتم حجز ستة مقاعد أو سبعة مقاعد بانتظام هنا في كل موسم. كيف حالك يا سيدي؟ إننا لا نصغر سنًّا!

وازداد لون عيني «جوليون الكبير» دكنة. ودفع جنيهه. إنهم لم ينسوه، ودخل قاعة «الأوبرا» في أثناء عزف الافتتاحية الموسيقية كما يخوض الحصان العجوز المعركة.

وجلس طاويًا قبعته، قبعة الأوبرا، ونزع قفازه الأزرق الزاهي على الطريقة القديمة. ورفع منظاره إلى عينيه، وأدار نظرة طويلة حول المكان. ثم ركز بصره على ستار المسرح بعد خفض المنظار أخيرًا ووضعه فوق قبعته المطوية. وأحس إحساسًا أوجع من أي إحساس مضى، وهو أن كل شيء قد انتهى، وقُضي الأمر بالنسبة له. أين هن جمع النساء، جمع الحسناوات اللواتي اعتاد المكان أن يكتظ بهن؟ أين ما كان يغزو قلبه من إحساس قديم وهو ينتظر مغنية من أولئك المغنيات العظيمات؟ أين ذلك الشعور بنشوة الحياة، وبقدرته الخاصة على التمتع بها كلها؟

كان أعظم رواد «الأوبرا» في عصره! وليست ثمة أوبرا الآن! إن ذلك الفتى «فاجنر» دمر كل شيء. لم يبق لحن مطرب، ولم تبق أصوات تغنيه. آه! المغنون الشائقون! لقد ذهبوا! وجلس يرقب تمثيل المشاهد القديمة وفي قلبه شعور بالخدر.

ولم يكن بجسم «جوليون الكبير» ثقل أو ضعف من خصلة شعره الذهبية فوق أذنه إلى ركزة قدمه في حذائه المفتوح المرن الجوانب.

فقامته منتصبة ـ أو تكاد ـ كعادته في تلك الأيام القديمة التي كان يحضر إلى هنا فيها كل ليلة. وبصره سليم كما كان ـ أو يكاد ـ ولكن أي شعور بالملل وخيبة الأمل!

لقد اعتاد طوال حياته أن يستمتع بالأشياء، حتى الأشياء التي يشوبها نقص ـ وكم كانت هناك أشياء يشوبها النقص ـ استمتع بها جميعًا في اعتدال حتى يظل محتفظًا بشبابه. ولكن قدرته على الاستمتاع، وفلسفته، تخلتا عنه الآن، وتركتاه مع شعوره المفزع بأن كل شيء قد انتهى، بل حتى لحن «بريزنرز كوروس» وأغنية «فلوريان» لم تعد لهما قدرة على تبديد كآبة وحدته.

آه لو أن «جو» كان معه فحسب! لا بد أن الفتى بلغ الآن الأربعين. إنه بدد أربعة عشر عامًا من عمره خارجًا عن نطاق حياة ابنه الوحيد. و«جو» لم يعد كما كان طريد المجتمع، فقد تزوج. ولم يكن «جوليون الكبير» يستطيع أن يكف عن إبداء تقديره لما أقدم عليه من إرسال شيك بمبلغ خمسمائة جنيه إلى ابنه. وقد أعيد الشيك إليه في خطاب أُرسل من نادي «هوتش بوتش»، وتضمن العبارات التالية:

أبي العزيز:

إن منحتك الكريمة وإن كانت تلقى الترحاب بحسبانها علامة على ظنك أن حالتي بلغت غاية السوء، فإني أعيدها. بيد أنك إذا وجدت من المناسب أن تمنحها لفتانا الصغير الذي يتسمى باسمنا (لقد دعوناه «جولي») ويلقب بلقبنا، من قبيل المجاملة، فإن ذلك يسعدني جدًّا.

أتمنى من صميم قلبي أن تكون صحتك جيدة كما هي أبدًا.

ابنك الذي يحبك،

«جو»

إن الخطاب شبيه بالفتى الذي كان لطيفًا على الدوام. وقد أرسل «جوليون الكبير» هذا الرد إليه:

عزيزي «جو»،

إن المبلغ (خمسمائة جنيه) قيد في دفاتري لحساب ابنك، باسم «جوليون فورسايت» وستضاف إليه في الوقت المناسب فائدة سنوية قدرها خمسة في المائة. وأرجو أن تكون موفقًا. لا تزال

صحتي جيدة في الوقت الحاضر.

وأنا، مع ما أكن من حب، أبوك الذي يودك...

«جوليون فورسايت»

واعتاد في اليوم الأول من يناير، كل عام أن يضيف مائة جنيه والفائدة. وتزايد المبلغ، وفي أول أيام العام الجديد سيبلغ ألفًا وخمسمائة جنيه مع الجنيهات المضافة إليه. وليس من اليسير أن نصف مبلغ ما شعر به من رضا عن هذا الإيداع السنوي للمال. ولكن المراسلة انقطعت بينهما.

وبرغم حبه لابنه، وبرغم غريزة بعضها طبيعي، وبعضها متولد من الممارسة الدائمة للأعمال، ومن مراقبتها ـ كما هي حال آلاف الرجال من طبقته ـ وهي غريزة تدفعه إلى أن يكون حكمه على السلوك أحرى أن ينبني على النتائج من أن ينبني على مبدأ، برغم ذلك كان هناك نوع من القلق يكمن في أعماق قلبه، ينبغي لابنه، نظرًا إلى هذه الظروف، أن يحل به الدمار. إن هذه السنة شرعت في جميع القصص والعظات والمسرحيات التي قرأها في حياته أو سمع عنها أو شاهدها.

ومنذ أن أعيد له الشيك خُيل إليه أن شيئًا ما، في تصرف ما، غير سليم. لماذا لم يحل بابنه الدمار؟ ولكن إذا تم هذا، فمن ذا يتنبأ بما كان يحدث؟

وقد سمع بالطبع ـ الواقع أنه جعل مهمته أن يكشف الأمر ـ سمع أن «جو» يعيش في حي «سانت جونز وُد»، وأن له منزلًا صغيرًا ذا حديقة يقع في شارع «ويستاريا»، وأنه يصطحب امرأته في تردده على المجتمع الذي يعاشره ـ ولا شك أنه مجتمع من نوع غريب ـ وأن لهما طفلين، وأنهما أطلقا على الطفل الصغير اسم «جولي» (ونظرًا إلى الظروف كان لهذا الاسم وقع ساخر في نفس «جوليون الكبير»، وهو يخشى السخرية ويبغضها في نفس الوقت). والطفلة الصغيرة تدعى «هولي»، وقد ولدت عقب الزواج مباشرة.

ومن يدري ما هي ظروف ابنه الحقيقية؟ لقد حول الدخل الذي ورثه

عن جده لأمه إلى رأس مال، والتحق في بنك «لويد» بوظيفة محرر وثائق الضمان. وهو يرسم صورًا زيتية وصورًا مائية أيضًا. و«جوليون الكبير» يعلم ذلك لأنه كان يشتري بعضها خلسة من وقت لآخر بعد أن تصادف ورأى مرة توقيع ابنه في أسفل صورة لنهر «التايمز» معروضة في نافذة متجر. وكان يرى لوحات ابنه سيئة، ولم يعلقها بسبب توقيع ابنه عليها. واحتفظ بها في درج مغلق.

واستولى عليه، وهو في دار الأوبرا الفسيحة، حنين رهيب إلى رؤية ابنه. وتذكر الأيام التي اعتاد فيها أن يدحرجه، رفعًا وخفضًا، تحت قوس ساقيه، وهو في سترة هولاندية داكنة. وتذكر الأوقات التي كان يجري فيها إلى جانب مهر الصبي، ويعلمه كيف يمتطيه، وتذكر يوم اصطحابه إلى المدرسة لأول مرة. كان فتى صغيرًا ودودًا محبوبًا! ولعله اكتسب، بعد ذهابه إلى جامعة إيتون، قدرًا كبيرًا من ذلك الخلق المرغوب فيه، الذي يعرف «جوليون» أنه لا يُنال إلا في مثل تلك الأمكنة، وبنفقات باهظة؛ ولكن الفتى ظل دائمًا دمث العشرة. وظل رقيقًا حتى بعد التحاقه بـ«كمبريدج»، ولعله بالغ قليلًا نظرًا إلى ما أفاد من مزايا. ولم يتزعزع شعور «جوليون الكبير» قط حيال مدارسنا العامة وجامعاتنا، واحتفظ على نحو مؤثر بموقف الإعجاب والريبة حيال نظام دراسي لائق بأسمى أهل البلاد قدرًا، ولم يتمتع هو نفسه بميزة الاشتراك فيه، والآن وقد ذهبت «جون» وتركته، أو هي في حكم من تركته، فإن رؤية ابنه ثانية تكون سلوى له. وحدق «جوليون الكبير» في المغني شاعرًا بذنب هذه الخيانة لأسرته، ولمبادئه وطبقته. إنه لشيء تافه... شيء تعس تافه! وأوبرا «فلوريان» كانت سقيمة حقًّا!

وانتهى العرض. ومن السهل إرضاء الناس في هذه الأيام!

وفي الشارع المزدحم اختطف عربة من تحت أنف رجل بدين، يصغره في السن كثيرًا، وقد افترض هذا الرجل فعلًا أن العربة له. وكان طريق «جوليون الكبير» يمر بـ«بول مول»، وبدلًا من أن يخترق سائق العربة

«جرين بارك»، عند زاوية الطريق، دار متجهًا إلى شارع «سانت جيمس» وفطن «جوليون الكبير» إلى الشرك المنصوب (وهو لم يكن يحتمل قط أن ينحرف به أحد عن طريقه). وعندما دارت العربة وجد مع ذلك نفسه تجاه نادي «هوتش بوتش»، فتغلب عليه الحنين الذي لازمه سرًّا طوال ذلك المساء. وطلب إلى سائق العربة أن يتوقف. وأراد أن يدخل ويسأل ألا يزال «جو» عضوًا هناك.

ودخل. وبدت له القاعة كما كانت تبدو تمامًا أيام أن اعتاد تناول العشاء هناك مع «جاك هيرينج»، وكان بالمحل أبرع طاهٍ في لندن. وتلفت ملقيًا تلك النظرة الثاقبة المستوية التي أتاحت له أن يعامل معاملة أفضل مما يحظى به أكثر الناس.

ـ ألا يزال السيد «جوليون فورسايت» عضوًا هنا؟

ـ نعم يا سيدي. وهو في النادي الآن. ما الاسم؟

وحار «جوليون الكبير». وقال:

ـ أبوه.

وارتد إذ قال ذلك، متخذًا وقفته إلى جانب المدفأة.

ووضع «جوليون الصغير» قبعته على رأسه وهو يهم بمغادرة النادي.

وكان يجتاز القاعة عندما قابله الحاجب. إنه لم يعد شابًّا وهو في شعره الذي أخذ يشهب، ووجهه ـ الذي يكاد يكون صورة مطابقة لوجه أبيه لكنه أنحل، مع نفس شاربه العريض المتدلي ـ مجهد تمامًا. كان هذا اللقاء رهيبًا بعد كل هذه السنين، فليس هناك شيء في الوجود أشد هولًا من مشهد العتاب، تقابلا، وتشابكت يداهما دون أن يتبادلا كلمة. ثم قال الأب وفي صوته رجفة:

ـ كيف حالك يا بني؟

وأجاب الابن:

ـ كيف حالك يا أبي؟

وارتجفت يد «جوليون الكبير» وهي في قفازها الأزرق الزاهي، وقال:
ـ إذا كنت ستسلك طريقي ففي وسعي أن أوصلك بعربتي.
وخرجا وكأنما عادتهما أن يرافق كل منهما الآخر إلى بيته، وركبا العربة.
وبدا لـ«جوليون الكبير» أن ابنه قد كبر، وكان تعليقه على ذلك «إنه أصبح على العموم أكثر من رجل». لقد انسدل فوق اللطف الطبيعي المنطبع على وجه ابنه قناع أحرى أن يكون تهكميًّا، وكأنه وجد في ظروف حياته ما اضطره إلى التحصن بدرع. وكانت قسماته هي قطعًا قسمات أسرة «فورسايت»، بيد أن تعبير وجهه كان أقرب إلى هيئة التأمل الخاصة بطالب علم أو بفيلسوف. ولا شك أنه اضطر إلى امتحان نفسه مليًّا خلال هذه الأعوام الخمسة عشر.
وكانت النظرة الأولى التي نظرها «جوليون الصغير» لأبيه صدمة له دون ريب، فقد بدا منهوك القوى، كبير السن إلى حد كبير. بيد أنه لا يكاد يبدو متغيرًا في العربة، محتفظًا إلى الآن بالنظرة الهادئة التي يتذكرها ابنه جيدًا، وباعتدال عوده ونفاذ نظرته.
ـ أنت تبدو في حال جيدة يا أبي.
وأجاب «جوليون الكبير»:
ـ بين بين.
وكان فريسة لانزعاج وجد نفسه مضطرًّا إلى التعبير عنه. فقد أحس بعد استعادة ابنه على هذا النحو ألا بد له من الوقوف على حالته المالية فقال:
ـ يا «جو»، أود أن أعرف نوع الحال التي أنت عليها. أحسب أنك مدين؟
ووضع عبارته في هذه الصيغة حتى يمكن لابنه أن يجد الاعتراف أسهل عليه.
وأجاب «جوليون الصغير» بلهجته الساخرة:
ـ لا! أنا لست مدينًا!
ورأى «جوليون الكبير» أن ابنه غضب، ولمس يده. لقد جازف بقوله،

وكان الأمر مع ذلك يستحق المجازفة. ولم يعتد «جو» أن يعبس له قط. وسارت بهما العربة إلى «ستانهوب جيت» دون أن يعاودا الحديث. ودعاه «جوليون الكبير» إلى الدخول. ولكن «جوليون الصغير» هز رأسه رافضًا الدعوة. وقال الأب على عجل:

ـ «جون» ليست هنا، رحلت اليوم في زيارة، أحسبك تعرف أنها خطبت.

وغمغم «جوليون الصغير»:

ـ بهذه السرعة؟

ونزل «جوليون الصغير» من العربة، وإذ دفع للسائق أجرتها أعطاه، لأول مرة في حياته، جنيهًا بدلًا من «شلن».

وإذ وضع السائق قطعة النقود في فمه، ضرب حصانه، من أسفل خفية، وانصرف مسرعًا.

وأدار «جوليون الكبير» المفتاح في القفل بهدوء، ودفع الباب، وأومأ.

ورآه ابنه وهو يعلق سترته في وقار، وعلى وجهه تعبير كتعبير غلام ينوي سرقة كراز.

كان باب غرفة الطعام مفتوحًا، والغاز آخذًا في الهبوط، ومصباح كحولي يئز فوق صينية شاي، وقطة منكرة الهيئة تنام بالقرب منه على مائدة الطعام. وطردها «جوليون الكبير» إلى الخارج في الحال، ووجد في الحادث متنفسًا لمشاعره، وخشخش قبعة الأوبرا وراء الحيوان. وقال وهو يتبعها إلى خارج الغرفة:

ـ إن بها براغيث.

ونادى من خلال باب الغرفة المؤدي إلى أسفل البيت:

ـ بس.. بس.

وكرر ذلك النداء عدة مرات كأنما هو يساعد على رحيل القطة، وظل كذلك حتى ظهر الخادم في الدور الأسفل بمحض مصادفة غريبة.

وقال «جوليون الكبير»:

ـ يمكنك أن تأوي إلى فراشك يا «بارفيت» فإني سأغلق الباب، وأطفئ النور.

وعندما عاد إلى غرفة الطعام كانت القطة، لسوء الحظ، قد سبقته إليها، معلنة بذيلها المرفوع في الهواء أنها قامت بهذه المناورة لتمنع صعود الخادم من البداية.

إن شؤمًا ظل يترصد الخطط العائلية لـ«جوليون الكبير» طوال حياته.

ولم يتمالك «جوليون الصغير» نفسه من الابتسام، فهو شديد البراعة في التهكم، وكل شيء بدا له الليلة مثيرًا للسخرية. ففصل القطة؛ وإعلان خطبة ابنته هو نفسه، إنه لم يملك إذن نصيبًا أو قطعة فيها إلا بقدر ما يملك في القطة! وأعجبه ما في ذلك من عدالة شاعرية. وسأل:

ـ ما شكل «جون» الآن؟

وأجابه «جوليون الكبير»:

ـ إنها شيء صغير الحجم. ويقولون إنها تشبهني، ولكن هذا هو موضع خبلهم. إنها أشبه بأمك، فلها نفس عينيها وشعرها.

ـ آه! وهل هي جميلة؟

وكان «جوليون الكبير» قد تأصلت فيه خصائص أسرة «فورسايت» إلى الحد الكبير الذي يمنعه من كيل المديح جزافًا لأي شيء، لا سيما الأشياء التي يعجب بها إعجابًا حقيقيًّا.

ـ ليست بقبيحة الشكل، ذقنها هو الذقن التقليدي لأسرة «فورسايت»، سيكون المكان موحشًا هنا يا «جو» بعد رحيلها.

وأحدثت هيئة وجهه في نفس «جوليون الصغير» مثل الصدمة التي شعر بها عندما رأى أباه أول الأمر.

ـ وماذا ستفعل بنفسك يا أبي؟ أظنها منصرفة إليه بكليتها؟

وكرر «جوليون الكبير» قول ابنه وقد شابت صوته شائبة غضب:

ـ ماذا أفعل بنفسي؟ سيكون بقائي هنا وحيدًا تصرفًا تعسًا. ولست أدري على أي نحو ستكون النهاية. إني أود أن...

وراجع نفسه، وأضاف:

ـ المسألة هي ما الذي يحسن أن أفعله بالمنزل؟

ودار «جوليون الصغير» ببصره في الغرفة. وكانت على الأخص فسيحة موحشة، مزينة بالصور الضخمة، الراكدة الحياة، التي علقت بذاكرته منذ كان طفلًا ـ صور كلاب نائمة، أنوفها مستقرة على حزم من جزر، وكذلك على بصل وعنب متجاورين في دهشة هادئة ـ كان البيت كارثة، ولكنه لم يستطع تصور أبيه وهو يقيم في بيت أصغر. وفوق ذلك كله بدا له كل شيء مثيرًا للسخرية.

جلس «جوليون الكبير» في مقعده الكبير المشتمل على سند للكتب، وهو برأسه المجلل بالبياض، وجبينه الشبيه بالقبة، الرئيس الشكلي لأسرته وطبقته وعقيدته، والممثل للاعتدال والنظام وحب التملك. وهو أشد رجل من رجال لندن المسنين عزلة.

وجلس هناك في كنف الدعة الموحشة في غرفته، وهو الألعوبة في يد قوى كبرى لا تهتم فتيلًا بالأسرة والطبقة والعقيدة، ولكن هذه الألعوبة تتحرك كالآلة في مجريات مخوفة إلى نهايات مبهمة. هذا هو ما انطبع في ذهن «جوليون الصغير» الذي ينظر بعين غير متحيزة.

أبي المسكين الهرم! هذه إذن هي النهاية، هي الغرض الذي جعله يعيش مستمسكًا بذلك الاعتدال الرائع! مستمسكًا به ليصبح وحيدًا، وليزداد كبرًا على التوالي، متلهفًا على مخلوق يتحدث إليه!

ونظر «جوليون الكبير» بدوره إلى ابنه، وأراد أن يتحدث عن أشياء كثيرة لم يستطع التحدث عنها طوال تلك السنين. فقد استحال عليه أن يحادث «جون» حديثًا خاصًّا جديًّا عن تأكده من أن قيمة الأملاك سترتفع في حي «سوهو» (حي المال)، وعن قلقه من جراء الصمت المطبق الذي يلتزمه «ببين»، مراقب شركة «نيو كولياري»، تلك الشركة التي ظل رئيسًا لها مدة طويلة، وعن ضيقه بالنزول المتواصل لسعر أسهم «أميركان جولجوثاس»، وعن المناقشة حتى في كيفية إمكان تجنبه ـ بشكل من أشكال التسوية ـ دفع

ضرائب التركات التي ستعقب وفاته. ومع ذلك أخذ يتحدث أخيرًا، تحت تأثير قدح من الشاي بدا كأنه سيظل يقلبه إلى ما لا نهاية. وهكذا تفتَّح أمامه مشهد جديد من الحياة، تفتحت الأرض الموعودة للكلام حيث يستطيع أن يجد مرفأ يلوذ به من موجات التوجس والندم. وحيث يستطيع أن يهدئ روحه بمخدر النظر في تقسيم أملاكه، وكيفية تجميدها، وجعل ذلك الجانب الوحيد منه، الجانب الوحيد الذي سيظل على قيد الحياة بعده، باقيًا إلى الأبد.

وكان «جوليون الصغير» يحسن الإنصات، وهذه الصفة خير صفاته. وظل يحدق بعينيه في وجه أبيه، ويوجه سؤالًا بين الحين والحين.

ودقت الساعة الواحدة قبل أن يتم «جوليون الكبير» حديثه. وما تعالى صوت دقتها حتى ارتدت إليه مبادئه. أخرج ساعته، وقال في هيئة تدل على الدهشة:

ـ لا بد أن آوي إلى فراشي يا «جو».

ونهض «جوليون الصغير»، ومد يده ليعين أباه على النهوض. وبدا الوجه العجوز منهكًا غائرًا من جديد. وواظبت عيناه على تجنب ابنه:

ـ وداعًا يا بني. اعتنِ بنفسك.

ومرت هنيهة، ثم خرج «جوليون الصغير» من الباب ناكصًا على أعقابه. ولم يكد يستطيع الرؤية. وارتعشت ابتسامته. وهو لم يجد الحياة قط معقدة على هذا النحو الفريد طوال الأعوام الأربعة عشر التي بدأ يرى فيها أن الحياة ليست بالمهمة الهينة.

الفصل الثالث

العشاء في منزل «سويذن»

في غرفة طعام «سويذن»، ذات اللونين البرتقالي والأزرق الزاهي، أُعدت المائدة لعشاء اثني عشر مدعوًّا.

وكانت هناك نجفة مملوءة بالشموع، مدلاة من أعلى منتصف الغرفة كمارد من راسب كلسي، مشعة فوق مرايا كبيرة ذات أطر مذهبة، وفوق ألواح المرمر التي تكسو المناضد الجانبية، وفوق الكراسي الذهبية الضخمة ذات المقاعد المطرزة. وكان كل شيء يدل على أن حب الجمال عميق الجذور في كل أسرة شقت سبيلها إلى المجتمع الراقي بطريقتها الخاصة، خارجة من أشد أعماق الطبيعة ابتذالًا. وكان «سويذن» يضيق فعلًا بالبساطة، ويحب النحاس المذهب، وقد طبعه هذا الحب دائمًا بين رفاقه، بطابع الرجل العظيم، وإن كان ذوقه أميل إلى الترف، وكان يستمد من علمه بأن كل من يتاح له دخول بيته يدرك أنه رجل واسع الثراء، كان يستمد من ذلك سعادة ثابتة متواصلة، ولعل أي ظرف آخر من ظروف حياته لم يتح له مثلها.

ومنذ اعتزاله العمل في «سمسرة» البيوت ـ وهي مهنة يرثى لها في نظره، لا سيما قسمها الخاص «بالدلالة» ـ ترك نفسه تنغمس في الذوق الأرستقراطي الأصيل.

إن الترف الكامل الخاص بأيامه الأخيرة طمره كما تطمر الذبابة في

السكر. وكان عقله الذي لم يشغله إلا القليل منذ الصباح إلى المساء ملتقى لعاطفتين متناقضتين تناقضًا عجيبًا، إحداهما رضا مستمر شديد عن تمكنه من شق طريقه وجمع ثروته بنفسه، والأخرى شعوره بأنه لم يكن قمينًا قط أن يسمح لرجل في مثل جاهه بأن يلوث ذهنه بالعمل.

ووقف عند المائدة الجانبية مرتديًا صدارًا أبيض اللون، ذا أزرار ذهبية، وأزرار من عقيق، ووقف يرقب خادمه وهو يدير أعناق ثلاث زجاجات من «الشمبانيا» غائصة في أعماق دلاء الثلج. وظل لحم أسفل ذقنه الشاحب دون حراك بين أطراف ياقته المنتصبة التي لم يكن ليستبدلها أيًّا كان السبب ـ برغم أن التحرك كان يؤلمه ـ وتنقلت عيناه من زجاجة إلى زجاجة. وأخذ يناقش نفسه، ويحاجها على هذا النحو. «جوليون» يشرب كأسًا واحدة، ولعله يشرب كأسين، فهو شديد العناية بنفسه. أما «جيمس» فلا يستطيع شرب نبيذه في هذه الأيام. إنه لن يعجب إذا جرع «نيكولاس» و«فاني» وهو نفسه الماء! و«سومز» لا يدخل في الحساب، يا لأولاد إخوته الصغار. إن «سومز» في الثامنة والثلاثين، ويعجز عن شرب الخمر! ولكن «بوزيني»؟

وتوقف «سويذن» عن التأمل إذ صادف خاطره اسم ذلك الشيء الغريب الخارج عن نطاق فلسفته. وقام في نفسه الشك! من المستحيل أن يحزر!، و«جون» ليست إلا فتاة صغيرة، وغارقة في الحب أيضًا! و«إميلي» (زوجة «جيمس») تميل إلى كأس من «الشمبانيا». بيد أن الخمر شديدة الجفاف بالنسبة لـ«جولي»، يا لها من مسكينة، لقد بلي حلقها. أما «هاتي تشيسمان»! والخاطر الذي خطر له عن صديقته القديمة هذه أحدث سحابة من الأفكار غامت على بريق عينيه الصافي، وهو لن يعجب إذا هي شربت نصف زجاجة!

ولكنه لدى التفكير في زائرته الباقية تسرب إلى وجهه العجوز تعبير جعله أشبه بقط يوشك أن يهر، السيدة «سومز»! إنها قد لا تشرب كثيرًا، ولكنها

ستقدر ما تشرب، ومن الممتع للمرء أن يقدم لها نبيذًا جيدًا! امرأة جميلة، وهو يجدها جذابة!

وكان التفكير فيها مثل «الشمبانيا» نفسها! فمن الممتع أن يقدم المرء النبيذ الجيد لامرأة شابة، وسيمة على هذا النحو، تعرف كيف تتهندم، شائقة الخلق، ممتازة تمامًا، من الممتع أن يجاملها المرء. ولأول مرة في ذلك المساء حرك رأسه، بين أطراف «ياقته»، حركة صغيرة مؤلمة. وقال:

ـ يا «أدولف»! ضع زجاجة أخرى في الدلو.

فهو نفسه يمكن أن يحتسي قدرًا طيبًا إذا وجد أنه في حالة طيبة جدًّا بفضل «وصفة» صديقه «بلايت»، وقد حرص على ألا يتغذى. وهو لم يشعر بمثل هذه الصحة الجيدة منذ أسابيع، وأصدر «تعليماته» الأخيرة وهو ينفخ شفته السفلى:

ـ يا «أدولف»، عندما تصل إلى تقديم فخذ الخنزير المقدد أضف إليه أقل كمية من بهار غربي الهند.

وإذ خرج إلى غرفة الانتظار جلس على طرف أحد المقاعد، متباعد الركبتين؛ ولف هيكله الطويل الضخم، على الفور، سكون متوقع غريب فطري. وكان مستعدًّا للنهوض لدى أول تنبيه. إنه لم يُقم حفل عشاء منذ شهور. وقد بدت له هذه الوليمة التي تقام احتفالًا بخطبة «جون»، مزعجة أول الأمر، (وكانت عادة إقامة الولائم، بين أفراد أسرة «فورسايت»، احتفالًا بكل خطبة، تراعى مراعاة متحرجة) ولكنه بانهماكه في إرسال الدعوات، والتوصية بألوان طعام الوليمة، شعر بأنه انتعش انتعاشًا سارًّا.

ولم يفكر في شيء وهو جالس على هذا النحو، ممسكًا ساعة بيده السمينة الناعمة، الصفراء الذهبية، الشبيهة بكرة من الزبد قد سُطِّحت.

ودخل رجل طويل القامة، ذو شارب مائل الطرفين، كان في خدمة «سويذن» يومًا ما، وهو يعمل الآن بائع خضراوات. دخل وأعلن:

ـ السيدة «تشيسمان»، والسيدة «سيبتموس سمول»!

وتقدمت سيدتان. ملابس المتصدرة منهما حمر اللون جميعًا، وعلى خديها بقع عريضة ثابتة من نفس اللون، ولها عين قاسية جريئة. وقد سارت إلى «سويذن» باسطة يدًا مغمدة في قفاز طويل، زاهر اللون، وقالت:

ـ حسنًا يا «سويذن»، إني لم أرك منذ دهور. كيف حالك؟ ما هذا يا بني العزيز، كم تزداد بدانة!

ولم ينم على انفعال «سويذن» إلا ثبات نظرته. وعراه غضب أبكم متذمر انتفخ له صدره. فكون الإنسان بدينًا أمر مبتذل، والتحدث عن ذلك مبتذل أيضًا، إن له صدرًا عريضًا؛ هذا كل ما في الأمر. وأمسك يد أخته وهو يدور إليها. وقال في لهجة صاحب الأمر:

ـ حسنًا، يا «جولي».

كانت السيدة «سيبتموس سمول» («جولي») أطول الأخوات الأربع، وقد أخذ وجهها الطيب المستدير العجوز يبدو فيه قليل من الشراسة. وعلقت به تجاعيد لا حصر لها حتى لكأنه كان مغلقًا، حتى ذلك المساء، في قناع من أسلاك حديدية، تخلفت عنه، إذ رفع فجأة، تجاعيد صغيرة من لحم نافر، انتشرت في المحيا كله. وقد تقلصت حتى عيناها. وعلى هذا النحو سجلت ضيقها الدائم بفقدان «سيبتموس سمول».

وقد اشتهرت كل الاشتهار بما تلقي من قول جارح، وتمسكها به إذا نطقته، وإضافة مثيله إليه، وهكذا فهي ذات إصرار كسائر أفراد أسرتها. وبوفاة زوجها أجدب في نفسها إصرار الأسرة، وواقعية الأسرة. كانت كثيرة الكلام، فإذا سمح لها به واصلت الحديث طوال ساعات بأكملها دون أقل حماسة، وطفقت تذكر ـ في رتابة قصص الملاحم ـ مناسبات لا تعد أساء إليها الحظ فيها.

وهي لم تلحظ قط أن المستمعين إليها كانوا يعطفون على الحظ لا عليها، نظرًا إلى أن قلبها كان رقيقًا.

وبما أن المسكينة جلست طويلًا إلى فراش «سمول» المريض الذي كان

ضعيف البنية، فقد اكتسبت تلك العادة. وأتيحت مناسبات تالية لا عداد لها كانت تجلس خلالها مددًا طويلة جدًّا لتسلية المرضى والأطفال وغيرهم من العجزة. وهي لم تستطع قط أن تتخلص من الشعور بأن هذه الدنيا أعق مكان يمكن أن يعيش فيه أي مخلوق.

وكانت تجلس أيام الآحاد، على التعاقب، عند قدمي ذلك الواعظ، الحاضر البديهة إلى حد مفرط، المدعو المبجَّل «توماس سكولز»، الذي كان له عليها نفوذ كبير. بيد أنها نجحت في إقناع الجميع بأن سوء الحظ لازمها حتى في ذلك. وأصبحت مضرب المثل في الأسرة. فإذا لوحظ على أحد أنه يتميز بمضايقة الناس عرف بأنه «جولي دون انحراف». وأن العادة التي اعتادها عقلها كانت جديرة أن تقتل أي إنسان إلا من بلغ من أسرة «فورسايت» سن الأربعين؛ ولكنها بلغت الثانية والسبعين، ولم تبد قط أحسن مما هي الآن. وكان من يراها يحس أن بها طاقات على إبهاج الناس يمكن أن تتجلى. كانت في حوزتها ثلاثة عصافير من الكناري، وقط اسمه «تومي»، ونصف ببغاء ـ فالببغاء شركة بينها وبين أختها «هيستر» ـ وكانت هذه المخلوقات المسكينة ـ التي عني بإبعادها عن طريق «تيموثي»، فهو ينفر من الحيوانات أيًّا كانت، على خلاف الآدميين ـ متعلقة بصاحبتها تعلقًا شديدًا لإدراكها أنها لا حيلة لها فيما هي مصابة به.

كانت ذات جلال ووقور في تلك الليلة وهي ترتدي ثوبًا من صوف أسود موشى بالحرير، ذا «فتحة» من أمام، بنفسجية الحاشية، على هيئة مثلث غير متسع، متوجة بشريط مخملي أسود يلتف بأسفل جيدها الهزيل. وكان اللبس الأسود والبنفسجي يعد محتشمًا جدًّا في نظر كل فرد تقريبًا من أفراد أسرة «فورسايت».

وكشرت لـ«سويذن» وقالت:

ـ «آن» تسأل عنك دون انقطاع. إنك لم تقربنا منذ زمن بعيد!

ووضع «سويذن» إبهاميه تحت إبطي صداره، وأجاب:

ـ إن صحة «آن» تتضعضع تضعضعًا شديدًا، وينبغي أن تستدعي طبيبًا!
«السيد «نيكولاس فورسايت»، والسيدة زوجته!».

وابتسم «نيكولاس» وهو يرفع حاجبيه القائمي الزاوية. كان قد نجح خلال النهار في تحقيق خطة ترمي إلى استخدام قبيلة من شمال الهند في مناجم الذهب التي يملكها في سيلان، وهي خطة مرغوب فيها أمكن تحقيقها أخيرًا برغم المصاعب الهائلة، كان راضيًا بحق، فهي ستضاعف إنتاج مناجمه. وكثيرًا ما جادل بقوة قائلًا إن جميع التجارب تحرص على إبداء أن كل إنسان مصيره الموت المحتوم. وسواء أمات في وطنه بفعل الشيخوخة التعسة، أم مات قبل الأوان من أثر الرطوبة في قاع منجم أجنبي، فليس لذلك أهمية كبيرة دون شك، بشرط أن ينفع الإمبراطورية البريطانية بتغييره لمنوال حياته.

كانت مقدرته فوق كل شك، وقد يضيف قوله وهو يرفع أنفه المحطوم صوب المستمع إليه:

ـ إننا لم ندفع فائدة الأسهم خلال سنوات بسبب الحاجة إلى بضع مئات من أولئك الأشخاص. وانظر إلى سعر الأسهم، إنني لا أستطيع الحصول على عشرة شلنات ثمنًا للسهم.

وقد ذهب أيضًا إلى «يارماوث»، وعاد وهو يشعر بأنه أضاف إلى عمره عشر سنوات على الأقل. وأمسك بيد «سويذن»، وصاح بلهجته المازحة:

ـ حسنًا. ها نحن أولاء نجتمع ثانية.

وابتسمت السيدة «نيكولاس»، وهي عاقر، ابتسمت من وراء ظهره ابتسامة طرب متوجس.

«السيد والسيدة «جيمس فورسايت»! السيد والسيدة «سومز فورسايت»!».

وضم «سويذن» عقبيه، فهو مدهش التصرف دائمًا:

ـ أهلًا يا «جيمس»! أهلًا يا «إميلي»! كيف حالك يا «سومز»؟ كيف حالك؟

وضمت كفه كف «آيرين»، وتمددت عيناه، كانت امرأة حسناء، شاحبة قليلًا ولكن وجهها، وعينيها وأسنانها! إنها أفضل كثيرًا من أن يناسبها ذلك الفتى المدعو «سومز»!

لقد جادت الآلهة على «آيرين» بعينين داكنتين، وشعر ذهبي.

هذا التركيب العجيب الذي يثير نظرات الرجال، ويقال إنه دليل على ضعف الخلق. والذي أكسب شخصية «آيرين» غرابة مغرية شحوب عنقها وكتفيها، ذلك الشحوب الكامل الأملس البادي فوق رداء ذهبي اللون.

ووقف «سومز» إلى الوراء وعيناه موثقتان في رقبة زوجته. وتجاوز عقربا ساعة «سويذن» الثامنة، وكان لا يزال يمسك بها مفتوحة في يده. لقد تأخر عشاؤه عن موعده نصف ساعة ـ وهو لم يتناول غداءه ـ وجاش في صدره نفاد صبر غريب فطري.

وقال لـ«آيرين» في غيظ لم يستطع السيطرة عليه:

ـ ليس من عادة «جوليون» أن يتأخر هكذا. أحسب أن «جون» هي التي تعوقه!

وأجابت:

ـ العشاق يتأخرون دائمًا.

وحملق «سويذن» فيها، وصبغ وجنتيه لون كلون البرتقال الداكن.

ـ ليس لديهم عمل يحملهم على التأخير. إنها سخافة من الطراز الجديد!

ووراء هذا الثوران كان العنف المدغم للأجيال البدائية يرغي على ما يبدو ويزمجر.

وقالت «آيرين» في نعومة:

ـ قل لي ما رأيك يا عمي «سويذن» في نجمي الجديد هذا.

وكان يلتمع بين زخارف صدر ثوبها نجم ذو خمس زوايا، مصنوع من إحدى عشرة قطعة من الماس.

ونظر «سويذن» إلى النجم الماسي. وكان سليم الذوق في تقدير الأحجار الكريمة. ولم تكن هناك مسألة يمكن تدبيرها على نحو أشد جاذبية من هذه لصرفه عما يشغله. وسألها:

ـ من أعطاك هذا؟

ـ «سومز».

ولم يطرأ تغير على وجهها. ولكن عيني «سويذن» الشاحبتين برزتا؛ وكأنه ابتُلِيَ فجأة بالبصيرة، وقال:

ـ لعلك تكتئبين في بيتك. وإذا شئتِ في أي يوم أن تأتي للغداء معي فإني سأقدم لك زجاجة من نبيذ طيب هو أجود ما يمكن أن تحصلي عليه في لندن.

«الآنسة «جون فورسايت»، السيد «جوليون فورسايت»! السيد «بو... وزيني»!».

وحرك «سويذن» ذراعه، وقال بصوت هدار:

ـ العشاء، الآن... العشاء!

ودخل بـ«آيرين» غرفة الطعام، على أساس أنه لم يرحب بها منذ أن كانت عروسًا. أما «جون» فكانت من نصيب «بوزيني» الذي أجلسوه بين «آيرين» ومخطوبته. وفي الجانب الآخر من «جون» جلس «جيمس» مع السيدة «نيكولاس»، ثم «جوليون الكبير» مع السيدة «جيمس»، ثم «نيكولاس» مع «هاتي تشيسمان»، ثم «سومز» مع السيدة «سمول»، ثم تنتهي الدائرة إلى «سويذن» من جديد.

وأسرة «فورسايت» تراعي في حفلات عشائها العائلية تقاليد معينة. ومن أمثلة ذلك أنها لا تقدم أطعمة مشهية قبل العشاء، والسبب في ذلك غير معروف. ونظرية شباب الأسرة ترجعها إلى غلاء سعر المحار؛ والأرجح أن ذلك يرجع إلى الرغبة في التطرق إلى بيت القصيد مباشرة، وإلى إدراك عملي سليم يقرر على الفور أن المشهيات أشياء تافهة. وأسرة «جيمس»

وحدها هي التي تخون ذلك المبدأ بين حين وحين لعدم قدرتها على الوقوف في وجه العادة التي تكاد تسود سكان حي «بارك لين».

ويعقب جلوسهم في مقاعدهم صمت تكاد تكتنفه الكآبة، وغفلة كل منهم عن الآخرين، ويستمر ذلك حتى يشغلوا بتناول الصنف الأول من الطعام، بيد أن مثل هذه الملاحظات التالية تنتثر خلال ذلك الصمت والغفلة: «ساءت صحة «توم» ثانية؛ لست أدري ما خطبه!»، «أحسب أن «آن» لا تنزل في الصباح؟»، «ما اسم طبيبك يا «فاني»؟، «ستبز»؟، إنه دجال!»، ««وينيفريد»؟ إن لها أبناء عديدين. أربعة أبناء أليس كذلك؟ إنها نحيلة كقطعة من الخشب البغدادي»، «كم تدفع ثمنًا لكأس «الشيري» هذه يا «سويذن»؟ إنه شراب جاف جدًّا بالنسبة لي!».

ويترامى إلى الآذان، بعد شراب الكأس الثانية من «الشمبانيا» نوع من الهمهمة التي يجد المرء، بعد تجريدها من الأصوات الإضافية العرضية، وتحليلها إلى عناصرها الأولى، يجد أنها حكاية يرويها «جيمس»، ويستمر في روايتها مدة طويلة، ويتعداها أحيانًا حتى إلى الحديث عما لا مفر من الاعتراف بالإجماع أنه أهم موضوع يتوج ولائم أسرة «فورسايت»، من الاعتراف بالإجماع أنه فصل الختام في ولائم أسرة «فورسايت»، وهو موضوع «ضلع الضأن».

لم يُقم فرد من أفراد أسرة «فورسايت» وليمة دون أن يقدم فيها «ضلع الضأن» فإن هناك شيئًا في تماسكه الغض يجعله مناسبًا لقوم يتمتعون «بمركز اجتماعي معين»، هو مغذ ولذيذ الطعم؛ هو من ذلك النوع الذي يتذكر المرء أنه أكله. وهو يتمتع بماضٍ ومستقبل كمبلغ من المال أودع في بنك. ثم إنه شيء يمكن أن يدور الجدال حوله.

ويتعصب كل فرع من أسرة «فورسايت» لجهة من الجهات الخاصة بتصدير الضأن، فـ«جوليون الكبير» يعجب بـ«دارتمور»، و«جيمس» يؤثر «ويلش»، و«سويذن» يؤثر «ساوثداون». ويؤكد «نيكولاس» أن الناس

سيسخرون منه، ولكن ليس هناك مثل «نيوزيلاندا». أما «روجر»، وهو الأخ الأصيل بين إخوته، فقد اضطر أن يبتكر جهة خاصة به، واستطاع بلوذعية جديرة برجل ابتدع لأبنائه حرفة جديدة، أن يستكشف محلًا للجزارة يبيع الضأن الألماني، وإذ عارضه الحاضرون أثبت وجهة نظره بإبراز «قائمة حساب» الجزار التي تدل على أنه دفع ثمنًا أعلى مما دفعه أي واحد من الآخرين. وحدث بهذه المناسبة أن دار «جوليون الكبير» إلى «جون»، وقال لها في تفجر من تفجراته الفلسفية:

ـ يمكنك أن تثقي بما أقول. إن أفراد أسرة «فورسايت» جماعة متذبذبة. وستدركين ذلك عندما تتقدم بك السن.

ولم يشذ إلا «تيموثي»، فهو برغم إكبابه على الأكل من ضلع الضأن، فقد قال إنه يخشى على نفسه منه.

وكل من يهتم «سيكولوجيًا» بأسرة «فورسايت» يجد أن لخاصية «ضلع الضأن» العظيمة أهمية رئيسية؛ فهي لا تصور فقط «إصرارهم»، فرادى وجماعات ولكنها تسمهم كذلك بسمة انتسابهم، عرقًا وغريزة، إلى تلك الطبقة الكبيرة التي تؤمن بالغذاء ونكته اللذيذة، ولا تخضع للحنين العاطفي إلى الجمال.

وأفراد الأسرة الأصغر سنًا يمكنهم بالتأكيد أن يستغنوا كلية عن شرائح اللحم، مؤثرين دجاج غينيا، أو «سلطة جمبري» ـ شيء يشوق الخيال، ويقل من حيث التغذية ـ ولكن أولئك الأفراد هم من الإناث، فإن لم يكونوا كذلك فقد أفسدتهم زوجاتهم، أو أفسدتهم أمهاتهم اللواتي أكلن ضلوع الضأن مضطرات خلال حياتهن الزوجية فنقلن سرًا عداءهن لها إلى عروق أولادهن.

وعندما انتهى الجدل الذي دار حول «ضلع الضأن» العظيم، بدأ جدل حول فخذ الخنزير المقددة الواردة من «تيوكزبري» مضافًا إليها أقل كمية من بهار غربي الهند، وقضى «سويذن» مدة طويلة في الإكباب على هذا

الصنف إلى حد أنه تسبب في إيقاف مجرى العشاء. وقد تريث في حديثه حتى يهب نفسه لتلك الأكلة وهو أشد انتعاشًا.

وقام «سومز» بالملاحظة وهو في مقعده المجاور للسيدة «سيبتموس سمول». وكان له في رقابة «بوزيني» سبب خاص، متعلق بمشروع بناية محبب إليه، وهذا المهندس يناسب غرضه، فهو يبدو بارعًا إذ يميل على مقعده إلى الوراء، ويصنع في اكتئاب أسوارًا صغيرة من فتات الخبز. ولاحظ «سومز» أن ثيابه حسنة التفصيل، ولكنها ضيقة جدًّا، وكأنها محوكة منذ سنوات عديدة.

وشاهده وهو يدور إلى «آيرين»، ويقول شيئًا، فيأتلق وجهها على نحو رآه يأتلق غالبًا للآخرين، ولا يأتلق له أبدًا. وحاول أن يلتقط ما كانا يقولانه، ولكن العمة «جولي» كانت تتكلم.

ألم يكن ذلك يبدو دائمًا لـ«سومز» مدهشًا جدًّا؟ ففي يوم الأحد الماضي فقط كان السيد «سكولز» العزيز مبدعًا في مزاحه وسخريته، إذ قال في موعظته: «وأية فائدة يجنيها الإنسان إذا كسب روحه، وخسر أملاكه؟». إن هذا الذي قاله هو شعار الطبقة المتوسطة؛ والآن، ما الذي عناه «هو» بما قال؟ قد يكون هذا القول بالطبع هو ما تؤمن به الطبقة المتوسطة، ولكن العمة «جولي» لا تعرف حقيقة الأمر؛ فما رأي «سومز»؟

وأجاب «سومز» شارد الذهن: «ومن أين لي أن أعرف؟ و«سكولز» مع هذا دجال، أليس كذلك؟». وسبب شرود ذهنه أن «بوزيني» كان يدور بعينيه حول المائدة وكأنه يكشف خصائص المدعوين. وعجب «سومز» ما الذي كان يقول. لقد ظهر في وضوح من ابتسامة «آيرين» أنها كانت توافقه على ملاحظاته. ويبدو أنها توافق دائمًا الأناس الآخرين.

ودارت عيناها إليه نفسه، فخفض «سومز» بصره على الأثر. وماتت الابتسامة على شفتيها.

دجال؟ ولكن ما الذي كان «سومز» يعنيه؟ وإذا كان السيد «سكولز» دجالًا، وهو من الكهنة ـ فكل امرئ يمكن إذن أن يكون دجالًا ـ إن هذا مخيف!

وقال «سومز»:

ـ حسنًا. إنهم لكذلك.

وفي أثناء صمت العمة «جولي» المؤقت المذعور التقطت أذنه بعضًا من كلمات «آيرين» أشبه رنينها هذه العبارة: «ودعوا أملكم، أنتم يا من تدخلون هنا جميعًا».

ولكن «سويذن» كان قد انتهى من أكل وجبته من فخذ الخنزير المقددة. وكان يقول لـ«آيرين» في صوت أشبه بصوت رجال البلاط:

ـ أي محل تقصدينه للحصول على «عش الغراب»؟ ينبغي أن تذهبي إلى «سنيلي بوب»، فهو يقدمها لك صابحة. إن هؤلاء الرجال «الصغار» لا يكلفون أنفسهم تلك المشقة!

ودارت «آيرين» لتجيبه، ورأى «سومز» «بوزيني» يرقبها ويبتسم لنفسه. وكانت غريبة بسمة ذلك الفتى، فهي مهيأة على نحو نصف بسيط كبسمة الطفل عندما يكون مسرورًا. أما كنية «جورج» التي أطلقها على «بوزيني» ـ القرصان ـ فهو لم يفكر فيها كثيرًا. وعندما رأى «سومز» أن «بوزيني» يدور إلى «جون» ابتسم هو أيضًا، ولكن ابتسامته كانت ساخرة، فهو لم يكن يميل إلى «جون» التي لم يبدُ عليها أنها راضية كل الرضا.

وليس ذلك بمدهش، لأن المحادثة التالية دارت توًّا بينها وبين «جيمس»:

ـ أنا توقفت عند النهر يا عمي «جيمس» في طريق عودتي إلى البيت، ورأيت موقعًا جميلًا يصلح لبناء منزل.

وأوقف «جيمس» المضغ، وهو يبطئ في الأكل ويتمادى فيه. وقال:

ـ إيه؟ وأين ذلك الموقع؟

ـ ملاصق لـ«بانجبورن».

ووضع «جيمس» في فمه قطعة لحم من فخذ الخنزير، وانتظرت «جون»، وسألها أخيرًا:

ـ أحسب أنك لا تدرين هل الأراضي هناك أملاك حرة؟ وهلَّا عرفت شيئًا عن ثمن الأرض في تلك الأنحاء؟

وقالت «جون»:

ـ نعم، فقد قمت ببعض التحريات.

وكان وجهها الصغير المصمم، تحت تاج شعرها النحاسي، متلهفًا متوقدًا على نحو مريب.

ونظر إليها «جيمس» نظرة المحقق، وغمغم وهو يضع شوكة الأكل:

ـ ماذا؟ إنك لا تفكرين في شراء أرض!

وتشجعت «جون» تشجيعًا كبيرًا باهتمامه، فقد كانت خطتها المحببة منذ زمن طويل أن ينتفع أعمامها، هم و«بوزيني»، ببناء منازل ريفية. وقالت:

ـ لا، بالطبع. لقد ظننت أن هذا الموضع يمكن أن يكون مكانًا بديعًا لتقوم أنت... أو أي واحد غيرك... ببناء منزل ريفي فيه.

وحدجها «جيمس» بطرف عينه، ووضع في فمه قطعة أخرى من لحم الخنزير. وقال:

ـ لا بد أن سعر الأرض مرتفع جدًّا هناك.

والذي تحمله «جون» على محمل المنفعة الشخصية لم يكن إلا استثارة غير شخصية لكل فرد من أسرة «فورسايت» يسمع عن شيء قيم مهدد بالانتقال إلى يد الآخرين. ولكنها رفضت أن ترى حظها يتبدد، وواصلت الضغط في سبيل مقصدها:

ـ ينبغي أن تذهب إلى الريف يا عمي «جيمس». ليتني أملك قدرًا كبيرًا من المال، فإني ما كنت أمكث عندئذ يومًا آخر في لندن.

واضطرب «جيمس» اضطرابًا بلغ أغوار وجهه النحيل المستطيل؛ فهو لم يخطر له أن لابنة أخيه مثل هذه الآراء القويمة.

وكررت «جون»:

ـ لماذا لا تذهب إلى الريف، فإن ذلك يعود عليك بخير جزيل؟

وطفق «جيمس» يقول في انفعال:

ـ لماذا؟ ألأشتري أرضًا؟ وأي خير تظنين أني أستطيع تحقيقه بشراء الأرض، وبناء المنازل؟ إني لن أتمكن من الحصول على فائدة لمالي تبلغ ٤ في المائة!

ـ وأية أهمية لذلك؟ إنك ستنعم بالهواء الطلق.

وصاح «جيمس»:

ـ الهواء الطلق! وماذا يمكن أن أصنع بالهواء الطلق؟

وقالت «جون» متهكمة:

ـ كان عليَّ أن أظن أن كل امرئ يميل إلى استنشاق الهواء الطلق.

ومسح «جيمس» بمنشفته ما حول فمه. وقال وهو يتجنب عينيها:

ـ أنت لا تعرفين قيمة المال.

ـ لا! وآمل ألا أعرفها أبدًا.

ولاذت «جون» المسكينة بالصمت وهي تعض شفتها في كمد يتعذر التعبير عنه.

لماذا يكون أقرباؤها في مثل هذا الثراء و«فيل» («بوزيني») لا يعرف من أين سيأتيه المال لشراء الطباق في غده. لماذا لا يصنعون شيئًا له؟ ولكنهم أنانيون إلى حد كبير. لماذا لا يستطيعون بناء منازل ريفية؟ وكان لها ذلك اليقين الجازم الساذج الشديد الإثارة للعواطف، والذي يحقق في بعض الأحيان مثل تلك النتائج العظيمة. وكان «بوزيني» الذي دارت إليه وهي تعاني إخفاقها، كان يحادث «آيرين»، فهبطت على روح «جون» لفحة من البرد. وشخصت عيناها غضبًا كما تشخص عينا «جوليون الكبير» عندما يعارض أحد إرادته.

وكان «جيمس» أيضًا شديد الانزعاج. لقد أحس كأن أحدًا هدد حقه في استثمار ماله بفائدة قدرها ٥ في المائة. إن «جوليون» أفسد الفتاة. فليست هناك واحدة من «بناته» يمكن أن تقول مثل ذلك. لقد كان «جيمس» شديد

التسامح مع أولاده فجعله وعيه لذلك أعمق شعورًا به. وعبث بالفراولة المقدمة إليه، ثم أكل منها مسرعًا بعد أن غمرها بالقشدة؛ وهي على أي حال لن تفلت منه.

ولا عجب إذا كان قد اضطرب. فهو إذ اشتغل منذ أربعة وخمسين عامًا بتسوية الرهون، (فقد قبلوه محاميًا في أصغر سن يجيزها القانون) وبإبقاء الأموال المستثمرة في مستوى ثابت من حيث ارتفاع الفائدة وسلامتها، وبإجراء المفاوضات على أساس ضمان الحصول من الآخرين على أقصى ما يستطاع مع ملاءمة ذلك لسلامة أموال عملائه وأمواله هو نفسه، وبتقديراته للإمكانيات المالية الصحيحة الخاصة بعلاقات الحياة جميعها، انتهى به الأمر إلى عدم التفكير إلا بتعبيرات المال. إن المال أصبح الآن نوره، أصبح الوسيلة التي يرى بها، ولا يستطيع حقًّا أن يرى بدونها، ولا يدرك حقًّا الظواهر الطبيعية. وقد أحزنه وأسخطه أن تقال له هذه العبارة مواجهة: «آمل ألا أعرف أبدًا قيمة المال!». كان يعرف أن هذا هراء، وإلا لكان أفزعه. إلى أي مصير يتجه العالم! وشعر مع ذلك بقليل من الراحة إذ تذكر فجأة قصة «جوليون الصغير»، فماذا يمكنك أن تنتظر مع وجود أب كهذا! وعاد هذا الخاطر بأفكاره إلى مضيق أقل إبهاجًا أيضًا. ما هو كل هذا القيل والقال عن «سومز» و«آيرين»؟

وكما يجري في الأسر التي تحترم نفسها، أقيمت سوق تجارية يتم فيها تبادل أسرار الأسرة، وتقدير ممتلكاتها. وكان معروفًا في «سوق «فورسايت» للقيل والقال» أن «آيرين» نادمة على زواجها. وقوبل ندمها بالاستنكار، فقد كان ينبغي أن تعرف رأيها. وليست هناك امرأة يعتمد عليها ترتكب هذه الأخطاء.

وخطر لـ«جيمس»، وهو يشعر بمرارة، أن لهما بيتًا لطيفًا (وإن كان صغيرًا نوعًا)، موقعه ممتاز، وأنهما لم يرزقا أطفالًا، ولا يعانيان مشكلات مالية، و«سومز» يتكتم أنباء أعماله، ولكن لا بد أنه في طريقه إلى الثراء،

فهو يستدر دخلًا كبيرًا من العمل، ذلك أن «سومز» عضو، كأبيه، في شركة «وكلاء الأعمال» المسماة «فورسايت، باستارد وفورسايت» وكان طوال عمره حريصًا. وقد أحسن التصرف أيضًا، على نحو غير معتاد، في الرهون التي اضطلع بتسويتها، وتم حبسها في وقت يكاد يكون مناسبًا. ضربات موفقة جدًّا!

ليس هناك من سبب يجعل «آيرين» غير سعيدة. ومع ذلك يقولون إنها طلبت أن تكون لها غرفة للمبيت خاصة بها. وهو يعلم عاقبة هذا. وليس الأمر كما لو كان «سومز» يعاقر الخمر.

ونظر «جيمس» إلى زوجة ابنه. وكانت نظرته الخفية هذه باردة مريبة. كانت تتضمن الاستنجاد والخوف، والشعور بهمٍّ شخصي. لماذا ينزعج على هذا النحو؟ هذا كله أحرى أن يكون هراء؛ إن النساء مخلوقات مضحكة! ثم إنهم بالغوا في الأمر إلى حد أنه لم يعد يعرف أي شيء يعتقده، ثم إن أي واحد منهم لا يفضي إليه بشيء، وكان عليه أن يقف على كل شيء بنفسه، وعاود النظر إلى «آيرين» خلسة، وتحول بنظره عبرها إلى «سومز». وكان هذا الأخير، وهو ينصت إلى العمة «جولي»، يرفع نظره من تحت حاجبيه تجاه «بوزيني». وخطر لـ«جيمس»: «أنا أعرف أنه مغرم بها. انظر إلى الطريقة التي يقدم بها الأشياء إليها دائمًا».

وإذا بلا معقولية جفائها الخارقة تصدمه بقوة متزايدة. ومما يثير الشفقة أيضًا أنها مخلوقة دقيقة جذابة، و«جيمس» قمين أن يهيم بها هيامًا لو أنها مكنته من ذلك. وقد تعلقت أخيرًا بـ«جون»، وهذا لن يعود عليها بفائدة، لن يعود قطعًا بفائدة. وأخذت تكوِّن لنفسها آراء خاصة بها، وهو لم يعرف ماذا تريده من وراء مثل ذلك. إنها تملك بيتًا طيبًا، وكل شيء يمكن أن تتمناه. وشعر بأنه ينبغي اختيار الأصدقاء لها، فإن المضي على هذا النحو خطر.

ومع ما اعتادته «جون» من مناصرة العاثري الحظ، كانت بالفعل قد استخلصت من «آيرين» اعترافًا، وإزاء ذلك نصحتها بضرورة مواجهة الشر،

وبالطلاق إذا احتاج الأمر إلى ذلك. ولكن «آيرين» التزمت، وهي تواجه ذلك النصح، صمتًا متأملًا، وكأنها وجدت التفكير في هذا الصراع أمرًا رهيبًا وهو يجري بمثل هذا الهدوء.

وقد قالت لـ«جون» إنه لن يفرط فيها أبدًا.

وصاحت «جون»:

ـ وما أهمية ذلك؟ دعيه يصنع ما يشاء، فما عليك إلا أن تثابري على مطلبك.

وهي لم تتردد في قول شيء من هذا القبيل بمنزل «تيموثي»، وعندما نمى ذلك إلى سمع «جيمس» شعر بسخط وفزع طبيعيين.

وماذا لو أخذت «آيرين» ـ ولم يستطع أن يصوغ الفكرة إلا بصعوبة ـ ماذا لو أخذت بفكرة هجر «سومز»؟ ووجد هذه الفكرة غير مطاقة إلى حد أنه استبعدها في الحال، استبعد الرؤى المبهمة التي ابتعثتها، وصوت ألسنة الأسرة الذي سيطن في أذنه، وهول الحدث المفضوح الملتصق به أشد الالتصاق، الحدث الذي سيقع لأحد أبنائه! ومن حسن الحظ أنها لا تملك مالًا، خمسون جنيهًا حقيرة في العام! وفكر باحتقار في المغفور له «هيرون» الذي لم يكن يملك شيئًا يورثها إياه. وإذ أطال التأمل مكبًّا على كأسه، ورجلاه الطويلتان ملويتان تحت المائدة، أغفل القيام عندما غادرت السيدات الغرفة. كان لا بد أن يحادث «سومز»، وأن يحمله على الاحتراس. إنهما لا يستطيعان مواصلة العيش على هذا النحو، وقد وقع له الآن مثل هذا الحدث. ولاحظ في سخط مرير أن «جون» تركت كأس نبيذها ملأى.

وخطر له: «إن هذه المخلوقة الصغيرة وراء كل هذا، فـ«آيرين» لم تكن لتفكر في ذلك من تلقاء نفسها». كان «جيمس» رجل خيال.

وأيقظه صوت «سويذن» من تأمله إذ كان يقول:

ـ إني دفعت مبلغ أربعمائة جنيه ثمنًا لها، لا شك أنها عمل فني متقن.

صاح «نيكولاس»:

ـ أربعمائة! هيه! إنه مبلغ جسيم!

وكان الشيء المشار إليه عبارة عن مجموعة تماثيل متقنة الصنع، منحوتة من المرمر الإيطالي، قائمة على قاعدة مرتفعة (منحوتة من المرمر أيضًا) تشيع في أرجاء الغرفة جوًّا من الثقافة. وكانت الأشكال التكميلية، وهي ست إناث عاريات، صناعتها سامية التنميق، تشير جميعها إلى الشكل القائم في الوسط، وهو أيضًا شكل أنثى عارية تشير إلى نفسها. وكان ذلك كله يبث في مشاهده شعورًا بأنه ذو قيمة كبيرة للغاية. وعانت العمة «جولي»، وهي تكاد تواجه تلك التحفة، صعوبة شديدة في تجنب رؤيتها طوال الليل.

وقال «جوليون الكبير»، وهو الذي بدأ المناقشة:

ـ أربعمائة هراء! لا تقل لي إنك دفعت أربعمائة جنيه ثمنًا لهذا؟

وللمرة الثانية في أثناء ذلك المساء تحرك ذقن «سويذن» تحركه الثاني المؤلم بين أطراف «ياقته»:

ـ أربعمائة جنيه من العملة الإنجليزية، كاملة بدون أي نقص. وأنا غير نادم على ذلك. فالتحفة ليست إنجليزية مبتذلة، ولكنها من الفن الإيطالي الحديث!

ورفع «سومز» ركن شفته مبتسمًا، ونظر عبر الحاضرين إلى «بوزيني». وكان المهندس المعماري يكشر وراء دخان «سيجارته». وهو يبدو الآن بالفعل أقرب شبهًا إلى القرصان.

ولاحظ «جيمس» في سرعة، وقد تأثر فعلًا بحجم مجموعة التماثيل:

ـ إنها تزخر بالعمل الكثير ويمكن بيعها في محل «جوبسون» بثمن غال.

وواصل «سويذن» القول:

ـ إن الشيطان الأجنبي البائس الذي صنعها طلب مني خمسمائة جنيه ثمنًا لها، فأعطيته أربعمائة، وهي تساوي ثمانمائة، كان يبدو نصف ميت من الجوع ذلك الشيطان البائس!

ورن صوت «نيكولاس» فجأة:

ـ آه! إن أولئك الفنانين فتيان مساكين مهلهلو الثياب. وإني لأعجب كيف يعيشون. والآن، هاكم «فلاجيوليتي» الشاب، والفتاة «فاني» وغيرها من الفتيات اللاتي يستخدمهن في العزف على الكمان؛ إنه إذ حصل على مائة جنيه في العام فهذا أقصى ما يمكنه الحصول عليه!

وهز «جيمس» رأسه، وقال:

ـ آه!، لست أدري كيف يعيشون!

وكان «جوليون الكبير» قد نهض، وذهب والسيجار في فمه ليفحص مجموعة التماثيل من جهة أقرب. وقال آخر الأمر:

ـ أما كان يجدر أن تعطيه مائتين ثمنًا لها!

ورأى «سومز» أباه و«نيكولاس» يتبادلان النظر في قلق. وكان «بوزيني» لا يزال مغطى بالدخان في الناحية الأخرى من «سويذن». وقال «سومز» لنفسه، وهو الذي كان يعرف تمامًا أن هذه «المجموعة» «طراز قديم» لا يرجى منه، طراز من الجيل الماضي لا رجاء فيه. ولم تعد مثل هذه الأعمال الفنية تباع أبدًا في دكان «جوبسون»:

ـ إني لأعجب ماذا يكون رأيه فيها؟

وجاء جواب «سويذن» آخر الأمر:

ـ أنت لم تعرف طوال عمرك شيئًا عن أي تمثال، إن لديك صورك، وهذا كل ما في الأمر!

وكر «جوليون» راجعًا إلى مقعده، نافخًا في سيجاره. فليس مما يليق به أن يساق إلى جدال مع عنيد حقير خنزير مثل «سويذن» الذي لم يعرف الفرق قط بين تمثال وقبعة من خوص. ولم ينبس إلا بقوله:

ـ جبس!

واستحال على «سويذن» ماديًّا، لمدة طويلة، أن يبدأ الكلام؛ وهوت قبضته على المائدة:

ـ جبس! وددت لو أرى في بيتك شيئًا يبلغ نصف قدر التمثال!

وبدا أن عنف الأجيال البدائية أخذ يدمدم ثانية وراء قوله.

وكان «جيمس» هو الذي أنقذ الموقف.

ـ والآن ما قولك يا سيد «بوزيني»؟ إنك مهندس معماري، ولا بد أنك تعرف كل ما يتعلق بالتماثيل والأشياء!

وتحولت العيون كلها إلى «بوزيني». وانتظر الجميع إجابته في هيئة غريبة مرتابة.

وسأل «سومز»، متحدثًا لأول مرة:

ـ نعم، يا «بوزيني»، ما قولك؟

ـ هذا العمل الفني لافت للنظر.

وكان يوجه كلماته إلى «سويذن»، وتبتسم عيناه في مثل خبث «جوليون الكبير». وظل «سومز» وحده غير قانع:

ـ بمَ يلفت النظر؟

ـ بسذاجته.

وأعقب هذه الإجابة صمت مثير للانفعال. وكان «سويذن» هو وحده الذي لم يستوثق إن كان المقصود من تلك الإجابة الإطراء.

الفصل الرابع

مشروع البيت

خرج «سومز فورسايت» من باب داره الأمامي، الأخضر الطلاء، بعد ثلاثة أيام مضت على وليمة «سويذن». وإذ نظر إلى الوراء عبر الميدان أقر ما انطبع في نفسه من أن المنزل يحتاج إلى دهان.

كان قد ترك زوجته جالسة على أريكتها في غرفة الاستقبال، ويداها متقاطعتان فوق حجرها. وبدا أنها تنتظر خروجه. ولم يكن ذلك غير عادي، فهو في الواقع يحدث كل يوم.

ولم يستطع أن يدرك أي سوء تجده فيه.

هلَّا كان الأمر كأنما هو يعاقر الخمر! أهو يتورط في الديون، أو يقامر أو يكيل السباب؟ أكان قاسيًا؟ أكان ينتقي الأصدقاء السادرين؟ أكان يسهر الليالي خارج البيت؟ إن الأمر على عكس ذلك.

إن النفور العميق المقموع الذي يحس أن زوجته تكنه له كان سرًّا غامضًا في نظره، ومصدرًا لأهول أنواع الاضطراب. أما أنها أخطأت في تزوجه، ولم تكن تحبه، وحاولت أن تحبه فعجزت عن ذلك، فإن هذا ليس سببًا في هذا النفور كما هو واضح.

ومن يستطيع أن يتصور أن عدم مسايرة زوجته له يرجع إلى مثل هذا السبب المستهجن إلى حد بعيد، لا ينتمي إلى أسرة «فورسايت» بالتأكيد.

ولذلك اضطر «سومز» إلى إلقاء عبء اللوم كله على زوجته، فهو لم يلتقِ قط بامرأة قادرة إلى هذا الحد على بعث الحب في النفوس. فهما لا يمكن أن يذهبا إلى أي مكان دون أن يراها كيف تجتذب الرجال، ويرى نظراتهم وتصرفاتهم وأصواتهم تفشي سرهم. وكان سلوكها إزاء هذا الاهتمام بها فوق الملام. وهو قطعًا لم يخطر له حتى أنها واحدة من أولئك السيدات ـ اللواتي لا يكثر وجودهن بين الجنس الأنجلوسكسوني ـ أولئك السيدات اللواتي ولدن ليعشقهن الرجال وليعشقن، واللواتي لا يعشن إلا إذا عشقن. وهو يعد قدرتها على اجتذاب الناس جزءًا متممًا لقيمتها، باعتبارها أيضًا مِلكًا له.

ولكن تلك القدرة جعلته في الواقع يشك في أنها يمكن أن تعطي كما تأخذ، وهي لم تعطه شيئًا! وكانت الفكرة التي تلازمه هي: «لماذا تزوجتني إذن؟». لقد نسي مغازلته. نسي ما وقع منذ عام ونصف عام عندما حاصرها، وظل ينتظرها، مدبرًا الخطط لتسليتها، واهبًا لها الهبات، عارضًا عليها الزواج دورًا بعد دور، مبعدًا عنها عاشقيها بدوام ملازمتها.

لقد نسي يوم أن انتهز في مهارة فرصة نفورها على نحو شديد من ملابساتها العائلية، فتوج جهوده بالانتصار. وإذ تذكر شيئًا فهو يتذكر النزوات العسيرة الإرضاء التي عاملته بها الفتاة ذات الشعر الذهبي، والعينين الداكنتين. بيد أنه لا يتذكر، دون ريب، تلك النظرة ـ الغريبة المستسلمة المستجيرة ـ التي ارتسمت على وجهها عندما أذعنت فجأة في يوم من الأيام، وقالت إنها ستتزوجه.

لقد كانت خطبة من تلك الخطب المخلصة التي تمتدحها الكتب، ويمتدحها الناس، خطبة يكافأ فيها المحب على طرق الحديد حتى يلين، ولا بد أن يسعد الجميع بعد أن تدق أجراس الزفاف.

وسار «سومز» مشرقًا، مترقبًا في إصرار وهو يسير في جانب الطريق الظليل.

البيت في حاجة إلى الإصلاح إلا إذا قرر الانتقال إلى الريف، وبناء بيت هناك.

وللمرة المائة في هذا الشهر أخذ يقلِّب هذه المسألة، فليس ثمة من فائدة في الاندفاع إلى الأمور! كان ميسور الحال جدًّا، وبلغ دخله المتزايد ثلاثة آلاف جنيه في العام الواحد. ولكن رأس ماله المستثمر لم يبلغ قدرًا كبيرًا كالذي يعتقده أبوه، كان «جيمس» يميل إلى التوقع من أولاده أن يكونوا بلا مراء أيسر حالًا مما هم عليه.

وخطر له: «أنا أستطيع تدبير ثمانية آلاف من الجنيهات في سهولة دون استشارة «روبرتسون» أو «نيكولاس»».

وتوقف ليتفقد محتويات دكان لبيع الصور، ذلك أن «سومز» من هواة الصور. وكانت له غرفة في منزله رقم ٦٢ بميدان «مونبيلييه» ملأى بلوحات رُصَّت إلى جانب الحوائط، إذ لم يتسع مكان لتعليقها.

وكان يجيء بها لدى عودته من المدينة، بعد أن يخيم الظلام عادة، وكان يدخل تلك الغرفة، عصر كل أحد ليقضي الساعات مديرًا الصور صوب النور، ممتحنًا العلامات في ظهرها، مدوِّنًا الملاحظات بين حين وحين.

وكان العدد الغالب من هذه الصور يمثل مناظر طبيعية تتصدرها وجوه آدمية، ولعل ذلك دليل على ثورة خفية ما على لندن، ومنازلها العالية، وشوارعها التي لا تنتهي، حيث تنسلخ حياته وحياة أفراد أسرته وأفراد طبقته. وكان من وقت لآخر يحمل إلى العربة صورة أو صورتين، ويتوقف بهما عند «جوبسون» وهو في طريقه إلى المدينة.

ولم يكن يعرض صوره على أحد إلا نادرًا؛ أما «آيرين» التي كان يقدر رأيها في سره، ولذلك لم يكن يستطلعه قط، فهي لم تذهب إلى تلك الغرفة إلا في المناسبات النادرة قيامًا ببعض واجبات الزوجة. ولم يطلب إليها أن تشاهد الصور، وهي لم تشاهدها قط. وأحدث ذلك كدرًا جديدًا لـ«سومز». لقد كان يكره كبرياءها هذه، ويخشاها سرًّا.

وانتصبت صورته، ونظرت إليه من اللوح الزجاجي بنافذة دكان الصور.

كان لشعره الناعم، تحت حافة قبعته الطويلة، بريق شبيه ببريق القبعة نفسها. وكانت وجنتاه الشاحبتان المسطحتان، وخط شفتيه الحليقتين، وذقنه الثابت، الأشهب اللون من أثر الحلاقة، وإحكام تزرير سترته السوداء المهيأة التفصيل. كان ذلك يتكشف عن مظهر للانطواء المتحفظ، والاتزان الرزين المفروض. ولكن عيني صورته الباردتين الشهباوين المتوترتي الهيئة، اللتين يقوم بينهما خط في جبينه، جعلتا تمتحنانه في اهتمام، وكأنهما تعرفان سر ضعف فيه.

واهتم بموضوعات الصور، وأسماء الرسامين، وحسب حساب أثمانها، ولكن دون الشعور بالرضا الذي اعتاد أن يستخلصه من ذلك التقدير الباطني، ومضى إلى سبيله.

وغرفة المنزل رقم ٦٢ تصلح لمدة عام آخر، فيما إذا قرر أن يبني منزلًا. والوقت ملائم للبناء، والمال لم يكن عزيزًا بمثل هذا القدر منذ سنوات. والموقع الذي رآه في «روبن هل» عندما ذهب إلى هناك في الربيع ليتفقد رهن «نيكول»، أيمكن أن يكون هناك موقع يفضله؟ والأرض الواقعة في نطاق اثني عشر ميلًا من «هايد بارك كورنر»، سترتفع قيمتها دون مراء، وسيستطيع دائمًا أن يحصل منها على ثمن أعلى مما دفعه في شرائها. وعلى ذلك يكون تشييد المنزل؛ فيما إذا بُني على نمط جيد حقًّا، استثمارًا من الطراز الأول.

وفكرة أنه سينفرد بين أفراد أسرته بامتلاك بيت ريفي كانت غير ذات وزن كبير في نظره؛ ذلك أن الشعور عند «الفورسايتي» الحقيقي، حتى الشعور بالمكانة الاجتماعية، ترف لا ينغمس فيه إلا بعد أن يُشبع اشتهاءه لمزيد من المتع المادية.

والخروج بـ«آيرين» من لندن، بعيدًا عن التجول ورؤية الناس، بعيدًا عن أصدقائها وعمن يبثون في رأسها الأفكار المفسدة! هذا هو بيت القصيد!

كانت مكينة الصلة بـ«جون»! و«جون» تكرهه، وهو يبادلها عاطفتها. كان يجري في عروقهما دم واحد.

إن الخروج بـ«آيرين» من المدينة يحقق كل شيء. والبيت سيرضيها، وسوف تستمتع بالانغماس في تزيين المنزل، إنها فنية الذوق إلى حد كبير!

ولا بد أن يكون المنزل جيد الطراز، أن يكون شيئًا يستطيع، دون ريب، أن يفرض دائمًا ثمنًا كبيرًا، شيئًا فريدًا مثل منزل «باركيس» الأخير الذي كان له برج، بيد أن «باركيس» نفسه قال إن مهندسه المعماري يجلب الخراب. وإنك لا تستطيع أن تعرف أين موضع قدمك مع أولئك الأشخاص، فهم إذا ذاعت شهرتهم دفعوك إلى إنفاق مبالغ لا نهاية لها، وركبهم الغرور في قيامهم بالصفقة. مكتبة سُر مَن قرأ

والمهندس المعماري العادي لا يصلح، وذكرى برج منزل «باركيس» حالت دون استخدامه لمهندس معماري عادي.

وهذا هو السبب الذي دعاه إلى التفكير في «بوزيني»، وقد قام بتحريات منذ حفلة عشاء «سويذن»، وانتهى إلى نتيجة غير عظيمة، ولكنها مشجعة:

ـ هو من المدرسة الجديدة.

ـ أهو بارع؟

ـ بارع إلى الحد الذي يعجبك، وهو ذائع الصيت قليلًا... قليلًا.

وهو لم يستطع أن يتبين أي منازل بناها «بوزيني»، وما الأثمان التي يطلبها. والأثر الذي استخلصه هو أنه سيستطيع أن يضع شروطه. وكان يزداد ميلًا إلى الفكرة كلما ازداد تفكيرًا فيها. ثم إن المسألة ستبقى في نطاق الأسرة، وهذا الاتجاه يكاد يكون فطريًا في أسرة «فورسايت»؛ وهو يستطيع الوصول إلى شروط، إن لم تكن «اعتبارية» فحسب، فهي في مصلحة الطرفين، شروط عادلة ليس إلا، نظرًا إلى الفرصة التي ستتيح لـ«بوزيني» أن يُظهر مواهبه، ذلك أن هذا المنزل لن يكون بناية عادية.

وفكر «سومز» مغتبطًا في العمل الذي لا شك أن ذلك الشاب سيقوم به.

ومرجع ذلك أن «سومز»، ككل فرد من أسرة «فورسايت»، يمكن أن يصبح متفائلًا تمامًا عندما تكون هناك أي فائدة يمكن استخلاصها.

ومكتب «بوزيني» يقع في شارع «سلون»، على مقربة من «سومز»، وعلى ذلك سيتمكن هذا الأخير من أن يراقب مشروعات البناء دون انقطاع.

و«آيرين» أيضًا لا يحتمل أن تعترض على مغادرة لندن إذا كان عاشق أعز صديقاتها هو الذي سيعهد إليه أن يقوم بالمهمة. وقد يتوقف زواج «جون» على قيامه به. ولا يمكن أن يليق بـ«آيرين» الوقوف حجر عثرة في طريق زواج «جون»، لا يمكن أن تُقدم على ذلك أبدًا، فهو يعرفها خير معرفة. وستُسر «جون» بالأمر. وهو لم يغب عنه وجه المصلحة في ذلك.

ويبدو على «بوزيني» أنه بارع. ولكن كان يبدو أيضًا ـ وهذه صفة من أهم الصفات التي تجذب الناس إليه ـ كان يبدو كأنه لا يعرف تمامًا وجه مصلحته؛ ولا بد أن يسهل التعامل معه في المسائل المالية. ولم يستغرق «سومز» في هذه التأملات مدفوعًا بروح الغش؛ فهذه كانت عقليته الطبيعية ـ عقلية رجل الأعمال الناجح ـ وعقلية جميع رجال الأعمال الناجحين الذين كان يسلك طريقه إليهم في «لدجيت هل».

وهكذا حقق القوانين العويصة الخاصة بطبقته الكبيرة ـ وبالطبيعة البشرية نفسها ـ حقق ذلك عندما خطر له وهو يشعر بالراحة، أنه يمكن التعامل مع «بوزيني» بسهولة في المسائل المالية.

وبينما كان يشق طريقه قدمًا اجتذبت عينيه ـ اللتين اعتاد أن يثبتهما دائمًا في الأرض الواقعة أمام قدميه ـ قبة كنيسة «سانت بول». كانت لهذه القبة القديمة جاذبية خاصة تجتذبه. وكان يتوقف، لا مرة واحدة وحسب بل مرتين أو ثلاث مرات ـ وهو في طريق حجه اليومي ـ كان يتوقف ليدخل تحتها، ويمكث في أركان أروقتها خمس دقائق، أو عشر دقائق، يتحرى خلالها الأسماء، والعبارات المكتوبة على الأنصاب. وكانت قدرة هذه الكنيسة الكبيرة على اجتذابه تستعصي على التفسير، إلا إذا كان ذلك يمكنه

من تركيز أفكاره في الأعمال التي سيؤديها في يومه. فلو أن أي مهمة، ذات أهمية خاصة، أو تتطلب حدة ذهن خاصة، لو أن مثل هذه المهمة شغلت ذهنه فهو لا يتخلف في هذه الحالة عن دخول القبة، والتجول بين العبارات المكتوبة من عبارة إلى عبارة في انتباه كانتباه الفأر، وإذ يعود بعد ذلك بنفس الطريقة الصامتة، مواصلًا الصعود إلى «تشيسايد»، يتشبث بفكرة تدل مشيته على أنه أشد إصرارًا على تحقيقها، وكأنما رأى شيئًا استقر رأيه على شرائه.

ودخل القبة في هذا الصباح، وبدلًا من أن ينسل من نُصب إلى نُصب، رفع بصره إلى الأعمدة ومسافات الحيطان، وظل دون حراك.

وابيض وجهه المرفوع إلى أعلى، وهو في تلك الهيئة الخاشعة المهمومة التي تكتسي بها الوجوه في الكنائس، ابيضَّ حتى صار في لون الطباشير وسط ذلك البناء الفسيح. وكانت يداه المتدثرتان بقفاز تضمان يد مظلته. ورفعهما. ولعل إلهامًا سماويًّا ما هبط عليه. فقد خطر له: «نعم، لا بد أن تكون لي غرفة أعلق فيها لوحات صوري».

وعرج على مكتب «بوزيني» في ذلك المساء وهو في طريق عودته من المدينة، ووجد المهندس المعماري يرتدي قميصًا بلا سترة، ويدخن غليونًا، ويخطط تصميمًا لبناء، ورفض «سومز» أن يشرب كأسًا، وطرق الموضوع مباشرة:

ـ تعالَ معي إلى «روبن هل» يوم الأحد، إذا لم يكن ثمة عمل أفضل ستقوم به في ذلك اليوم، وصارحني برأيك في موقع للبناء هناك.

ـ أتزمع أن تبني؟

وقال «سومز»:

ـ ربما، ولكن لا تذع ذلك. أنا لا أريد إلا أخذ رأيك.

وقال المهندس المعماري:

ـ هكذا تمامًا.

وجال «سومز» ببصره في الغرفة، ولاحظ ما يلي:

ـ موقع مكتبك هنا مرتفع نوعًا ما.

وأية معلومات يمكن أن يجمعها عن طبيعة عمل «بوزيني» ومدى اتساعه تكون مفيدة على كل حال.

وأجاب المهندس المعماري:

ـ إنها مناسبة لي إلى الحد الكافي حتى الآن. وأنتم اعتدتم السمو.

ونفض غليونه، ولكنه وضعه خاليًا من التبغ بين أسنانه. ولعل ذلك يعينه على مواصلة الحديث. ولاحظ «سومز» أن خديه غائران، وكأنما نتج ذلك من مص الغليون. وقال:

ـ ماذا تدفع إيجارًا لمكتب كهذا؟

أجاب «بوزيني»:

ـ أدفع خمسين جنيهًا، وهذا أكثر من اللازم.

وأحدثت هذه الإجابة أثرًا طيبًا في نفس «سومز». وقال:

ـ أعتقد أن الشقة غالية الإيجار، سأمر بك يوم الأحد حوالي الساعة الحادية عشرة صباحًا.

وعلى ذلك جاء يوم الأحد التالي إلى «بوزيني» في مركبة من نوع «هانسوم»، وأقله إلى المحطة. ولم يجدا عربة عندما وصلا إلى «روبن هل»، وشرعا يقطعان مسافة الميل ونصف الميل إلى موقع البناء سيرًا على الأقدام.

وكان هذا اليوم هو الأول من شهر أغسطس ـ يومًا مكتمل الحسن، متوقد الشمس، صافي السماء ـ وكانت أقدامهما وهي تقطع الطريق المستقيم الضيق المؤدي إلى التل تركل غبارًا أصفر اللون.

ولاحظ «سومز» وهو يسرق النظر إلى السترة التي يرتديها «بوزيني»: «تربة رملية».

وكانت رزم الأوراق مدسوسة في الجيوب الجانبية لتلك السترة، وحمل

«بوزيني» تحت إبط من إبطيه عصا غريبة الشكل، وألقى «سومز» بالًا لكل هذه الخصائص.

لا يمكن أن يجترئ أحد على الظهور بهذا المظهر إلا أن يكون رجلًا حاذقًا، أو يكون «قرصانًا» حقًّا. وبرغم أن «سومز» كان ساخطًا على مظاهر هذا الشذوذ، فقد استخلص منها شيئًا من الرضا على أساس دلالتها على صفات ينبغي دون ريب أن يفيد منها. وما دام الفتى يستطيع أن يبني المنازل، فما أهمية ملابسه؟ وقال:

ـ قلت لك إني أريد أن يكون بناء هذا المنزل مفاجأة، وعلى ذلك لا تقل شيئًا عنه، أنا لا أتحدث أبدًا عن مشروعاتي إلا بعد تنفيذها.

وأومأ «بوزيني» برأسه. وواصل «سومز» قوله:

ـ دع النساء يتدخلن في مشروعاتك، فلا تعرف على أي وجه تنتهي.

وقال «بوزيني»:

ـ آه! النساء شياطين!

وكان هذا الشعور كامنًا في قرارة نفس «سومز»، ولكنه مع ذلك لم يبرزه قط في عبارات. وغمغم:

ـ أوه! أنت قد بدأت إذن...

وتوقف عن القول، ثم أضاف، عاجزًا عن السيطرة على انفجار حقده:

ـ إن لـ«جون» مزاجًا خاصًّا بها، وكان لها هذا المزاج دائمًا.

ـ المزاج ليس بالصفة السيئة في ملاك!

إن «سومز» لم يدع «آيرين» ملاكًا قط، ولم يكن يجمل به أن ينتهك أفضل غرائزه على هذا النحو بسماحه للآخرين أن يدركوا سر قيمتها، ويغدر هو بنفسه، ولم يحر جوابًا.

وضربا في طريق نصف ممهد، يمتد عبر أرض للصيد. وبدت آثار عربة قادتهما عند الزوايا القائمة إلى حفرة رملية ارتفعت من ورائها مداخن الأكواخ بين جملة أشجار قائمة على حدود غابة كثيفة. وكست أديم الأرض الخشن

لمم من الحشيش الشبيه بالريش، وخرجت من تلك اللمم قنابر محلقة في سديم أشعة الشمس. وقام عند الأفق البعيد، فوق حقول وحواجز لا حصر لتتابعها، صف من الكثبان.

وتولى «سومز» القيادة حتى عبرا الطريق إلى الناحية البعيدة، وتوقف هناك حيث يقوم الموقع المختار؛ ولكن القلق عراه عندما أصبح الآن على وشك الإبانة عن بقعة الأرض لرجل آخر. وقال:

ـ يعيش وكيل الأعمال في هذا الكوخ. وسيقدم لنا شيئًا من الطعام للغداء، ويحسن بنا أن نتغدى قبل الخوض في هذا الموضوع.

وقاد زميله من جديد إلى الكوخ حيث رحب بهما وكيل الأعمال، وهو رجل طويل يدعى «أولفر»، ذو وجه بليد، ولحية خطها الشيب. ولم يتحول بصر «سومز» عن «بوزيني» في أثناء الغداء الذي لم يكد يمسه، ومر بمنديله الحريري خلسة على جبينه، مرة أو مرتين. وانتهوا من تناول الطعام، ونهض «بوزيني». وقال:

ـ قد تكون لكما أعمال تريدان التحدث عنها، وسأذهب أنا الآن، وأتشمم المكان قليلًا.

وسار إلى الخارج دون أن ينتظر جوابًا.

وكان «سومز» محامي أصحاب هذا المِلك. وقضى ما يقرب من ساعة في صحبة وكيل الأعمال، ممتحنًا خرائط للأرض، متباحثًا في رهن «نيكول» وغيره من الرهون. ثم طرق مسألة «موقع» البناء وكأنما حدث ذلك بناء على فكرة طارئة. وقال:

ـ ينبغي لأُناسك أن يخفضوا لي السعر نظرًا إلى أني سأكون أول من يقوم بالبناء.

وهز «أولفر» رأسه وقال:

ـ الأرض التي وقع عليها اختيارك يا سيدي هي أرخص أراضينا سعرًا. ومواقع قمة المنحدر أغلى سعرًا بمقدار كبير.

وقال «سومز»:

ـ لا يفُتْك أني لم أبت في الأمر بعد، ومن الممكن تمامًا ألا أبني بتاتًا، فإن سعر الأرض مرتفع جدًّا.

ـ حسنًا، يا سيد «فورسايت». إذا تركت الأرض فسيؤسفني ذلك، وأظنك سترتكب بذلك خطأ يا سيدي. وإذا راعينا الأمر من جميع النواحي فليس هناك قطعة صغيرة من الأرض، على مقربة من لندن، تطل على مثل هذا المنظر الطبيعي، وتباع بثمن أرخص. وما علينا إلا أن نعلن عنها ليتهافت عليها جمع غفير من الناس.

ونظر كل منهما إلى الآخر. وقال وجه كل منهما في صراحة: «إني أحترمك بحسبانك رجل أعمال، ولكن لا يمكنك أن تنتظر مني تصديق كلمة مما تقول».

وكرر «سومز» قوله:

ـ حسنًا، إني لم أبت في الأمر بعد، ومن المحتمل جدًّا ألا تنعقد الصفقة.

وبهذه الكلمات وضع يده الباردة في يد وكيل الأعمال، متناولًا مظلته، وسحبها دون أن يضغط يد مصافحه أقل ضغطة، وخرج إلى أشعة الشمس.

وسار سيرًا بطيئًا صوب الموقع المختار، مستغرقًا في التفكير. وقد دلته غريزته على أن ما قاله وكيل الأعمال صحيح. فهذا موقع رخيص السعر. ووجه الجمال في الموضوع كونه يعلم أن وكيل الأعمال لم يكن يعتقد حقيقة الأمر أن السعر رخيص؛ وعلى ذلك يكون إدراكه الفطري قد انتصر على إدراك وكيل الأعمال.

وخطر بباله: «رخيصة أو غير رخيصة، فإني أنوي شراءها».

وطارت القنابر من أمام قدميه، وكان الجو مملوءًا بالفراشات، وفاح عبير عذب من الحشائش البرية. وتسربت رائحة السرخس الغضة من الغابة حيث كانت هناك حمائم تسجع وهي مختبئة في الأغوار. وحمل النسيم الدافئ من بعيد دقات أجراس الكنيسة المنتظمة.

وسار «سومز» وعيناه مصوبتان إلى الأرض. وكان يفتح شفتيه ويغلقهما كأنما يتوقع لقمة لذيذة. ولكنه لم يرَ أثرًا لـ«بوزيني» عندما وصل إلى الموقع المقصود. وعبر الأرض المخصصة للصيد، بعد أن انتظر مدة قصيرة، وسار في اتجاه المنحدر. وأراد أن يصيح مناديًا، ولكنه خاف من وقع صوته.

وكانت أرض الصيد خالية كالفلاة. ولم يقطع الصمت المخيم عليها إلا حفيف الأرانب وهي تهرب إلى جحورها، وإلا سجع القنابر.

وشعر «سومز» الرائد القائد لجيش «فورسايت» الكبير المتقدم لتحضير تلك الفلاة، شعر بروحه تفزع من هذه العزلة، ومن الغناء غير المنظور المصدر، ومن النسيم الساخن العذب. وكان قد بدأ يعود أدراجه عندما وقع بصره آخر الأمر على «بوزيني».

كان المهندس المعماري مستلقيًا تحت شجرة بلوط ضخمة قام جذعها على حافة المرتفع، وهو جذع مكلل بالأفرع المقوسة والأوراق الواسعة الامتداد، مجعد بفعل الزمن.

وكان على «سومز» أن يلمس كتفه حتى ينظر إلى أعلى ويقول:

ـ هالو! يا «فورسايت»، إني وجدت المكان الملائم تمامًا لمنزلك! انظر!

ووقف «سومز» ونظر. ثم قال في فتور:

ـ قد تكون حاذقًا، ولكن هذا الموقع سيكلفني ضعف ثمن الموقع الآخر.

ـ سحقًا للثمن يا رجل. تطلع إلى المنظر!

كان ينبسط من عند قدميهما تقريبًا، قمح ناضج يغوص بعد ذلك في أكمة صغيرة سوداء. وهناك سهل من الحقول والحواجز يمتد إلى الفلاة الزرقاء الرمادية البعيدة. ويستطيع المرء أن يتبين في الشريط الفضي الواقع إلى اليمين مجرى نهر.

وكانت السماء شديدة الزرقة، والشمس شديدة السطوع إلى حد بدا معه أن صيفًا أبديًّا يخيم على ذلك المشهد. وحام حولهما زغب العوسج مفتونًا بصفاء أثير الهواء ورقص الجو الحار فوق القمح. وساد كل شيء

طنين رخيم هامد يشبه خرير الدقائق الساطعة التي تمرح وتقصف بين الأرض والسماء.

ونظر «سومز»، وجاش شيء في صدره بالرغم منه، العيش هنا! ورؤية كل هذا! وإمكان إبدائه للأصدقاء! والتحدث عنه، وتملكه! واصطبغت وجنتاه بالحمرة. وتغلغل الدفء والإشراق والتوهج إلى حواسه، كما تغلغل جمال «آيرين» إلى حواسه منذ أربع سنوات خلت، وجعله يتوق إليها. واختلس نظرة إلى «بوزيني» الذي بدت عيناه الشبيهتان بعيني النمر نصف المروض كأنما أضرهما المنظر الطبيعي. وكان ضوء الشمس قد أدرك ما برز من قسمات وجه الفتى، أدرك عظمتي خديه الناتئتين، وطرف ذقنه، والخطين العموديين فوق جبينه، وراقب «سومز» ذلك الوجه العنيف المتحمس المستهتر، شاعرًا بعدم الارتياح إليه.

وسرى على القمح تموُّج من الريح ناعم ممتد، ولفح وجهيهما بهبة هواء ساخنة.

وقال «بوزيني»، قاطعًا حبل الصمت في النهاية:

ـ أنا أستطيع أن أبني لك هنا منزلًا يغيظ الناس.

وأجاب «سومز» بخشونة:

ـ لعل السبب أنك لن تُرغم على دفع نفقات ذلك.

ـ أستطيع أن أبني لك قصرًا بمبلغ يقرب من ثمانية آلاف.

واشتد شحوب «سومز»، فقد نشب صراع داخل نفسه. وأرخى بصره، وقال متشبثًا برأيه:

ـ أنا لا أستطيع بذل هذا المبلغ.

وسار في بطء، وهو يسترق الخطى في مشيته كعادته، عائدًا أدراجه إلى الموقع الأول.

وأمضيا هناك بعض الوقت، خائضين في تفصيلات مشروع المنزل، ثم عاد «سومز» إلى كوخ وكيل الأعمال.

وخرج بعد زهاء نصف ساعة، ومضى مع «بوزيني» إلى المحطة بعد أن لحق به.

وقال وهو يفتح شفتيه بصعوبة:

ـ حسنًا، إني اقتنيت موقعك على أي حال.

ولاذ بالصمت ثانية وهو يناقش نفسه مرتبكًا كيف حدث أن تمكن هذا الفتى الذي يحتقره عادة من أن يتغلب على قراره هو نفسه.

الفصل الخامس

حياة «سومز فورسايت» المنزلية

كان «سومز فورسايت»، كغيره من آلاف المستنيرين من أفراد أسرته وجيله في مدينة لندن العظيمة هذه، أولئك الذين لم يعودوا يؤمنون بالمقاعد المكسوة بالمخمل الأحمر، وأصبحوا يعرفون أن الطراز الإيطالي الحديث للتماثيل المرمرية المجتمعة «طراز عتيق». كان يقطن في منزل ملائم على قدر ما يستطيع، كانت لهذا المنزل مطرقة نحاسية مرسومة على نحو خاص، ونوافذ جرى تعديلها ليمكن فتحها إلى الخارج، وأوعية للأزهار معلقة تضم نبات الفوشية. ويقع خلفه فناء صغير (منظر عظيم) مفروش بحجر بلون اليشب الأخضر، ومحاط بنباتات الهدرانج الوردية المغروسة في أوعية ذات لون أخضر كلون الطاووس. وهنا تحت عريشة بيضاء اللون، يابانية الطراز، تغطي آخر الفناء بأكمله، يتيسر لسكان المنزل وزواره أن يستتروا عن أعين الفضوليين عندما يتناولون الشاي، ويمتحنون، وهم مستمتعون بالراحة، آخر ما جلبه «سومز» من العلب الفضية الصغيرة.

والزخارف الداخلية كانت أميل إلى زخارف عهد «الإمبراطورية الأولى الفرنسية» وزخارف «وليم موريس». والمنزل مريح من ناحية مساحته. وهو يشتمل على عدد لا يحصى من الأركان الشبيهة بعشاش العصافير، وعلى أشياء صغيرة، مصنوعة من فضة، مستقرة كالبيض.

وفي وسط هذا الكمال الشامل اشتعلت الحرب بين نوعين من التعنت. فهناك تعيش سيدة يمكن أن تقطن متنعمة في جزيرة مهجورة. وهناك سيد كان تأنقه في معيشته ـ كما هي الحال ـ أشبه شيء بالاستثمار الذي ينميه صاحبه تحقيقًا لمصلحته طبقًا لقانون المنافسة، وتأنق المنافسة هذا هو الذي جعل «سومز» ـ أيام عاش في «مالبورا» ـ أول غلام يرتدي الصدار الأبيض صيفًا، والصدار المخملي شتاء. وهو الذي منعه من أن يظهر أمام الناس ورباط عنقه معلق بأعلى ياقته. وحمله على نفض التراب عن حذائه الجلدي الممتاز قبل تجمع الحشود الغفيرة «يوم الخطابة» ليستمعوا إليه وهو ينشد أشعار موليير.

واشتد اهتمام «سومز» بنظافة جلده كما حدث ذلك لكثيرين من أهالي لندن. فمن المستحيل أن يراه المرء وقد بدت شعرة منه في غير موضعها، أو انحرف رباط رقبته قيد أنملة عن الوضع العمودي، أو لبس «ياقة» غير مصقولة! وهو لم يكن ليهمل الاستحمام نظير أي ثمن مهما غلا ـ وكانت عادة الناس المستحدثة أن يستحموا ـ وكم كانت سخريته ممن يهملون الاستحمام مريرة.

بيد أنه كان من الميسور له تصور «آيرين» وهي تستحم، كحورية من الحوريات، في جدول على جانب الطريق، طلبًا لمتعة الابتراد، ورؤيتها لجسدها البديع.

وفي هذا الصراع الدائر في كل ناحية من نواحي المنزل كُتب الفشل على المرأة، وهو صراع كالذي لا يزال يدور في الأمة بين السكسونيين والكلتيين، قد فرض عليه الطبع الأشد تأثرًا واستجابة بناء علويًا تقليديًّا.

وعلى ذلك اكتسب المنزل شبهًا قريبًا لمئات المنازل الأخرى، وصار له نفس التطلع السامي، إذ صار: «ذلك المنزل الصغير الساحر المملوك لـ«سومز فورسايت»، ذلك المنزل الفريد المثال تمامًا، يا عزيزي، الأنيق بحق!».

أما عن اسم «سومز فورسايت» ـ فاقرأ بدلًا عنه: «جيمس بيبودي»، أو «توماس أتكينز» أو «إيمانويل سبانيوليتي» ـ فهو في الواقع اسم لا يختلف عن اسم أي إنجليزي في لندن من أفراد الطبقة فوق المتوسطة، مع ادعائها الشديد للذوق السليم وبرغم أن النقش مختلف فإن العبارة هي ذاتها تمامًا.

وفي مساء اليوم الثامن من أغسطس، بعد مرور أسبوع على الرحلة إلى «روبن هل» جلس «سومز» و«آيرين» يتناولان عشاءهما في غرفة الطعام بذلك المنزل، «ذلك المنزل الفريد المثال تمامًا، يا عزيزي، الأنيق بحق!».

وكان تقديم الغداء ساخنًا أيام الآحاد كياسة مشرفة مألوفة في هذا المنزل كما هي مألوفة في منازل كثيرة غيره. وقد وضع «سومز» في إبان حياته الزوجية هذه القاعدة: «ينبغي للخدم أن يقدموا لنا طعامًا ساخنًا في أيام الآحاد، فهم ليس لهم عمل يؤدونه إلا عزف موسيقى «الكونشيرتو»».

ولم تُحدث هذه العادة أي ثورة، ذلك أن الخدم ـ وهذه علامة حرية أن تكون مؤسفة بالنسبة لـ«سومز» ـ كانوا يخلصون لـ«آيرين» التي بدا أنها تقر حقهم في أن يكون لهم نصيب في نزوات الطبيعة الإنسانية، متحدية بذلك جميع التقاليد المأمونة.

ولم يجلس الزوجان السعيدان وجهًا لوجه، ولكنهما جلسا إلى المائدة المصنوعة من خشب البقم، متخذين شكلًا قائم الزاوية وتغديا مرتديين ملابسهما العادية ـ وهذه كياسة مميزة ـ ولم ينبسا بكلمة إلى الآن.

وكان «سومز» يميل في أثناء الغداء إلى التحدث عن الأعمال، أو عما هو بصدد شرائه. ولم يكن صمت «آيرين» يكدره ما دام يتحدث. وفي هذا المساء وجد نفسه عاجزًا عن الكلام. وقد ظل عزمه على بناء المنزل يرهق ذهنه طوال الأسبوع، واستقر رأيه على إخبارها بالأمر.

وكان انفعاله بسبب الإفضاء إليها بالأمر يزعجه إزعاجًا عميقًا، فليس من اختصاصها أن تجعله يحس مثل هذا الإحساس، إذ الزوج والزوجة

شخص واحد. وهي لم تنظر إليه نظرة واحدة منذ جلسا. وعجِب، أي شيء في الوجود ظلت تفكر فيه طوال هذا الوقت. فمن الصعب على رجل يعمل مثلما يعمل هو ليوفر لها المال ـ نعم، وبوخزة ألم في قلبه ـ أن يراها تجلس هناك وتنظر... تنظر كأن حيطان الغرفة ستطبق عليها، إن ذلك يكفي لحمل الرجل على النهوض ومغادرة المائدة.

وتساقط ضوء المصباح ذو الظلال الوردية على جيدها وذراعيها، وكان يعجب «سومز» أن تتناول زوجته الغداء مرتدية ثوبًا بسيطًا، فهذا يُحدث له شعورًا لا يوصف بالتميز عن جميع أصحابه الذين يسر زوجاتهم أن يتغدين في بيوتهن وهن يرتدين أحسن ثياب «الفروك» الفاخرة، أو فساتين حفلات الشاي. وكان شعرها «الكهرماني»، وجلدها الجميل، يتضادان تضادًّا غريبًا، تحت ذلك الضوء الوردي، مع لون عينيها الأشهب الداكن.

أيتيسر لإنسان أن يملك شيئًا أجمل من مائدة الطعام هذه بما لها من ألوان لطيفة، وما عليها من ورود ناعمة الأوراق، شبيهة بالنجوم، وفي أقداح زجاجية في لون الياقوت، ومن جهاز فضي أنيق؟ أيمكن لإنسان أن يملك شيئًا أجمل من المرأة التي تجلس إليها؟ إن عرفان الجميل ليس بالفضيلة المنتشرة بين أفراد أسرة «فورسايت» الذين لم تتح لهم فرصة التحلي بها وهم المتنافسون المفعمون بالإدراك العملي السليم. وكان «سومز» هو وحده الذي كابد الشعور بالسخط البالغ حد الألم، لأنه لم يملكها على نحو ما يبيح له حقه أن يملكها، ولأنه لا يستطيع أن يقتطفها، كما يفعل لو مد يده إلى تلك الوردة، وأن يشتم أعمق أسرار قلبها.

كان يستمد شعورًا خفيًّا أليفًا من كل أملاكه الأخرى، ومن كل الأشياء التي جمعها، من فضياته وصوره ومنازله وأمواله المستثمرة. ولكنه لم يحصل منها على شيء.

وفي بيته ترددت نبوءة في كل غرفة من غرفه. ومزاجه الذي هو أشبه بالمزاج العملي يعترض على إنذار خفي بأنها لم تُخلق له. إنه تزوج تلك

المرأة وتغلب عليها، وجعلها ملكًا خاصًّا به. وبدا له منافيًا لأهم القوانين الأساسية، وهو قانون التملك، ألا يستطيع فعل شيء إلا تملك جسدها، هذا فيما إذا استطاع ذلك فعلًا، وهو ما بدأ يشك فيه. وإذا سأله سائل أيريد أن يتملك روحها، فإن السؤال ليبدو له مضحكًا وعاطفيًّا معًا. ولكنه كان يريد ذلك فعلًا، والنبوءة المترددة في بيته تشير إلى أنه لن يستطيعه أبدًا.

وظلت صامتة مستسلمة، نافرة في لطف. وكأنها تجزع من أن تصدر منها كلمة أو حركة أو إشارة يمكن أن تحمله بها على الاعتقاد أنها مغرمة به. وساءل نفسه: ألا بد لي أن أواصل العيش على هذا النحو؟

كان الأدب يلون نظرته إلى الحياة، شأنه في ذلك شأن أغلب قراء القصص في هذا الجيل (و«سومز» كثير الإقبال على قراءة القصص)؛ وقد وطد اعتقاده بأن المسألة ليست إلا مسألة وقت. فالزوج يفوز دائمًا بحب زوجته في نهاية الأمر. وهناك صنف من الكتب، حتى في هذه الحالة ـ صنف من الكتب لا يميل إليه «سومز» كثيرًا ـ ينتهي بمأساة، إذ الزوجة تموت دائمًا وعلى شفتيها دلائل أسف موجع، أو إذا كان الزوج هو الذي يموت ـ وهذه فكرة غير سارة ـ فالزوجة تلقي بنفسها على جثته شاعرة بعذاب الندم.

وكان كثيرًا ما يصطحب «آيرين» إلى المسرح، ويختار بالغريزة مسرحيات المجتمع الحديثة المشتملة على مشكلات الزوجية الاجتماعية الحديثة. ومن حسن الحظ أنها تختلف جدًّا عن أي مشكلة زوجية تحدث في واقع الحياة. وقد وجدها هي أيضًا تنتهي على نحو واحد حتى حين يكون هناك عاشق في الأمر. وغالبًا ما كان «سومز» يعطف على العاشق وهو يشاهد المسرحية، ولكنه، قبل وصوله ثانية إلى بيته، كان يرى، وهو يستقل مع «آيرين» عربة بعجلتين، أن هذا لا يصح. ومن ثم يسعده أن المسرحية انتهت على نحو ما انتهت إليه. وكان هناك صنف واحد من الأزواج أصبح الطراز العصري الشائع، وهو صنف الزوج القوي، الأميل إلى الخشونة، ولكنه مع ذلك رجل متمكن إلى أقصى حد، يصادف النجاح على نحو خاص في آخر المسرحية.

ولم يكن «سومز» يميل في الواقع إلى ذلك الشخص. ولو أن الأمر لم يكن يتعلق بمركزه لعبر عن تقززه من الفتى، ولكنه كان يعي أشد الوعي كيف أن ضرورة صيرورته رجلًا ناجحًا، وزوجًا «قويًّا»، مسألة حيوية بالنسبة له، إلى حد أنه لم يتحدث قط عن نفور قد يكون وليد مختزن خفي من وحشية في نفسه أبرزته العمليات المنحرفة الجارية في الطبيعة.

ولكن صمت «آيرين» هذا المساء كان غير عادي. وهو لم ير قط من قبل مثل هذا التعبير مرتسمًا على وجهها. ولما كان الشيء غير العادي هو الذي يزعج، فقد انزعج «سومز». أكل طعامه اللذيذ، واستعجل الخادمة وهي تزيل فتات العيش بمجرفتها الفضية. وما غادرت الخادمة الغرفة حتى ملأ كأسه نبيذًا وقال:

ـ أحَضر إلى هنا أحد عصر اليوم؟

ـ «جون».

ـ أي شيء كانت تريد؟

وكانت القاعدة الأولية عند أسرة «فورسايت» أن الناس لا يتوجهون إلى أي مكان إلا إذا كانوا يريدون شيئًا.

ـ أجاءت لتتحدث عن حبيبها على ما أعتقد؟

ولم تحر «آيرين» جوابًا. وواصل «سومز» قوله:

ـ يبدو لي أنها تحبه أكثر مما يحبها. وهي لا تكف عن متابعته في كل مكان.

وجعلته عينا «آيرين» يشعر بعدم الراحة. وصاحت:

ـ ليس من شأنك أن تقول مثل هذا!

ـ ولمَ لا؟ الكل يستطيعون أن يروا ما قلت.

ـ إنهم لا يستطيعون ذلك، ولو استطاعوه فمن العار أن يقولوا ما قلته.

وعجز «سومز» عن تمالك نفسه، وقال:

ـ أنتِ زوجة جميلة!

ولكنه عجب في سره لحدة ردها، فهذا مغاير لعادتها. وأردف:

ـ أنتِ مفتونة بـ«جون» بيد أني أستطيع أن أقول لكِ شيئًا واحدًا، فما دامت أوقعت «القرصان» في حبائلها الآن، فهي لن تبالي بكِ فتيلًا، وستتبينين ذلك. ولكنك لن تريها كثيرًا في المستقبل لأننا سنقطن في الريف.

وسره أن يدلي بنبئه تحت ستار هذه الفورة الانفعالية. وتوقع أن تصيح صيحة فزع، فإذا الصمت الذي تلقت به عبارته يزعجه. واضطر إلى أن يضيف:

ـ يبدو أنك غير مهتمة بالأمر.

ـ كنت أعرفه من قبل.

ونظر إليها بحدة:

ـ من أنبأك به؟

ـ «جون».

ـ وكيف عرفته؟

ولم تجب «آيرين»، فقال مغلوبًا على أمره متضايقًا:

ـ هذا شيء جميل من «بوزيني»، وهو ما سيدلنا على حقيقته. وأحسبها أخبرتك بالأمر كله.

ـ نعم!

وسادت فترة صمت أخرى. ثم قال «سومز»:

ـ أحسبك لا تريدين أن تذهبي إلى الريف؟

ولم تحر «آيرين» جوابًا.

ـ حسنًا، أنا لم أعد أعرف ماذا تريدين. فأنت لا تبدين راضية أبدًا.

ـ هل لرغباتي أي علاقة بالأمر؟

وحملت «زهرية» الورود وخرجت من الغرفة. وظل «سومز» جالسًا. ألمثل هذا وقَّع العقد؟ ألمثل هذا سينفق زهاء ثمانية آلاف من الجنيهات؟ وعادت إليه عبارة «بوزيني»: «النساء شياطين!».

ولكنه لم يلبث أن أصبح أكثر هدوءًا، إذ كان يمكن أن يحدث ما هو أسوأ. كان يمكن أن تثور غاضبة. لقد توقع أن يحدث ما هو أسوأ من ذلك. وعلى أي حال، فمن حسن حظه أن «جون» أتاحت له فرصة الكلام. ولا بد أنها وقفت على الأمر من «بوزيني». كان يمكنه أن يعرف ذلك.

وأشعل سيجارة. إن «آيرين» لم تثر ضجة على أي حال! إنها ستذعن، وهذا أحسن ما فيها. إنها باردة الطبع، ولكنها ليست مشاكسة. وإذ نفخ دخان سيجارته في حشرة على المائدة المشرقة، استغرق في تأمل حول المنزل. ليست ثمة فائدة من إزعاج النفس، فهو سيذهب ويتم الأمر في التو. لا بد أنها تجلس هناك في الظلمة، تحت ظلال العريشة اليابانية، وتنسج في ليلة بديعة دافئة.

وكانت قد حضرت «جون» فعلًا في عصر ذلك اليوم، مؤتلقة العينين، قائلة: ««سومز» ظريف حقًّا! إنه لشيء رائع بالنسبة لـ«فيل»، العمل الملائم له تمامًا!».

وإذ ظلت «آيرين» متجهمة الوجه حائرة، واصلت «جون» قولها:

ـ بيتكم الجديد في «روبن هل» بالطبع. ماذا؟ ألم تعلمي بالأمر؟

ولم تكن «آيرين» تعلم به.

ـ أوه! أعتقد إذن أنه لم يكن ينبغي لي أن أنبئك به!

ثم صاحت وهي تنظر نافدة الصبر إلى صديقتها:

ـ إنك تبدين كأنك لا تبالين. ألا ترين أن ذلك هو ما كنت أرجوه، هو الفرصة التي كان يحتاج إليها طوال الوقت. وسترين الآن أي شيء يستطيع أن يصنعه.

وعند ذلك أفضت بالقصة كلها.

ولم يبدُ عليها، منذ خطبتها، أنها تهتم كثيرًا بحالة صديقتها، فقد كانت تكرس الساعات التي قضتها مع «آيرين» للإفضاء بأسرارها الخاصة. وكان يستحيل عليها في بعض الأحيان، مع كل ما تحسه من شفقة ودية، أن تبعد

عن ابتسامتها أثر استخفافها الرحيم بامرأة ارتكبت مثل ذلك الخطأ في حياتها، مثل ذلك الخطأ الجسيم المضحك.

وانفجرت «جون» ضاحكة، وارتعش وجهها الصغير في جذل:

ـ وسيقوم بأعمال الزخرفة جميعها أيضًا، ستُترك له حرية التصرف كاملة.

ورفعت يدها، ورتبت ستارًا حريريًّا، «أتعلمين أني سألت حتى عمي «جيمس»...» ولكنها توقفت عن الكلام شاعرة بنفور مفاجئ عند ذكر هذه الواقعة. ولم تلبث أن انصرفت إذ وجدت صديقتها غير متجاوبة معها. وكرَّت بنظرها ملتفتة من فوق الطوار، وكانت صديقتها لا تزال واقفة على عتبة الباب. ورفعت «آيرين» يدها إلى جبهتها ردًّا على تلويح صديقتها لها مودعة. وإذ دارت في بطء أغلقت الباب وراءها.

وعاد «سومز» في التو إلى غرفة الجلوس، وأطل عليها من النافذة.

وكانت تجلس ساكنة خارج ظل العريشة اليابانية، وتحرك الوشاح الشفاف الملقى على كتفيها البيضاوين متأثرًا بارتفاع صدرها وهبوطه المتواليين.

ولكن كان يبدو حول جلوس هذه المخلوقة صامتة في الظلام دفء وانفعال شعوري خفي، حتى لكأن كيانها كله كان يضطرب، وكأن بعض التغير كان يحدث في أعماقها.

وعاد متسللًا إلى غرفة الطعام دون أن تشعر به.

الفصل السادس

«جيمس» ينطلق

لم يمضِ وقت طويل قبل أن يدور حول الأسرة نبأ عزم «سومز» على البناء، وأن يحدث ذلك الاضطراب الذي لا بد أن يحدثه أي قرار متعلق بالملكية في محيط أسرة «فورسايت».

ولم يكن الخطأ خطأه، فإنه اعتزم ألا يعلم أحد بالأمر. وقد تحدثت عنه «جون»، إذ اكتظ به قلبها، إلى السيدة «سمول». وأذنت لها في إخبار العمة «آن» وحدها به، ظنًّا منها بأنه سيبهجها. العزيزة المسكينة! فالعمة «آن» لازمت غرفتها منذ أيام عديدة.

ونقلته السيدة «سمول» في الحال إلى العمة «آن» التي قالت بصوتها الواضح، المرتجف من الكبر، وهي تبتسم مستلقية على وسائدها:

ـ هذا أمر لطيف بالنسبة لـ«جون» العزيزة؛ ولكني أرجو أن تحترس هي وزوجها، فهو أحرى أن يكون خطرًا!

وعندما خلت إلى نفسها ثانية مر على وجهها قطوب شبيه بالسحابة التي تنذر بصباح مطير.

ولم تتوقف عملية شحن إرادتها طوال الوقت وهي راقدة في أثناء تلك الأيام العديدة. وامتدت إلى وجهها أيضًا. وظلت حركات التقبض تعمل في ركني شفتيها.

وكانت الخادمة المدعوة «سميذر»، التي قامت منذ صباها على خدمة العمة «آن»، والتي قيل عنها: ««سميذر» فتاة طيبة، ولكنها بطيئة جدًّا!». كانت الخادمة «سميذر» تقوم كل صباح، في مواظبة قصوى، بالقيام بـ«شعائر» ذلك التزيين القديم، وذلك بإخراج تلك الجدائل الرمادية الرثة من مخبأ صندوقها ذي الرباط الناصع البياض ـ وهي شعار الكرامة الشخصية ـ ووضعها بإحكام في يدي سيدتها، ثم النكوص على أعقابها.

وكان مرجوًّا من العمة «جولي» والعمة «هيستر» أن تحضرا كل يوم وتقدما تقريرًا عن «تيموثي»، وهل هناك أخبار عن «نيكولاس»، وهل نجحت «جون» في حمل «جوليون الكبير» الآن على تقصير أجل الخطبة ما دام «بوزيني» يقوم ببناء منزل «سومز»، وهل زوجة «روجر الصغير» حامل حقًّا، وكيف نجحت العملية التي أجريت لـ«آرشي»، وماذا صنع «سويذن» بشأن ذلك المنزل الخالي الذي يقع في شارع «ويجمور»، والذي أضاع مستأجره كل ماله، وأساء معاملته إلى هذا الحد الكبير، وأهم من ذلك ماذا عن «سومز»، ألا تزال «آيرين»... ألا تزال «آيرين» تطالب بغرفة نوم خاصة بها؟ وكان يقال للخادمة «سميذر» كل صباح: «سأنزل إلى الدور السفلي، يا «سميذر»، حوالي الساعة الثانية من بعد ظهر اليوم، وسأحتاج إلى مساعدتك بعد كل هذه الأيام التي قضيتها في الفراش!».

وبعد أن أخبرت السيدة «سمول» العمة «آن» بأمر المنزل، أفضت بالخبر كذلك، في سرية تامة، إلى السيدة «نيكولاس» التي عادت بدورها فسألت «وينيفريد دارتي» عن الخبر للتأكد من صحته، مفترضة بالطبع أن هذه الأخيرة، بحسبانها أخت «سومز»، لا بد أن تعرف كل شيء عن الموضوع. ووصل النبأ عن طريقها إلى أذن «جيمس» في الوقت المناسب فاضطرب لذلك اضطرابًا شديدًا.

وقال إن أحدًا لم يخبره بشيء قط. وبدلًا من أن يذهب مباشرة إلى «سومز» نفسه الذي كان يخشى عناده، تناول مظلته واتجه إلى منزل «تيموثي».

ووجد السيدة «سيبتموس» والسيدة «هيستر» (التي أحيطت علمًا بالأمر، وكانت أمينة جدًّا، وتجد القيل والقال متعبًا) وجدهما مستعدتين ومتلهفتين بالفعل على مناقشة النبأ. وكان من رأيهما أن استخدام «سومز» العزيز لـ«بوزيني» عمل طيب جدًّا، ولكنه خطر... أي اسم أطلقه عليه «جورج»؟ «القرصان»! كم هو اسم مضحك! ولكن «جورج» كان مضحكًا دائمًا! ومع ذلك فإن كل شيء سيظل محفوظًا في نطاق الأسرة. وكانوا يحسبون أنه لا بد لهم في الواقع من النظر إلى «بوزيني» على أنه ينتمي إلى الأسرة، برغم أن ذلك يبدو غريبًا.

وهنا قاطعهما «جيمس» قائلًا:

ـ ليس من أحد يعرف عنه شيئًا. وأنا لا أعرف ماذا يرجوه «سومز» من فتى كهذا. ولن يدهشني أن تكون لـ«آيرين» يد في الأمر. وإني سأتحدث في ذلك إلى...

وتدخلت العمة «جولي» قائلة:

ـ «سومز» قال لـ«بوزيني» إنه يرغب في عدم ذكر الأمر، وأنا واثقة من أنه يود ألا يجري حديث عنه. وإذا علم «تيموثي» بالنبأ فإنه سيتميز غيظًا، وأنا...

ووضع «جيمس» يده وراء أذنه، وقال:

ـ ماذا؟ إن الصمم أخذ ينتابني. وأحسب أني لا أسمع الناس. إن إصبع قدم «إميلي» تؤلمها، ولن نستطيع الرحيل إلى «ويلز» قبل آخر الشهر. هناك دائمًا عائق!

وإذ حصل على ما أراد أخذ قبعته وانصرف.

وكان عصر ذلك اليوم رائقًا. واجتاز «البارك» سائرًا صوب منزل «سومز» حيث كان ينوي أن يتغدى، ذلك لأن إصبع قدم «إميلي» تؤلمها، «راشيل» و«سيسيلي» ذهبتا إلى الريف في زيارة. واتخذ الطريق المنحدر من جانب «بيزوتر» في «رو» إلى «نايتسبريدج جيت»، عبر مرج يكسوه حشيش قصير

محترق، منقط بقطيع من الغنم السود، مبذور بعشاق يجلسون أزواجًا أزواجًا، وبمتشردين يرقدون منبطحين على وجوههم وكأنهم جثث ملقاة في ميدان قتال مرت عليه موجة معركة.

وسار مسرعًا، خافض الرأس، لا ينظر يمنة أو يسرة. ولم يُثر مرأى هذا المنتزه، مع أنه مركز معركته هو نفسه، حيث ظل يناضل طوال حياته، لم يُثر في ذهنه أي خاطر أو أي تأمل، وهذه الجثث الملقاة هناك خارج ضغط المعركة واضطرابها، وهؤلاء العشاق الجالسون أزواجًا، خدًّا إلى خد، منفقين ساعة من ساعات فراغ «إليزيوم»[1] انتزعوها من رتابة «آلة تعذيبهم»، كل هذا لم يوقظ في ذهنه أي تصورات. لقد تجاوز عهد هذا النوع من الخيال. وأنفه الشبيه بأنف الخروف، مشدود إلى المراعي التي يرتع فيها.

وقد أبدى أحد مستأجريه أخيرًا ميلًا إلى تأخير دفع الإيجار، وأصبحت المسألة خطيرة، أليس من الأفضل أن يطرده من المنزل في الحال، وبذلك يجازف بعدم تأجير المنزل ثانية قبل عيد الميلاد. وقد غش أحد المستأجرين «سويذن» غشًّا ذريعًا. ولكنه نال بذلك جزاءه الحق، لأنه ظل ساكتًا مدة طويلة جدًّا.

وفكر في ذلك وهو يسير مثابرًا، ممسكًا بمظلته من خشبتها، تحت انحناء مقبضها مباشرة، معتنيًا بذلك حتى يبعد طرفها عن الأرض، ولا ينحل حرير وسطها. وكان هذا الممر عبر المنتزه، وهو يقطعه بكتفيه النحيفتين المنحنيتين، ورجليه الطويلتين المتحركتين في إحكام آلي سريع، حيث تسطع الشمس وضاحة اللهب على مثل هذا العدد الكبير من مظاهر البطالة ـ على مثل هذا العدد الهائل من الشواهد الآدمية على معركة «التملك» التي تدور دون تأنيب ضمير وراء حلقتها ـ كان هذا أشبه بطيران عصفور بري عبر البحر.

وشعر بلمسة لذراعه لدى وصوله إلى «ألبرت جيت».

---

(١) الجنة في أساطير الإغريق. (المترجم).

كان ذلك هو «سومز» الذي ظهر فجأة إلى جانبه وهو يجتاز الجانب الظليل من شارع «بيكاديللي» حيث كان يسير عائدًا إلى بيته من مكتبه.

وقال «جيمس»:

ـ أمك تلزم الفراش، وكنت ذاهبًا الآن إليكم، ولكن أحسب أني سأضايقكم.

وكانت العلاقة الظاهرية بين «جيمس» وابنه تتسم بالافتقار إلى العاطفة، وذلك من خصائص أسرة «فورسايت»، ولكن برغم ذلك كله لم يكن هذا يعني بحال من الأحوال أن كليهما غير متعلق بالآخر. ولعل كلًّا منهما كان ينظر إلى الآخر على أنه مال مستثمر. ومما لا شك فيه أنه كان يهتم برخاء الآخر، ويسر بصحبته. وهما لم يتبادلا قط كلمتين عن مشكلات الحياة الألصق بهما. ولم يكشف أحدهما في حضور الآخر عن أي شعور عميق يعتمل في نفسه.

كان يربط بينهما شيء تعجز قدرة الكلمة عن تحليله. شيء مستتر في أعماق نسيج الأمم والأسر ـ لأن الدم كما يقولون أشد كثافة من الماء ـ ولم يكن أي منهما رجلًا بارد الدم. وفي الحق أن حب الأبناء أصبح عند «جيمس» الآن باعثه الرئيسي على التمسك بالحياة. وكان وجود مخلوقات هم أجزاء منه هو نفسه، مخلوقات يمكنه أن ينقل إليهم الأموال المدخرة. كان ذلك أساس توفيره؛ وهل يتبقى شيء للإنسان في سن الخامسة والسبعين يمكن أن يشعره بالسرور غير... التوفير؟ كان لب الحياة يكمن في هذا التوفير لأولاده.

لم يكن رجل أسلم عقلًا من «جيمس فورسايت»، برغم سوء حظه كله (ذلك إذا كانت الأعراض الرئيسية لسلامة العقل، كما قال لنا، هي حفظ النفس. وإن كان «تيموثي» قد ذهب في ذلك إلى مدى أبعد). لم يكن رجل أسلم منه عقلًا في لندن التي يدين لها بالشيء الكثير، والتي يحبها كل ذلك الحب الأبكم بحسبانها مركز الفرص السانحة له. كانت له سلامة العقل الفطرية الباهرة الخاصة بالطبقة الوسطى. وكان ينبض فيه ـ أكثر مما ينبض

في «جوليون»، مع ما له من إرادة متسلطة، ومن لحظات رقته وفلسفته، وأكثر مما ينبض في «سويذن»، شهيد تذبذبه، وفي «نيكولاس» الذي يعاني من فرط المقدرة، وفي «روجر»، ضحية المشروعات ـ كان ينبض فيه عرق المساومة الحقيقي. كان أقل إخوته تميزًا في مقدرته العقلية والشخصية، ومن ثم أصبح الشيء الأكثر احتمالًا أن يعيش إلى الأبد.

كان في نظر «جيمس»، أكثر مما كان في نظر أي واحد من إخوته الآخرين، عزيز «الأسرة» والعضو الهام من أعضائها. وكان موقفه من الحياة يشتمل دائمًا على شيء فطري مريح. فهو يحب مجلس مدفأة الأسرة، ويحب القيل والقال، ويحب التذمر، وهو يكون جميع قراراته من «القشطة» التي يكشطها من عقل الأسرة، وكذلك يكشطها، بوساطة الأسرة، من عقول آلاف الأسر الأخرى المفطورة من نسيج مشابه. وكان يذهب إلى منزل «تيموثي» عامًا بعد عام، وأسبوعًا بعد أسبوع، ويقعد في غرفة جلوس أخيه الأمامية ـ ورجلاه مثنيتان، وشاربه الأبيض الطويل يحيط بفمه الحليق ـ ويرقب أزيز إناء الأسرة، و«القشطة» ترتفع إلى السطح، ثم ينصرف وهو منيع الجانب، منتعش، مواسٍ، شاعر بأحاسيس عزاء لا توصف.

اتصف «جيمس» بشيء كثير من الدماثة الحقة المنطوية على غريزة «حفظ الذات» الصلبة. وزيارته لـ«تيموثي» كانت مثل قضاء ساعة في حجر الأم. وكان للهفته العميقة على حماية جناح الأسرة رد فعل على مشاعره حيال أبنائه. وإذا فكر في تعرضهم لسوء معاملة الحياة لهم فيما يتعلق بالمال أو الصحة أو حسن السمعة كان ذلك بمثابة «كابوس» له. وعندما تطوع ابن صديقه «جون ستريت» منخرطًا في سلك الخدمة العسكرية الخاصة، هز رأسه متحسرًا، وعجب ما الذي جعل «جون ستريت» يسمح بذلك. وعندما طُعن «ستريت الصغير» بحربة، تأثر تأثرًا شديدًا إلى حد أنه اهتم بالطواف في كل مكان قاصدًا على الأخص أن يقول: «كان يعلم كيف سينتهي به الأمر، إنه لم يطق الصبر عليهم!».

وعندما تعرض «دارتي»، زوج ابنته، لتلك الأزمة المالية من جراء المضاربة في أسهم الزيت، أمرض «جيمس» نفسه من قلقه على الأمر، وبدا له كأن جرس الحِداد دق معلنًا موت الرخاء بأسره. وتطلب منه تحسن صحته مرور ثلاثة أشهر، وزيارة إلى «بادن بادن». وكان هناك شيء مخيف في فكره أنه لولا ماله ـ أي مال «جيمس» ـ لأمكن أن يظهر اسم «دارتي» في كشف المفلسين.

وهو مركب من مزيج سيكولوجي مكين إلى حد أنه إذا أصيب بألم في أذنه ظن أنه يموت. وكان ينظر إلى العلل العرضية التي تصيب زوجته وأبناءه على أنها من طبيعة همومه الشخصية، ومن اختراعات القدر الخاصة التي تستهدف تدمير راحة باله. ولكنه لم يكن يؤمن قط بعلل الناس الخارجين عن نطاق أفراد أسرته الأقربين، مؤكدًا لهم في كل حالة مرضية أنها ترجع إلى إهمال علاج الكبد.

وكان تعليقه العمومي هو: «وماذا يمكن أن ينتظروا؟ أنا نفسي أصاب بها إذا لم أكن حريصًا!».

وشعر عندما ذهب إلى «سومز» في ذلك المساء بأن الحياة تشق عليه، فهناك «إميلي» بإصبع قدمها الموجعة. وهناك «راشيل» الهائمة على وجهها في الريف؛ إنه لا ينعم بعطف من أي إنسان. وأما «آن» فهي مريضة، وهو لا يعتقد أنها ستجتاز الصيف وهي على قيد الحياة. لقد ذهب إلى هناك زائرًا ثلاث مرات دون أن تتمكن في أثناء ذلك من رؤيته! وفكرة «سومز» هذه الخاصة ببناء منزل؛ «فذلك أمر» لا بد من النظر فيه. أما عن المتاعب مع «آيرين» فهو لم يكن ليعلم أي عاقبة ستسفر عنها، إن أي شيء يمكن أن يسفر عنها!

ودخل المنزل رقم ٦٢ بميدان «مونبيلييه»، عاقدًا كل نية على أن يكون شقيًا.

وكانت الساعة قد بلغت السابعة والنصف، وجلست «آيرين»، متزينة

بملابس العشاء، في غرفة الاستقبال. وكانت ترتدي سترتها ذات اللون الذهبي ـ ذلك أن تلك السترة التي جرى عرضها في وليمة عشاء، وفي سهرة وحفلة راقصة، أصبح لا بد أن تُلبس الآن في المنزل ـ وتزين صدرها بفيض من شفوف تعلقت بها عينا «جيمس» من فورهما.

وقال بصوت خطير:

ـ من أين تشترين أشياءك! إني لا أرى أبدًا «راشيل» و«سيسيلي» تبدوان في مظهر يبلغ في الحسن نصف مظهرك. ومشبك الزينة هذا، إنه ليس كريمًا!

واقتربت «آيرين» لتثبت له أنه مخطئ. وشعر «جيمس»، على الرغم منه، بتأثير تلطفها، وتأثير العطر الخفيف المغري الفائح منها. وليس هناك فرد من أسرة «فورسايت» التي تحترم نفسها يستسلم من أول صدمة، ولذلك اقتصر على قوله إنه لم يكن يعرف... لم يكن يتوقع أنها تنفق قدرًا كبيرًا من المال في شراء ملابسها.

ودق جرس معلنًا وقت العَشاء. وصحبته إلى غرفة الطعام، متأبطة بذراعها البيضاء ذراعه. وأجلسته في مقعد «سومز» المعتاد حول الركن الواقع إلى يسارها. وكان النور يسقط خفيفًا هناك حتى لا يتضايق «جيمس» من تبدد النهار التدريجي. وبدأت تحدثه عن نفسه.

ولم يلبث أن طرأ تغيُّر على «جيمس» كالنضج الذي يتسرب إلى فاكهة معرضة للشمس، وساوره شعور بأنها تلاطفه وتمتدحه وتدلله. شعور بذلك كله دون أن تجود عليه بأية ملاطفة واحدة، أو بكلمة تقريظ. وأحس أن ما يأكله يوافقه. ولم يعرف وقتًا استمتع فيه كل هذا الاستمتاع بكأس من «الشمبانيا»، وأدهشه إذ سأل عن ثمن هذا الشراب أن يجد أنه من نوع لديه منه قدر كبير مخزون، ولكنه لم يستطع أن يشربه. وعقد العزم من فوره على أن يخبر التاجر الذي يبيع له الخمر أنه يغشه.

ولاحظ وهو ينظر من أعلى صحفة طعامه:

ـ إن لديكم في أنحاء بيتكم قدرًا كبيرًا من الأشياء اللطيفة. خبروني الآن بكم اشتريتم منخل السكر هذا؟ لن أعجب إذا كان يساوي ثمنًا كبيرًا!

وسره على الأخص ظهور لوحة معلقة في الحائط المقابل، وكان هو نفسه الذي أعطاهم إياها. وقال:

ـ لم يخطر لي أنها جيدة إلى هذا الحد!

ونهضا للانتقال إلى غرفة الجلوس. وتبع «جيمس» «آيرين» عن قرب. وغمغم وهو يتنفس مبتهجًا من فوق كتفها:

ـ هذا ما أسميه عشاء صغيرًا فاخرًا. ليس فيه شيء ثقيل على المعدة، ولم يحاكِ العشاء الفرنسي كثيرًا. ولكني لا أستطيع الظفر بمثله في بيتي. إني أدفع لطاهيتي ستين جنيهًا في العام، ولكنها تعجز عن تقديم طعام كهذا!

وهو لم يلمع حتى الآن أي إلماع إلى بناء المنزل، بل لم يقدم على ذلك حتى حين توجه «سومز» إلى الغرفة العليا حيث يحفظ صوره، متذرعًا بحجة الثمل.

وترك «جيمس» وحده مع زوجة ابنه. وكانت حميا النبيذ، والشراب الفاخر لا تزال تعتمل في نفسه. وشعر بالتحمس الشديد لها، فهي في الحق شيء صغير أخاذ. فهي تنصت إليك، ويبدو عليها أنها تدرك ما تقوله. ولم ينقطع «جيمس»، وهو يتحدث، عن النظر إلى شكلها ابتداء من حذائها البُرنزي اللون إلى ذهب شعرها المتموج. وكانت تتكئ مستلقية على مقعد من الطراز الإمبراطوري. وكانت كتفاها تطاولان أعلى المقعد، وبدنها مستويًا في لين، غير متكئ على وركيها، متمايلًا إذا ما تحركت كأنه يستسلم لذراعي عاشق. وكانت شفتاها تبتسمان، وعيناها مغمضتين نصف إغماض.

وقد يكون إدراك «جيمس» للخطر الكامن في فتنة موقفها منه، وقد يكون طنين الهضم هو الذي سبب له البكم المفاجئ الذي حل به. ولم يذكر «جيمس» أنه اختلى بـ«آيرين» أبدًا من قبل خلوة تامة. وتسرب إليه شعور عجيب وهو ينظر إليها، وكأنه قابل شيئًا غريبًا أجنبيًا.

والآن، ما الذي تفكر فيه، وهي مستلقية إلى الوراء على هذا النحو؟

وعلى هذا نطق بصوت أحد عندما تكلم، وكأنه استيقظ من حلم سار. قال:

ـ ماذا تصنعين طوال النهار؟ إنك لا تعرجين عليَّ أبدًا في «بارك لين»!

وبدا أنها تنتحل أعذارًا واهية جدًّا. ولم ينظر «جيمس» إليها، فهو لم يشأ أن يعتقد أنها تتحاشاهم حقًّا، إن هذا ليعني الكثير جدًّا.

قال:

ـ آمل أن يكون الأمر هو عدم توفر الوقت لك، فأنت تتجولين دائمًا مع «جون». وآمل أن تكوني ذات نفع لها وهي مع رجلها، فترافقيهما حتى لا يختلي أحدهما بالآخر، وتؤدي هذه الخدمة أو تلك. ويقولون لي إنها لا تمكث الآن في بيتها أبدًا. وإخال أن ذلك لا يعجب العم «جوليون» إذ تكثر من تركه وحيدًا. ويقولون لي كذلك إنها تلاحق ذلك الفتى «بوزيني» دائمًا. وأحسب أنه يحضر إلى هنا كل يوم. والآن، ما رأيك «أنتِ» فيه؟ أتظنين أنه يدرك حقيقة ما يدور بخلده؟ إنه يبدو لي شيئًا تافهًا. وأحسب أن المرأة هي التي تتحمل المسؤولية وحدها.

واحمر وجه «آيرين». وراقبها «جيمس» في ارتياب. وقالت:

ـ لعلك لا تعرف السيد «بوزيني» حق المعرفة.

وجاهر «جيمس» بقوله متعجلًا:

ـ لا أعرفه! ولماذا لا أعرفه؟ إن المرء يستطيع أن يرى فيه أحد أولئك الشبان المشتغلين بالفن. ويقولون عنه إنه بارع، وجميع الناس يظنون أنهم بارعون.

وأضاف قوله:

ـ إنك تعرفين عنه أكثر مما أعرف.

واستقرت نظرته المستريبة على وجهها ثانية.

وقالت في رفق، وهي تحاول على ما يبدو أن تهدئ الأمور:

ـ إنه يضع تصميمًا لبناء منزل لـ«سومز».
واستطرد «جيمس»:
ـ قولك هذا يقودني إلى ما كنت أريد أن أتحدث فيه. لست أدري ماذا يريد «سومز» من رجل كهذا؟ لماذا لا يقصد إلى رجل من الطراز الأول؟
ـ ربما يكون السيد «بوزيني» من الطراز الأول!
ونهض «جيمس»، ودار دورة وهو منكس الرأس. وقال:
ـ هذا هو الأمر. إنكم يا معشر الشباب تتضافرون جميعًا. وتظنون جميعًا أنكم أدرى من غيركم.
وإذ وقف بوجهه الطويل الضامر أمامها رفع إصبعه وصوبها إلى صدرها، وكأنه يوجه بذلك تهمة إلى جمالها:
ـ كل ما أستطيع أن أقوله هو أن أولئك الفنانين، أو أيًّا كان الاسم الذي يطلقونه على أنفسهم، غير موثوق بهم البتة. ونصيحتي «إليكِ» ألا تهتمي بأمره كثيرًا!
وابتسمت «آيرين»، وانطوى تقوُّس شفتيها على استفزاز غريب. وبدا أنها فقدت رعايتها له. وعلا صدرها وانخفض وكأنه مدفوع بغضب خفي. وثنت يديها من وضعهما المستريح على ذراعي مقعدها، وقبضتهما حتى التقت أطراف أصابعهما، ونظرت عيناها السوداوان إلى «جيمس» دون أن يسبر لهما غور.
ودقق هذا الأخير النظر في الأرض متجهمًا. وقال:
ـ سأقول لكِ رأيي... من المؤسف أنك لم ترزقي طفلًا تفكرين فيه، وتشغلين به!
وفي التو عرت وجه «آيرين» نظرة تفكير. بل إن «جيمس» فطن إلى التصلب الذي استولى على هيكلها كله تحت نعومة ملابس الحرير والشفوف.
واستولى عليه الذعر من الأثر الذي أحدثه. وجدَّ على الأثر في تبرير ما قاله بالتقريع مثل أغلب من ليس لهم إلا قدر يسير من الشجاعة.

ـ لا يبدو عليكِ أنك تهتمين بالتنزه هنا وهناك. لماذا لا تقومين معنا برحلة في العربة إلى «هيرلينجهام»؟ وتذهبين من وقت لآخر إلى المسرح؟ ينبغي لك أن تهتمي بالأمور وأنت في مثل سنك. أنت امرأة بينة الصبا!

وأظلمت على وجهها نظرة التفكير. وأخذت أعصابه تضطرب. وقال:

ـ حسنًا إني لا أعلم شيئًا عن الأمر. وليس هناك أحد يخبرني بشيء. وينبغي لـ«سومز» أن يتمكن من العناية بنفسه، فإذا لم يستطع ذلك فيجب ألا يتطلع إليَّ، هذا كل ما في الأمر.

واسترق نظرة باردة حادة إلى زوجة ابنه وهو يعض زاوية سبابته.

وصادف عينيها وهما تحدقان في عينيه، وكانتا داكنتين بعيدتى الغور إلى حد توقف معه عن الكلام، وأخذ ينضح بعرق خفيف.

وقال بعد توقف قصير:

ـ حسنًا. ينبغي لي أن أنصرف.

ونهض بعد دقيقة وقد بدت عليه مسحة من الدهشة، وكأنه كان يتوقع أن يطلب إليه البقاء. وإذ مد يده إلى «آيرين» لم يعارض في اصطحابها له إلى الباب، والتمهيد له في الخروج إلى الشارع. ولم يشأ أن يستقل عربة، بل شاء أن يمشي على قدميه. وعلى «آيرين» أن تبلغ «سومز» تحياته نيابة عنه. وإذا تاقت إلى قليل من المرح فلا بأس، فهو لا يرفض أن يصطحبها إلى «ريتشموند» في أي يوم من الأيام.

وعاد إلى بيته ماشيًا، وإذ صعد إلى الدور العلوي أيقظ «إميلي» من أول نعاس نعمت به منذ أربع وعشرين ساعة، أيقظها ليقول لها إن الأثر الذي أحسه هو أن الحال سيئة في منزل «سومز». وأسهب في الحديث عن هذا الموضوع مدة نصف ساعة حتى دار في النهاية إلى جانبه وهو يقول إن جفنه لن يغمض غمضة واحدة، وبدأ من فوره يغط في النعاس.

وفي ميدان «مونبيلييه»، وقف «سومز» الذي كان قد عاد من غرفة الصور، وقف غير مرئي في أعلى السلم يرقب «آيرين» وهي تفرز الرسائل التي

وصلت في البريد الأخير. وعادت أدراجها إلى غرفة الجلوس. ولكنها خرجت منها بعد دقيقة. ووقفت كأنها تنصت. ثم جاءت تصعد منسلة في السلم وهي تحمل قطة صغيرة بين ذراعيها. وكان يستطيع أن يرى وجهها منحنيًا على الحيوان الصغير الذي أخذ يهر ملتصقًا بعنقها. لماذا لا تستطيع أن تنظر إليه على هذا النحو؟

ورأته فجأة، وتغير وجهها. وقال لها:

ـ أما من خطابات لي؟

ـ ثلاثة.

ووقف جانبًا. وانتقلت إلى غرفة نومها دون أن تنبس بكلمة أخرى.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل السابع

هفوة «جوليون الكبير»

خرج «جوليون الكبير»، في عصر ذلك اليوم نفسه، من ملعب الكريكيت، بنادي «لورد»، وهو ينوي العودة إلى بيته. ولكنه لم يصل إلى «هاملتون تيراس» حتى غيَّر رأيه، ونادى عربة، وأبلغ سائقها عنوان منزل بشارع «ويستاريا». إذ كان قد استقر على قرار.

ولم تمكث «جون» ببيتها طوال ذلك الأسبوع إلا نادرًا. وهي لم تجلس إلى جدها قط منذ زمن طويل، أو، على التحقيق، منذ أن خطبها «بوزيني». وهو لم يسألها قط أن تجلس إليه، فلم يكن من عادته أن يسأل الناس شيئًا! ولم يتسلط عليها الآن إلا فكرة واحدة ـ «بوزيني» وأعماله ـ وتركت جدها ضالًّا في بيته الكبير، مع زمرة من الخدم، دون أن تكون هناك، من الصباح إلى المساء، نسمة واحدة يبادلها الحديث. وكان ناديه مغلقًا بقصد تنظيفه، ومجلس إدارته في عطلة. ومع ذلك لم يكن هناك ما يدعوه إلى الذهاب للمدينة. وأرادت له «جون» أن يقوم برحلة، ولم تشأ القيام بها هي نفسها لأن «بوزيني» موجود في لندن.

ولكن إلى أين يمكن أن يرحل بمفرده؟ إنه لا يستطيع السفر إلى الخارج وحده، فالبحر يمرض كبده. وهو يكره الفنادق. وقد ذهب «روجر» إلى عين ماء للاستشفاء، وهو لن يقدم على مثل ذلك في سن مثل سنه. وهذه الأماكن الحديثة الطراز ليست جميعها إلا أخاديع!

كان يغلف وحشة نفسه بمثل هذه المعادلات المنطقية. وأخذت أسارير وجهه تغور، وعيناه تنظران إلى أمام، يومًا بعد يوم، متسمتين بكآبة حلت على نحو غريب بذلك الوجه الذي اعتاد أن يكون قويًّا وقورًا.

وهكذا سلك طريقه عصر ذلك اليوم مجتازًا «سانت جونز وُد»، تحت أضواء ذهبية تنسكب حول شجر الطلح الأخضر القائم أمام المنازل الصغيرة، وتحت أشعة شمس الصيف التي بدا كأنها ترجئ مرح الحدائق الصغيرة؛ ونظر فيما حوله باهتمام؛ ذلك أن هذه منطقة لم يدخلها أحد من أسرة «فورسايت» دون استهجان، ودون فضول خفي.

ووقفت عربته أمام منزل صغير مطلي بذلك اللون المصفر الغريب الذي يدل على اكتسابه حصانة ضد طلائه من جديد. وكان للبيت باب خارجي، وعليه مسحة ريفية.

وخرج من العربة في هيئة متمالكة الجأش إلى أقصى حد. وكان رأسه الكبير، مع شاربه المتدلي، وأجنحة شعره الأبيض، معتدلًا تمامًا تحت قبعته الكبيرة إلى حد بالغ. وكانت نظرته ثابتة مشوبة بشيء قليل من الغضب، لقد قيد مرغمًا إلى ذلك!

ـ هل السيدة «جوليون فورسايت» موجودة بالبيت؟

ـ أوه، نعم يا سيدي! أي اسم أقوله لها من فضلك يا سيدي؟

ولم يستطع «جوليون الكبير» أن يمتنع عن الغمز بعينه للخادمة وهو ينبئها باسمه، فقد بدت له مثل ضفدعة صغيرة مضحكة!

وتبعها ما بين ردهة معتمة إلى غرفة جلوس مزدوجة، مكسوة الأثاث بنسيج من «الشيت» الملون. وأجلسته الخادمة الصغيرة في أحد المقاعد.

ـ هم في الحديقة جميعًا. وإذا تفضلت بالجلوس فسأنبئهم بمجيئك.

جلس «جوليون الكبير» في مقعد مكسو بذلك «الشيت» الملون، ودار بعينيه فيما حوله وبدا له المكان كله ظاهر الرثاثة على حد ما كان يمكن أن يعبر به. فهناك مظهر معين من الرثاثة ـ لم يستطع أن يقول ما هو على وجه

التحديد ـ أو مظهر دال على توسط حال المعيشة يشيع في كل شيء. ولم تكن هناك قطعة واحدة من الأثاث ـ على حد ما استطاع أن يرى ـ تساوي ورقة من ذات الخمسة الجنيهات. وكانت الحيطان التي مضى على دهانها زمن طويل مزينة بصور كروكية مرسومة بالألوان المائية، وامتد بعرض السقف صدع طويل متعرج.

كانت هذه البيوت الصغيرة جميعها عتيقة، ذات أهمية من الدرجة الثانية. وكان قمينًا أن يأمل أن تقل قيمة إيجارها عن مائة جنيه في العام. وآلمه ألمًا يفوق ما يستطيع الإفصاح عنه، آلمه أن يخطر له أن واحدًا من أسرة «فورسايت» ـ هو ابنه نفسه ـ يقطن في مثل هذا المكان.

وعادت الخادمة الصغيرة. هل يريد من فضله أن ينزل إلى الحديقة؟

ومشى «جوليون الكبير» ما بين النوافذ الفرنسية الطراز. ولاحظ وهو ينزل على السلم أنها في حاجة إلى دهان.

وكان «جوليون الصغير» وزوجته وولداه وكلبه «بالثازار»، كانوا جميعًا في الخارج تحت شجرة كمثرى.

وكان مسير «جوليون الكبير» صوبهم أجرأ عمل أقدم عليه في حياته، ولكن عضلة واحدة في وجهه لم تتحرك، ولم تفضحه حركة عصبية واحدة، وظل مصوبًا عينيه في ثبات صوب الخصم.

وأظهر في هاتين الدقيقتين، على أكمل وجه، جماع الصفات اللاشعورية من صلابة واتزان، وحيوية النسيج التي جعلته، وجعلت أمثاله الكثيرين من أفراد طبقته، لب أمة بأسرها. فهم ابتداء من التصرف في عملهم الذي لا مباهاة فيه، إلى إهمال كل شيء عداه، يمثلون «الفردية» الجوهرية المفطورة في كل بريطاني بسبب الانعزال الطبيعي للحياة في بلاده.

وتشمم الكلب «بالثازار» ما حول أطراف سرواله. وكان هذا الحيوان الهجين الودود الظنان ـ المنحدر من اتصال بين كلب روسي وكلبة من كلاب صيد الثعالب ـ كان سريعًا إلى شم كل ما ليس بمألوف.

وبعد الانتهاء من التحيات الغريبة جلس «جوليون الكبير» في مقعد من أغصان مجدولة، ونظر إليه حفيداه في صمت، وكل منهما يجلس فوق إحدى ركبتيه، ولم يكونا قط قد رأيا رجلًا في مثل هذه الشيخوخة.

كانا مختلفين، وكأنهما بذلك أقرا ما قام بينهما من اختلاف بسبب ظروف ميلادهما. فقد كان «جولي»، الابن غير الشرعي، ذو الوجه المكبب، والشعر الكتاني اللون، المرفوع عن جبهته بالفرشاة، والذقن المشوب بنقرة، كان على ما يبدو دائم الظرف، وله عينا أسرة «فورسايت»؛ وكانت «هولي» الصغيرة، الابنة الشرعية، سمراء البشرة، جهمة النفس، لها مثل عيني أمها الشهباوين المتأملتين.

وبعد أن دار «بالثازار» حول أحواض الزهر الثلاثة الصغيرة ليبدي احتقاره الشديد للأشياء على الإطلاق، اتخذ له هو أيضًا مكانًا أمام «جوليون الكبير». وكان يشخص بعينين لا يخفق لهما جفن وهو يحرك فوق ظهره، دون هوادة، ذنبًا مجعدًا بطبيعته.

وحتى في الحديقة ساور «جوليون الكبير» ذلك الشعور بأن كل شيء مشوش. فالمقعد الخشبي المضفر أخذ يصر تحت ثقله، وبدت أحواض الحديقة غير منتظمة؛ ومهدت القطط طريقًا في الناحية البعيدة تحت الحيطان الملطخة بالسواد.

وبينما كان يتبادل هكذا النظر مع حفيديه في ذلك التمحيص الخاص الغريب، الآمن برغم ذلك، المتبادل بين شديدي الصغر وشديدي الكبر، أخذ «جوليون الصغير» يراقب زوجته.

ودكن لون وجهها النحيل البيضوي، ذي الحاجبين المستويين، والعينين الشهباوين الواسعتين. وكان شعرها المرجل بالفرشاة، المرفوع عن جبينها في تقوسات بديعة عالية، وكان قد أخذ يشهب كشعره، وهذه الشهبة جعلت لون خديها الذي انتعش فجأة يثير الشفقة إثارة مؤلمة.

وكانت هيئة وجهها ـ وهي هيئة لم يشاهد مثلها من قبل قط، فقد حرصت

صاحبتها دائمًا على إخفاء مثلها عنه ـ كانت مفعمة بمشاعر مكنونة من السخط واللهفة والخوف. وكانت عيناها تحملقان على نحو مؤلم من تحت حاجبيها المختلجين، وقد لزمت الصمت.

وحمل «جولي» وحده عبء الحديث. كان يملك مقتنيات كثيرة يتلهف على أن يعرفها ذلك الصديق المجهول ذو الشارب العريض، واليدين المغطاتين بالعروق الزرق. ذلك الصديق الذي يجلس مشتبك الرجلين كأبيه (وهي عادة يحاول هو نفسه أن يكتسبها)؛ ولكن بما أنه من أسرة «فورسايت»، ولو أنه لم يبلغ التاسعة تمامًا، لم يذكر الشيء الذي هو أعز شيء على قلبه في الوقت الحاضر ـ معسكر جنود معروض في نافذة دكان كان أبوه قد وعد بأن يشتريه له ـ ولا شك أنه يبدو له ثمينًا جدًّا، ومع ذلك فالقدر يغريه أن يذكر ذلك الشيء.

وتلاعب ضوء الشمس ما بين أوراق الشجر، فوق هذه الجماعة المكونة من ثلاثة أجيال، المجتمعة في هدوء تحت شجرة الكمثرى التي لم تحمل ثمرًا منذ مدة طويلة.

وأخذ وجه «جوليون الكبير» المجعد يحمر مرقشًا بالبقع كما تحمر وجوه كبار السن عند تعرضها للشمس، وأمسك بيده إحدى يدي «جولي»، فتسلق الصبي ركبته، وإذ أثار هذا المنظر «هولي» الصغيرة زحفت صاعدة إليهما. وأخذ صوت حك الكلب بالثازار لجلده يتصاعد رتيبًا.

وقامت السيدة زوجة «جوليون الصغير» فجأة، وأسرعت إلى داخل المنزل. وبعد مرور دقيقة غمغم زوجها بعذر وتبعها. وترك «جوليون الكبير» وحده مع حفيديه.

وأخذت الطبيعة، بسخريتها العجيبة، تدبر في نفسه إحدى ثوراتها الغريبة، وتتابع نواميسها الدورية المتغلغلة إلى أغوار قلبه. وهذا الحنان إلى الأطفال الصغار، هذا الهيام بمطالع الحياة، وقد جعلته يومًا يتخلى عن ابنه ويتبع «جون»، أخذ الآن يدفعه إلى التخلي عن «جون»، واتباع هذه المخلوقات الأشد صغرًا.

إن الصبا يشتعل دائمًا كاللهب في صدره، وكان يدور به، إلى الأطراف المستديرة الصغيرة، غير المبالية إلى حد تحتاج معه للعناية بها، يدور إلى الوجوه الصغيرة المستديرة الشديدة العبوس أو الشديدة الإشراق دونما سبب، وإلى الألسنة الرنانة النغم، وإلى الضحك المجلجل المزقزق، وإلى الأيدي المصرة على جذب الأشياء، وإلى شعوره بالأبدان الصغيرة على رجليه، وإلى كل شيء صغير، وصغير، وصغير.

ورقت عيناه، ورق صوته وبرزت يداه النحيلتان المعروقتان. ورق قلبه بين ضلوعه. وأصبح من فوره ملهى لمرح هذين المخلوقين الصغيرين، وموئلًا يظفران فيه بالأمان، ويستطيعان أن يتكلما ويضحكا ويلعبا؛ وظل الأمر كذلك إلى أن أشع من مقعد «جوليون الكبير» الخشبي المضفر ـ كما يشع ضوء الشمس ـ مرح كامل لثلاثة قلوب.

أما الأمر مع «جوليون الصغير» الذي تبع زوجته إلى غرفتها فكان مختلفًا.

وجدها جالسة في مقعد أمام مرآة زينتها، ويداها تجاه وجهها.

وكانت كتفاها تهتزان من الألم. وكان أمر ألمها هذا خافيًا عليه. وقد مر بمئات من هذه الحالات النفسية. ولم يعرف قط كيف ظل يحتملها. فهو لم يستطع قط أن يصدق أنها حالات نفسية، وأن الساعة الأخيرة لفض شركته مع زوجته لم تدق بعد.

وهي دون أي شك ستلف في المساء ذراعيها حول عنقه وتقول: «أوه! يا «جو»، أي ألم أسببه لك!»، ستفعل ذلك كما فعلته مائة مرة من قبل.

ومد يده، ودس علبة «عدة الحلاقة» في جيبه دون أن يدري.

وقال لنفسه: «أنا لا أستطيع البقاء هنا، لا بد لي أن أنزل!»، وغادر الغرفة دون أن ينبس بكلمة، وعاد إلى الحديقة.

كان «جوليون الكبير» يحمل «هولي» الصغيرة فوق ركبته، وقد استولت على ساعته. وكان «جولي»، وقد احمر وجهه احمرارًا شديدًا،

يحاول أن يظهر قدرته على الوقوف فوق رأسه. أما الكلب «بالثازار»، وكان أقرب ما يمكن أن يكون من مائدة الشاي، فقد حملق بعينيه في الفطيرة.

وشعر «جوليون الصغير» برغبة خبيثة في أن يقطع عليهم سرورهم من فوره.

ما شأن أبيه في الحضور وإزعاج زوجته على هذا النحو؟ إن مجيئه صدمة بعد كل تلك السنوات! كان ينبغي له أن يعلم ذلك؛ كان ينبغي له أن يحذرهم. ولكن متى تصور أي فرد من أسرة «فورسايت» أن تصرفه يمكن أن يزعج أحدًا! ومع هذا فقد وجد فيما بينه وبين نفسه أن «جوليون الكبير» مخطئ.

وخاطب ولديه في حدة، وطلب إليهما دخول المنزل لتناول شايهما. وانصرفا يدًا في يد وهما في دهشة كبيرة لأنهما لم يسمعا أباهما من قبل يحتد في قوله قط، وسارت «هولي» الصغيرة وهي تتلفت من فوق كتفها.

وصب «جوليون الصغير» الشاي. وقال:

ـ زوجتي ليست في حال طيبة اليوم.

ولكنه علم حق العلم أن أباه توصل إلى سبب ذلك الانسحاب المفاجئ، وكاد يكره الرجل الهرم لجلوسه هادئًا أشد الهدوء.

وقال «جوليون الكبير» مصوبًا نظرة نافذة:

ـ إن لك هنا منزلًا صغيرًا لطيفًا. أحسب أنك تدفع فيه إيجارًا!

وأومأ «جوليون الصغير». وقال «جوليون الكبير»:

ـ أنا لا تعجبني البيوت المجاورة، فهي مجموعة من خرائب.

وأجاب «جوليون الصغير»:

ـ نعم، نحن مجموعة من خرائب.

ولم يقطع الصمت الآن إلا صوت حك الكلب «بالثازار» لجلده.

وقال «جوليون الكبير» ببساطة:

ـ أحسب أنه لم يكن ينبغي لي الحضور إلى هنا يا «جو». ولكني أصبحت وحيدًا إلى حد كبير!

ونهض «جوليون الصغير» لدى سماع هذه الكلمات، ووضع يده على كتف أبيه.

وفي المنزل المجاور كان شخص يعزف أغنية «السيدة المتقلبة العاطفة» ثم يعيد عزفها تكرارًا على بيانو غير محكم الأوتار. وغاصت الحديقة الصغيرة في الظل. ولم تعد الشمس تبلغ الآن إلا آخر السور حيث تجثم قطة تستدفئ، وتدور عيناها الصفراوان ناعستين هابطتين إلى الكلب بالثازار. وكان هناك طنين لحركة المرور يترامى من بعد سحيق. ونبات السياج المتسلق حول الحديقة يحجب كل شيء عدا السماء والمنزل، وشجرة الكمثرى مع أفرعها العليا التي لم تزل مموهة لون الشمس الذهبي.

وجلسا هناك بعض الوقت دون أن يتحدثا إلا قليلًا. ثم نهض «جوليون الكبير» لينصرف. ولم تجر كلمة واحدة عن مجيئه مرة ثانية.

وسار في طريقه شديد الحزن، يا له من مكان حقير تعس! وفكر في البيت الكبير الخالي الكائن في «ستانهوب جيت»، الجدير بسكنى واحد من أسرة «فورسايت»، وما به من قاعة كبرى «للبليارد»، وغرفة للجلوس يمر الأسبوع بعد الأسبوع دون أن يدخلها أحد.

وهذه المرأة التي أعجبه وجهها نوعًا كانت سريعة التأثر إلى حد أشد كثيرًا من المتوسط. وكان يعلم أنها كبَّدت «جو» حياة شاقة! وهذان الطفلان اللطيفان! آه! يا له من جنون بشع!

وسار إلى شارع «إدجوبر» ما بين صفين من منازل صغيرة توحي جميعها إليه (خطأ دون شك، ولكن تحامل «الفورسايتي» لا يأتيه الباطل) توحي إليه بقصص من هذا النوع أو ذاك.

حقًّا إن المجتمع... شمطاواته وقردته الثرثارة، وضعن أنفسهن موضع إصدار الحكم على «لحمه ودمه»! مجموعة من عجائز! وصدم بمظلته

الأرض كأنما يسددها إلى ذلك الجسم التعس الذي جعل المجتمع ينبذ ابنه وابن ابنه اللذين كان يمكن أن يعيش معهما ثانية.

صدم بمظلته الأرض في عنف؛ ومع ذلك فإنه هو نفسه تبع المجتمع في سلوكه مدة خمسة عشر عامًا، ولم يغدر به إلا اليوم!

وفكر في «جون»، وفي أمها المتوفاة، وفي القصة كلها مع كل مرارته القديمة. يا له من أمر تعس!

ووصل إلى «ستانهوب جيت» بعد مدة طويلة، لأنه، بعناده الفطري، سلك الطريق كله ماشيًا وهو منهك إلى أقصى حد.

وبعد أن غسل يديه في دورة المياه بالدور السفلي ذهب إلى غرفة الطعام انتظارًا للعشاء، وهذه الغرفة هي الوحيدة التي يستعملها في أثناء غياب «جون»، فهو بهذا يشعر بوحشة أقل. ولم تكن جريدة المساء قد وصلت بعد؛ وبما أنه أتم قراءة جريدة «التايمز»، فلم يبقَ إذن شيء يصنعه.

وكانت الغرفة تجاه الناحية الخلفية لطريق مرور العربات، وقد سادها السكون المخيم. وهو يكره الكلاب، ولكن حتى الكلب يمكن أن يؤنسه بصحبته. واستقرت نظرته الجائلة في الحيطان عند صورة معنونة: «كمية من مراكب الصيد الهولاندية وقت الغروب»، وهي أحسن صورة بين مجموعة صوره. ولم تبعث في نفسه أي سرور، فأغلق عينيه. إنه وحيد! وهو يعلم أنه ينبغي له ألا يشكو، ولكن لم يكن له قبل بذلك. إنه تعس، وكان تعسًا على الدوام، كانت الجرأة تنقصه، هكذا كان يظن.

ودخل الخادم ليعد المائدة للعشاء. واصطنع الحذر الشديد في حركاته إذ رأى سيده يبدو نائمًا. وكان هذا الرجل الملتحي يطلق كذلك شاربه الذي أثار شكوكًا خطيرة في أذهان الكثيرين من أعضاء الأسرة، لا سيما أولئك الذين التحقوا، مثل «سومز»، بالمدارس العامة، وتعودوا لطف المظهر في مثل هذه الأمور. هل يمكن أن يعد خادمًا حقًّا؟ إن المازحين يشيرون إليه باسم «رجل العم «جوليون» غير المقبول» و«جورج»، المعترف بقدرته على السخرية، يدعوه «سانكي».

ومشى رائحًا غاديًا بين «البوفيه» المصقول أشد الصقل، والمائدة المصقولة أشد الصقل، اللامعة الناعمة على نحو منقطع النظير.

وراقبه «جوليون الكبير» متظاهرًا بالنوم، إنه رجل خسيس ـ هكذا كان رأيه فيه دائمًا ـ لا يهتم بشيء إلا جلبة قيامه بعمله، ثم الانصراف إلى لعب الميسر، أو إلى زوجته، أو إلى ما يعلمه الله! وهو رخو، وبدين أيضًا! ولا يهتم بسيده فتيلًا!

ولكن حلت عندئذ، على الرغم منه، لحظة من لحظات الفلسفة التي ميزت «جوليون الكبير» عن أفراد أسرة «فورسايت» الآخرين.

وفضلًا عن ذلك ماذا يرغم الرجل على الاهتمام. إني لم أدفع له أجر الاهتمام، فلماذا أتوقعه منه؟ إن الناس لا يستطيعون أن يتوقعوا العطف في هذه الدنيا دون أن يدفعوا ثمنه. وقد يختلف الأمر في الآخرة، إنه يجهل الأمر، ولا يستطيع التنبؤ به! وأغمض عينيه ثانية.

وواصل الخادم عمله مسترق الخطى، وبغير هوادة، مستخرجًا الآنية من أقسام «البوفيه» المختلفة. وكان يبدو أنه يدير ظهره لـ«جوليون الكبير» دائمًا، وبذلك برَّأ مهمته من عيب القيام بها في حضرة سيده. وكان من وقت لآخر ينفخ خلسة في الآنية الفضية ويمسحها بقطعة من جلد الغزال. وبدا وهو يصب كميات النبيذ في الطاسات التي حملها في عناية وهو يرفعها نوعًا، ويدع لحيته تتدلى عليها كأنها تحميها. وبعد فراغه من عمله وقف يرقب سيده مدة دقيقة، وبدت في عينيه المخضوضرتين نظرة ازدراء.

وعلى أيٍّ فإن سيده هذا رجل هرم لم يعد يتبقى منه إلا القليل!

وفي مشية لينة كمشية السنور اجتاز الغرفة ليدق الجرس. وكانت الأوامر الصادرة إليه أن يكون موعد العشاء في السابعة. وماذا بعد لو أن سيده نائم؛ إنه سيوقظه من نعاسه عما قريب. وهناك الليل لينام في أثنائه! ولديه شخصه هو القمين أن يفكر فيه إذ عليه أن يذهب إلى ناديه في الساعة الثامنة والنصف!

وتلبية لصوت الجرس ظهر غلام يحمل إناء فضيًّا للحساء.

وتناوله الخادم من بين يديه، ووضعه على المائدة. ثم قال بصوت صارم وهو واقف إلى جوار الباب المفتوح، وكأنه يوشك أن يدخل زوارًا إلى الغرفة:

ـ الطعام على المائدة، يا سيدي!

ونهض «جوليون الكبير» من مقعده في بطء، وجلس إلى المائدة ليتناول عشاءه.

الفصل الثامن

تصميمات المنزل

إن لأفراد أسرة «فورسايت» جميعًا، كما هو مسلم به عمومًا، قواقع مثل ذلك الحيوان الصغير البالغ النفع، الذي تُصنع منه «راحة الحلقوم» بل هم، بعبارة أخرى، لا يرون بغير «بيئة»، أو إذا رآهم أحد بغيرها تعذرت عليه معرفتهم، وبيئتهم هذه مكونة من ظروف وأملاك ومعارف وزوجات، وهي تبدو كأنها تنتقل معهم وهم يسلكون طريقهم ما بين عالم مؤلف من آلاف الأسر «الفورسايتية» التي تنتقل ومعها بيئتها. إن الفرد من أسرة «فورسايت» لا يمكن تصوره بغير بيئته، فهو يصبح كقصة بغير تصميم، وهذا خروج عن القياس جد معروف.

ويبدو «بوزيني» في عين أسرة «فورسايت»، بغير بيئة. إنه يبدو واحدًا من أولئك الرجال النوادر الأشقياء الذين يجتازون الحياة محاطين بظروف وأملاك ومعارف وزوجات لا تتعلق بهم.

وغرفه التي تقع في شارع «سلون» فوق السطح، والتي ظهرت خارجها لوحة كتب عليها اسمه: «فيليب بينز بوزيني، مهندس معماري»، هذه الغرف ليست لمنازل أسرة «فورسايت». فهو ليست له غرفة استقبال منفصلة عن غرفة عمله. ولكنه عزل مكانًا متسعًا منها، وحجبه ليخفي ضرورات معيشته، وهي فراش، ومقعد مريح، وغلايينه، وصندوق خموره ورواياته

و«شباشبه». وكان جانب الغرفة الخاص بالعمل مفروشًا بأثاث عادي، صوان مفتوح له عيون لوضع الأوراق، ومائدة مستديرة من خشب البلوط، ومغسل محجوب، وبعض المقاعد الخشنة، ومكتب راسخ، كبير الاتساع، مغطى بأوراق الرسوم والتصميمات. وقد ذهبت «جون» إلى هناك مرتين لشرب الشاي تحت رقابة عمته.

ومن المعتقد أن له غرفة نوم خلف غرفة المكتب.

ويتألف دخله ـ على قدر ما استطاعت الأسرة أن تتأكد منه ـ يتألف من مرتبين نظير الاستشارة تبلغ قيمتهما عشرين جنيهًا في العام، وكذلك أجر غير معين يحصل عليه اتفاقًا. أما الدخل ـ الأكبر قيمة ـ فهو معاش سنوي وارد في وصية أبيه يبلغ مائة وخمسين جنيهًا كل عام.

والذي شاع عن أبيه أنه لا يطمئن إليه كثيرًا. ويبدو أنه كان طبيبًا ريفيًّا في «لنكولنشاير»، وأنه ينحدر أصلًا من «كورنيش»، وله هيئة غريبة، وميول «بيرونية»[1]، وهو في الواقع شخصية معروفة في إقليمه. و«بينز» زوج عمة «بوزيني»، وأحد أصحاب شركة «بينز وبيلديبوي»، وهو «فورسايتي» غريزة، وإن لم يكن كذلك اسمًا، «بينز» هذا لم يكن لديه شيء ذو قيمة يقصه عن زوج أخته إلا النزر اليسير.

وهو يمكن أن يقول: «إنه رجل شاذ! يقول دائمًا عن أبنائه الثلاثة الكبار إنهم أناس طيبون، ولكنهم أغبياء؛ وهم ناجحون في عملهم بشركة «إنديان سيفيل»! و«فيليب» هو الوحيد الذي يميل إليه. وقد سمعته يتحدث بطريقة في غاية الغرابة. وقال لي يومًا: «يا صديقي العزيز، لا تدع زوجتك المسكينة تعرف أبدًا ما أنت تفكر فيه!». ولكني لم أتبع نصيحته؛ لست أنا الذي يفعل ذلك! إنه رجل شاذ! وهو قد يقول لـ«فيليب»: «سواء أعشت يا ولدي عيشة رجل مهذب أم لا، فإنك ستموت ميتته!». وكان «يتحنط» في سترة من نوع

(١) نسبة إلى الشاعر بيرون المعروف بأطواره الشاذة. (المترجم).

«الفروك»، ويتحلى برباط رقبة حريري، ودبوس ذي فص من الماس. أوه... أؤكد لك إنه غريب الأطوار تمامًا!».

أما عن «بوزيني» نفسه، فقد يتحدث عنه «بينز» في حماسة وفي عطف: «إن له لونًا من «بيرونية» أبيه. وكيف لا. انظر إلى الفرص السانحة التي نبذها حين ترك العمل بمكتبي؛ رحل على هذا النحو لمدة ستة أشهر حاملًا مزودًا، ولمَ كل هذا؟ ليدرس فن المعمار الأجنبي... الأجنبي! وماذا يمكن أن يتوقع؟ ها هو ذا ـ فتى بارع ـ ولا يحصل على مائة جنيه في العام! وخطبته الآن هي خير ما يمكن أن يحدث، فهي ستحمله على المثابرة. إنه أحد هؤلاء الذين ينامون طوال النهار، ويسهرون طوال الليل، لا لشيء إلا لأن المنهج ينقصهم. ولكنه خلو من الرذيلة، ليس به مقدار أنملة من الرذيلة. و«فورسايت الكبير» رجل غني!».

وكان يسرف في ملاطفته لـ«جون» التي كثيرًا ما زارته وقتذاك في منزله الكائن في ميدان «لاوندز». وكان يقول لها: «إن بناء ذلك المنزل المتعلق بالسيد «سومز» ـ يا له من رجل أعمال عظيم! ـ هو خير شيء يناسب «فيليب»؛ ولا ينبغي أن تتوقعي منه الآن شيئًا كثيرًا يا سيدتي الصغيرة العزيزة. الهدف الطيب... الهدف الطيب! وينبغي للشاب أن يشق طريقه. إني كنت أعمل ليل نهار وأنا في مثل سنه. واعتادت زوجتي أن تقول لي: «لا تسرف في العمل الشاق يا «بوبي»، فكر في صحتك». ولكني لم أبقِ على صحتي قط!».

وكانت «جون» تشكو من أن حبيبها لا يجد مندوحة من الوقت للمجيء إلى «ستانهوب جيت».

وهما لم يجتمعا ربع ساعة في أول مرة عاد إليها إلا وحضرت السيدة «سيبتموس سمول» في مصادفة من تلك المصادفات التي هي مالكة ناصيتها. وعلى ذلك نهض «بوزيني» وتوارى في غرفة المكتب الصغيرة، طبقًا لترتيب سابق، انتظارًا لانصرافها.

وقالت العمة «جولي»:

ـ ما أشد نحوله يا عزيزتي! وإني كثيرًا ما لاحظت ذلك على الخُطاب؛ ولكن عليك ألا تدعي الأمر يزداد سوءًا. هناك خلاصة لحم العجل من إعداد «بارلو». لقد عادت على عمك «سويذن» بفائدة كبيرة.

وأجابت «جون» بسخرية، وهيكلها الضئيل منتصب أمام المدفأة، ووجهها الصغير يرتعش عابسًا لأنها كانت تنظر إلى زيارة العمة «جولي» غير المناسبة على ضوء كونها إساءة شخصية:

ـ ذلك أنه مشغول بالعمل. إن الناس الذين يؤدون أي عمل يستحق التأدية لا يسمنون أبدًا!

وعبست العمة «جولي». إنها كانت نحيلة على الدوام، ولكن المتعة الوحيدة التي استمدتها من ذلك هي أن الفرصة سنحت لها حتى تتلهف على ازدياد سمنتها. وقالت مهمومة:

ـ لست أعتقد أنك ملزمة بأن تدعيهم يسمونه «القرصان»، وقد يرى الناس هذه الكنية غريبة الآن وهو بصدد بناء منزل لـ«سومز». وأرجو له أن يكون حذرًا، فهذا أمر كبير الأهمية بالنسبة له، ولـ«سومز» ذوق سليم جدًّا!

وصاحت «جون» وقد ثارت بغتة:

ـ ذوق! إني لا أرجع الأمر إلى ذوقه، أو ذوق أي واحد من أفراد الأسرة!

وأخذت السيدة «سمول». وقالت:

ـ كان لعمك «سويذن» ذوق جميل على الدوام! وبيت «سومز» الصغير بديع؛ وأحسبك لا تقصدين أن تقولي إنه ليس كذلك!

وقالت «جون»:

ـ هيه! ذلك لا يرجع إلا إلى وجود «آيرين» فيه!

وحاولت العمة «جولي» أن تقول عبارة مُرضية:

ـ وهل تعجب سكنى الريف «آيرين»؟

وحدقت «جون» فيها متعمدة وفي عينيها نظرة بدا منها كأن ضميرها

قفز إليهما. ومرت النظرة؛ وحلت محلها نظرة أخرى كانت أشد تعمدًا من الأولى. وكأنها أرادت أن تحدث بها أثرًا نفاذًا. وأجابت في غطرسة:

ـ ستعجبها بالطبع؛ ولم لا؟

وأخذت السيدة «سمول» تنفعل. وقالت:

ـ لم أكن أعرف ذلك، ظننت أن تركها لأصدقائها قد لا يعجبها. وعمك «جيمس» يقول إنها لا تهتم بالحياة اهتمامًا كافيًا. و«نحن» نظن... أقصد أن عمك «تيموثي» يظن... أنه ينبغي لها الخروج من البيت أكثر من ذلك. وأعتقد أنك ستفتقدينها كثيرًا.

وضمت «جون» يديها وراء عنقها، وصاحت:

ـ إني لأود ألا يتحدث عمي «تيموثي» فيما لا شأن له به!

ونهضت العمة «جولي» ناصبة طولها الفارع إلى أقصى مداه. وقالت:

ـ إنه لا يتحدث أبدًا فيما لا شأن له به.

وشعرت «جون» من توها بالندم. وجرت إلى عمتها وقبلتها.

ـ إني أشعر بأسف شديد يا عمتي، ولكني أود لو تركوا «آيرين» وشأنها.

ولزمت العمة «جولي» الصمت، إذ عجزت عن التفكير في شيء تضيفه بعد ذلك حول الموضوع يمكن أن يكون ملائمًا. واستعدت للانصراف وهي تشبك «حرملتها» الحريرية السوداء فوق صدرها، وتلتقط حقيبة يدها الخضراء.

وسألت إذ وصلت إلى الردهة:

ـ وكيف حال جدك العزيز؟ أحسب أنه يعاني شدة الوحدة الآن واجتماعك بـ«بوزيني» يستغرق كل وقتك.

وانحنت وقبّلت ابنة أخيها باشتياق، وانصرفت بخطوات قصيرة متبخترة.

ووثب الدمع إلى عيني «جون»، وجرت إلى غرفة المكتب الصغيرة حيث كان «بوزيني» يجلس إلى المائدة، ويرسم طيورًا على ظهر غلاف، وغاصت في مقعد إلى جواره، وصاحت:

ـ أوه، يا «فيل»! إن هذا كله شديد البشاعة!

وكان قلبها حارًّا كلون شعرها الأحمر.

وفي صباح يوم الأحد التالي جيء برسالة إلى «سومز» وهو يحلق ذقنه، فحواها أن «بوزيني» في الدور السفلي، ويسره أن يراه. وقال لزوجته إذ فتح عليها باب غرفتها:

ـ «بوزيني» في الدور السفلي. اذهبي ورحبي به حتى أتم حلاقة ذقني. وسأنزل بعد دقيقة. وأحسبه جاء بشأن رسوم البيت.

ونظرت «آيرين» إليه دون أن تجيبه. وهيأت هندامها تهيئة أخيرة، ونزلت إلى الدور السفلي.

ولم يستطع أن يتبين رأيها في المنزل. فهي لم تعترض عليه بكلمة.

وموقفها في نطاق ما يتعلق بـ«بوزيني» كان وديًّا إلى حدٍّ كافٍ.

واستطاع أن يراهما من نافذة غرفة ملابسه وهما يتحدثان معًا في الفناء الصغير الواقع تحت النافذة.

وأسرع في الحلاقة، وجرح ذقنه مرتين. وسمعهما يضحكان. وقال لنفسه: «حسنًا، إنهما متآلفان تمامًا على أي حال!».

وكان ما توقعه، فقد جاء «بوزيني» يطلبه ليطلعه على رسوم البيت.

وتناول قبعته، ومضى.

ونُشرت الرسوم فوق مائدة من خشب البلوط في غرفة المهندس المعماري وانحنى عليها «سومز» شاحبًا جامدًا، مدققًا النظر، صامتًا لا يتكلم.

وقال آخر الأمر في لهجة حائرة:

ـ إنه بيت غريب الطراز!

كان بيتًا قائم الزوايا، مكونًا من طابقين، رسم على شكل مربع الجوانب حول فناء مقفل. وهذا الفناء مطوق برواق يدور حول الطابق العلوي، ويغطيه سقف زجاجي محمول على ثمانية أعمدة ترتفع إليه من الأرض.

كان منزلًا غريب الطراز فعلًا في عيني أي فرد من أسرة «فورسايت».

وواصل «سومز» قوله:

ـ هناك غرف كثيرة مسرفة في الاتساع.

وبدأ «بوزيني» يتمشى في الغرفة، وكره «سومز» التعبير المرتسم على وجهه. وقال المهندس المعماري:

ـ القاعدة الأساسية في بناء هذا المنزل هي أن يتاح لك متسع تتنفس فيه، مثل الرجل الراقي!

ومد «سومز» إصبعه وإبهامه كأنما يقيس مدى الجاه الذي ينبغي أن يحققه لنفسه، وأجاب:

ـ أوه! نعم فهمت.

وغشيت وجه «بوزيني» تلك الهيئة المعينة التي دلت على مبلغ حماسته:

ـ لقد حاولت أن أصمم لك هنا منزلًا على شيء من الكرامة الخاصة به. فإذا لم يعجبك فيحسن أن تجهر بذلك. ولا شك أن آخر شيء ينظر فيه من يريد توفير الكرامة في منزل، هو متى تستطيع أن تحشر فيه «دورة مياه» إضافية؟

ووضع إصبعه فجأة على القسم الأيسر من المستطيل الواقع في وسط المنزل وقال:

ـ هنا تستطيع أن تجد فسحة في المكان. وهو مخصص لحفظ لوحاتك. وتفصله عن الفناء ستائر إذا أزحتها تهيأت لك مساحة تبلغ واحدًا وخمسين قدمًا طولًا، وثلاثًا وعشرين قدمًا وست بوصات عرضًا. وهذه المدفأة ذات الوجهين، الواقعة في الوسط، هنا، تشرف من ناحية على الفناء، ومن الناحية الأخرى على غرفة اللوحات، وهذا الحائط الأخير به نافذة تستغرقه كله، ويأتيك النور الشرقي منها، والنور الشمالي من الفناء. ويمكن تعليق سائر صورك حول الرواق في الدور العلوي، أو في غرف أخرى.

واستطرد يقول، دون أن يبدو عليه أنه يرى «سومز»، برغم أنه كان ينظر إليه، وأثار ذلك في «سومز» شعورًا كريهًا:

ـ إنك لا تستطيع توفير الكرامة في مجال المعمار ـ كما لا تستطيع توفيرها في مجال الحياة ـ دون أن يكون هناك تناسق. ويقول لك أناس إن هذا رأي عتيق. وهو يبدو غريبًا على أي حال. ونحن لا يخطر لنا أبدًا أن نحقق في بيوتنا مبدأ الحياة الرئيسي. إننا نزحم بيوتنا بالزخارف، وآيات الجمال غير المفيدة، والأركان المنمقة، وأي شيء مماثل يضلل العين. وينبغي، على العكس، أن ترتاح العين. احصل على الأثر الذي تريده بخطوط قليلة قوية. وبيت القصيد هو التناسق، وليست هناك كرامة بدونه.

وحدق «سومز»، الساخر عن غير وعي، في رباط عنق «بوزيني»، البعيد عن أن يكون عمودي الوضع، ولم يكن «بوزيني» قد حلق ذقنه أيضًا، ولم يلفت هندامه النظر بحسن ترتيبه. وبدا أن الفن المعماري استنفد تناسقه. وسأل «سومز»:

ـ ألا يبدو البيت كأنه ثكنة عسكرية؟

ولم يتلقَّ ردًّا من توه. ثم قال «بوزيني»:

ـ إني أدرك ما هنالك. أنت تريد بيتًا كبيوت المهندس «ليتلماستر»، بيتًا من النوع الجميل المريح حيث يعيش الخدم تحت السقف «الجملوني»، وينخسف الباب الرئيسي لتنزل فيه ثم تصعد ثانية. جرب «ليتلماستر» على أي حال، وستجده فتى عظيمًا. إني كنت على معرفة به طوال حياتي!

وانزعج «سومز». فإن رسوم المنزل قد أدهشته فعلًا. وإخفاء رضاه عنها كان فطريًّا وحسب، إذ لم يكن يسهل عليه أن يمُن على أحد بإطراء. وكان يزدري الذين يسرفون في إطرائهم.

ووجد نفسه الآن في ذلك الموقف المربك الذي يضطر المرء فيه إما إلى بذل المديح أو التعرض لخطر فقدان شيء طيب، فإن «بوزيني» هو حقًّا الفتى الذي يمكن أن يمزق الرسوم، ويرفض القيام بعمل له، هو طفل كبير السن!

هذه الطفولة الكبيرة السن، التي يشعر بأنه أسمى منها كثيرًا، كان لها عليه تأثير التنويم المغناطيسي. لأنه لم يحس في نفسه قط شيئًا يماثلها. وقال في نهاية الأمر متلعثمًا:

ـ حسنًا، إنه عمل مبتكر بالتأكيد.

وكان يرتاب ريبة خاصة، بل كان حتى يكره كلمة «مبتكر» إلى حد شعوره بأنه لم يخن في الحقيقة نفسه بإبداء هذه الملاحظة.

وبدا أن «بوزيني» سُرَّ بها، فهي من ذلك النوع الذي «يمكن» أن يسر فتى مثله! وتشجع «سومز» بتوفيقه فقال:

ـ إنه منزل كبير.

وسمع «بوزيني» يغمغم:

ـ فسحة في المكان، وهواء طلق، وإشراق. إنك لا تستطيع أن تعيش عيشة الرجل الراقي في بيت من بيوت «ليتلماستر»، فهو يبنيها لأصحاب المصانع.

وقام «سومز» بحركة استعاذة؛ فقد تحددت شخصيته بأنه رجل راقٍ، وهو لا يقبل الآن، نظير مبلغ كبير من المال، أن يوضع في مرتبة رجال المصانع. ولكن شكه الفطري في المعتقدات العامة انبثق ثانية. فبحق الشيطان ما فائدة التحدث عن التناسق والشعور بالكرامة؟ لقد بدا له المنزل كأنه سيكون بارد الجو. وقال:

ـ إن «آيرين» لا تحتمل برودة الجو!

وقال «بوزيني» ساخرًا:

ـ آه! زوجتك؟ ألا تميل إلى برودة الجو؟ سأعني بذلك؛ إنها لن تبرد، انظر.

وأشار إلى أربع علامات تبدو على مسافات متناسبة في حائط الفناء:

ـ إني وضعت لك أنابيب للمياه الساخنة مغلفة بالألمنيوم، وستحصل عليها مصممة تصميمًا جيدًا جدًّا.

وبدا على «سومز» أنه يرتاب في هذه الملاحظات، وقال:

ـ إن كل شيء حسن جدًّا، كل هذا حسن جدًّا، ولكن كم ستكون نفقاته؟

وأخرج المهندس المعماري ورقة من جيبه:

ـ سيُبنى المنزل جميعه بالحجر طبعًا. ولكني إذ ظننت أنك قد لا تحتمل ذلك رتبت الأمر لتغطيته. وكان ينبغي أن يكون له سقف نحاسي، ولكني جعلته من بلاط أخضر. وعلى ذلك سيكلفك، بما اشتمل عليه من المنشآت المعدنية، ثمانية آلاف وخمسمائة من الجنيهات.

وقال «سومز»:

ـ ثمانية آلاف وخمسمائة من الجنيهات؟ كيف ذلك وأنا جعلت لك أقصى حد مبلغ ثمانية آلاف!

وأجاب «بوزيني» بفتور:

ـ لا يمكن بناؤه بمبلغ يقل عن ذلك مليمًا. وينبغي لك أن تقبل الأمر أو ترفضه!

ولعل هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن يعرض بها مثل هذا المشروع على «سومز». ووقع في حيرة من أمره. وحدثته نفسه أن يطرح المسألة برمتها جانبًا. ولكن التصميم كان جيدًا، ولم يجهل «سومز» ذلك، لقد اكتنفه الكمال والجلال. ومساكن الخدم كانت ممتازة أيضًا. وسيكتسب «سومز» الجاه بالإقامة في منزل كهذا، له مثل هذه الملامح الخاصة، وهو مع ذلك حسن الترتيب إلى حد الإتقان.

وظل ينعم النظر في الرسوم في حين ذهب «سومز» إلى غرفة نومه ليحلق ذقنه، ويرتدي ملابس الخروج.

وعادا كلاهما إلى ميدان «مونبيلييه» سائرين في صمت. وكان «سومز» يراقب صاحبه بطرف عينه.

وكان «القرصان» أقرب أن يكون فتى مليح الشكل عندما يرتدي ثيابًا لائقة، هكذا كان يظن «سومز».

وعندما دخل الرجلان البيت كانت «آيرين» تنحني على أزهارها.

وتحدثت عن إرسال من يعبر «البارك» ليحضر «جون». وقال «سومز»:

ـ لا، لا، فما زالت لدينا شؤون تتطلب مناقشتها!

وفي أثناء الغداء كاد يكون مضيافًا، وظل يلح على «بوزيني» أن يأكل. وسره أن يرى المهندس المعماري في مثل هذا الابتهاج. وتركه يقضي عصر ذلك اليوم مع «آيرين». إذ انسحب إلى غرفة لوحاته، جريًا على عادته يوم الأحد. ونزل إلى غرفة الجلوس في ميعاد تناول الشاي، ووجدهما يتحدثان. أو «يفرطان في الحديث» على حد تعبيره.

وهنأ نفسه، وهو واقف بعتبة الباب غير ملحوظ، هنأ نفسه بأن الأمور تتخذ الوجهة السليمة. فمن حسن الحظ أنها و«بوزيني» متفاهمان، وبدا عليها أنها مالت إلى جانب فكرة المنزل الجديد.

وتأمله الهادئ بين لوحاته جعله يقرر أن يقذف بمبلغ الجنيهات الخمسمائة فيما إذا دعت الضرورة إلى ذلك. ولكنه أمل أن يخفف عصر ذلك اليوم من تقديرات «بوزيني»، فهذا محض أمر يستطيع «بوزيني» علاجه إذا شاء. ولا بد أن هناك طرقًا عديدة يمكنه أن يخفض بها تكاليف إنشاء منزل دون إفساد النتيجة.

وعلى ذلك انتظر فرصته إلى وقت أن كانت «آيرين» تناول فيه المهندس المعماري قدحه الأول من الشاي وأشعل خديها شق من شعاع الشمس. نفذ من خلال شفوف الستائر، وتوهج في ذهب شعرها، وفي عينيها الرقيقتين. ولعل نفس الشعاع عمق لون «بوزيني»، وخلع على وجهه تلك الهيئة الجافلة نوعًا.

وكان «سومز» يكره أشعة الشمس، ونهض من فوره ليسدل الستار. ثم تناول قدح شايه من زوجته، ثم قال في فتور زاد عن الحد الذي قصده:

ـ ألا تستطيع مع ذلك أن ترى لك طريقة لإتمام الأمر بثمانية آلاف؟ لا بد أن هناك أشياء كثيرة في وسعك تعديلها.

وابتلع «بوزيني» شايه جرعة واحدة، ووضع قدحه على المائدة وأجاب:

ـ ليس هناك شيء واحد يمكن تعديله!

ورأى «سومز» أن اقتراحه مس موضعًا مبهمًا ما من زهوه الشخصي. ووافقه قائلًا في استسلام عابس:

ـ حسنًا، أحسب أنه لا بد من اتباعك لما ترى.

ونهض «بوزيني» بعد بضع دقائق لينصرف، ونهض «سومز» أيضًا ليشيعه إلى خارج المنزل. وبدا المهندس المعماري مبتهجًا على نحو غير طبيعي. وبعد أن لاحظه «سومز» وهو يسير مبتعدًا، متأرجح الخطى، عاد مكتئبًا إلى غرفة الجلوس حيث كانت «آيرين» بصدد التخلص من أحلامها الشجية، وسأل وقد أثاره فضول متشنج تتعذر السيطرة عليه:

ـ حسنًا، ما رأيك في «القرصان»؟

ونظر إلى البساط وهو ينتظر إجابتها. وكان عليه أن ينتظر بعض الوقت. وقالت آخر الأمر:

ـ لست أدري.

ـ ألا ترينه مليحًا؟

وابتسمت «آيرين». وخيل إلى «سومز» أنها تسخر منه.

وأجابت:

ـ بلى، مليح جدًّا.

الفصل التاسع

موت العمة «آن»

وفي أواخر سبتمبر حل صباح لم تستطع العمة «آن» فيه أن تتناول من يدي الخادمة «سميذر» شعار «كرامتها الشخصية». وعلى أثر نظرة إلى وجهها الشائخ أعلن الطبيب الذي أُرسل في طلبه على عجل أن الآنسة «فورسايت» قضت نحبها وهي نائمة.

وغمرت الصدمة العمتين «جولي» و«هيستر»، فهما لم تتصورا قط مثل هذه النهاية. ومن المشكوك فيه بالتأكيد أن تكونا قد أدركتا أبدًا أن النهاية كان لا بد أن تحل. وقد شعرتا فيما بينهما وبين نفسيهما بأنه غير معقول من «آن» أن تتركهما هكذا دون أن تقول كلمة، أو حتى دون مقاومة. إن هذا مغاير لطبيعة «آن».

ولعل الذي أثر فيهما حقًّا ذلك التأثير العميق هو فكرة أن فردًا من أسرة «فورسايت» مقضي عليه أن يدع الحياة تفلت من قبضته. وإذا حدث هذا لفرد منهم، فلماذا إذن لا يحدث لهم جميعًا!

ومرت ساعة كاملة قبل أن يستطيعا عقد نيتهما على إخبار «تيموثي» بالأمر. آه لو أمكن فقط إخفاؤه عنه! آه لو أمكن فقط إبلاغه إليه شيئًا فشيئًا!

ووقفتا تتهامسان مدة طويلة خارج بابه. وكانتا بعد انتهائهما من التهامس تعودان إليه ثانية.

وخشيتا أن يشتد شعوره بالخطب على مر الزمن. ومع ذلك فقد تلقاه على أفضل مما كان يمكن أن تتوقعاه. إنه سيلزم فراشه بالطبع!

وافترقتا وهما تبكيان في هدوء.

ولزمت العمة «جولي» غرفتها منكفئة على فراشها من وقع الصدمة.

وانقسم وجهها الذي أحالت الدموع لونه... انقسم إلى أقسام بفعل الأخاديد الصغيرة التي أحدثها اللحم الممطوط المنتفخ من الانفعال. لقد استحال عليها أن تتصور الحياة بغير «آن» التي عاشت معها مدة ثلاثة وسبعين عامًا لم يقطعها إلا فاصل حياتها الزوجية القصيرة التي بدت الآن وهمية إلى حد كبير. وكانت تذهب في فترات معينة إلى درجها، وتتناول منديلًا نظيفًا من تحت حقائب الزجاجات العطرية. إن قلبها المضطرم لم يستطع احتمال فكرة أن «آن» ترقد هناك جثة باردة.

أما العمة «هيستر» الصموت الصبور، المتنفس لنشاط الأسرة، فإنها جلست في غرفة الاستقبال، حيث كانت الستائر مسدلة، وقد بكت هي أيضًا في بادئ الأمر، ولكن بكاءها كان هادئًا دون أن يبدو له أثر ظاهر. والمبدأ الذي تسترشد به، وهو الاحتفاظ بنشاطها، لم يتخلف عنها وقت حزنها، جلست نحيلة جامدة، تتأمل المدفأة ويداها عاطلتان في حجر ثوبها الحريري الأسود. وقد أرادتا أن تحثاها دون شك على الاشتغال بشيء كأنما هناك أي نفع في ذلك! إن الاشتغال بشيء لن يعيد «آن»! لماذا تزعجانها؟

وجاءت الساعة الخامسة بثلاثة من الإخوة هم «جوليون» و«جيمس» و«سويذن» وكان «نيكولاس» في «يارماوث» و«روجر» يعاني نوبة حادة من داء المفاصل. وكانت السيدة «هيمان» قد جاءت بمفردها من قبل في ذلك اليوم، وانصرفت بعد رؤية «آن»، تاركة رسالة لـ«تيموثي» ـ وقد أخفيت عنه ـ جاء فيها أنه كان ينبغي إخبارها بالأمر على نحو أسرع. وفي الواقع كان هناك شعور عام بينهم بأنه كان ينبغي إخبارهم بالأمر على نحو أسرع، كأنما قد فاتهم شيء. وقال «جيمس»:

ـ كنت أعلم كيف سيقع الأمر. قلت لك إنها لن تعيش إلى ما بعد الصيف.

ولم تجبه العمة «هيستر». إن شهر أكتوبر كاد يحل، ولكن ما فائدة الجدل؛ فبعض الناس لا يقتنعون أبدًا.

وأرسلت من يخبر أختها أن إخوتها موجودون. ونزلت السيدة «سمول» من توها، وكانت قد غسلت وجهها الذي ما زال منتفخًا. وبرغم أنها نظرت شزرًا إلى سروال «سويذن»، إذ كان لونه أزرق باهتًا ـ فقد جاء «سويذن» من النادي رأسًا حيث وصل إليه النبأ ـ برغم ذلك أكسبت وجهها تعبيرًا أميل إلى المرح من المعتاد، فإن غريزة ارتكاب الفعل الخاطئ كانت شديدة الوطأة عليها حتى في الموقف الراهن.

ولم يلبث الخمسة جميعًا أن صعدوا ليشاهدوا الجثة. وقد وضع «لحاف» تحت «الملاءة» البيضاء النقية، ذلك أن العمة «آن» تحتاج إلى دفء الآن أكثر من أي وقت مضى. وإذا أزيلت الوسائد رقد رأسها وظهرها منسطحين في تصلب شبيه بتصلبهما في أثناء حياتهما الطويلة؛ وشُد غطاء رأسها الذي كان يعصب على جبينها... شُد إلى كلا الجانبين في محاذاة الأذنين، وظهر بينه وبين «الملاءة» وجهها الذي يكاد يماثلها بياضًا، وقد أدير، مغمض العينين، صوب أوجه إخوتها وأخواتها. وكان الوجه، في هدوئه الغريب، أقوى مما كان في أي وقت مضى. وهو الآن يكاد كله أن يكون عظامًا تحت صفحة الجلد التي لا يشوبها التجعد إلا في القليل النادر ـ شدق وذقن مربعان، ووجنتان بارزتا العظم، وجبهة ذات صدغين غائرين، وأنف مستقيم الرسم ـ قلعة روح لا يقهر استسلم للموت، وقد بدت في عماها الأعلى كأنها تحاول استرجاع ذلك الروح، واستعادة ولايتها التي تخلت عنها توًّا.

ولم يلقِ «سويذن» على الوجه إلا نظرة واحدة. وغادر الغرفة؛ وقال فيما بعد إن المنظر عكر مزاجه تعكيرًا شديدًا. ونزل إلى الدور السفلي وهو يرج البيت بأسره. وتسلق عربته المقفلة، ممسكًا بقبعته، ولم يذكر للسائق أي

وجهة يتجه إليها. وأعادته العربة إلى بيته. وقضى المساء بطوله جالسًا في مقعده دون حراك.

ولم يستطع أن يأكل من العشاء إلا قطعة من لحم الحجل، وبعضًا من نصف لتر من «الشمبانيا».

ووقف «جوليون الكبير» عند طرف الفراش، مطوي اليدين من أمام. وقد انفرد من بين مَن في الغرفة بتذكر موت أمه، وكان يفكر في ذلك برغم نظره إلى «آن». كانت «آن» امرأة كبيرة السن. ولكن الموت حضرها آخر الأمر. الموت يحضر الجميع! ولم يتحرك وجهه. وبدت نظرته كأنها تطوف من مكان شديد البعد.

ووقفت العمة «هيستر» إلى جانبه. وهي لم تعد تبكي الآن فدموعها قد استنفدت. وطبيعتها تأبى أن تسمح بمزيد من هروب قواها؛ ولوت يديها، غير ناظرة إلى «آن»، ولكن إلى ناحية أخرى، ملتمسة وسيلة ما للتخلص من جهد إدراك الواقع.

وأبدى «جيمس» انفعالًا أشد من انفعال سائر إخوته وأخواته. وتحدرت الدموع من بين الأخاديد المتوازية المحفورة في وجهه النحيل. ولم يعرف إلى أي مكان ينبغي أن يذهب الآن ليتحدث عن همومه؛ إن «جولي» لا تصلح، و«هيستر» أسوأ من امرأة عديمة النفع! لقد تأثر بموت «آن» أكثر مما خطر له يومًا أنه سيضطر إلى ذلك؛ إن الأمر سيزعجه لمدة أسابيع!

ولم تلبث العمة «هيستر» أن استرقت الخطى إلى الخارج. وبدأت العمة «جولي» تتنقل هنا وهناك، قائمة «بما يجب»، وبذلك اصطدمت مرتين بشيء ما. وإذ استيقظ «جوليون الكبير» من تأمله، من تأمل الماضي البعيد، البعيد. نظر إليها شزرًا، وانصرف. وبقي «جيمس» بمفرده إلى جانب الفراش. وأحنى جسمه الطويل، مختلسًا النظر إلى ما حوله ليستوثق من أن عينًا لا تلاحظه، وطبع قبلة على جبين المتوفاة، ثم غادر هو أيضًا الغرفة على عجل. وإذ التقى بـ«سميذر» في الردهة بدأ يسألها عن الجنازة، وما وجدها غير ملمة

بشيء حتى شكا في مرارة من أن كل شيء سيسوء إذا هم لم يعنوا بالأمر، وأولى بها (أي بالخادمة «سميذر») أن ترسل في طلب السيد «سومز»، فهو يعرف كل شيء خاص بمثل هذا الأمر؛ وسيدها، على ما يظن، مضطرب جدًّا، وهو بحاجة إلى من يعني به. أما فيما يتعلق بسيداتها فهن لا يصلحن لشيء، هن يفتقرن إلى الحذق! وإذا مرضن هن أيضًا فإن ذلك لن يدهشه. وأولى بها أن ترسل في طلب الطبيب، إذ الأفضل معالجة الأمور في أوانها. وهو لا يظن أن أخته «آن» كانت أصوب رأيًا؛ فلو أن الطبيب «بلانك» زارها لكانت الآن حية ترزق. وكان في وسع «سويذن» أن يرسلها إلى «بارك لين» كلما احتاجت إلى مشورة. وعربته لا شك رهن إشارتهم لاستخدامها في الجنازة. وهو يحسب أن لديها شيئًا مثل قدح من نبيذ فرنسي وقطعة بسكويت، فهو لم يتغد!

ومرت الأيام السابقة على الجنازة في هدوء. وكان من المعروف من وقت طويل، بالطبع، أن العمة «آن» أوصت بتركتها الصغيرة لـ«تيموثي»، ولذلك لم يكن هناك ما يدعو إلى أقل انفعال. وتولى «سومز» الاضطلاع بالترتيبات جميعها، وكان المنفذ الوحيد للوصية. وأرسل في الوقت المناسب الدعوة التالية إلى كل عضو ذكر من أعضاء الأسرة:

> إلى...
>
> نرجو حضوركم إلى الاحتفال بجنازة الآنسة «آن فورسايت» في مقبرة «هايجيت»، ظهر اليوم الأول من شهر أكتوبر. وستلتقي العربات تجاه «ذي بووار» بشارع «بيزوتر» في الدقيقة الخامسة والأربعين بعد العاشرة. نرجوكم عدم إرسال أزهار.
>
> ملحوظة: الرد مطلوب من فضلكم.

وحل الصباح. وكان باردًا، تعلوه سماء لندنية شهباء عالية. وفي منتصف الساعة الحادية عشرة أقبلت أول عربة، وهي عربة «جيمس». وكانت تقل صاحبها، وزوج ابنته المدعو «دارتي» وهو رجل لطيف، ربع الصدر، يلبس

سترة من نوع «الفروك» مشدودة عليه شدًّا وثيقًا. وله وجه شاحب، سمين نوعًا، يزينه شارب أسود، ملفوف جيدًا، وتلك البداية المستعصية على التقويم، بداية تكون الشارب المتملص من كل محاولة لحلقه، تبدو كأنها علامة على شيء مغروس غرسًا عميقًا في شخصية الحالق، شيء يُلاحظ، على الأخص، فيمن يشتغلون بالمضاربة.

واستقبل «سومز» الزوار بصفته منفذ الوصية، ذلك أن «تيموثي» كان لا يزال يلازم فراشه، ولم يرد مغادرته إلا بعد الجنازة. كذلك لم تشأ العمتان «جولي» و«هيستر» أن تنزلا من غرفتيهما إلا بعد أن ينتهي الأمر كله، ويصبح معروفًا أن الغداء سيكون معدًّا لكل من يهتم بالعودة إلى البيت. وكان «روجر» ثاني من حضروا، جاء وهو لا يزال يعرج بسبب داء المفاصل، وقد أحاط به أولاده الثلاثة «روجر الصغير» و«أوستيس» و«توماس». ووصل «جورج»، ابنه الرابع، وصل بعده مباشرة تقريبًا، مستقلًّا عربة بعجلتين. وتوقف في الردهة ليسأل «سومز» كيف وجد الاضطلاع بالإنفاق على الجنازة.

كان كل منهما يكره الآخر.

ثم أقبل اثنان من أسرة «هيمان» هما «جايلز» و«جيسي»، وكانا مستغرقين في الصمت، مرتديين ملابس حسنة جدًّا، وقد ثُني طرفا سرواليهما الرسميين ثنية خاصة. ثم أقبل «جوليون الكبير» وحده. وتلاه «نيكولاس»، مصطبغ الوجه بلون الصحة، وقد حرص على إخفاء طلاقته في كل حركة من حركات رأسه وبدنه. وتبعه ابن من أبنائه، ابن وديع مستسلم. وحضر «سويذن فورسايت» و«بوزيني» في وقت واحد، وانحنى كل منهما للآخر عارضًا عليه أن يتقدمه. ولكنهما حاولا عند الباب أن يدخلا معًا، ثم جددا اعتذارهما في الردهة. وصعد «سويذن» السلم في بطء شديد، بعد أن سوَّى ملابسه التي تشوشت من أثر الاحتكاك. ثم جاء «هيمان» الآخر؛ وابنا «نيكولاس» المتزوجان، وكذلك «تويتيمان» و«سبندر» و«واري» وهم أزواج السيدات المتزوجات من أسرة «فورسايت» و«هيمان»، واكتمل عندئذ الجمع. وقد بلغ

واحدًا وعشرين رجلًا، ولم يتخلف فرد من الأسرة إلا «تيموثي» و«جوليون الصغير».

وعند دخولهم غرفة الجلوس الحمراء الخضراء التي أحدثت أغطيتها خليطًا شديد التناقض مع ثيابهم غير المألوفة حاول كل منهم، في عصبية، أن يجد مقعدًا، رغبة منه في إخفاء سرواله ذي اللون الأسود الفاحم. وبدا كأن هناك نوعًا من الابتذال في ذلك السواد، وفي لون قفازاتهم نوعًا من المبالغة في المشاعر. وألقى كثيرون منهم على «القرصان» نظرات مأخوذة، تنم عن حقد مكتوم، فهو لم يكن يلبس قفازًا، وكان يرتدي سروالًا رمادي اللون.

وعلت همهمة حديثة مكبوتة. ولم يتحدث أحد عن المتوفاة، ولكن كلًّا منهم كان يسأل عن صحة الآخر، وكأنه، بهذا، يدشن عن طريق غير مباشر ذلك الحديث الذي جاءوا إكرامًا له.

ولم يلبث «جيمس» أن قال:

ـ حسنًا، أظن أنه ينبغي لنا أن نبدأ.

ونزلوا إلى أسفل الدار. وصعدوا في العربات اثنين اثنين بحسب إحصائهم الذي تم من قبل على وجه الدقة.

وسار النعش في سرعة الخطو، وتبعته العربات في بطء. واستقل «جوليون الكبير» و«نيكولاس» العربة الأولى، وتلاهما التوأمان «سويذن» و«جيمس»، واستقل العربة الثالثة «روجر» و«روجر الصغير»، وتبعهما في الرابعة كل من «سومز» و«نيكولاس الصغير» و«جورج» و«بوزيني»، وكل واحدة من العربات الأخرى أقلت ثلاثة أو أربعة من أفراد الأسرة، وقد بلغت في مجموعها ثماني عربات. وجاءت وراءها مركبة الطبيب المقفلة، تتبعها، على مسافة لائقة، عربات تقل موظفي الأسرة وخدمها. ثم سارت في آخر الركب عربة خالية تمامًا، جعلت مركبات الموكب تبلغ ثلاث عشرة مركبة.

وعلى طول الجزء المطروق من شارع «بيزوتر» احتفظ الموكب في مسيره بسرعة الخطو، ولكنه إذ عرج على طرق أقل أهمية لم يلبث مسيره

أن تحول إلى خبب، مع فترات عاد فيها إلى السير على مهل في الشوارع الأكثر رقيًّا، وظل هكذا حتى وصل إلى غايته. وكان «جوليون الكبير» و«نيكولاس» يتحدثان في العربة الأولى عن وصيتيهما. وفي العربة الثانية استغرق التوأمان في صمت تام بعد أن حاولا الكلام مرة واحدة. وكان كل منهما أقرب إلى أن يكون أصم، والجهد الذي يبذله في سبيل إسماع رفيقه شاقًّا جدًّا وقطع «جيمس» الصمت مرة واحدة:

ـ عليَّ أن أبحث عن أرض ما أشتريها في مكان ما. وما الذي رتبت أمرك عليه يا «سويذن»؟

وأجاب «سويذن» وهو يحدق فيه تحديقًا مفزعًا:

ـ لا تحدثني عن مثل هذه الأمور!

وفي العربة الرابعة جرى حديث غير متصل خلال فترات نظر راكبوها إلى الخارج لينظروا إلى أين وصلوا. ولاحظ «جورج»: «حسنًا، لقد حان بالفعل، «ذهاب» السيدة العجوز المسكينة». إنه لم يكن يؤمن ببقاء الإنسان على قيد الحياة إلى ما بعد السبعين. وأجاب «نيكولاس الصغير» في لطف أن هذه القاعدة لا تنطبق، كما يبدو، على أسرة «فورسايت». وقال «جورج» إنه هو نفسه اعتزم الانتحار في سن الستين. ولم يظن «نيكولاس الصغير»، وهو يبتسم ويمسح ذقنه الطويل، أن أباه يمكن أن يرضى عن هذه النظرية؛ فقد جمع مالًا كثيرًا منذ بلغ الستين. وقال «جورج»: «حسنًا، إن السبعين هي الحد الأقصى، فإن الوقت يحين إذن لرحيلهم وترك أموالهم لأولادهم». وهنا تدخل «سومز» في الحديث، وكان قد لزم الصمت حتى الآن. وهو لم ينس الملاحظة عن «المشروع»، وقال وهو يرفع جفنيه بشكل غير ملحوظ إنه لحسن جدًّا أن يتكلم أولئك الذين لم يجمعوا مالًا قط، وهو نفسه ينوي أن يعيش إلى أقصى حد يستطيعه. وكانت هذه غمزة لـ«جورج» الذي ذاع عنه أنه يكابد الإملاق، وغمغم «بوزيني» شاردًا: «مرحى! مرحى!» وإذ تثاءب «جورج» انفرط عقد الحديث.

ولدى الوصول حُمل النعش إلى الكنيسة، وسار النائحون وراءه مصطفين اثنين وراء اثنين. وكان لهذا الحرس من الرجال الذين تربطهم جميعًا بالمتوفاة رابطة القرابة منظر مؤثر غريب في مدينة لندن العظيمة بما فيها من تنوع حياتها الفياض، وحرفها التي لا عداد لها، وأسباب متعها وواجباتها وقسوتها الرهيبة، ودعوتها المفزعة إلى الفردية.

وتجمعت الأسرة لتنتصر على هذا كله، وتستعرض وحدتها المسكينة، وتوضع في جلال قانون الملكية، ذلك القانون الذي يكمن تحت نماء شجرتها، والذي يرجع إليه توفيقها وامتدادها جذوعًا وأفرعًا. وتدفق عصارتها في كيانها كله، واكتمال نمائها الذي تم في الوقت المحدد. إن روح المرأة العجوز التي ترقد رقادها الأخير دعاهم إلى القيام بهذه المظاهرة. وكان هذا دعاءها الأخير إلى ذلك الاتحاد الذي هو مصدر قوتهم، وكان انتصارها الأخير أنها ماتت والشجرة لا تزال متكاملة برمتها.

لقد وفر عليها الموت أن ترقب الأفرع وهي تبرز وتتجاوز نقطة التوازن. ولم يكن بوسعها أن تغوص بنظرها إلى أفئدة مشيعيها. إنه نفس القانون الذي عمل في كيانها، وحولها من فتاة فارعة الطول، منتصبة القد، لدنة، إلى امرأة قوية مكتملة النماء. ومن امرأة مكتملة النماء إلى عجوز هزيلة ضعيفة تكاد تشبه ساحرة شمطاء، وقد اشتدت فرديتها واشتدت، وكأن كل ما يحيط بها من اتصال بالحياة قد انفصل عنها. إن هذا القانون لا بد أن يعمل، وهو يعمل في كيان الأسرة التي راقبتها مراقبة الأم.

لقد رأتها أسرة فتية تنمو، ورأتها قوية موفورة النماء. ثم ماتت قبل أن يتاح لعينيها الهرمتين الوقت والقوة لتريا أكثر من ذلك. ولعلها كانت ستحاول، ولكنه كان من الممكن ـ ومن يدري ـ أن تصون شباب الأسرة وقوتها، مدة أطول، بيديها الهرمتين، وقبلاتها المرتعشة، مدة أطول قليلًا؛ ووا أسفاه! فإنه حتى العمة «آن» لا تستطيع أن تناضل الطبيعة.

«التفاخر يسبق السقوط!» ووفقًا لهذا المثل، وهو يعبر عن أشد سخريات

الطبيعة، اجتمع أفراد أسرة «فورسايت» للقيام بآخر احتفال فخري قبل سقوطهم. وكانت وجوههم المصطفة يمينًا وشمالًا، في خطوط منفردة، كانت على الأغلب تتجه في غير تأثر صوب الأرض، مستغرقة في أفكارها. ولكن كان يبدو على الواحد منهم، وهو ينظر مقطبًا إلى أعلى هنا وهناك، كأنه يرى على حيطان الكنيسة مرأى أشد من أن يحتمله، ويسمع شيئًا يروع. كانت الردود المهموسة بأصوات تصاعدت منها نفس النبرة، نفس جرس الأسرة المستعصي المنال، كانت غريبة الوقع، وكأن شخصًا واحدًا يلغط بها مرتين طبق الأصل على عجل.

وتمت تلاوة القداس في الكنيسة، واصطف المشيعون ثانية ليحرسوا الجثة وهي في طريقها إلى القبر. وكان اللحد مفتوحًا، ووقف حوله أناس في ثياب سود ينتظرون.

ومن ذلك الميدان العالي المقدس، حيث يستغرق في سباتهم آلاف من أفراد الطبقة فوق المتوسطة، جالت عيون أعضاء أسرة «فورسايت» عبر حشد القبور. وهناك ثوت لندن، ممتدة في المدى البعيد بلا شمس تعلوها، باكية فقدان ابنتها، باكية مع هذه الأسرة، العزيزة عليها كثيرًا، فقدان تلك التي كانت أمًّا وحارسة. وثوت هناك مئات الآلاف من الأبراج والدور التي بقعت شبكة الأملاك الشهباء الكبيرة وكأنها مصلون ساجدون أمام قبر هذه التي هي أكبر سنًّا من أفراد أسرة «فورسايت» جميعًا.

بضع كلمات، ورشاش من تراب، ودفع التابوت إلى مثواه، ثم انتقلت العمة «آن» إلى الراحة الأبدية.

وحول اللحد وقف الإخوة الخمسة، أمناء على ما يجري، مطأطئين الرؤوس البيض. كان عليهم أن يروا «آن» مستريحة حيثما هي ذاهبة. ولا مفر من أن تترك ملكها الصغير وراءها، ولكن، فيما عدا ذلك، لا بد من عمل كل ما يمكن عمله.

ثم وقف كل منهم بمفرده، منتحيًا جانبًا، وعاد راجعًا، وقد وضع قبعته على رأسه، عاد ليتفقد النقش الجديد المحفور على مرمر مقبرة الأسرة.

مكرس لذكرى
«آن فورسايت»
ابنة المذكورين أعلاه
«جوليون» و«آن فورسايت»
وقد رحلت عن هذه الحياة
في السابع والعشرين من سبتمبر ١٨٨٦
وعمرها سبعة وثمانون عامًا وأربعة أيام

ولعل أحدًا آخر سيحتاج إلى مثل هذه الأسطر المنقوشة عما قريب. وكان ذلك غريبًا غير محتمل إذ لم يخطر لهم، على نحو ما، أن أفراد أسرة «فورسايت» يمكن أن يموتوا. وكانوا جميعًا، فردًا وجماعة، يتوقون إلى الابتعاد عن هذا الشجن، عن هذه الجنازة التي تذكرهم أمورًا لا يحتملون التفكير فيها، كانوا يتوقون إلى الابتعاد على وجه السرعة، والاضطلاع بأعمالهم، والنسيان.

وكان الجو باردًا أيضًا، والهواء يلطمهم بأنفاسه القارسة وهو يهب في أعلى التل على القبور، وكأنه قوة خفية ما، بطيئة ساحقة. وأخذوا ينقسمون إلى جماعات ليملأوا العربات المنتظرة على أسرع وجه مستطاع.

وقال «سويذن» إنه سيتغدى بمنزل «تيموثي»، وعرض أن يصحب أيًا منهم في عربته ذات العجلتين. وكانوا يعدون الركوب مع «سويذن» في عربته ميزة مشكوكًا فيها، فالعربة لم تكن بالكبيرة. ولم يقبل أحد عرضه، فمضى بمفرده.

وتبعه «جيمس» و«روجر» على الأثر. وكانا سيذهبان إلى «تيموثي» للغداء أيضًا. وتبدد الباقون على التوالي. واصطحب «جوليون الكبير» ثلاثة من أبناء إخوته ليملأ عربته. وكان في حاجة إلى تلك الوجوه الفتية.

وسار «سومز» مع «بوزيني»، وكان عليه أن يسوي بعض الأمور في مكتب المقبرة، وأراد أن يناقش «بوزيني» في أشياء كثيرة، فسارا معًا إلى «هامستيد» بعد أن أتم مهمته، وتغديا معًا في فندق «سبانيارد»، وقضيا وقتًا

طويلًا تغلغلا خلاله إلى تفاصيل عملية متعلقة ببناء المنزل. ثم ذهبا إلى محطة الترام، ووصلا معًا إلى «ماربل آرش»، ومن ثم مضى «بوزيني» إلى «ستانهوب جيت» للقاء «جون».

وشعر «سومز» عندما وصل إلى بيته بأنه منشرح الصدر أطيب انشراح، وباح لـ«آيرين» على مائدة الغداء بأنه بادل «بوزيني» حديثًا مسهبًا، وبدا له هذا الفتى فطنًا حقًّا. وقد تمشيا معًا أيضًا مدة طويلة، فأفاد ذلك كبده، إذ إنه قصر في القيام بأية رياضة منذ أمد بعيد، وكان اليوم في جملته مُرضيًا جدًّا. ولو أنه لم يكن هناك أمر العمة «آن» المسكينة لاصطحبها إلى المسرح. أما والأمر على هذا النحو فينبغي الإفادة على قدر المستطاع من العشية التي سيقضيانها بالبيت.

وقال فجأة:

ـ لقد سأل «القرصان» عنك أكثر من مرة.

وقام من مقعده، مدفوعًا برغبة ما، متعذرة التفسير، رغبة في تأكيد ملكيته، فطبع قبلة على كتف زوجته.

الجزء الثاني

الفصل العاشر

تقدم مشروع المنزل

كان الشتاء مؤاتيًا، وأمور التجارة راكدة. وإذ أنعم «سومز» النظر قبل أن يحزم أمره، وجد أن الوقت ملائم للبناء. وتم على ذلك تشييد هيكل المنزل في «روبن هل» عند نهاية أبريل.

والآن إذ أصبح هناك شيء يمكن مشاهدته بعدما بُذل من مال، فقد عمد إلى المجيء مرة، بل حتى مرتين كل أسبوع، وكان يتسرب هنا وهناك، مدة ساعات، بين ركام البناء، حريصًا على ألا تتسخ ملابسه أبدًا، مجتازًا في صمت معابر الأبواب التي ما زالت من حجر غير مكتمل الصنع، أو طائفًا حول أعمدة الفناء الرئيسي.

وكان يقف أمامها لمدة دقائق بأكملها، وكأنه يتغلغل ببصره إلى حقيقة نوع المادة التي صنعت منها.

وكان بينه وبين «بوزيني» موعد في اليوم الثلاثين من شهر أبريل لمراجعة الحساب، وقبل أن يحين الموعد المضروب بخمس دقائق دخل الخيمة التي ضربها المهندس المعماري لنفسه إلى جانب شجرة البلوط القديمة.

وكانت أوراق الحساب معدة فوق مائدة من النوع الذي يُطوى، وبإشارة من «بوزيني» جلس «سومز» ليمتحنها. ومضى بعض الوقت قبل أن يرفع رأسه. وقال آخر الأمر:

ـ لم أستطع تبين المبالغ، إنها تتجاوز القدر الذي ينبغي أن تكون عليه بما يقارب سبعمائة جنيه!

وبعد نظرة إلى وجه «بوزيني» واصل القول على عجل:

ـ لو أنك تقف فقط موقفًا حازمًا إزاء الرجال القائمين بالبناء لاستطعت إنقاصها. وأنت إذا لم تبدُ يقظًا فإنهم يغبنونك في كل شيء. احذف عشرة في المائة من مجمل الحساب. وأنا لن أبالي فيما إذا زاد المبلغ مائة جنيه عن الحد المقرر.

وهز «بوزيني» رأسه:

ـ إني حذفت كل قرش استطعت حذفه!

ودفع «سومز» المائدة إلى الوراء في حركة غاضبة فألقى بذلك أوراق الحساب مبعثرة على الأرض. وانفجر غاضبًا:

ـ كل ما أستطيع أن أقوله إذن هو أنك أربكت الأمر إرباكًا كبيرًا!

وأجاب «بوزيني» بحدة:

ـ قلت لك عشرات المرات إنه ستكون هناك نفقات إضافية. وقد أوضحتها لك مرارًا وتكرارًا!

وزمجر «سومز»:

ـ أنا أعرف ذلك. وما كنت لأعترض على إنفاق ورقة من ذات العشرة جنيهات هنا وهناك. ومن أين لي العلم أنك تقصد بتلك «الإضافات» مبلغ سبعمائة جنيه؟

وساهمت صفات كلا الرجلين في وجود هذا الخلاف الكبير. فإن إخلاص المهندس المعماري لفكرته، من ناحية، أو إخلاصه لصورة المنزل التي ابتدعها وآمن بها، جعله عصبيًا نظرًا لقيام ما يعوقه، أو يرغمه على استعمال التساهل في عمله. و«سومز» الذي لم يكن، من الناحية الأخرى، أقل صدقًا واندفاعًا في إخلاصه لأجود صنف يمكن الحصول عليه نظير

ماله، أصبح لذلك مناهضًا للاعتقاد بأن الأشياء التي تستحق ثمنًا قدره ثلاثة عشر شلنًا لا يمكن شراؤها باثني عشر.

وقال «بوزيني» فجأة:

ـ وددت لو أني لم أتول بناء منزلك قط. إنك تأتي إلى هنا وتزعجني إلى حد إزهاق الروح. إنك تريد للمال الذي تدفعه ضعف القيمة التي يريدها أي شخص غيرك. وأنت الآن، وقد حصلت على منزل ليس في الإقليم منزل آخر يفوقه قدرًا، تريد ألا تدفع له ثمنًا، وإذا كنت تتوق إلى التخلي عن التعاقد، فلعلي أستطيع أن أصل إلى موازنة التقديرات بترك نصيبي. ولكني أكون... إذا قمت لك بأي عمل آخر!

واستعاد «سومز» اتزانه. ولما كان يعلم أن «بوزيني» لا يملك رأس مال، فقد رأى أن ذلك اقتراح متهور. ورأى أيضًا أنه سيبعد نهائيًا عن ذلك المنزل الذي تعلق به قلبه، وأن ذلك سيقع على وجه التحديد بسبب نقطة حاسمة تتحصل في أن عناية المهندس الشخصية هي التي أحدثت الخلاف كله. وفي أثناء ذلك هناك «آيرين» التي ينبغي التفكير فيها! فقد كانت غريبة الأطوار جدًّا في الآونة الأخيرة. وهو يعتقد بحق أنها لم تصبر على فكرة المنزل إلا بسبب اهتمامها بـ«بوزيني». ولا خير في ثلم علاقته الودية بها علنًا. قال:

ـ ليست هناك حاجة لهياجك. وإذا كنت أريد الرجوع في الصفقة، فأحسب أن هذا لا يدعو إلى صراخك. وكل ما قصدته هو أني أود، في الواقع، عندما تخبرني بأن شيئًا سيكلفني ذلك القدر من المال. أود، أن أعرف موضع قدمي.

وقال «بوزيني»، وكان «سومز» قد تضايق ودهش من حدة نظرته:

ـ اسمع، إنك ظفرت بخدماتي رخيصة إلى حد بشع. وكنت ستضطر، نظير هذا النوع من جهدي الذي بذلته في بناء منزلك، والوقت الذي كرسته له، أن تدفع إلى «ليتلماستر»، أو إلى أي أبله آخر، أربعة أضعاف

أجري، إن الذي تريده، في الواقع، رجل من الدرجة الأولى، يتقاضى أجرًا من الدرجة الرابعة، وهذا ما حصلت عليه تمامًا.

ورأى «سومز» أن «بوزيني» يعني ما يقول فعلًا، وبرغم غضبه، بدت عواقب المشاحنة أمامه واضحة أشد الوضوح، لقد رأى منزله غير تام البناء، وزوجته متمردة، ورأى نفسه موضوعًا للسخرية.

وقال عابسًا:

ـ لنتم نظر البيان، ونرَ كيف أُنفق المال.

ووافق «بوزيني»:

ـ حسن جدًّا، ولكننا سنسرع إذا لم يكن لديك مانع، فأنا مضطر إلى العودة في الموعد المحدد لأصحب «جون» إلى المسرح.

واسترق «سومز» نظرة إليه، وقال:

ـ أظنك ستحضر إلى بيتنا لتراها؟

وكان يحضر دائمًا إلى منزلهم!

كانت السماء قد أمطرت في الليلة السابقة، أمطرت مطر الربيع، وفاحت الأرض برائحة كرائحة عصارة النبات، والحشائش البرية. وهز النسيم الدافئ الناعم أوراق الأغصان، وبراعم شجرة البلوط العتيقة وكانت الشحارير تصفر تحت أشعة الشمس صفيرًا يفرغ مكنون قلوبها.

كان يوم ربيع من ذلك النوع الذي ينفث في الإنسان حنينًا متعذر الوصف، وعذوبة مؤلمة، واشتياقًا يحمله على الوقوف بلا حراك، ناظرًا إلى أوراق الشجر أو الحشائش، باسطًا ذراعيه ليحتضن ما لا يدريه. وبعثت الأرض دفئًا ضئيلًا أخذ يتسرب من خلال الكساء الذي دثرها الشتاء به. وكانت هذه هي مداعبتها الطويلة الأمد، مداعبة الدعوة التي توجهها إلى الرجال لتستميلهم إلى الاستلقاء بين ذراعيها، والتمرغ بأبدانهم فوقها، ووضع شفاههم على صدرها.

وفي مثل يوم كهذا ظفر «سومز» من «آيرين» بالوعد الذي كثيرًا ما ألح

عليها في طلبه. وكان قد وعدها للمرة العشرين، وهو جالس فوق جذع شجرة ملقاة على الأرض، بأنه سيدعها حرة طليقة كما لو كانت لم تتزوجه قط، إذا لم يصادف زواجهما التوفيق!

وقالت له: «أتقسم على ذلك؟». وبعد مضي بضعة أيام ذكرته بوعده، فأجاب: «هراء! لا يمكن أن أكون قد أقسمت على شيء كهذا أبدًا!». وبفعل قدر مشؤوم تذكر هذا القسم الآن. أي أشياء غريبة يقسم عليها الرجال في سبيل النساء! وهو يمكن أن يعيد ذلك القسم في أي وقت ليفوز بها! وإنه ليعيده الآن ليمس شغاف قلبها، ولكن أي إنسان لا يستطيع ذلك، فهي ذات طبيعة باردة!

وتزاحمت عليه الذكريات مع نكهة ريح الربيع الرطبة العذبة، ذكريات صبابته.

ففي ربيع عام ١٨٨١ كان يزور زميله في الدراسة وعميله المدعو «جورج ليفرسيدج» من «برانكسوم»، الذي رأى أن يوسع ما يملك من غابات الصنوبر الواقعة بجوار «بورنيماوث»، فوضع أمر تكوين الشركة التي سيحتاج إليها المشروع بين يدي «سومز». وأقامت السيدة «ليفرسيدج» حفلة شاي موسيقية تكريمًا له، مسوقة بحاسة القيام بالأمور اللائقة. وفي وقت متأخر من ساعات ذلك الحفل الذي وجده «سومز» مملًّا إملالًا لا يلطفه ملطف، لأنه لم يكن يهوى الموسيقى، أسر عينيه وجه فتاة تلبس ثياب الحداد، وتقف على حدة. وكانت خطوط فرعها الطويل، الأميل مع ذلك إلى النحول، تبدو من خلال نسيج ثوبها الأسود المحزوم الملتصق بها. وكانت يداها المكسوتان بقفاز أسود مطويتين أمامها وشفتاها مفترقتين قليلًا، وعيناها الكبيرتان السوداوان تتجولان من وجه إلى وجه. وبدا شعرها المرسل إلى أسفل عنقها كأنه يتألق فوق «ياقتها» السوداء تألق كهرباء معدن ساطع. وبينما وقف «سومز» ينظر إليها تسرب إليه ذلك الشعور الذي يحسه أغلب الرجال في آونة أو في أخرى، غبطة غريبة للحواس، ويقين غريب يسميه مبدعو القصص والعجائز: «حب

أول نظرة». وبعد أن ظل يرقبها خلسة، اتخذ سبيله إلى ربة البيت من فوره، وانتظر توقف العزف في إصرار. وسأل:

ـ من هذه الفتاة ذات الشعر الأصفر والعينين السوداوين؟

ـ هذه... أوه! «آيرين هيرون». أبوها «البروفيسور هيرون» توفي هذا العام. وهي تعيش مع زوجة أبيها. إنها فتاة ظريفة، فتاة جميلة. ولكن لا مال لها!

وقال «سومز»:

ـ قدميني إليها، أرجوك.

ولم يجد ما يقوله إلا أقل من القليل، ولم يجدها تتجاوب مع ذلك القليل. ولكنه انصرف وهو يعتزم رؤيتها ثانية. وحقق غايته متوسلًا بالمصادفة، ملتقيًا بها على رصيف الميناء مع زوجة أبيها التي اعتادت أن تتمشى من الساعة الثانية عشرة إلى الواحدة بعد الظهر. وتوصل «سومز» إلى معرفة تلك السيدة في خفة، وسرعان ما رأى فيها الحليف الذي يبحث عنه. ولم تلبث أن دلته حاسة تشممه المرهفة للجانب التجاري من الحياة العائلية، على أن «آيرين» تكلف زوجة أبيها نفقات تزيد على المبلغ الذي تزودها به وقدره خمسون جنيهًا في العام، ودلته كذلك على أن السيدة «هيرون» وهي امرأة في أوج عمرها، ترغب في الزواج ثانية، وأن جمال ابنة زوجها، وهو جمال غريب النضج، يقف في سبيل هذه الغاية المرجوة. ووضع «سومز» خططه في إصراره الخفي.

وغادر «بورنيماوث» دون أن يكشف سره، ولكنه عاد في ظرف شهر، وتحدث في هذه المرة، لا إلى الفتاة، ولكن إلى زوجة أبيها. وقال إنه عقد العزم على الزواج، ويستطيع الانتظار أي مدة. وكان عليه أن ينتظر مدة طويلة مترقبًا «آيرين» وهي تتفتح، وقسمات وجهها الصبي تلين، ودمها الأشد حرارة يعمق وميض عينيها، ويدفئ وجهها إلى أن يتوهج توهج الزبد. وكان يعرض عليها الزواج في كل زيارة، ويحمل رفضها بعد انتهاء الزيارة عائدًا به إلى

لندن، موجع القلب، ولكن صامدًا صامتًا صمت القبور. وحاول أن يصل إلى الدوافع الخفية لمقاومتها. وفي مرة واحدة فقط لاح له شعاع من نور. وحدث ذلك في إحدى حفلات الرقص التي هي المتنفس الوحيد لمشاعر نزلاء المصايف على شواطئ البحار. كان يجلس معها إلى جانب نافذة، وقد طنت حواسه متفاعلة مع الرقص. ونظرت إليه من فوق مروحتها التي كانت تهزها في بطء، ففقد صوابه. وإذ أمسك معصمها المتحرك طبع قبلة على لحم ذراعها. واقشعرت، وهو لم ينس إلى اليوم تلك القشعريرة، ولا نظرة النفور الشديد التي ألقتها عليه.

وأذعنت بعد مرور عام لذلك. ولم يستطع قط أن يقف على سبب إذعانها. ولم يعرف شيئًا من السيدة «هيرون»، وهي على شيء من الموهبة «الدبلوماسية». وسألها مرة بعد زواجهما: «ما الذي دعاك إلى رفضي في تلك المرات الكثيرة؟». وأجابت بصمت غريب. كانت في عينيه أحجية منذ أن رآها لأول مرة، وهي لا تزال أحجية في نظره إلى الآن.

وكان «بوزيني» ينتظره عند الباب وعلى وجهه الخشن الوسيم نظرة غريبة متلهفة، ولكنها مع ذلك سعيدة، وكأنه طالع هو أيضًا في سماء الربيع وعدًا بالنعيم، واشتم سعادة مقبلة في هواء الربيع. ونظر إليه «بوزيني» وهو ينظر هناك. ما أمر هذا الفتى الذي يبدو سعيدًا إلى هذا الحد الكبير؟ ما الذي ينتظره وهذه البسمة على شفتيه وفي عينيه؟ لم يستطع «سومز» أن يتبين ما ينتظره «بوزيني» وهو واقف هناك ينهل من الهواء المشبع بعبير الأزهار. وشعر مرة أخرى بالعجز في حضور ذلك الرجل الذي يحتقره بحكم العادة. وأسرع إلى المنزل. وسمع «بوزيني» يقول:

ـ إن اللون الوحيد الذي يصلح لصفائح السطح الآجرية هو لون الياقوت المشرب بلون رمادي خفيف يمده بأثر من الشفافية. ولا بد لي من سماع رأي «آيرين» في ذلك، وقد أوصيت بوضع ستائر الجلد القرمزية في مدخل هذا الفناء. وإنك إذا دهنت الورق الذي يكسو حيطان غرفة

الاستقبال بلون أبيض مصفر حصلت على منظر خداع. إنك بحاجة إلى أن يكون هدفك من وراء هذه الزخارف ما أسميه «الفتنة».

وقال «سومز»:

ـ أتقصد أن زوجتي ذات فتنة!

وتحاشى «بوزيني» السؤال:

ـ يجمل أن يكون لك عدد من شجر السوسن وسط هذا الفناء.

وابتسم «سومز» في عجرفة وقال:

ـ سأذهب يومًا إلى محل «بيتش» وأنظر أي شجر يكون ملائمًا.

ولم يجدا قولًا آخر يتبادلانه إلا ما قيل. ولكن «سومز» سأله وهما في طريقهما إلى المحطة:

ـ أحسب أنك وجدت «آيرين» ذات موهبة فنية كبيرة؟

ـ نعم.

وكان هذا الرد المقتضب زجرًا يماثل في وضوحه قول القائل: «إذا أردت أن تتحدث في شأنها فإنك تستطيع محادثة غيري فيه!».

وازداد الغضب البطيء المتجهم الذي شعر به «سومز» طوال عصر ذلك اليوم. ازداد الآن اضطرامًا في أحشائه.

كذلك لم يعد إلى الحديث إلا عندما أصبحا على مقربة من محطة القطار، فقد سأل «سومز» عندئذ:

ـ متى تتوقع أن تتم العمل؟

ـ في آخر يونيو، إذا كنت تريد أن أقوم بأعمال الزخرفة أيضًا.

وأومأ «سومز»، وقال:

ـ ولكنك تعلم حق العلم أن المنزل يكلفني مبلغًا يفوق ما قدرته كثيرًا. وأستطيع أن أقول لك كذلك إنه كان يجدر بي أن أطرح الأمر كله لولا أن من عادتي ألا أقلع عما استقر رأيي عليه!

ولم يحر «بوزيني» جوابًا. وحدجه «سومز» بنظرة نفور عنيد، وعلى

الرغم من هيئة «سومز» المتأنقة، ومن ذلك الصمت المتعجرف الكيس، فإنه بشفتيه المطبقتين، وذقنه المربع، لم يكن غير مشابه للكلب «البولدوج».

وفي الساعة السابعة من ذلك المساء، عندما وصلت «جون» إلى المنزل رقم ٦٢ بميدان «مونبيلييه» أخبرتها الخادمة «بيلسون» أن السيد «بوزيني» في غرفة الاستقبال؛ وقالت إن سيدتها بصدد ارتداء ملابسها وستنزل بعد لحظة. وستخبرها أن الآنسة «جون» موجودة.

وأوقفتها «جون» على الأثر، وقالت:

ـ حسنًا، يا «بيلسون». إني سأدخل فحسب؛ ولا داعي لاستعجال السيدة «سومز».

وخلعت معطفها. وإذ نظرت إليها «بيلسون» نظرة إدراك لقصدها، لم تقدم حتى على أن تفتح لها باب «غرفة الاستقبال»، ولكنها نزلت مسرعة إلى الدور السفلي.

وتريثت «جون» هنيهة لتشاهد نفسها في المرآة الفضية الصغيرة، العتيقة الطراز، الموضوعة على الصندوق السندياني الخشن، ورأت شكل فتى نحيل مستبد، ذي وجه صغير مصمم، يبدو في جلباب أبيض، مقصوص على شكل مستدير عند أسفل الجيد الشديد النحول بالنسبة لتاج شعرها الأحمر الذهبي المعقوف. وفتحت باب غرفة الاستقبال في هدوء بقصد مباغتته. وكانت الغرفة مليئة برائحة عذبة دافئة منبعثة من نبت الشيح.

والتقطت نفسًا طويلًا من العطر، وسمعت صوت «بوزيني»، غير صادر من الغرفة ولكن من مكان قريب منها تمامًا. وكان يقول:

ـ آه! هناك ركام من الأشياء التي أريد التحدث إليك عنها، وليس لدينا الآن متسع من الوقت!

وأجاب صوت «آيرين»:

ـ لماذا لا يكون ذلك في أثناء العشاء؟

ـ كيف يستطيع المرء أن يتحدث...

وكان أول خاطر خطر لـ«جون» أن تنصرف. ولكنها، بدلًا من ذلك، عبرت طريقها إلى النافذة المستطيلة المطلة على الفناء الصغير. وكانت رائحة نبت الشيح تأتي من خلالها. وقد وقف حبيب «جون»، مع «آيرين»، موليين ظهريهما إليها، ووجهاهما غائصان في الزهر ذي اللون الذهبي.

ولاحظتهما الفتاة، صامتة ولكن خجلى، بعينين غاضبتين ووجنتين ملتهبتين.

ـ تعالي وحدكِ يوم الأحد، إذ نستطيع تفقد المنزل معًا.

ورأت «جون» «آيرين» ترفع بصرها إليه من خلال ستار الأزهار، ولم تكن نظرتها نظرة امرأة تتدلل، بل امرأة ـ وهذا أسوأ بكثير في نظر الفتاة التي ترقبهما ـ امرأة تخشى أن تبوح نظرتها بأكثر مما ينبغي.

ـ إني وعدت أن أتنزه بالعربة مع عمي الكبير.

ـ هذا عظيم! دعيه يحضرك، المسافة لا تتجاوز عشرة أميال، وهي مناسبة تمامًا لخيله.

ـ مسكين عمي «سويذن» الهرم!

وهبت على وجه «جون» نفحة من رائحة الشيح؛ وشعرت بالسقم والدوار.

ـ تعالي! آه! تعالي!

ـ ولكن لماذا؟

ـ لا بد أن أراكِ هناك، ظننتكِ تودين معاونتي.

وبدا للفتاة أن الرد وصل إليها من خلال الزهور وقد مسته رجفة: «إذن، سأحضر!».

وتقدمت إلى المكان الطلق أمام النافذة، وقالت:

ـ كم الجو مكتوم هنا! أنا لا أستطيع احتمال هذه الرائحة!

واكتسحت نظرة «جون» كلا وجهيهما، وكانت نظرة شديدة السخط والتصويب.

ـ أكنتما تتحدثان عن المنزل؟ أنا لم أره إلى الآن كما تعلمان، أنذهب إليه جميعًا يوم الأحد.

وتبدد لون وجه «آيرين». وقالت:

ـ سأتنزه في العربة ذلك اليوم مع العم «سويذن».

ـ العم «سويذن»! وأية أهمية له؟ اطرحيه جانبًا!

ـ ليس من عادتي أن أطرح الناس جانبًا!

وكان هناك وقع أقدام، ورأت «جون» «سومز» يقف وراءها تمامًا.

وقالت «جون» وهي تنتقل ببصرها من واحد إلى الآخر، وعلى ثغرها ابتسامة غريبة:

ـ حسنًا! إذا كنتم مستعدين جميعًا، فالعشاء معد أيضًا.

الفصل الحادي عشر
وليمة «جون»

بدأ العشاء في صمت. وكانت كل امرأة تجلس تجاه الأخرى، وكذلك الرجلان.

وشُرِب الحساء والصمت سائد، وكان رائعًا، وإن غلظ قليلًا، وجيء بالسمكة. وقدمت في صمت كذلك.

وتجاسر «بوزيني» فقال:

ـ إنه اليوم الأول من الربيع.

ورددت «آيرين» قوله في نعومة:

ـ نعم، اليوم الأول من الربيع.

وقالت «جون»:

ـ الربيع! ليست هناك نسمة من هواء!

ولم يجب أحد.

ورفعت السمكة من المائدة. وكانت «سمكة موسى» بديعة غضة جيء بها من دوفر. وجاءت «بيلسون» بزجاجة «شمبانيا» وهي معصوبة الرقبة برباط أبيض.

وقال «سومز»:

ـ ستجدونها شديدة الجفاف.

وقدمت شرائح اللحم من الضلع، مثنية الحواشي من ناحية الساق، ورفضت «جون» تناول شيء منها. وخيم الصمت.

وقال «سومز»:

ـ خير لكِ أن تأخذي شريحة يا «جون»، فلن يقدم بعدها شيء آخر.

ورفضت «جون» ذلك ثانية. ورُفعت الشرائح عن المائدة. ثم سألت «آيرين»:

ـ يا «فل»، أسمعت صدح عصفوري؟

وأجاب «بوزيني»:

ـ إن له غناء ينم عن الضيق نوعًا. وقد سمعته وأنا مقبل من الميدان.

ـ إنه بديع!

ـ أتريد «سلاطة» يا سيدي؟

ورُفع الدجاج الغض عن المائدة.

ولكن «سومز» كان في أثناء ذلك يتكلم:

ـ إن الهليون رديء جدًّا. أتشرب يا «بوزيني» كأسًا من «الشيري» مع الحلوى؟ «جون»! أنتِ لا تشربين شيئًا!

وقالت «جون»:

ـ أنت تعلم أني لا أشرب الخمر أبدًا. إن النبيذ شراب غث جدًّا!

وقُدمت فطيرة محشوة بالتفاح في صحفة من فضة. وقالت «آيرين» باسمة:

ـ زهر الشيح بديع هذا العام!

وغمغم «بوزيني» ردًّا على هذا:

ـ مدهش! إن رائحته غير عادية!

وقالت «جون»:

ـ كيف يمكن أن تعجبك رائحته؟ أعطيني يا «بيلسون» سكرًا من فضلك.

وأعطت لها السكر. ولاحظ «سومز»:

ـ فطيرة التفاح جيدة!

ورُفعت الفطيرة. وأعقب ذلك صمت طويل.
وقالت «آيرين» مومئة إلى الشيح:
ـ أبعدي الشيح من هنا يا «بيلسون». فإن الآنسة «جون» لا تطيق رائحته.
وقالت «جون»:
ـ لا، دعيه مكانه.
وجيء بزيتون فرنسي، وكافيار روسي في صحاف صغيرة.
ولاحظ «سومز»:
ـ لماذا لا نستطيع أن نتناول النوع الإسباني؟
ولكن أحدًا لم يجبه.
ورُفع الزيتون. وسألت «جون» الخادمة وهي ترفع كوبها:
ـ أعطيني بعض الماء من فضلك.
وأُعطيت الماء. وجيء بصينية عليها برقوق ألماني. وطالت فترة من السكوت. وكان الجميع يأكلون في تناسق.
وأخذ «بوزيني» يعد بذور البرقوق قائلًا:
ـ أيتحقق الأمل هذا العام، العام القادم، في وقت ما.
وأجابت «آيرين» في رقة:
ـ لن يتحقق أبدًا، كان الغروب رائعًا، ولا تزال السماء كلها في لون الياقوت، ما أجملها.
وأجاب:
ـ تحت جنح الظلام.
وتلاقت عيناهما. وصاحت «جون» ساخرة:
ـ غروب لندني!
وقُدمت سجائر مصرية في صندوق فضي. وسأل «سومز» وهو يتناول سيجارة:
ـ في أي وقت تبدأ مسرحيتكم؟

ولم يجبه أحد. وتبعت ذلك قهوة تركية مقدمة في أقداح خزفية.

وقالت «آيرين»، مبتسمة في هدوء:

ـ لو أنه...

وقالت «جون»:

ـ لو أنه ماذا؟

ـ لو أن الربيع يبقى أبدًا!

وقُدم شراب «البراندي»، وكان شاحبًا معتقًا.

وقال «سومز»:

ـ خير لك يا «بوزيني» أن تتناول قليلًا من «البراندي».

وتناول «بوزيني» قدحًا. ونهض الجميع. وسأل «سومز»:

ـ أتريدان عربة؟

وأجابت «جون»:

ـ لا، أرجوكِ أن تناوليني معطفي يا «بيلسون».

وجيء لها بمعطفها.

وغمغمت «آيرين» من النافذة:

ـ يا لها من ليلة بديعة! النجوم بدأت تبزغ!

وأضاف «سومز»:

ـ حسنًا، أرجو أن تتمتعا كلاكما.

وأجابت «جون» من الباب:

ـ شكرًا. تعال يا «فل».

وصاح «بوزيني»:

ـ هأنذا آتٍ.

وابتسم «سومز» ابتسامة هازئة، وقال:

ـ أرجو لكما حظًّا طيبًا!

وراقبتهما «آيرين» من الباب. وقال «بوزيني»:

ـ مساء الخير!

وأجابت بصوت رقيق:

ـ مساء الخير!

وحملت «جون» محبها على أن يصعد بها إلى الدور العلوي المفتوح من عربة الباص، قائلة إنها تريد استنشاق الهواء الطلق. وجلست هناك صامتة مستقبلة النسيم بوجهها.

ودار إليهما السائق مرة أو مرتين بقصد الاجتراء على إبداء ملحوظة، ولكنه ازداد تبصرًا في الأمر. كانا زوجين بديعين! لقد تغلغل الربيع إلى دمه هو أيضًا، لقد شعر بالحاجة إلى إطلاق أنفاسه المكتومة، فأخذ لسانه يهدر وهو يلوح بسوطه، ويدفع خيله. وحتى الخيل، هذه المخلوقات المسكينة، شمت الربيع، وأخذت تركل بلاط الشارع بحوافرها المبتهجة لمدة نصف ساعة قصيرة.

وكانت المدينة كلها في حيوية، وأفرع الشجر الملفوفة إلى أعلى، المزينة بأوراقها الحديثة، تنتظر عطية ما، يمكن أن يجود بها النسيم. وأخذت المصابيح التي أضيئت أخيرًا تنير الظلام، وبدت وجوه الجماهير شاحبة تحت ذلك اللألاء، في حين كانت السحب البيض الكبيرة في عليائها تنساب في سرعة ونعومة فوق السماء القرمزية.

وكان الرجال في ملابس السهرة، وقد تجردوا من معاطفهم، يصعدون مرحين في درجات النوادي. وتمهل الرجال العاملون، أما النساء ـ أولئك اللواتي يظهرن وحيدات في مثل هذا الوقت من الليل، وحيدات في سيرهن صوب الشرق في صف متدفق ـ فكن يتبخترن على مهل، متوقعات تحقق الأماني في مشيتهن، حالمات بخمر جيدة وعشاء طيب، أو بقبلات ينلنها بدافع الحب في لحظات غير معتادة.

وكان هؤلاء الأشخاص الذين لا يحصرهم عد، كانوا، وهم يسلكون سبيلهم تحت المصابيح، والسماء السابحة، قد تلقوا من توفز الربيع بركة

ما لا تهدأ. وكانوا، أفرادًا وجماعات، كأولئك الرجال من أعضاء النوادي المتشحين بستراتهم المفتوحة، كانوا يبتعثون شيئًا من النظام والعقيدة والعادة، كما كانوا، بوضعيات قبعاتهم، وخطوات مشيتهم، وبضحكاتهم أو سكوتهم، يكشفون تحت السماء المنفعلة عن صلة القربى العامة التي تصلهم.

ودخل «بوزيني» و«جون» المسرح في صمت، وصعدا إلى مقعديهما في المقصورات العليا. وكانت المسرحية قد بدأ تمثيلها توًّا. وكانت القاعة المضاءة نصف إضاءة، وهي مشتملة صفوف المخلوقات المتطلعة إلى ناحية واحدة، تشبه حديقة كبرى تدور وجوه أزهارها صوب الشمس.

ولم تجلس «جون» قبل ذلك قط في المقصورات العليا، إذ اعتادت منذ سن الخامسة عشرة أن تجلس بصحبة جدها في مقاعد القاعة، لا في العمومية منها، ولكن في أفضل مقاعد المسرح، وهي التي تقع حوالي وسط الصف الثالث، وكان «جوليون الكبير» يشتري تذاكرها من مكتب «جروجان وبوينز»، وهو في طريقه إلى بيته في وقت سابق على موعد التمثيل بكثير. وفي هذه المقاعد كانا يجلسان ـ قامة منتصبة ذات رأس أبيض وقور، وقامة صغيرة، متحمسة متلهفة، ذات رأس أحمر ذهبي ـ ويشاهدان المسرحيات من كل نوع. وكان «جوليون الكبير» يقول لها عن بطل المسرحية، وهما في طريق عودتهما إلى البيت: «أوه، إنه ثقيل تافه! كان ينبغي أن تري «بوبسون» الصغير!».

كانت تتطلع في فرحة شديدة إلى ذلك المساء. لقد اختطفته اختطافًا، متجنبة الرقيب. ولم يخطر أمره على بال أحد في «ستانهوب جيت»، حيث كان المفروض أن تقضيه بمنزل «سومز»، وتوقعت أن تُجزى جزاء وفاقًا على تلك الحيلة التي دبرتها من أجل حبيبها؛ ورجت أن تبدد السحابة الكثيفة الباردة، وتجعل العلاقة بينهما مشرقة بسيطة من جديد على نحو ما كانت عليه قبل الشتاء، بعد أن صارت أخيرًا مربكة مؤلمة إلى حد كبير، جاءت وهي تنوي أن تقول له شيئًا حاسمًا. ونظرت الآن إلى خشبة المسرح مقطبة

الجبين، دون أن ترى شيئًا، وكل يد من يديها تعتصر الأخرى في حجرها. ولسعها حشد من شكوك الغيرة لسعة بعد لسعة.

ولم يبدِ «بوزيني» إشارة تدل على إدراكه لانزعاجها.

وانسدل الستار، وانتهى الفصل الأول. وقالت الفتاة:

ـ الحر شديد هنا. إني أود الخروج.

كان لونها شديد البياض. وقد أدركت ـ لأنها رأت كل شيء وأعصابها على ما هي عليه من الإرهاف ـ أدركت أنه يشعر بالقلق والندم معًا.

وكانت ثمة في الجهة الخلفية من المسرح شرفة تطل على الشارع؛ فاحتلتها «جون»، ووقفت منحنية هناك دون أن تنطق بكلمة، منتظرة أن يبدأ هو الكلام.

وأخيرًا لم تعد تستطيع احتمال الأمر أكثر من ذلك. وقالت:

ـ لديَّ شيء أريد أن أقوله يا «فل».

ـ نعم؟

وجاءت لهجة صوته الدفاعية بألوان تطايرت إلى وجنتيها، وبكلمات تصاعدت إلى شفتيها:

ـ إنك لا تتيح لي فرصة لأصبح لطيفة معك. إنك لم تفعل ذلك منذ دهور!

وحملق «بوزيني» في الشارع تحته، ولم يحر جوابًا.

وصاحت «جون» في انفعال:

ـ أنت تعلم أني أريد القيام بكل شيء في سبيلك. وأريد أن أكون عندك كل شيء.

وصعدت همهمة من الشارع، واخترقها رنين حاد أعلن به ناقوس المسرح رفع الستار. وظلت «جون» دون حراك. وكان ثمة صراع يائس يدور داخل نفسها. أتضع كل شيء موضع الاختبار؟ أتتحدى على نحو مباشر ذلك النفوذ؟ أتتحدى تلك الجاذبية التي تشده بعيدًا عنها؟ وكان من طبعها أن تتحدى فقالت:

ـ خذني يوم الأحد، يا «فل»، لتريني البيت.

وامتحنت وجهه، وعلى شفتيها ابتسامة مرتعشة متقطعة؛ محاولة جهدها أن تتظاهر بأنها لا ترقبه، امتحنت وجهه فرأته يهتز ويتردد؛ ورأت تجعد الاضطراب يظهر على جبينه، والدم يصعد إلى وجهه. وأجاب:

ـ سأصطحبك يومًا آخر يا عزيزتي، غير يوم الأحد!

ـ ولماذا لا تصحبني يوم الأحد؟ أينبغي ألا أقف في طريقك ذلك اليوم؟

وبذل جهدًا ملحوظًا وقال:

ـ أنا مرتبط بموعد.

ـ إنك ستصطحب...

وظهر الغضب في عينيه، وهز كتفيه، وأجاب:

ـ نعم، موعد يحول بيني وبين اصطحابك لتري المنزل!

وعضت «جون» شفتها حتى صعد إليها الدم. وكرت راجعة إلى مقعدها دون أن تنبس بكلمة أخرى. ولكنها لم تستطع أن تمنع دموع الغيظ من الانحدار على وجهها. وكانت قاعة المسرح قد أظلمت رحمة بمن وقعوا في أزمات. ولم يتمكن أحد من رؤية اضطرابها.

ومع ذلك، لا يحسبن أحد، في عالم «الفورسايتيين» هذا، أنه بمنجى من ملاحظة غيره.

وفي الصف الثالث من الخلف كانت كل من «أوفيميا»، ابنة «نيكولاس» الصغرى، وأختها المتزوجة بالسيد «تويتيمان»، كانتا ترقبان.

وروتا في منزل «تيموثي» كيف رأتا «جون» مع خاطبها في المسرح.

ـ هل كانا في مقاعد «الفوتيل»؟

ـ لا، لم يكونا في...

ـ كانا إذن في مقاعد «البلكون» بالتأكيد، فهذا يبدو مألوفًا جدًّا لدى شبابنا في هذه الأيام!

حسنًا، لم يكونا هناك على وجه التحديد، بل في... على أي حال، إن

هذه الخطبة لن تطول. وهما لم تريا إنسانًا قط يبدو مرعدًا مبرقًا مثل «جون» الصغيرة. وروتا، ودموع السرور تجول في مآقيهما، كيف ركلت «جون» قبعة رجل عندما عادت إلى مقعدها في منتصف فصل المسرحية، وكيف بدا الرجل. وكانت لـ«أوفيميا» ضحكة صامتة معروفة تنتهي بصرخات على نحو مقنط جدًّا. وعندما قالت السيدة «سمول» وهي ترفع يديها: «يا إلهي! ركلت قبـ...بعة؟»، أطلقت عددًا كبيرًا من تلك الصرخات إلى حد أنها احتاجت «لأملاح النشادر» كي تفيق. وقالت للسيدة «تويتيمان» وهي تنصرف: «ركلت قبـ...بعة. أوه! سأموت».

إن تلك الليلة بالنسبة لـ«جون» الصغيرة التي عدتها «ليلة فسحتها» كانت أنكد ليلة قضتها في حياتها. ويعلم الله أنها حاولت كبح جماح كبريائها وريبتها وغيرتها!

وعندما وصلت إلى باب بيت «جوليون الكبير» فارقت «بوزيني» دون أن تنهار. وكان شعورها بضرورة قهر حبيبها قويًّا إلى حد أنه شد أزرها حتى دخلت البيت حيث أبلغتها خطوات الحبيب الناكصة على أعقابها حقيقة مدى شقائها.

وفتح لها «سانكي» الصامت الباب. وكانت ستتسلل إلى غرفتها، ولكن «جوليون الكبير» سمع صوت دخولها. وكان في غرفة الطعام. وقال:

ـ تعالي، وتناولي قدح لبنك. لقد احتفظنا به لك ساخنًا. إنك تأخرتِ جدًّا في العودة. أين كنتِ؟

ووقفت «جون» عند المدفأة، واضعة قدمها على حاجزها، وذراعها على رفها على نحو ما فعل جدها عندما عاد في تلك الليلة التي قضاها بدار الأوبرا. وكانت توشك أن تنهار إلى حد أنها لم تعبأ بما تقوله له.

ـ تعشينا عند «سومز».

ـ هيه... الرجل ذو المِلك! وكانت زوجته هناك... و«بوزيني»؟

ـ نعم.

وكانت نظرة «جوليون الكبير» مركزة عليها في مثل ذلك التفرس المتغلغل الذي يصعب الاختباء منه. ولكن «جون» لم تكن تنظر إليه، وعندما أدارت وجهها صوبه أسقط نظرته المتفرسة من فوره. فقد رأى ما فيه الكفاية، بل رأى الكثير جدًّا. ومال ليرفع إليها قدح اللبن من الموقد. وغمغم وهو يشيح بوجهه عنها: «ينبغي ألا تبقي خارج المنزل إلى مثل هذه الساعة المتأخرة؛ فهذا يجعلك لا تصلحين لشيء».

وكان متواريًا الآن خلف صحيفته التي جعل يقلبها في قعقعة عنيفة. ولكن عندما جاءت إليه «جون» لتقبله قال: «أسعدت مساء يا عزيزتي». وكانت نبراته شديدة الارتعاش، وغير متوقعة إلى حد أن كل ما استطاعت الفتاة فعله هو أن تخرج من الغرفة دون أن تنفجر في نوبة الزفرات التي لازمتها مدة طويلة في أثناء ذلك المساء.

وأسقط «جوليون الكبير» صحيفته عندما أُغلق الباب، وشخص ببصره إلى الأمام في قلق مدة طويلة. وقال لنفسه: «الحقير! كنت أعلم دائمًا أنها ستعاني منه الضيق!».

وتكأكأت عليه الريب والشبهات المزعجة. والذي جعلها أشد إيلامًا أنه شعر بعجزه عن كبح سير الأمور أو السيطرة عليها.

أسيغدر هذا الفتى بها؟ لقد تاق أن يذهب إليه ويقول له: «اسمع، يا سيدي! أستغدر بحفيدتي؟» ولكن، كيف يستطيع ذلك؟ إنه على قلة علمه، أو عدم علمه بشيء، واثق مع ذلك، بفطنته التي لا تخطئ، أن هناك أمورًا تحدث. وقد ارتاب في كثرة تردد «بوزيني» على البيت الكائن في ميدان «مونبلييه».

وخطر له: «إن هذا الفتى قد لا يكون محتالًا، فوجهه ليس بالوجه السيئ، ولكنه خليع غرير. ولست أعرف كيف أكوِّن عنه رأيًا. إني لن أعرف أبدًا كيف أكوِّن عنه رأيًا! يقولون لي إنه يعمل كشيطان، ولكني لا أرى خيرًا من وراء ذلك. فهو غير عملي، وليس له منهج. وهو عندما يحضر يجلس عابسًا كالقرد. وإذا سألته عن نوع النبيذ الذي يريد قال: «شكرًا. أي نبيذ».

وإذا ناولته سيجارًا دخنه كما لو كان يدخن سيجارًا ألمانيًا يساوي قرشين. وأنا لا أراه أبدًا ينظر إلى «جون» كما ينبغي أن ينظر إليها. وهو برغم ذلك لا يسعى وراء مالها. ولو أنها أبدت إشارة لرجع عن خطبته غدًا. ولكنها لن تفعل ذلك، ليست هي التي تفعل ذلك. إنها ستتشبث به! إنها عنيدة كالقدر، ولا تتخلى عن رأيها أبدًا!».

وقلَّب صحيفته وهو يتنهد تنهدًا عميقًا؛ فلعله يمكن أن يجد عزاء بين أعمدتها.

وفي الدور العلوي، جلست «جون» في غرفتها إلى جوار النافذة المفتوحة، حيث أقبل هواء الربيع، بعد عربدته في «الروض»، ليرطب وجنتيها الساخنتين، ويلهب فؤادها.

الفصل الثاني عشر

فسحة بالعربة مع «سويذن»

بيتان من شعر أغنية من كتاب أغانٍ مدرسية قديم مشهور، يجريان كما يلي:

«كم تسطع أزراره في سترته الزرقاء! ترا... لا... لا! وكم غرد، وكم غنى، كالعصفور!».

ولم يغرد «سويذن»، ولم يغنِّ كالعصفور تمامًا، ولكنه أحس كأنه يكاد يحاول أن يترنم بنغمة وهو يخرج من منزله في «هايد بارك»، ويتأمل جواديه اللذين جيء بهما أمام الدار.

وكان عصر ذلك اليوم رطبًا كأحد أيام يونيو. وتتمة للتشبيه الوارد في تلك الأغنية القديمة كان «سويذن» يرتدي سترة زرقاء من نوع «الفروك»، واستغنى عن المعطف بعد أن أرسل «أدولف» ثلاث مرات إلى خارج الدار ليستوثق من أن الريح لن تهب شرقًا دون أدنى ريب؛ وكانت السترة «الفروك» مزرورة بقوة حول قوامه اللطيف إلى حد أنها إذا أعوزها اللمعان، فلربما كانت ستلمع دون تثريب. وعلى الرصيف لبس في مهابة قفازًا من جلد الكلاب. ولعله كان يبدو عتيق الطراز جدًّا بالنسبة لأفراد أسرة «فورسايت» مع قبعته العريضة العالية الشبيهة بقبة الناقوس، وقامته المديدة، وحجمه الضخم. وفاحت من شعره الأبيض الكثيف الذي زوَّده «أدولف» بقليل

من الدهان، رائحة «الأبوبونكس» والدخان، نوع دخان «سويذن» الشهير الذي يدفع ثمنًا لكل مائة سيجار منه مبلغ مائة وأربعين شلنًا، والذي قال عنه «جوليون الكبير» في غير رفق إنه لا يقبل تدخينه ولو أُهدي إليه إهداء، فهو يحتاج إلى معدة حصان!

ـ يا «أدولف»!

ـ سيدي!

ـ أحضِر الغطاء الصوفي الجديد!

إنه لن يتمكن أبدًا من تعليم هذا الفتى أن يبدو أنيقًا. وكان يحس دون ريب أن السيدة «سومز» لها نظر!

ـ أنزل سقف العربة؛ فإني سأنزِّه سيدة!

إن السيدة الحسناء تود أن تظهر سترتها للملأ، وهو سينزِّه سيدة! وكأن هذه بداية جديدة للأيام السعيدة السالفة.

لقد مرت دهور على نزهته بالعربة مع سيدة. وكانت السيدة التي تنزه معها آخر مرة ـ إذا كان يذكر ذلك ـ هي «جولي»؛ وقد ظلت المسكينة عصبية كالقطة طوال الوقت، وبذلك جعلت صبره ينفد. وقد قال لها وهو ينزلها من عربته في شارع «بيزوتر»: «إني أكون... إذا نزَّهتك مرة أخرى!»، ولم ينزِّهها قط ثانية. فليس هو الذي يفعل ذلك!

وتقدم إلى رأسي جواديه، وامتحن «لقمة» لجاميهما، ولا يرجع ذلك إلى أنه يعرف شيئًا عن تلك «اللقم»، وهو لا يدفع لسائق عربته ستين جنيهًا في العام ليقوم هو بالعمل نيابة عنه، فإن هذا لم يكن قط مبدأه. وإن شهرته بأنه رجل مشتغل بالخيل تستند على الأخص إلى واقعة حصلت له في سباق «الدربي» السنوي، إذ غرر به بعض المحتالين. ولكن عضوًا من أعضاء ناديه ـ وقد رآه يسوق جياده الشهب حتى باب ذلك النادي، وكان من عادته دائمًا أن يسوق جياده الشهب، فبعض الناس يظنون أن ذلك يكسبك وجاهة أكبر نظير المال الذي تدفعه ـ دعاه: ««فورسايت» سائق

الأربعة جياد». وتصور «سويذن»، بعد أن وصل النبأ إلى أذنيه عن طريق ذلك الشخص المدعو «نيكولاس تريفري»، الشريك الخائب لـ«جوليون الكبير»، وسائق العربات الكبير ـ الشهير بأنه ارتكب بعربته حوادث تصادم تفوق في عددها ما ارتكبه أي رجل آخر في المملكة ـ تصور منذ ذلك الوقت أن من الصواب ألا يقلع عن ذلك. لقد شُغف بذلك اللقب، لا لأنه ساق في يوم من الأيام أربعة جياد، أو من المحتمل أن يفعل ذلك في أي يوم، ولكن لأن رنين اللقب ينطوي على شيء من الوقار: ««فورسايت» سائق الأربعة جياد».

لا بأس! وإذ وُلد «سويذن» في زمن مبكر جدًّا فقد فاته أن يزاول الحرفة المناسبة. فعندما عاد إلى لندن، بعد عشرين عامًا، لم يكن يعجزه قط أن يصبح سمسارًا ببورصة العقود. ولكنه عندما اضطر إلى الاختيار لم تكن هذه المهنة العظيمة موضع فخار الطبقة فوق المتوسطة. وأُرغم إرغامًا ـ بالمعنى الحرفي ـ على احتراف الدلالة.

وإذ جلس في مقعد السائق، وأُعطي اللجام، دار بنظره متباطئًا فيما حوله مختلسًا النظر من فوق خديه الشاحبين الذابلين. وسبق أن جلس «أدولف» في مقعده العالي خلف العربة. ووقف «السائس» في ردائه المقصب عند رأسي الجوادين مستعدًّا لإطلاقهما. كان كل شيء مجهزًا انتظارًا للإشارة، وقد أعطاها «سويذن». واندفع الجوادان إلى الأمام. وقبل أن تفرغ من قولك «جاك روبنسون» إذا هما يتقدمان في جلجلة ونضارة إلى باب بيت «سومز».

وخرجت «آيرين» من البيت على الأثر، ودخلت العربة، وقد وصفها «سويذن» بعد ذلك في منزل «تيموثي»:

ـ دخلت العربة في مثل... إرر... خفة «تاجليوني»[1]، دون أن تحدث جلبة جوفاء، أو يعوزها هذا أو ذاك.

(١) راقصة سويدية مشهورة (١٨٠٤-١٨٨٤). (المترجم).

وكان «سويذن»، قبل كل شيء، يؤكد قوله وهو يحملق في السيدة «سيبتموس» على نحو بلبل خاطرها مدة طويلة:

ـ ولم تبدِ انفعالًا سخيفًا!

ووصف للعمة «هيستر» قبعة «آيرين» بقوله:

ـ إنها ليست كأشيائكم الكبيرة المهدلة، المتشعبة هنا وهناك، اللاقطة الغبار، التي تُغرم بها نساء اليوم، ولكنها قبعة نظيفة صغيرة...

ورسم بيده دائرة في الهواء:

ـ ... ذات نقاب أبيض، ذوق عظيم.

وسألت العمة «هيستر» التي كانت تبدي انفعالًا فاترًا ـ ولكنه لا ينقطع ـ لدى أي إشارة إلى الملابس:

ـ من أي مادة صُنعت!

وردد «سويذن» القول:

ـ من أي مادة صُنعت؟ والآن، كيف أستطيع معرفة ذلك؟

واستغرق في صمت، بلغ من عمقه أن العمة «هيستر» بدأت تخشى أن يكون قد راح في غيبوبة، ولم تحاول أن تعيده بنفسها إلى رشده، فهذا لم يكن من عادتها. وقالت لنفسها: «وددت لو يحضر أحد فإن هيئته لا تعجبني!».

ولكن «سويذن» عاد إلى الحياة فجأة. وقال وهو يئز في بطء:

ـ مم صُنعت؟ ومن أي شيء ينبغي أن تُصنع؟

ولم يقطعوا أربعة أميال حتى غشي «سويذن» شعور بأن «آيرين» تميل إلى الركوب معه. وكان وجهها بالغ النعومة وراء النقاب الأبيض، وعيناها السوداوان تسطعان بقوة في أضواء الربيع حتى إنها كانت ترفعهما إليه وتبتسم كلما تكلم.

وكان «سومز» قد رآها صباح السبت جالسة إلى مكتبها ومعها رسالة موجهة لـ«سويذن» بقصد التخلي عنه. وسألها لماذا تريد أن تتخلى عنه؟

إن في وسعها أن تتخلى عن أقاربها متى أرادت. ولكنه لا يبيح لها أن تتخلى عن «أقاربه»!

ونظرت إليه في تفرس، ومزقت الرسالة وقالت:

ـ حسنًا جدًّا!

ثم بدأت تكتب رسالة أخرى. وألقى في التو نظرة عرضية فوجد أن الرسالة بعنوان «بوزيني». وسأل زوجته: مكتبة سُر مَن قرأ

ـ فيم تكتبين له؟

وقالت «آيرين» في هدوء وهي توجه إليه من جديد تلك النظرة المتفرسة:

ـ في شيء طلب إليَّ أن أؤديه له!

وقال «سومز»:

ـ «هيمف»! مأموريات! إذا بدأت هذا النوع من الأمور فإنها ستتعارض مع أعمالك!

ولم يزد على قوله هذا شيئًا.

وحملق «سويذن» عندما أشير إلى «روبن هل»، فالمسافة إلى هذا المكان بعيدة على خيله. وقد كان يتعشى دائمًا في السابعة والنصف قبل أن يبدأ التزاحم على النادي. والطاهي الجديد يكابد مشقة أكبر في التبكير بتقديم العشاء، إنه لوغد كسول!

وهو مع ذلك يريد أن يلقي نظرة على المنزل، فإن مشاهدة منزل تروق أي فرد من أسرة «فورسايت» لا سيما من كان منهم دلالًا. إن المسافة بعد هذا كله ليست بذات بال. وقد كان، وهو أصغر سنًّا، يقطن في «ريتشموند»، حيث أمضى سنوات عديدة، واحتفظ هناك بعربته وجواديه، وانتقل بها هنا وهناك في قضاء أعماله كل يوم من أيامه. إنهم يدعونه: ««فورسايت» سائق الأربعة جياد»، وكانت عربته «الفيتون» وجياده معروفة من أول «هايد بارك كورنر» إلى «ستار» ثم إلى «كارتر». وقد أراد «دوق ز...» أن يستحوذ على جواديه، وكان مستعدًّا أن يمنحه ضعف ثمنهما، ولكن «سويذن» آثر الاحتفاظ

بهما. عليك أن تدرك الشيء الجيد عندما يكون في حوزتك، أليس كذلك. وغشيت وجهه الحليق المربع العتيق نظرة كبرياء صارمة، مشؤومة، وأدار رأسه في «ياقته» المنتصبة كأنه ديك رومي يصلح ريشه.

كانت امرأة فاتنة حقًّا! وأخذ، فيما بعد، يعظم من شأن سترتها الفروك للعمة «جولي» التي رفعت يديها للطريقة التي قالها بها.

إنها محبوكة عليها كجلدها، مشدودة كجلد الطبلة، هكذا كان يعجب بهن، أولئك المتشابهات في الملبس، فهن لسن قط كنسائك العتيقات الطراز، الشبيهات «بفزاعات الطيور»! وصوَّب نظرة إلى السيدة «سيبتموس سمول» التي تشبه «جيمس» طولًا ونحولًا.

وواصل قوله:

ـ إن لها طرازًا في لبسها خليقًا بملكة، ومع ذلك هي أيضًا هادئة جدًّا.

وتشدقت العمة «هيستر»، من الركن، بقولها:

ـ يبدو أنها قهرتك قهرًا تامًّا، على أي حال.

وكان «سويذن» يسمع جيدًا عندما يهاجمه إنسان وقال:

ـ ماذا؟ أنا أعرف المرأة الجميلة عندما تقع عيني عليها، وكل ما أستطيع قوله هو أني لا أجد الشاب المتعلق بهذا الأمر خليقًا بها. ولكن لعلك تجدينه كذلك، قولي... لعلك تجدينه كذلك!

وغمغمت العمة «هيستر»:

ـ أوه؟ اسأل «جولي»!

بيد أن الهواء الطلق الذي لم يعتده جعله ينعس نعاسًا شديدًا قبل الوصول إلى «روبن هل» بمدة طويلة. وكان يسوق العربة مغمض العينين. ولم يمكنه من حفظ جسمه الطويل الضخم من السقوط على جنبه غير اعتياده قوة الاحتمال طوال عمره.

وخرج «بوزيني» للقائهما، وكان يرقبهما، ودخلوا هم الثلاثة البيت معًا. وسار «سويذن» في المقدمة ممسكًا بعصا غليظة مذهبة من «ملقا»

أسلمها إليه «أدولف» لأن ركبتيه كانتا تشعران بأثر بقائهما مدة طويلة في نفس الوضع. وكان قد ارتدى سترته المصنوعة من فراء لتصونه من تيارات الهواء في المنزل الذي لم يتم بناؤه.

وقال إن «بئر السلم» بديعة! طراز بيوت «البارونات»! بيد أنها تحتاج في نواحيها إلى بعض التماثيل! وتوقف بين الأعمدة والباب المؤدي إلى الفناء الداخلي، ورفع عصاه متسائلًا:

ـ ما المقصود بهذا... هذا الرواق أو كيفما كان الاسم الذي يطلقونه عليه؟

ولكنه حدق تحت ضوء السماء فهبط عليه الإلهام:

ـ آه! غرفة «بليارد».

وعندما قيل له إنه فناء مسقوف سيزين وسطه بأشجار التفت إلى «آيرين» وقال:

ـ أتتلفون هذا المكان بوضع الشجر فيه؟ خذي بنصحي، وضعي هنا مائدة «بليارد»!

وابتسمت «آيرين». وكانت قد رفعت نقابها، وعصبت به جبينها على النحو الذي تستتر به الراهبة رأسها، وبدت ابتسامة عينيها السوداوين من تحت ذلك أشد فتنة من أي وقت مضى. وأومأت برأسها، ورأى أنها ستأخذ دون شك بنصحه. ولم يجد ما يقوله عن غرفتي الاستقبال والطعام إلا النزر اليسير، وقد وصفهما بأنهما «فسيحتان». ولكنه وقع في حالة من الطرب بالقدر المسموح به لرجل في مثل وقاره، وذلك عندما جاء إلى قبو الخمر الذي نزل إليه في درجات حجرية، يتقدمه «بوزيني» حاملًا مصباحًا، وقال:

ـ سيتسع المكان هنا لاختزان ستمائة «دستة» من الزجاجات أو سبعمائة، إنه لقبو صغير عجيب حقًّا!

وتوقف «سويذن» عندما أبدى «بوزيني» رغبته في أن يريهما المنزل من ناحية الأشجار المنخفضة، وأشار:

ـ إن منظرًا جميلًا يبدو من هنا. ألديك شيء كمقعد مثلًا؟

وجيء له بمقعد من خيمة «بوزيني». وقال في لطف:

ـ انحدرا إلى هناك أنتما الاثنان! وسأجلس أنا هنا وأتطلع إلى المنظر.

وجلس تحت أشعة الشمس إلى جوار شجرة البلوط، متوازن القامة معتدلها باسطًا إحدى يديه إلى الأمام، متكئًا بها على مقبض عصاه، وغارسًا الأخرى في ركبته، وكانت سترته المصنوعة من فراء محلولة الأزرار مفتحة، وقبعته تظلل بسطحها المفرطح مربع وجهه الشاحب؛ ونظرته الشاخصة، الفارغة أشد فراغ، تحدق في المنظر.

وأومأ إليهما وهما ينحدران خلال الحقول. وهو حقًّا لم يكن آسفًا لتركهما إياه على هذا النحو مدة لحظة هادئة من لحظات التأمل. وكان الهواء رطبًا، والشمس غير شديدة الحرارة، والمنظر جميلًا، منظرًا باهرًا... ومال رأسه قليلًا إلى جانب، وأقامه، وفكر: عجبًا! إنه... آه! كانا يلوِّحان له بيديهما من أسفل المنحدر! ورفع يده، ولوح بها أكثر من مرة، كانا نشيطين، إن المنظر باهـ... ومال رأسه إلى اليسار، فرفعه من فوره. ومال إلى اليمين، وبقي حيث هو، كان قد نام.

وبينما هو نائم هناك، قائم كديدبان على قمة المرتفع، بدا كأنه يتسلط على المنظر... الباهر. بدا كصورة أبدعها فنان خاص من فناني أسرة «فورسايت» البدائيين في أيام الوثنية، ليسجل بها سيطرة العقل على المادة!

وبدا أن الأجيال التي لا تُعد ولا تُحصى من أسلافه، وهم من سراة الفلاحين الذين اعتادوا في أيام الآحاد أن يقفوا منحنين إلى جانب من جوانبهم، ويشرفوا على القطع الصغيرة من أراضيهم. وتخفي عيونهم الزرق، الثابتة النظرات، غريزتهم مع جذورها، وهي جذور العنف المتوارية التي نبتت منها، بدا أن هذه الأجيال جميعها تجلس هناك معه على قمة المرتفع.

ولكن روحه «الفورسايتية» خرجت من بدنه، وهو نائم على هذا النحو، ورحلت بعيدًا إلى أكمة من التخيلات يعلم الله ما هي. رحلت مع الفتى والفتاة لترى ماذا يصنعان هناك بين الشجيرات، حيث الربيع يعربد وينشر

عبير عصارة النبات، وعبير البراعم المنبثقة، وتغريد الطيور التي لا عداد لها، وبساطًا من نبات الأجراس الأزرق، وأشياء صغيرة لطيفة تنمو. وحيث الشمس عالقة بأعالي الأشجار كأنها الذهب الخالص؛ رحلت روحه لترى ماذا يصنعان وهما يسيران متقاربين أوثق تقارب في الممشى الذي كان شديد الضيق. يسيران هناك متقاربين إلى حد أنهما كانا يتلامسان دائمًا. رحلت روحه لترقب عيني «آيرين»، الشبيهتين بلصين أسودين، وهما تسرقان من الربيع فؤاده. كانت روحه هناك، كرقيب هائل غير منظور، تقف معهما لتشهد الشجيرات الوبرية القائمة سياجًا للأرض. ولم تهدأ ساعة، وهي في لحم صاحبها البارز، وسترته الفضية التي لم يلمسها مطر أو ندى. وأخذت ترقب رأس «آيرين» المطأطئ، والنظرة اللينة المنبثقة من عينيها المشفقتين. وترقب رأس ذلك الشاب الذي يحدق في الفتاة بقوة وغرابة شديدتين. وتسير معهما أيضًا عبر الفضاء الرحب حيث كان الحطاب يضطلع بعمله، وزهر الأجراس يتساقط، وساق شجرة تترنح وتتمايل عن جذعها المنخور وتسلقها معهما، وتخطاهما، وسايرهما إلى آخر حد أكمة الشجيرات، حيث امتدت بلاد مجهولة ترامى من أقاصيها صوت يصيح: «كوكو... كوكو!».

ووقف معهما هناك صامتًا، وغير مستريح لصمتهما! صمت عجيب جدًّا، غريب جدًّا!

ثم عاد ثانية من خلال الأكمة، وكأنه مذنب، عاد إلى حيث يقطع الحطاب الشجر. وظل ملازمًا الصمت بين تغريد الطيور الذي لا ينقطع، وبين العبير البري، هيه! ـ أي عبير هذا! ـ إنه عبير تلك الأعشاب التي وضعوها هناك. عاد إلى كتلة الخشب التي تعترض الممشى.

وبينما هو خائف، قلق، يحوم حولهما، باذلًا جهده ليحدث أصواتًا، أخذت روحه «الفورسايتية» ترقب الفتاة وهي تحفظ توازنها فوق كتلة الخشب، وهيكلها اللطيف يتمايل، وابتسامتها للفتى الواقف دونها، وتطلع

الفتى إلى أعلى بعينين شديدتي الغرابة، قويتي الإشراق، وانزلاقها الآن، آه! ووقوعها، أوه! وقوعها على صدره، واحتضان بدنها اللين الدافئ، وميل رأسها متراجعًا عن شفتيه؛ وقبلته؛ وارتدادها عنه؛ وصيحته: «ينبغي... أن تعلمي... أني أحبك!». أينبغي أن تعلم أنه بالفعل؟ حب ظريف! هاه!

واستيقظ «سويذن». وانفضت عنه الفضيلة. وشعر بطعم غريب في فمه. أين هو؟

سحقًا؟ لقد كان نائمًا!

كان يحلم بشيء متعلق بنوع جديد من الحساء، له مذاق كمذاق النعناع. والفتى والفتاة، إلى أين ذهبا؟ وكان بساقه اليسرى وخز دبابيس وإبر.

«يا «أدولف»». الوغد ليس هنا؛ الوغد ينام في مكان ما.

ووقف فارع الطول، مربع القامة ضخمًا في سترته الوبرية، متطلعًا في قلق إلى الحقول الممتدة تحته. ولم يلبث أن رآهما مقبلين.

كانت «آيرين» تسير في المقدمة. وذلك الفتى... ما الكنية التي يكنونه بها؟ «القرصان»؟ كان يبدو هناك خلفها كالوغد الزنيم. ولو أن بأذنه برغوثًا لما عجب «سويذن». لقد وفاه جزاءه إذ انحدر الفتى بالفتاة مجتازًا ذلك الطريق الطويل للتطلع إلى المنزل! إن المكان المناسب للتطلع منه إلى المنزل هو المرج.

وشاهداه. وبسط ذراعه، ولوح بها متشنجًا ليشجعهما. ولكنهما توقفا. فماذا دعاهما إلى الوقوف هناك والتحدث؟ التحدث؟ واستأنفا المجيء ثانية. لقد وجهت إليه التقريع، ولم يشك «سويذن» في ذلك. ولا عجب في تقريع على منزل كهذا، على شيء قبيح للغاية، فهو ليس من صنف المنازل التي اعتادها.

وأنعم النظر في وجهيهما بتحديقه الثابت الشاحب. لقد كان الفتى يبدو غريبًا أشد الغرابة!

وقال في حدة وهو يسير إلى البيت:

ـ إنك لن تخرج أبدًا شيئًا ذا قيمة من هذا! إنه طراز جديد للغاية!

وحدق فيه «بوزيني» وكأنه لم يسمع شيئًا. ووصفه «سويذن» للعمة «هيستر» فيما بعد، بأنه: «فتى من النوع المتهور، وله طريقة غريبة جدًّا في النظر إليك، إنه وغد مثير!».

ولم يشرح الدافع إلى هذه الفكرة «السيكولوجية» المفاجئة. ومن الممكن أن يكون ذلك الدافع هو جبهة «بوزيني» البارزة، وعظمتي خديه الناتئتين، وذقنه، أو شيئًا من النهم في وجهه يتناقض مع تصور «سويذن» للشبع الهادئ الذي ينبغي أن يميز الرجل المهذب.

وابتهج لدى ذكر الشاي. وكان يزدريه، فأخوه «جوليون» كان يتاجر فيه؛ وجنى من وراء ذلك ربحًا وفيرًا، ولكنه كان شديد العطش، شاعرًا بذلك المذاق في فمه إلى حد أنه كان على استعداد لشرب أي شيء. وتاق إلى إخبار «آيرين» عن مذاق فمه فهي شديدة العطف، ولكن إقدامه على ذلك لن يكون لائقًا. ودار بلسانه في فمه، وقرع به سقف حلقه في وهن.

وفي ركن ناء من الغرفة كان «أدولف» يميل بشاربه الشبيه بشارب القط، على إبريق الشاي. وتركه فجأة ليرفع سدادة زجاجة كبيرة من «الشمبانيا». وابتسم «سويذن»، وقال مومئًا إلى «بوزيني»: «عجبًا، إنك «الكونت دي مونت كرستو» بعينه!». وكانت هذه القصة ـ وهي واحدة من القصص الست التي قرأها ـ قد أثرت في عقله تأثيرًا خارقًا للعادة.

وإذ تناول قدح خمره من فوق المائدة أبعده عن عينيه ليختبر لونه، ولم يبدُ أنه سيشربه جرعة واحدة برغم ما هو عليه من ظمأ! ثم رشف منه رشفة وهو يضعه على شفتيه. وقال أخيرًا وهو يمر به تجاه أنفه:

ـ نبيذ لطيف جدًّا، ولكنه لا يعادل ما عندي من نبيذ «هايدسيك»!

وكان في هذه اللحظة قد خطر له ذلك الخاطر الذي عبر عنه بهذه العبارة البسيطة: «إني لن أعجب فتيلًا إذا اتضح أن هذا الفتى المعماري، يحب السيدة «سومز»!».

ومنذ تلك اللحظة لم تكف عيناه الشاحبتان المستديرتان لحظة عن التطلع في اهتمام وهما تتبعان ما استكشفه.

وقال للسيدة «سيبتموس»: «إن الفتى يلاحقها دائمًا بنظراته كالكلب، كوغد حقير! وذلك لا يدهشني، فهي امرأة فاتنة جدًّا. ويمكن أن أقول إنها «زهرة» الرزانة!». إن شعورًا غامضًا بالعطر العالق بـ«آيرين»، وهو أشبه بالعطر الذي يفوح من زهرة ذات أكمام لم يكتمل تفتحها، وقلب متوقد العاطفة، إن هذا الشعور أثاره إلى حد جعله يبتدع تلك الاستعارة. وقال: «ولكني لم أكن على ثقة من الأمر حتى رأيته يلتقط منديلها».

وجاشت عينا السيدة «سمول» من فرط الانفعال. وسألت:

ـ وهل أعاد إليها المنديل؟

وقال «سويذن»:

ـ أعاده؟ لقد رأيت لعابه يسيل عليه عندما ظن أني منصرف عنه ببصري!

ولهثت السيدة «سمول»، كانت أشد اهتمامًا من أن تتكلم.

وواصل «سويذن» قوله:

ـ ولكنها لم تشجعه.

وتوقف عن الكلام، وحملق مدة دقيقة أو دقيقتين على نحو أزعج العمة «هيستر»، فقد تذكر أنهما عندما استعدَّا للعودة أدراجهما في «الفيتون» أسلمت «آيرين» يدها لـ«بوزيني» مرة ثانية، وتركتها هناك في يده أيضًا، ولسع جواديه بالسوط في شدة متلهفًا على أن يخلو بها وحده، ولكنها دارت بطرفها إلى الوراء ولم تجب عن سؤاله الأول، وهو لم يستطع كذلك أن يرى وجهها، فقد ظلت مطأطأة الرأس.

وهناك صورة موجودة في مكان ما، لم يرها «سويذن». صورة رجل يجلس على صخرة، وإلى جواره عروس من عرائس البحر تستلقي على ظهرها، غائصة في الماء الأخضر الراكد، وتضع يديها على صدرها العاري. وترتسم على وجهها نصف ابتسامة. كانت ابتسامة استسلام يائس، وسرور

خفي. ولعل «آيرين» كانت تبتسم على هذا النحو وهي جالسة إلى جوار «سويذن».

وعندما بعثت «الشمبانيا» الحرارة في جسمه، أصبحت «آيرين» له دون غيره، وباح لها بمكنون أسراره، باح باستيائه المكتوم من الرئيس الجديد للنادي، وبوساوسه المتعلقة بالمنزل القائم في شارع «ويجمور» حيث أفلس مستأجره الوغد بسبب معاونته لزوج أخته ـ وكأنما الأهل ليسوا أولى بالمعروف قبل غيرهم ـ وباح بداء صممه أيضًا، وبالألم الذي يشعر به أحيانًا في جنبه الأيمن. وأنصتت إليه وعيناها تسبحان تحت جفنيهما. وظن أنها تفكر في متاعبه تفكيرًا عميقًا، وأشفق على نفسه إشفاقًا كبيرًا. بيد أنه لم يشعر قط، على الرغم من ذلك، بتميز أشد من تميزه وهو يرتدي سترة الفراء ذات الحمائل الممتدة على صدرها، وقبعته العالية المائلة على جانب، وينزه هذه المرأة الجميلة في عربته.

ويبدو مع ذلك أن بائع الفاكهة يحس الزهو بنفسه على هذا النحو عندما يخرج بفتاته للنزهة يوم الأحد. لقد ضرب هذا الفتى حماره بسوطه حتى دفعه إلى الركض بجوار عربة «سويذن»، وجلس معتدلًا كتمثال من شمع في عربته الشبيهة بالزورق الصغير، وذقنه يجثم في عظمة على منديل أحمر كما يجثم ذقن «سويذن» على كامل رباط عنقه في حين حاكت فتاته المرأة الأنيقة، وقد طارت أطراف وشاحها المنطلق مرفرفة خلفها. وكان عاشقها الريفي يحرك عصا لها قطعة من حبل دقيق رث يتدلى من طرفها، ويحدث في محاكاة أمينة نفس اللف والدوران المنسق الذي يحدثه سوط «سويذن». وكان ذلك العاشق يدير رأسه إلى فتاته في التفاتة جوفاء تشبه على نحو غريب تطلع «سويذن» البدائي.

وبرغم أن «سويذن» ظل مدة غافلًا عن وجود هذا الوغد الوضيع، فهو لم يلبث أن فطن إلى أن هناك مسخًا يتشبه به. وضرب جنب فرسه بسوطه، وبرغم ذلك ظلت العربتان، لسوء الحظ، تركضان جنبًا إلى جنب. واحمر

وجه «سويذن» الشاحب السمين. ورفع سوطه ليقرع بائع الفاكهة، ولكن تدخلًا خاصًا من القدر أنقذه من نسيان وقاره إلى هذا الحد البعيد. فقد خرجت إلى الطريق عربة فاضطرت «الفيتون» والعربة التي يجرها الحمار إلى التقارب، واحتكت عجلاتهما بعضهما ببعض، وانزلقت العربة الأخف وزنًا، وانقلبت رأسًا على عقب.

ولم ينظر «سويذن» إلى ما حوله، فهو لم يكن ليقدم بحال على معاونة الوغد، فلو دُقت عنقه لاستحق ذلك!

بيد أنه لم يكن يستطيع معاونته لو أراد ذلك، فقد تمكن الفزع من جواديه الأشهبين. وتدافعت «الفيتون» من جانب إلى جانب. ورفع الناس إليها وجوههم المرتاعة وهم يمرون مندفعين. وامتدت ذراعا «سويذن» الضخمتان إلى آخر طولهما وهما تشدان اللجام، وانتفخت وجنتاه، وأطبقت شفتاه، واصطبغ وجهه المنتفخ باحمرار كئيب حانق.

وكانت يد «آيرين» تمسك بحاجز العربة، وتشد عليها لدى كل تمايل. وسمعها «سويذن» تسأله:

ـ أسيقع لنا حادث يا عمي «سويذن»؟

ولهث بين زفراته:

ـ لا شيء هنالك، إنه... اندفاع بسيط!

ـ أنا لم تقع لي حادثة قط.

ـ إياكِ أن تتحركي!

ورمقها بنظرة. وكانت مبتسمة هادئة أتم الهدوء. وكرر قوله:

ـ اثبتي في مكانك، لا تخافي أبدًا، سأوصلك إلى بيتك!

وبينما هو غارق في الجهود الرهيبة التي يبذلها أدهشه أن يسمعها تجيب بصوت مغاير لصوتها:

ـ لا يهمني إذا أنا لم أعد لبيتي أبدًا!

وإذ مالت العربة ميلًا مفزعًا ارتدت صيحة «سويذن» إلى حلقه. وبعد أن

هدأ الحصانان وهما يصعدان في تل ضبطا خطواتهما وسارا خببًا، وتوقفا عن السير آخر الأمر بمحض إرادتهما.

ووصف «سويذن» ذلك بقوله وهو في منزل «تيموثي»:

ـ عندما شددت لجامهما كانت هادئة الأعصاب مثلي تمامًا، حماني الله! لقد تصرفت كما لو كان سيان عندها أن تُدق عنقها أو لا تُدق؟ وما ذاك الذي قالته: «لا يهمني إذا أنا لم أعد لبيتي أبدًا»؟

ولفظ قوله، وهو يتكئ على مقبض عصاه، وأفزع به السيدة «سمول»:

ـ بيد أني لا أستغرب لذلك كل الاستغراب وهي تتخذ من متحذلق متعثر مثل «سومز» الشاب زوجًا لها!

ولم يخطر له أن يتساءل عما صنع «بوزيني» بعد أن تركاه هناك وحده. أجعل يحوم في تلك النواحي كالكلب الذي شبهه به «سويذن»؟ أجعل يحوم هابطًا إلى الشجيرات حيث الربيع لا يزال يعربد، والعصفور لا يزال ينادي من بعيد؟ أهبط إلى هناك ومنديلها مضغوط على شفتيه، وقد اختلط شذاه برائحة النعناع والصعتر؟ أهبط إلى هناك شاعرًا بذلك الألم المفترس اللذيذ الذي شف قلبه، والذي كان يمكن أن ينفس عنه بين الأشجار، أم ماذا صنع الفتى هناك بالفعل؟ الواقع أن «سويذن» لم يكد يصل إلى منزل «تيموثي» حتى كان قد نسي كل ما يتعلق به.

الفصل الثالث عشر

«جيمس» يذهب ليرى بنفسه

لعل الأفراد الجهلاء في «سوق «فورسايت» للقيل والقال» لم يدركوا مدى الاضطراب الذي أحدثته زيارة «آيرين» للمنزل.

وبعد أن حكى «سويذن» في منزل «تيموثي»، كامل قصة نزهته المشهورة، نُقلت هذه القصة نفسها إلى «جون»، بأقل قدر من الشك في فضول من نقلها، وأخف لمسة من لؤمه.

واختتمت العمة «جولي» روايتها بقولها:

ـ وما أفظع ما قالته، يا عزيزتي، عن عدم رغبتها في العودة إلى بيتها. ماذا تعني بذلك؟

كانت الرواية غريبة على الفتاة. وسمعتها وهي تضطرم متألمة، وعلى حين فجأة انصرفت بعد مصافحة جافة.

وقالت السيدة «سمول» للعمة «هيستر»، بعد انصراف «جون»:

ـ كادت تكون وقحة!

وأقيم «البناء» الملائم على كيفية استقبالها للنبأ. كانت مضطربة. هناك إذن أمر غير قويم إلى حد بعيد. أمر شاذ. كانت هي و«آيرين» صديقتين متحابتين!

وتم توفيق كل شيء على أحسن وجه، بما دار هنا وهناك في المدة الأخيرة من همسات وغمزات. وهناك ذكريات ما روته «أوفيميا» عن «زيارة

المسرح»، وهناك ذهاب السيد «بوزيني» دائمًا لبيت «سومز»؟ أوه، حقًّا! نعم، لا بد أن يذهب فعلًا في شأن المنزل الذي يبنيه! لم يكن هناك قول صريح قط؛ ولم يكن يتحتم الإدلاء بأي قول صريح في «سوق «فورسايت» للقيل والقال» إلا في أشد حالات الاستثارة وأهمها. إن هذه الآلة مضبوطة أحسن ضبط. وأقل إشارة، بل مجرد تعبير بسيط عن الأسف أو الشك، يكفي لإرجاف «روح» الأسرة ـ العاطفية جدًّا ـ وليس هناك من يرغب من أفرادها في أن يسفر هذا الارتجاف عن أي ضرر، فهم أبعد ما يكونون عن ذلك؛ إنهم ينشطون مدفوعين بأحسن النيات، بإدراك مؤداه أن لكل فرد من أفراد الأسرة ركيزة في روحها.

ويكمن قدر كبير من العطف في قرار «القيل والقال»، فإن ذلك القيل والقال كثيرًا ما يسفر عن قيامهم بزيارات للمواساة وفقًا لتقاليد المجتمع، ومن ثم ينعمون على المعذبين بنفع حقيقي، ويمنحون العزاء للسليم المعافى، وهم يشعرون في سرور بأن هناك امرءًا، على أي حال، يعاني مما لا يعانون منه. ومرجع ذلك في الواقع إلى مجرد الرغبة في إبقاء الأمور على نحو حسن. تلك الرغبة التي تنشط «الصحف العمومية»، والتي وصلت، مثلًا، ما بين «جيمس» والسيدة «سيبتموس»، وما بين هذه السيدة وأبناء «نيكولاس»، وما بين هؤلاء ومن يدري أي أناس غيرهم، وهكذا.

إن الطبقة الكبرى التي سموا إليها، والتي ينتمون إليها الآن تتطلب إخلاصًا معينًا، وتتطلب كذلك قدرًا متزايدًا من التكتم، والمزيج من هاتين الخصلتين يكفل عضويتهم لها.

وكان كثيرون من أفراد أسرة «فورسايت» الصغار يشعرون شعورًا طبيعيًّا جدًّا بعدم الرغبة في تدخل أحد في شؤونهم، وقد ودوا لو أعلنوا ذلك الشعور صراحة؛ ولكن تيار «القيل والقال» الخفي الجذاب الساري في الأسرة كان قويًّا جدًّا إلى حد أنهم لم يستطيعوا، في سبيل ما يتعلق بحياتهم، إلا أن يقفوا على كل شيء، وعلى كل ما يحيط به. وساد الشعور بأن الأمر ميؤوس منه.

وقام أحدهم («روجر الصغير») بمحاولة بطولية في سبيل خلاص الجيل الصاعد، وذلك بالتحدث عن «تيموثي» مع نعته بأنه «قط عجوز». ولكن المحاولة دارت عليه عن حق. فقد تنقلت كلماته حتى وصلت في أرق أسلوب إلى أذني العمة «جولي» التي كررتها في صوت فزع إلى السيدة «روجر»، ومن ثم ارتدت ثانية إلى «روجر الصغير».

وفضلًا عن ذلك فإن من أساءوا فعلًا هم الذين كانوا يتعذبون. ومثال ذلك «جورج» عندما خسر كل ذلك المال في لعب «البليارد» أو «روجر الصغير» نفسه، فهو إذ صار على وشك الزواج، دار الهمس بأن الفتاة التي يريد الاقتران بها شرعًا سبق له أن تزوجها طبقًا للقوانين الطبيعية. وكذلك «آيرين» التي ظن الجميع ـ وإن لم يقولوا ذلك صراحة ـ أنها في خطر.

إن هذا كله لم يكن سارًّا فحسب، ولكنه كان مفيدًا أيضًا. وقد جعل ساعات كثيرة تمر خفيفة الظل في بيت «تيموثي» الكائن في شارع «بيزوتر»، ساعات كثيرة كان لا بد أن تصبح، لولا ذلك، عقيمة ثقيلة على الذين يعيشون هناك. وما بيت «تيموثي» إلا واحد من مئات البيوت التي تماثله في مدينة لندن، بيوت أناس من الطبقات الآمنة، ممن يقفون على الحياد، خارج نطاق المعركة، ولا يجدون مهربًا من أن يجدوا في معارك الآخرين سببًا يبرر وجودهم.

ولكن لا بد أنهم كانوا يشعرون فعلًا بالوحدة هناك حتى تتوفر العذوبة لأقاويل الأسرة، فالشائعات والحكايات والبيانات والظنون، أكانت تروج لو أن أبناء الأسرة لم يكونوا أعزاء غوالي كأطفال مثرثرين افتقدهم إخوة لهم وأخوات رحلوا عنهم؟ إن الحديث عنهم كان أقرب ما استطاعوا تحقيقه ليستحوذوا على أولئك الأبناء والحفدة الذين تتلهف عليهم قلوبهم الرقيقة.

وبرغم الشك في أن قلب «تيموثي» يتلهف، فمما لا ريب فيه أنه كان يضطرب أشد الاضطراب كلما جاء لأسرة «فورسايت» مولود جديد.

لا جدوى من أن يقول «روجر الصغير»: «القط العجوز»، ومن أن ترفع

«أوفيميا» يديها وتصيح: «أوه! هؤلاء الثلاثة!»، وتطلق ضحكتها الصامتة التي تنتهي بصرير. إن ذلك لا جدوى منه، وهو ليس على قدر كبير من اللطف.

والموقف الذي يمكن في هذه المرحلة أن يبدو غريبًا، لا سيما في أعين أفراد أسرة «فورسايت» ـ نقول غريبًا ولا نقول مستحيلًا ـ لم يكن على أي حال غريبًا إلى هذا الحد، نظرًا إلى وقائع معينة.

لقد خفيت بعض الأمور عن النظر.

لقد نسوا، أولًا، في نطاق الأمان المتولد من زيجات كثيرة غير ضارة، أن الحب ليس زهرة تنبت في «بيت الزهور» الزجاجي الدافئ، ولكنه نبات بري نشأ في ليلة ممطرة، أو في ساعة سطعت فيها الشمس. وانبثق من نواة برية أطارتها ريح برية على طول الطريق، إنه نبات بري ندعوه «زهرة» حينما يتفتح مصادفة في سياج حدائقنا. فإذا ازدهر خارجها دعوناه عشبًا؛ ولكنهما زهرة أو عشب لهما رائحة ولون بريان دائمًا!

وفوق ذلك ـ إذ وقائع حياتهم نفسها، وأرقامها تتناقض مع تصور هذه الحقيقة ـ لم يعترف أفراد أسرة «فورسايت» عمومًا بأن الرجال منهم والنساء ليسوا إلا طحلبًا يحيط بالزهرة الشاحبة، الشبيهة باللهب، حيثما نبتت.

ولقد مضى زمن طويل على فرار «جوليون الصغير»، وكان هناك خطر من أن يقوم ثانية تقليد يقضي على أناس في مثل مكانتهم، بألا يتخطوا أبدًا سياج الحديقة لاقتطاف تلك الزهرة؛ وبأن المرء يمكن أن يعتمد على إصابته بالحب مرة واحدة في الفصل المناسب، كما يصاب بداء الحصبة، وعلى شفائه منه بعد ذلك نهائيًا ـ كما يُشفى من داء الحصبة بمزيج مريح من الزبد وعسل النحل ـ عندما يرتمي في أحضان الزواج.

ومن بين جميع الذين بلغتهم هذه الشائعة الغريبة عن «بوزيني» والسيدة «سومز» كان «جيمس» أشدهم تأثرًا بها. لقد نسي منذ زمن بعيد كيف كان يحوم، هزيلًا شاحبًا، متهدل الشارب الكستنائي اللون، حول «إميلي»، أيام صبابته. لقد نسي منذ زمن بعيد، ذلك المنزل الصغير الواقع في تخوم

«مايفير» حيث أمضى بشائر أيام حياته الزوجية، أو، على الأصح، نسي منذ زمن بعيد بشائر تلك الأيام، لا المنزل الصغير ـ فإن «الفورسايتي» لا ينسى منزلًا أبدًا ـ ذلك المنزل الذي باعه فيما بعد، وحصل على ربح صافٍ قدره أربعمائة جنيه.

نسي منذ زمن طويل تلك الأيام مع ما اشتملت عليه من آمال ومخاوف، وشكوك خاصة بالحيطة من ذلك الزواج، (فإن «إميلي» لم تكن تملك شيئًا، برغم كونها جميلة، وهو نفسه كان يربح في ذلك الوقت مجرد ألف جنيه في العام) وخاصة بتلك الجاذبية الغريبة التي لا تقاوم، والتي جعلت تشده إلى أن شعر بأنه سيموت إذا هو لم يتزوج الفتاة ذات الشعر الأصفر المعقود إلى الوراء في عناية شديدة، وذات الذراعين البديعتين الخارجتين من مشد محبوك، وذات القوام الجميل المحمي في إتقان بإطار من محيطه الرائع حقًّا.

مر «جيمس» من خلال النار، ولكنه مر أيضًا من خلال نهر السنين الذي يغسل الناس. لقد جرب أشد التجارب جلبًا للحزن، جرب نسيان كيف تكون حال الوقوع في الحب.

نسي! نسي منذ زمن بعيد إلى حد نسيانه حتى نسيانه.

والآن وصلت إليه تلك الشائعة، الشائعة عن زوجة ابنه، وهي مبهمة جدًّا، هي خيال يتملص من بين ظواهر الأشياء المحسوسة المستقيمة. هي غير حقيقية، غير مفهومة كالشبح، ولكنها تحمل معها، كالشبح، فزعًا لا يمكن تفسيره.

وحاول أن يتمثلها في ذهنه، ولكن ذلك لم يزد على محاولة استعادة إحدى الفجائع التي قرأ عنها في صحيفته المسائية. إنه، ببساطة، لم يستطع ذلك. فهي لا يمكن أن تتضمن شيئًا. فكل ما فيها هراء. إنها لم تكن على وفاق مع «سومز» على نحو ما كان ينبغي، ولكنها امرأة صغيرة لطيفة طيبة، صغيرة لطيفة طيبة!

وكان «جيمس» ـ كأغلبية الطبقة التي يعتز بها ـ كان يستمتع بالفضيحة الصغيرة اللطيفة، وقد يقول في لهجة الإقرار بالأمر الواقع، لاعقًا شفتيه: «نعم، نعم، هي و«دايسون» الشاب؛ قيل لي إنهما يعيشان في «مونت كارلو»!».

ولكن خطورة أمر من هذا القبيل ـ خطورة ماضي ذلك الأمر وحاضره ومستقبله ـ لم تكن تطرق ذهنه بحال. لم يكن يطرق ذهنه ما تعنيه؛ وأي عذاب، وأي ابتهاج اعتورا قيام صرحها؛ وأي قضاء بطيء الخطوات، هيمن عليها، وقبع في وقائعها المفضوحة إلى حد كبير، الدنيئة أحيانًا، ولكنها حريفة مشهية على الأغلب حين تعرض على الأنظار. ولم يكن من عادته قط أن يلوم، أو يمدح، أو يستنبط النتائج، أو يعمم الأحكام فيما يتعلق بمثل هذه الأمور؛ كان ينصت فحسب، وهو متعطش على الأغلب للسماع، ويعيد ما قيل له، واجدًا متعة كبيرة في قيامه بذلك، متعة شبيهة بمتعة شرب كأس من «الشيري» أو «البيتر» قبل تناول الطعام.

بيد أنه الآن، حينما أصبح مثل هذا الأمر ـ أو بالأحرى هذه الفضيحة، أو النسمة التي هبَّت منها ـ على مقربة منه شخصيًّا، فقد أحس كأنه في ضباب يملأ فمه بطعم قبيح خائر، ويجعله غير قادر على التنفس إلا في صعوبة.

فضيحة! فضيحة ممكنة الوقوع والحدوث!

وتكرار هذه الكلمة على النحو المذكور كان الوسيلة الوحيدة التي تمكنه من تركيزها وجعله قابلًا للتفكير فيها. لقد نسي الأحاسيس التي لا بد منها لفهم تطور مثل هذا الأمر ومصيره ومعناه؛ وهو فقط لم يعد يستطيع أن يدرك إمكان تعرض الناس للمخاطر في سبيل العاطفة.

وإنه ليبدو له مضحكًا أن يخال وجود أي واحد من بين جميع أولئك الأفراد من معارفه الذين يذهبون إلى المدينة يومًا بعد يوم، ويضطلعون بأعمالهم هناك ـ أيًا كانت تلك الأعمال ـ ويشترون في أوقات فراغهم

أسهمًا ودورًا، ويطعمون في الولائم، ويلعبون الورق كما يُقال له، أن يخال وجود واحد منهم يتعرض للمخاطرة في سبيل شيء شديد الإبهام، مغرق في الأوهام كالعاطفة.

العاطفة! كان يبدو أنه سمع عنها فعلًا. وإن مثل القاعدة التي تقول: «ينبغي ألا يوثق في ترك شاب وشابة معًا». إن هذه القاعدة وأمثالها ثابتة في ذهنه ثبوت خطوط الطول والعرض في الخرائط (لأن أفراد أسرة «فورسايت» جميعًا يتمتعون بحس مرهف فيما يتعلق بالواقعية، عندما تصل المسألة إلى «أساس» الأمر الواقع). أما فيما يختص بأي أمر ـ عدا تلك القواعد ـ فهو يستطيع أن يقدره من خلال الكلمة المأثورة «الفضيحة».

آه! ولكن هذه الكلمة لا تنطوي على حق، ولا يمكن أن تنطوي عليه. إنه ليس بخائف، فـ«آيرين» امرأة صغيرة طيبة حقًّا. ولكن الأمر يجد عندما يعلق بذهنك شيء كهذا. و«جيمس» عصبي المزاج، هو واحد من أولئك الرجال الذين لا تتركهم الأمور على حالهم، أولئك الذين يكابدون العذاب من جراء التوقع والتردد. ونظرًا إلى خوفه من أن يقع أمر يستطيع، على عكس ذلك، أن يكفل عدم وقوعه، أصبح غير قادر على أن يستقر على رأي حتى يتأكد من أن عدم استقراره عليه يكبده خسارة.

بيد أنه كثيرًا ما تعرض في الحياة مناسبات لا يكون حتى تكوين الرأي فيها متروكًا لـ«جيمس» نفسه. وهذه المناسبة واحدة منها.

ماذا يستطيع أن يصنع؟ أيحادث «سومز» في هذا الشأن؟ إن ذلك لا يمكن إلا أن يجعل الأمور أشد سوءًا. ثم إن المسألة لا تنطوي على شيء ذي بال. إنه متأكد من ذلك.

إن «المنزل» هو السبب في هذا كله. وقد ارتاب في فكرة تشييده من بادئ الأمر. وماذا يريد «سومز» من الذهاب للسكنى في الريف؟ وإذا كان لا بد من إنفاق مبلغ جسيم ليبني له منزلًا فلماذا لا يقصد مهندسًا من الطراز الأول بدلًا من ذلك الفتى «بوزيني» الذي لا يعرف أحد عنه شيئًا؟ لقد أنبأهم

بما ستكون عليه الحال، وقد سمع أن المنزل يكلف «سومز» مبلغًا كبيرًا من المال يزيد على المبلغ الذي قدر إنفاقه.

إن هذه الواقعة جعلت «جيمس» ـ أكثر من أي واقعة غيرها ـ جعلته يدرك الخطر الحقيقي للموقف. إن هؤلاء الفتيان «الفنانين» على هذا النحو دائمًا، وينبغي للرجل العاقل ألا تكون له أي علاقة بهم، وقد حذر «آيرين» أيضًا، فانظروا ماذا كانت النتيجة!

وانبثقت في ذهن «جيمس» فجأة فكرة أن يذهب ويرى بنفسه. ووسط ضباب القلق الذي خيَّم على عقله أتاحت له فكرة إمكان ذهابه إلى المنزل واختباره ارتياحًا يتعذر تعليله، ولعل مجرد اعتزامه القيام بعمل ما ـ وأغلب الظن أن يكون ذلك العمل هو ذهابه ليرى المنزل ـ لعل هذا هو الذي فرَّج عنه.

وأحس أنه حين يتطلع إلى بناية من «طوب» و«ملاط»، ومن خشب وحجر، بناية شيدها الرجل المرتاب فيه نفسه، سيستطيع أن ينعم النظر في صميم الشائعة المتعلقة بـ«آيرين».

وعلى ذلك استقل عربة، دون أن يقول كلمة واحدة، واتجه بها إلى المحطة ومن ثم واصل رحلته إلى «روبن هل» بالقطار. ولما لم تكن ثمة عربات، كما هي الحال في الأماكن المجاورة، فقد وجد نفسه مضطرًّا إلى السير على قدميه.

وبدأ يصعد في التل متباطئًا. وكانت ركبتاه الهزيلتان، وكتفاه العاليتان تنحني متذمرة، وعيناه تشخصان إلى قدميه اللتين كانتا لا تزالان مع كل ذلك نظيفتين. وكان يرتدي قبعته العالية، وسترته «الفروك» التي دل لمعانها النظيف على أنها موضع رقابة كاملة، كانت «إميلي» تهتم بها، أعني أنها لم تكن تهتم بها شخصيًّا، فالقوم من ذوي المكانة لا يهتم بعضهم بأزرار ملابس بعضهم الآخر. و«إميلي» ذات مكانة، ولكنها اهتمت بأن يهتم الوصيف بملابس زوجها.

واضطر إلى أن يسأل عن الطريق ثلاث مرات. وكان في كل مناسبة يكرر

التوجيهات التي قيلت له: كان يحمل الرجل على أن يكررها له، ثم يكررها لنفسه ثانية، ذلك أنه بطبيعته ميال إلى الثرثرة. والإنسان لا يستطيع أن يلتزم التحفظ الشديد في مكان جديد عليه.

وظل يؤكد لهم أنه يبحث عن منزل «جديد» بيد أنه لم يستطع أن يقتنع حقًّا بأن توجيه الناس له لم يكن خطأً محضًا إلا عندما أطلعوه على السقف من خلال الشجر.

وكانت ثمة سماء غائمة يبدو أنها تغطي العالم ببياض مشهب لسقف مطلي بالجير. وخلا الجو من الطراوة والرائحة الزكية. وفي يوم كهذا لا يكاد يهتم، حتى العمال البريطانيون، بأداء عمل يزيد عما هو مفروض عليهم، وقد كانوا يضطلعون بأعمالهم رائحين غادين دون أن يصدر منهم طنين الحديث الذي يخفف كروب العمل.

ومن خلال فجوات المنزل الذي لم يتم تشييده بدت أشكال في قمصان طويلة الأكمام تعمل في بطء، وتعالت الأصوات؛ صكات متشنجة، وصرير المعادن، وخشخشة نشر الخشب، وقعقعة «عربات اليد» على طول جوانب البناية. وكان كلب ملاحظ العمال، المشدود بحبل إلى كتلة من خشب البلوط، ينبح بين الحين والحين نباحًا ضعيفًا يشبه صوت أزيز «غلاية».

وكانت ألواح النوافذ الزجاجية المركبة حديثًا، المدهونة جميعها من الوسط ببقع بيض. كانت تحملق في «جيمس» كأنها عيون كلب أعمى.

واسترسل البنَّاء في ترتيله المصلصل الكئيب تحت سماء بيضاء شهباء. وكانت الطيور تلتزم الصمت التام وهي تصيد الدود من بين الأرض المحفورة حديثًا.

واختار «جيمس» طريقه من بين أكوام الحصى ـ وكان طريق العربات قد تم تمهيده ـ وواصل السير حتى أصبح إزاء سقيفة الباب. وعندئذ توقف ورفع ناظريه. ولم يكن يبدو من هذه الزاوية إلا القليل، وقد أحاط «جيمس»

بذلك القليل من فوره؛ ولكنه ظل في ذلك الموضع عدة دقائق. ومن ذا الذي يدري في أي شيء كان يفكر.

وكانت عيناه الشبيهتان في لونهما بالصيني الأزرق لا تتحركان تحت حاجبيه الأبيضين البارزين في قرون صغيرة. وارتجفت من فمه الكبير شفته العليا الطويلة، مرة أو مرتين، بين جانبي شاربه الأبيض البديع. وكان من السهل على المرء أن يتبين في هذا التعبير المنزعج السارح من أين حصل «سومز» على النظرة المثقلة التي ترتسم أحيانًا على وجهه. ولعل «جيمس» كان يقول لنفسه: «لست أدري، إن الحياة مهمة شاقة».

وفاجأه «بوزيني» وهو في هذا الموقف.

وأعاد «جيمس» ناظريه من أيما عش طائر كانا يتفقدانه في السماء، أعادهما إلى وجه «بوزيني» الذي بدا عليه نوع من السخرية الفكهة.

ـ كيف حالك يا سيد «فورسايت». أجئت لترى بنفسك؟

وكان هذا بالضبط هو ما جاء «جيمس» من أجله، كما نعلم، فأدى به ذلك إلى القلق. ومد يده مع ذلك قائلًا، دون أن ينظر إلى «بوزيني»:

ـ كيف حالك؟

وأفسح له الآخر في الطريق، وعلى ثغره ابتسامة ساخرة.

وأحس «جيمس» شيئًا مريبًا في هذه المجاملة، وقال:

ـ أود أن أطوف بالبيت من الخارج أولًا، وأرى ماذا صنعت!

وكانت تحيط بجانبي المنزل من ناحيتي الجنوب الشرقي والجنوب الغربي شرفة مبنية بقطع الحجر المستديرة المرصوصة، ذات حافة مستعرضة طولها بوصتان أو ثلاث بوصات، لا يزال طرفها مشطوفًا غير مطلي، معدًّا لا تكسوه الأشجار المتسلقة. وتقدم «جيمس» مواصلًا سيره حول هذه الشرفة. وسأل عندما رآها تمتد وتدور حول الركن:

ـ والآن، كم كلف هذا؟

وسأل «بوزيني» بدوره:

ـ وماذا تظن أنت؟
وأجاب «جيمس»:
ـ وما أدراني؟ ربما كلف مائتين أو ثلاثمائة!
ـ هو ذا المبلغ الصحيح!
وحدجه «جيمس» بنظرة حادة، ولكن المهندس المعماري بدا كأنه لم يفطن لها، وأغفل «جيمس» التعقيب على أساس أنه لم يسمع.
وتوقف لدى وصولهما إلى مدخل الحديقة ليتطلع إلى المنظر. وقال وهو يشير إلى شجرة البلوط:
ـ ينبغي إزالة هذه.
ـ أتظن ذلك؟ أتظن أنك، مع وجود الشجرة هناك، لا تستمتع بقدر كافٍ من المشهد نظير نقودك؟
وحدجه «جيمس» بنظرة ثانية في ارتياب، إن لهذا الشاب طريقة عجيبة في التعبير عن الأمور. وقال في تأكيد عصبي مرتبك:
ـ حسنًا! لست أفهم ما حاجتك إلى وجود الشجرة.
وقال «بوزيني»:
ـ سيتم اقتلاعها غدًا.
وجزع «جيمس»، وقال:
ـ أوه، لا تردد قولك إني أشرت بوجوب اقتلاعها؟ فأنا لا أدري شيئًا عن هذا!
ـ لا تدري؟
وواصل «جيمس» قوله مضطربًا:
ـ عجبًا، وماذا ينبغي أن أعرفه عنها؟ إن هذا أمر لا شأن لي به. اقتلعها تحت مسؤوليتك.
ـ وهل تسمح لي بأن أذكر اسمك؟
وأخذ جزع «جيمس» يتزايد، وغمغم:

ـ لست أدري ماذا تريد من ذكر اسمي. أولى بك أن تترك الشجرة وشأنها، فهي ليست شجرتك!

وأخرج من جيبه منديلًا حريريًّا، ومسح به جبينه. ودخلا المنزل. وأثر الفناء الداخلي في «جيمس» كما أثر في «سويذن» من قبل. وقال بعد أن أطال النظر فترة إلى الأعمدة والرواق:

ـ لا بد أنك أنفقت قدرًا طائلًا من المال هنا. والآن قل لي كم كانت نفقة إقامة هذه الأعمدة؟

وأجاب «بوزيني» مفكرًا:

ـ لا أستطيع أن أجيبك ارتجالًا، ولكني أعلم أنها جسيمة!

وقال «جيمس»:

ـ لا مناص من أن أظن ذلك. لا مناص...

والتقت عينه بعين المهندس المعماري، وارتدت عنها. وأصبح الآن يكبح فضوله كلما عرض لشيء يرغب في الوقوف على مقدار نفقته.

وبدا أن «بوزيني» مصمم على ضرورة مشاهدة «جيمس» لكل شيء. ولولا أن هذا الأخير «شديد الملاحظة» بطبيعته لوجد نفسه يطوف بالمنزل للمرة الثانية دون شك. وبدا كذلك أن «بوزيني» متلهف جدًّا على أن توجه إليه أسئلة إلى حد أن «جيمس» شعر بضرورة الاحتراس. وبدأ يقاسي من رحلته، ذلك أنه برغم صلابة عوده إلى الحد المناسب لرجل في مثل بنيته الطويلة، فهو في الخامسة والسبعين.

وأخذت عزيمته تهن. وبدا أنه لم يقترب من شيء، ولم يحصل من وراء تفقد المنزل على المعرفة التي رجا رجاء غامضًا أن يحصل عليها. ولم يكن منه إلا مجرد أن ازداد نفورًا وارتيابًا في هذا الشاب الذي أتعبه بكياسة، والذي لا بد أن يكون «جيمس» قد لاحظ السخرية في سلوكه.

كان الفتى أحذق مما ظن، وأحسن شكلًا مما توقع. وكان له مظهر «غير مبال» لم يقدره «جيمس» الذي كانت «المجازفة» عنده أبعد الأمور في الحياة

عن الاحتمال. كذلك كانت له ابتسامة خاصة تلوح في أقل الحالات توقعًا لها، وكانت له عينان عجيبتان جدًّا، وهو يذكِّر «جيمس» بقط جوعان، كما قال هذا الأخير فيما بعد، وهذا التشبيه هو غاية ما استطاع العثور عليه، في حديثه مع «إميلي»، ووصفه للتحرش الغريب، والنعومة والسخرية التي يتألف منها خلق «بوزيني».

وأخيرًا، بعد أن رأى كل ما ينبغي أن يراه، خرج ثانية إلى الباب الذي دخل منه. والآن، وقد شعر بأنه بدد وقته وقواه وماله سدى، جمع بين يديه شجاعة «الفورسايتي»، وقال محدقًا في «بوزيني»:

ـ لعلك ترى زوجة ابني كثيرًا، فما رأيها، والحالة هذه، في المنزل؟ ولكنها لم تره، على ما أعتقد؟

قال هذا وهو يعلم كل شيء عن زيارة «آيرين» للمنزل، ما ذلك بالطبع إلا لأن في تلك الزيارة مأخذًا، اللهم إلا تلك الملاحظة الغريبة التي قالتها عن «عدم اهتمامها بالعودة إلى بيتها»، وإلا القصة التي سمعها عن الكيفية التي قابلت بها «جون» النبأ!

لقد اعتزم، بوضعه السؤال على هذا النحو، أن يتيح فرصة لـ«بوزيني»، كما قال لنفسه.

وأبطأ الآخر في رده، ولكنه سلط عينيه على «جيمس» في مثابرة مقلقة:

ـ «إنها» رأت المنزل، ولكني لا أعرف رأيها فيه.

ومنعت «جيمس» طبيعته ـ وهو عصبي متحير ـ أن يدع الأمر دون مناقشة. فقال:

ـ أوه! أرأته؟ أحسب أن «سومز» جاء بها؟

وأجاب «بوزيني» مبتسمًا:

ـ أوه، لا!

ـ ماذا، أجاءت إلى هنا وحدها؟

ـ أوه، لا!

ـ من الذي جاء بها إذن؟

ـ لست أدري، حقًّا، أينبغي أن أذكر لك من جاء بها؟

وبدا هذا الرد غير مفهوم لـ«جيمس» الذي كان يعلم أنه هو «سويذن». وقال متلعثمًا:

ـ لماذا! أنت تعلم أن...

ولكنه توقف عن القول فجأة، مدركًا الخطر المحدق به. ثم قال:

ـ حسنًا. إذا كنت تريد عدم إخباري فأحسب أنك غير مجبر! ليس ثمة أحد يخبرني بشيء.

ومما أدهشه نوعًا أن سأله «بوزيني» هذا السؤال:

ـ الشيء بالشيء يُذكر. هل في وسعك أن تخبرني أمن المحتمل أن يجيء أحد غيرك إلى هنا مرات أخرى؟ فأنا أود أن أكون في انتظاره!

وقال «جيمس» متحيرًا:

ـ أحد غيري؟ ومن هناك غيري؟ أنا لا أعلم شيئًا عن مجيء زائر آخر. طبت صباحًا.

ومد يده وهو ينظر إلى الأرض. وقابل براحته راحة «بوزيني».

وتناول مظلته من الموضع الذي يعلو حريرها، ومضى إلى جانب الشرفة.

وارتد ببصره قبل أن يدور حول الشرفة، ورأى «بوزيني» يتبعه في بطء، «منسلًا إلى جانب الحائط» ـ بحسب الصيغة التي وضعها ـ «كقط ضخم» ولم يعر الفتى التفاتًا عندما رفع له هذا الأخير قبعته.

وازداد إبطاء في مشيته بعد أن تجاوز ممر المنزل. وغاب عن العيان. واتخذ طريق عودته إلى المحطة، سائرًا على مهل شديد، منحنيًا أكثر مما انحنى عند مجيئه، هزيلًا يائسًا منخلع القلب.

وشعر «القرصان» بالأسف وهو يرقب عودته إلى بيته حزينًا إلى ذلك الحد، ولعل أسفه يرجع إلى مسلكه مع الرجل الهرم.

الفصل الرابع عشر

«سومز» و«بوزيني» يتفقان

لم يقل «جيمس» شيئًا لابنه عن زيارته للمنزل. ولكنه ذكرها في منزل «تيموثي» إذ سنحت مناسبة للذهاب إليه ذات صباح في شأن مسألة تتعلق بمشروع المجاري الذي فرضت السلطات الصحية تطبيقه على أخيه.

قال هناك إن المنزل ليس رديئًا. وقد استطاع أن يتبين أن شيئًا كثيرًا يمكن تخريجه منه. والفتى ماهر على طريقته، برغم أنه لا يعرف أي مبلغ سيتكبده «سومز» قبل الانتهاء من بنائه.

وتدخلت «أوفيميا فورسايت» قائلة، وقد حدث أن كانت في الغرفة لتستعير آخر قصة كتبها المبجَّل «سكولز» واسمها «العاطفة والمخدر»، وهي قصة رائجة أي رواج:

ـ إني رأيت «آيرين» أمس في مخازن المؤن؛ وكانت هي والسيد «بوزيني» يتبادلان حديثًا لطيفًا ظريفًا في أقسام البقالة.

وعلى هذا النحو سجلت ببساطة مشهدًا أحدث في نفسها حقًّا أثرًا عميقًا معقدًا، كانت تسرع إلى قسم «الحرير» في مخازن «تشورش أن كومير شيال» ـ تلك المؤسسة التي لم تكن تسمح، وفقًا لنظمها البديعة، بدخول أحد إلا الأشخاص المضمونين على أساس «الدفع قبل التسليم»، وليس ثمة محل تجاري أولى أن يوصي به أشد توصية لأسرة «فورسايت» ـ كانت تسرع

إلى ذلك القسم بقصد أن توفق إلى قطعة نسيج حريرية تشتريها لأمها التي كانت تنتظرها في الخارج.

واجتذبت نظرها، على نحو غير مريح، وهي تمر بقسم البقالة، طلعة جميلة جدًّا بدت من ظهرها. وكانت متناسقة على نحو شديد الفتنة، متعادلة جدًّا، حسنة الهندام للغاية إلى حد أن حشمة «أوفيميا» الفطرية انزعجت على الأثر. فقد كانت تعلم، بالبديهة لا بالخبرة، أن صاحبات تلك الطلعات نادرًا ما تكون لهن علاقة بالفضيلة، ولا شك أنه لم يخطر ببالها أن مرجع ذلك إلى أن شكلها من الخلف غير مناسب.

ومن حسن الحظ أن شكوكها تحققت. فقد انتزع شاب مقبل من قسم العقاقير قبعته، وكان يحيي السيدة المجهولة الظهر.

وحدث عندئذ أن رأت من هي السيدة التي كان عليها أن تهتم بها. إنها السيدة «سومز» دون ريب، والشاب هو السيد «بوزيني»، وإذ أخفت نفسها على عجل وراء الانهماك في شراء علبة من بلح تونسي ـ ذلك أنها كانت تضيق بمقابلة الناس وهي مرتبكة، محملة اليدين برزم المشتريات ـ أصبحت دون قصد البتة رقيبًا مهتمًّا بحديثهما الصغير.

واصطبغت وجنتا السيدة «سومز» بلون أحمر مبهج، وهي الشاحبة نوعًا. وبدا سلوك السيد «بوزيني» غريبًا، برغم جاذبيته. (كانت ترى «بوزيني» أقرب أن يكون رجلًا ممتاز الهيئة. وترى الاسم الذي أطلقه «جورج» عليه، وهو اسم «القرصان» ـ الذي يحيط به شيء من الخيال ـ شائقًا تمامًا). وبدا كأنه يستعطفها. وكانا فعلًا يتحدثان في حماسة شديدة. أو، على الأرجح، كان يتحدث في حماسة شديدة، لأن السيدة «سومز» لم تسترسل في الكلام، ذلك أنهما كانا يسببان، في غير تبصر، اضطرابًا في حركة التجارة. وقد اضطر «جنرال» لطيف عجوز، وهو يتجه إلى قسم بيع «السيجار»، أن ينحرف تمامًا عن طريقه، وما إن تصادف ورفع بصره ورأى وجه السيدة «سومز» حتى رفع لها قبعته فعلًا، هذا العجوز الأبله! وما أشبهه بسائر الرجال!

ولكن عيني السيدة «سومز» هما اللتان شغلتا «أوفيميا». فهذه السيدة لم تنظر مرة واحدة قط إلى السيد «بوزيني» حتى رحل عنها، وعندئذ أرسلت طرفها وراءه. وأوه، يا لهذه النظرة!

وأطالت «أوفيميا» التفكير في تلك النظرة. وليس بالكثير أن نقول إن تلك النظرة آذتها بنعومتها الغامضة المتريثة. وكأنما أرادت تلك المرأة أن تستعيده إليها ثانية في مقابل الدنيا بأسرها، وأن ترجع في قول قالته له.

آه، إن الوقت لم يتسع لـ«أوفيميا» في تلك الآونة بالذات حتى تتعمق الأمر، وقطعة النسيج الحريري تشغل يديها، ولكن المسألة «التبست عليها التباسًا شديدًا»... شديدًا! وقد اقتصرت على الإيماء برأسها للسيدة «سومز» حتى تريها أنها أبصرتها، والاستفهام التالي جاء وفقًا لما أسرت به إلى صديقتها «فرانسي»، (ابنة «روجر») لدى محادثتها في ذلك بعدئذ:

ـ ألم يبدُ عليها أنها وقعت في المصيدة تمامًا؟

وأبى «جيمس» كلية، لأول وهلة، أن يسلم بأية أنباء تؤيد شكوكه المؤلمة التي تساوره هو نفسه، واعترض عليها من فوره قائلًا:

ـ أوه، إنهما كانا يبحثان دون ريب عن ورق مزركش لكسوة الحائط.

وابتسمت «أوفيميا»، وقالت بصوت ناعم:

ـ في قسم البقالة؟

وتناولت من المائدة قصة «العاطفة والمخدر»، وأضافت:

ـ ستقرضينني هذه إذن يا عمتي العزيزة؟ وداعًا.

ثم انصرفت. وانصرف «جيمس» بعدها مباشرة تقريبًا. فقد تأخر كما هي الحال.

وعندما وصل إلى مكتب مؤسسة «فورسايت، باستارد وفورسايت»، وجد «سومز» يجلس في مقعده الدوَّار، ويكتب مذكرة دفاع عن موكل. وحيًّا هذا الأخير أباه بعبارة «صباح الخير» وحسب، وقال وهو يخرج غلافًا من جيبه:

ـ قد يهمك أن تلقي نظرة على هذا.

وقرأ «جيمس» ما يلي:

٣٠٩ د

شارع «سلون»

١٥ من مايو

عزيزي «فورسايت»

أما وقد تم بناء منزلك فإن مهمتي انتهت بصفتي مهندسًا معماريًّا. وإذا كنت سأضطلع بأعمال الزخرفة ـ والذي أفهمه أن ذلك يكون بناء على طلبك ـ فإني لأود أن تعلم جيدًا ألا بد أن تترك لي حرية التصرف.

إنك لم تأتِ إلى المنزل قط دون أن تقترح اقتراحًا يتناقض مع خطتي. ولديَّ هنا ثلاث رسائل واردة منك يوصي كل منها بشيء لا يمكن أبدًا أن أحلم بإدخاله على البناء. وكان أبوك هنا عندي عصر البارحة، واقترح اقتراحات أخرى قيمة.

لذلك أرجو أن تقرر أتريد أن أقوم لك بأعمال الزخرفة أم أنسحب. وهذا الرأي الأخير هو ما أوثره على العموم.

ولكن اعلم أني إذا اضطلعت بأعمال الزخرفة اضطلعت بها وحدي دون تدخل من أي نوع كان.

وإذا أديت عملًا واصلته إلى النهاية، ولكن ينبغي أن تطلق يدي فيه.

المخلص

«فيليب بوزيني»

ويتعذر بالطبع الإفصاح عن الدافع الصحيح المباشر لكتابة هذا الخطاب. ومع ذلك، فإنه من غير المحتمل أن يكون «بوزيني» قد أثارته ثورة مفاجئة على موقفه تجاه «سومز» ـ موقف الفن الأبدي تجاه الملكية ـ وهو الموقف الذي أصبح يظهر ملخصًا تلخيصًا باهرًا، على ظهر الأجهزة الحديثة التي أصبحت ألزم الأشياء للناس. في هذه العبارة

التي تقارن بأحسن عبارات «تاسيتوس»[1]: «**ثوس. ت. سورو، المخترع. بيرت م. بادلاند، المالك**».

وسأله «جيمس»:

ـ ماذا ستقول له؟

ولم يهتم «سومز» حتى بالالتفات إلى أبيه، وقال:

ـ أنا لم أستقر على رأي بعد.

وواصل كتابة مذكرة دفاعه.

لقد فوجئ موكل من موكليه، شيد بعض المباني على أرض لا يملكها، فوجئ على نحو مثير للأعصاب بإنذار يطالبه فيه صاحب الأرض بإزالة المباني التي شيدها. بيد أن «سومز» رأى، بعد العناية التامة بتمحيص الوقائع، أن يشير على موكله بأن له ما يعرف بحق «وضع اليد». وبرغم أن الأرض غير مملوكة له دون ريب، فإن من حقه الاحتفاظ بها، وأولى به أن يفعل ذلك؛ و«سومز» الآن يتبع هذه النصيحة باتخاذ الخطوات «لوضعها موضع التنفيذ»، كما يقول الملاحون.

لقد اشتهر على نحو متميز بمتانة نصائحه. وكان الناس يقولون عنه: «اذهب إلى «فورسايت الصغير»، فهو فتى واسع الفهم!». وهو يقدر هذه الشهرة تقديرًا عاليًا.

وكان اقتصاده الطبيعي في القول من صالحه، وليست هناك ميزة كهذه يمكن أن يحسب «سومز» أنها تحدث في الناس، لا سيما ذوي الأملاك منهم، (ولم يكن له عملاء غير هؤلاء) انطباعًا عنه بأنه رجل مأمون. وكان رجلًا مأمونًا. لقد اجتمعت التقاليد والعادة والتعليم، والكفاءة الموروثة، والحذر الأصيل، اجتمعت هذه الصفات كلها لتكوين نزاهة مهنية مكينة تسمو على الإغراء لمجرد أنها مبنية على تجنب المجازفة الفطري. وكيف

---

(١) مؤرخ روماني (١١٩-٥٦ ق. م.). (المترجم).

يمكن لـ«سومز» أن يسقط في حين أن روحه تنفر من الملابسات التي تجعل السقوط ممكنًا، إن الإنسان لا يسقط من فوق الأرض!

وأولئك «الفورسايتيون» الذين لا حصر لعددهم، والذين تعرض لهم المناسبات التي يحتاجون فيها إلى خدمات رجل مأمون، خلال ما لا يعد من المعاملات المتعلقة بالملكية على اختلاف أنواعها، أولئك الناس يجدون ائتمان «سومز» على أعمالهم مريحًا مربحًا. وعجرفته الطفيفة المقترنة بهيئة تشمم الصيد، كانت مع صفاته السابقة الذكر في صالحه أيضًا، والإنسان لا يرغب في أن يكون متعجرفًا ما لم يكن على علم بذلك!

لقد وصل في مهنته إلى القمة حقًّا. وبرغم أن «جيمس» لم يأتِ ليزوره كل يوم تقريبًا، فهو لا يكاد يفعل الآن إلا أن يجلس في مقعده، مطوي الساقين، دون أن يربك بعض الشيء الأمور المقررة من قبل. ثم لا يلبث أن ينصرف ثانية. ولم يكن «باستارد»، الشريك الآخر، إلا شيئًا ضئيلًا. كان يقوم بأعمال كثيرة، ولكن رأيه لم يكن يُؤخذ به قط.

وعلى هذا ثابر «سومز» على كتابة دفاعه، ولكن من نهاية القول أن نزعم أنه كان مرتاح البال. فقد كان يكابد الشعور بمحنة تتهدده، محنة حوَّمت حوله بعض الوقت. وحاول أن يوهم نفسه بأنها محنة جسدية، حالة من حالات كبده، ولكنه لم يجهل أن الأمر ليس كذلك.

ونظر إلى ساعته. كان لا بد أن يحضر، بعد ربع ساعة الاجتماع العام لشركة «نيو كولياري»، وهي من الشركات التي للعم «جوليون» مصلحة فيها. وهو سيقابل العم «جوليون» هناك، وسيحادثه عن شيء يتعلق بـ«بوزيني» ـ وهو لم يستقر على رأي في شأن هذا «الشيء»، ولكنه سيقول شيئًا ـ وأيًّا كان الأمر فهو لن يرد على ذلك الخطاب حتى يقابل العم «جوليون». ونهض، وحفظ مسودة دفاعه في عناية. وأضاء نور صوان صغير عند ذهابه إليه، وغسل يديه بقطعة صابون سوداء من نوع «ويندسور»، وجفَّفهما بمنشفة تدور حول المشجب. ثم مشَّط شعره منتبهًا إلى اعتدال مفرقه اعتناء دقيقًا،

وأطفأ النور، وتناول قبعته. وإذ قال إنه سيعود في الساعة الثانية والنصف، تقدم صوب «بولتري».

وكان الاجتماع العام يُعقد دائمًا على مسافة غير بعيدة من مكاتب شركة «نيو كولياري»، لا في نزل «كانون ستريت»، ولكن في «أيرنمونجر لين»، حيث تتفق في ذلك مع الشركات الأخرى التي تزاول أعمالًا أشد من أعمالها طموحًا. وكان «جوليون الكبير» قد أعرض عن الصحافة منذ البداية قائلًا: «ما شأن الرأي العام بأموره!».

ووصل «سومز» في الوقت المحدد، واتخذ مقعده إلى جانب أعضاء «المجلس»، حيث جلس كل مدير وراء محبرته، في صف مع زملائه، مواجهًا حملة أسهم شركته.

وكان «جوليون الكبير»، وهو جالس وسط هذا الصف، ظاهرًا كل الظهور بسترته السوداء المشدودة على قامته، وبشاربه الأبيض، كان مستلقيًا إلى الوراء وأطراف أصابعه تقع على نسخة من تقرير المدير وكشف حسابه.

وجلس إلى يمينه، لافتًا نظر الجميع دائمًا، أمين سر المجلس المدعو «هيمنجز»، والملقب بـ«الذي تخلَّت عنه الأقدار». وكان يطل من عينيه حزن شديد. وبعثت لحيته ذات اللون الحديدي الرمادي، الحزينة كسائر ما يبدو منه، شعورًا بأنه لا بد أن يكون خلفها رباط فاحم السواد.

وكانت المناسبة محزنة فعلًا، فإنه لم تمر إلا ستة أسابيع على ورود خطاب من «سكوريا»، خبير المناجم الذي ذهب في بعثة إلى مناجم الشركة، يقول فيه إن «بيبين»، وكيل أعمالهم، انتحر وهو يحاول أن يكتب رسالة إلى مجلس الإدارة، بعد صمته الغريب الذي طال مدة عامين كاملين. وهذه الرسالة موضوعة الآن على المائدة، وسوف تُقرأ على حملة الأسهم الذين سيحاطون علمًا، دون ريب، بالوقائع جميعها.

وكثيرًا ما قال «هيمنجز» لـ«سومز»، وهو يقف تجاه المدفأة في سترته المفترقة الذيل:

ـ إن الذي لا يعرفه حملة الأسهم من شؤوننا لا يستحق أن يُعرف. وإنك تستطيع يا سيد «سومز» أن تثق بقولي هذا ثقة تامة.

وذكر «سومز» واقعة صغيرة مكدرة حدثت مرة في أثناء وجود «جوليون الكبير». فقد نظر عمه بحدة وقال:

ـ لا تقل هراء يا «هيمنجز»! أنت تقصد أن الذي يعرفه حملة الأسهم غير جدير بأن يُعرف!

كان «جوليون الكبير» يمقت الرياء.

ورد «هيمنجز» على «سومز» غاضب النظرة، متسترًا بابتسامة شبيهة بابتسامة الكلب الصغير المدرب، مرسلًا هتافًا مصطنعًا:

ـ لا عليك الآن، هذا طيب يا سيدي... طيب جدًّا... لا بد أن يظفر عمك بدعابته!

والمرة التالية التي رأى فيها «سومز» انتهز فرصة ليقول له:

ـ إن رئيس المجلس أخذ يتقدم في السن، وأنا لا أستطيع أن أوقفه على الأمور؛ وهو عنيد جدًّا. ولكن ماذا تستطيع أن تتوقع من صاحب ذقن كذقنه؟

وأومأ «سومز» برأسه.

ولم يكن أحد يجهل أن ذقن «جوليون الكبير» رهيب. وكان القلق يبدو على الرجل اليوم؛ وبرغم هيئة الاجتماع العام الكئيبة، فإن «سومز» كان لا بد أن يحادثه في أمر «بوزيني»، ما في ذلك شك.

وجلس بعد «جوليون الكبير» من ناحية اليسار السيد «بوكر» الصغير الحجم. وكانت تبدو عليه، هو أيضًا، تلك النظرة الحزينة التي تسود الاجتماع العام، وكأنه يبحث بذلك عن شخص ما من بين حملة الأسهم يكون على الأخص رقيق الحاشية. وإلى جواره جلس المدير الأصم مقطبًا. ومن بعد المدير جلس كذلك السيد «بليدهام» العجوز، وهو لطيف جدًّا، يبدو عليه أنه مرهف الفضيلة، ولعله كذلك فعلًا. ويدرك أن ما اشتملت عليه رزمة الورق

البني التي يحملها معه دائمًا إلى غرفة المجلس مخبوءة تحت قبعته (وهي من صنف القبعات العالية، العتيقة الطراز، العريضة الحواف، التي تناسب رباط العنق العريض (البابيون) جدًّا، والذقن الحليق والخدود الناضرة، والشوارب البيض الصغيرة النظيفة).

ولم يكن «سومز» يتخلف عن حضور الاجتماع العام. وكان الرأي أن من الأفضل حضوره ليكون موجودًا «فيما إذا جد أمر». وجال ببصره في حيطان القاعة، متخذًا هيئته المتعالية المقبضة. وقد علقت بتلك الحيطان خرائط المنجم والميناء، وكذلك صورة فوتوغرافية كبيرة لممر يؤدي إلى أعمال تنقيب أثبتت على نحو ملحوظ تمامًا أنها غير مربحة، وهذه الصورة الفوتوغرافية ـ وهي شاهد على القسوة الأبدية الكامنة طي العمل التجاري ـ لم تزل عالقة بموضعها في الحائط كأنها تمثال حمل المديرين الوديع، ولكنه حمل ميت.

ونهض «جوليون الكبير» ليقدم التقرير وكشف الحساب.

وواجه حملة الأسهم هادئًا، ساترًا ـ خلف وقار كوقار إله وثني ـ ذلك الخلاف الدائم، المغروس في أعماق المدير حيال المساهمين. وواجههم «سومز» أيضًا. وهو يعرف أغلبهم شكلًا. كان هناك «سكربسول» الهرم، وهو رجل يعمل بالقطران، يقول عنه «هيمنجز» إنه «يحضر دائمًا ليبدي قذارته». إنه عجوز، شرس المظهر، ذو وجه أحمر، ولحية، وقبعة ضخمة قصيرة تستريح على ركبته. وهناك المبجل السيد «بومز» الذي يقترح دائمًا الاقتراع على شكر رئيس المجلس، ويعبر دائمًا في اقتراحه عن أمله في ألا ينسى المجلس ترقية موظفيه، ويطيل في نطق حرف (الياء) من كلمة «الموظفين»، بحسبان كونه أشد صلابة وانتماء للأنجلوسكسونية (وكانت ملابسه ذات ميول شديدة للشكل الإمبريالي) وكانت عادته ذات الفائدة أن يمسك بأحد المديرين من عروة صداره بعد الجلسة، ويسأله أهو يظن أن العام المقبل سيكون طيبًا أم سيئًا، ويشتري أو يبيع ثلاثة أسهم، خلال الأسبوعين التاليين، وفقًا لاتجاه الإجابة.

وكان هناك ذلك الرجل العسكري المدعو «ميجور أوبالي» الذي لا يستطيع الامتناع عن الكلام، حتى ولو تأييدًا لإعادة انتخاب مراجع الحسابات، والذي يسبب أحيانًا اضطرابًا جديًّا بانتزاعه أسماء المرشحين ـ أو على الأصح اقتراحات الترشيح ـ من أيدي الأشخاص الذين تملقهم الناخبون بائتمانهم على قصاصات الأوراق الصغيرة التي وضعوها في عهدتهم.

هؤلاء كانوا جملة أعضاء المجلس، مع أربعة أو خمسة من حملة الأسهم الأقوياء الصامتين الذين يستطيع «سومز» أن يتعاطف معهم ـ رجال أعمال يميلون إلى رقابة شؤونهم بأنفسهم دون أن يحدثوا ضوضاء ـ رجال طيبون، موثوق بهم، يحضرون إلى المدينة كل يوم، ويعودون في المساء إلى زوجات طيبات موثوق بهن.

زوجات طيبات موثوق بهن! كان في هذا الخاطر شيء أثار في «سومز» ثانية ذلك القلق الذي لا يُسمى.

ماذا ينبغي أن يقول لعمه؟ وماذا ينبغي أن يرد به على ذلك الخطاب؟

... «إذا كان لدى أي مساهم سؤال يريد طرحه، فسيسرني أن أجيب عنه». وتعالت طرقة خفيفة. وأسقط «جوليون الكبير» من يده التقرير وكشف الحساب. وانحنى في وقفته على هيئة قوقعة السلحفاة، ممسكًا منظاره بين إبهامه وسبابته.

وبدا على وجه «سومز» شبح ابتسامة، من الأفضل أن يسرعوا في طرح أسئلتهم! إنه يعلم تمامًا طريقة عمه، (وهي الطريقة المثلى) إذ يقول من فوره: «إني إذن أقترح الأخذ بالتقرير وكشف الحساب»، فهو لا يدعهم يتمادون في القول أبدًا، فإن حملة الأسهم مشهورون بإضاعة الوقت!

ووقف رجل طويل، أبيض اللحية، يعرو جسمه النحول، ووجهه عدم الرضا.

ـ أعتقد أني ألتزم النظام، أيها السيد الرئيس، بطرح سؤال عن مبلغ الآلاف

الخمسة من الجنيهات المرصودة في كشف الحساب لأرملة وأسرة (ونظر حوله في شراسة) وكيل أعمالنا، المغفور له الذي اقترف... إرر... بسوء تدبير ـ أقول بسوء تدبير ـ الانتحار، في الوقت الذي كانت خدماته ذات قيمة قصوى للشركة. وإنك قررت أن الاتفاق الذي وضع له حدًّا بما ارتكبت يداه، لسوء الحظ، كانت مدته خمسة أعوام لم ينقص منها إلا عام واحد، إني...

وصدرت من «جوليون الكبير» إشارة تدل على نفاد الصبر.

ـ أعتقد أني ألتزم النظام، أيها السيد الرئيس، أنا أسأل هل هذا المبلغ المدفوع، أو الذي يقترح المجلس دفعه للـ... إرر... للمتوفى، هو نظير الخدمات التي كان يمكن أن يؤديها للشركة إذا كان لم يقدم على الانتحار؟

ـ إن المقصود بدفعه هو الإقرار بالخدمات السابقة التي نعلم جميعًا ـ وأنت تعلم كأي واحد منا ـ أنها كانت ذات قيمة حيوية.

ـ كل ما أستطيع قوله إذن، يا سيدي، هو أن المبلغ كبير جدًّا ما دام يُدفع عن خدمات سابقة.

وجلس المساهم وانتظر «جوليون الكبير» لحظة وقال:

ـ أقترح الآن أن التقرير والـ...

ونهض المساهم ثانية:

ـ أيمكنني أن أسأل هل يدرك المجلس أنه لا يملك المال الذي... وإني لا أتردد في القول إن ذلك المال لو كان ماله...

ووقف مساهم آخر، ذو وجه مستدير كلبي، عرف فيه «سومز» أخا زوجة وكيل الأعمال المتوفى، وقال في حماسة:

ـ في رأيي، يا سيدي، أن المبلغ غير كافٍ.

وعندئذ نهض المبجل السيد «بومز»، واقفًا على قدميه، وقال:

ـ إذا أمكن أن أجترئ على التعبير عن نفسي، فعليَّ أن أقول إن واقعة

انتحار... إرر... المتوفى كان لا بد أن يثقل وقعها جدًّا على رئيس مجلسنا المحترم، يثقل وقعها جدًّا. ولست أشك في أن وقعها ثقل عليه فعلًا، وإني أقول ذلك نيابة عن نفسي، وأظن أني أقوله نيابة عن الموجودين جميعًا (اسمعوا، اسمعوا)، إنه يتمتع بثقتنا تمتعًا كبيرًا. ونحن نود جميعًا، على ما أرجو، أن نكون كرماء، ولكني أشعر بثقة من أنه (ونظر بقسوة إلى نسيب وكيل الأعمال المتوفى) سيسجل، على نحو ما، بتصريح ما مكتوب ـ والأفضل أن يكون بتخفيض المبلغ ـ سيسجل استنكارنا الشديد لتحتم ارتحال حياة مبشرة جدًّا، قيمة جدًّا، بطريقة مخالفة للتقوى، من نطاق تتطلب مصلحتها ومصلحتنا معًا ـ وإذا استطعت، قلت إن مصلحتنا تتطلب حتمًا بقاءها داخل ذلك النطاق ـ لا ينبغي لنا، نعم، لا يمكن لنا، أن نعاضد مثل هذا الإهمال البالغ لكل واجب، سواء في ذلك الإنساني منه والقدسي.

وعاد السيد المبجل إلى مقعده. ونهض نسيب وكيل الأعمال المتوفى، وقال:

ـ أنا مصمم على ما قلت، فالمبلغ غير كافٍ!

وتدخل المساهم الأول قائلًا:

ـ إني أتحدى من يقول بشرعية دفع المبلغ، ففي رأيي أن دفعه غير قانوني. ومحامي الشركة موجود. وفي يقيني أن لي حق سؤاله في الأمر.

ودارت العيون كلها الآن صوب «سومز». لقد حدث أمر يحتاج إلى رأيه! ووقف مطبق الفم، بارد الأوصال. بيد أن أعصابه كانت ترتجف داخله، وأفلت انتباهه آخر الأمر من تأمل ذلك الغيام الذي انتشر في أفق ذهنه. وقال في صوت منخفض دقيق:

ـ الأمر ليس بينًا على أي حال. وبما أنه لا يتوقع البتة أن يتوفر في المستقبل مقابل للمبلغ المدفوع تظفر به الشركة، فمن المشكوك فيه أن يكون الدفع قانونيًّا على وجه الدقة. وأرى أخذ رأي المحكمة فيما إذا كان ذلك مرغوبًا فيه.

وقطب نسيب وكيل الأعمال. وقال في لهجة ذات دلالة:

ـ نحن لا نشك أن أخذ رأي المحكمة أمر ممكن. وهل أستطيع أن أسأل عن اسم السيد الذي أدلى إلينا بهذا الرأي الغريب؟ أهو السيد «سومز فورسايت»؟ إنه هو فعلًا!

ونقل بصره من «سومز» إلى «جوليون الكبير» بطريقة صريحة.

وصبغ الاحمرار خدي «سومز» الشاحبين، ولكن عجرفته لم تتزعزع. وحدق «جوليون الكبير» في المتكلم، وقال:

ـ إذا لم يكن لدى نسيب وكيل الأعمال شيء آخر يقوله، فإني أقترح أن التقرير وكشف الحساب...

بيد أنه حدث أن وقف في هذه اللحظة واحد من أولئك المساهمين الخمسة الصامتين الثابتين، وهو الذي سبق أن أثار ميل «سومز» إليه، وقال:

ـ إني أستعيذ من ذلك الاقتراح كلية. فالمتوقع منا أن نحسن إلى زوجة ذلك الرجل وأولاده الذين يعتمدون عليه، كما قلتم لنا. ولعلهم كذلك؛ بيد أنه لا يعنيني أهم كذلك أم لا. فأنا أعترض على المسألة كلها من حيث المبدأ. وقد حان الوقت للوقوف في وجه هذه الإنسانية العاطفية، فإنها قضت على البلاد. وأنا أعترض على إعطاء مالي لأولئك الناس الذين لا أعرف عنهم شيئًا، ولا يقومون بأي عمل يبيح لهم كسبًا. إني أعترض على الأمر برمته، فهو ليس بتصرف عملي. وأطلب الآن سحب التقرير وكشف الحساب وتصحيحه بسحب الهبة كلية.

وظل «جوليون الكبير» واقفًا في الوقت الذي ألقى فيه الرجل القوي الصموت كلمته. وأثارت تلك الكلمة صدى في جميع الأفئدة، معبرة، كما هي الحال، عن تبجيل الرجال الأقوياء، وعن الحركة المقاومة للمروءة والكرم، وهي الحركة التي بدأت تحدث في ذلك الوقت فعلًا بين أعضاء المجتمع الأرجح عقلًا.

وقد حركت عبارة «ليس بتصرف عملي» حتى أعضاء المجلس نفسه،

وشعر كل فرد على حدة بأنه ليس كذلك فعلًا. ولكنهم كانوا يعرفون أيضًا جبلة الرئيس النازعة إلى السيطرة، ويعرفون إصراره. ولا بد أنه يشعر هو أيضًا، في أعماقه، بأن ذلك التصرف ليس عمليًّا، ولكنه ملتزم بالاقتراح المقدم منه هو. أيتراجع فيه؟ الرأي أن ذلك بعيد الاحتمال.

وانتظر الجميع في اهتمام. ورفع «جوليون الكبير» يده. وارتجف منظاره الأسود الإطار، الممسوك بين إصبعه وإبهامه ارتجف ارتجافًا خفيفًا يوحي بالوعيد.

وخاطب المساهم القوي الصموت:

ـ أبعد علمنا، وعلمك أنت، بما بذل وكيل أعمالنا ـ المغفور له ـ من جهود عند انفجار المنجم، تريد مني حقًّا يا سيدي أن أدخل التعديل؟

ـ نعم أريد ذلك.

وأدخل «جوليون الكبير» التعديل. وسأل وهو ينظر حوله في هدوء:

ـ أهناك أحد يؤيد هذا؟

وكان عندئذ أن شعر «سومز»، وهو ينظر إلى عمه، بقوة الإرادة الكامنة في هذا الرجل الهرم. ولم يتحرك أحد. وقال «جوليون الكبير» وهو يصوب عينيه إلى الرجل القوي الصموت:

ـ والآن أطلب «قبول التقرير، وكشف الحساب عن عام ١٨٨٧، والموافقة عليهما». أتؤيدون ذلك؟ الموافقون على ذلك يبدون إشارة الموافقة بنفس الطريقة المعتادة. والمعارضون مَن لا يبدون شيئًا. تمت الموافقة لننتقل أيها السادة إلى بند الأعمال التالي...

وابتسم «سومز». كان للعم «جوليون» طريقته حقًّا مع ذلك الرجل!

ولكن انتباهه ارتد الآن إلى «بوزيني». عجبًا، كيف يطوف هذا الفتى بخاطره حتى في ساعات العمل.

إنها زيارة «آيرين» للمنزل، ولكن ليس في ذلك من مأخذ إلا أنها كان يمكنها أن تخبره بالأمر. بيد أنها، حتى في هذا، لم تكن تخبره بشيء قط. فهي

تزداد كل يوم صمتًا وسرعة تأثر. وتمنى على الله أن ينتهي بناء المنزل، ويقيما فيه بعيدًا عن لندن، فالمدينة لا تلائمها. إن أعصابها ليست قوية بالقدر الذي يكفي احتمالها. وهذا الهراء الخاص بـ«الغرفة المنفصلة» نبت من جديد.

وأخذ الاجتماع ينفض الآن. وأمسك المبجل السيد «بومز» بسترة «هيمنجز» وهما تحت صورة المنجم التالف.

ولدى التقاء السيد «بوكر» الصغير الحجم، بـ«سكربسول» الهرم، في أثناء الانصراف، تشابك شعر حاجبيه المتنفشين في ابتسامات غاضبة، كان كل منهما يكره الآخر كراهيته للسم، فقد قام بينهما أمر ما، متعلق بعقد حول صفقة قطران حصل عليه من الشركة لحساب ابن أخ له دون علم الآخر.

وعلم «سومز» بذلك من «هيمنجز» الذي يميل إلى القيل والقال، لا سيما فيما يتعلق بمديريه، ما عدا «جوليون الكبير» الذي كان يخشاه فعلًا.

وانتظر «سومز» فرصته. وكان آخر حملة الأسهم يتوارى خلف الباب عندما اقترب من عمه وهو يضع قبعته على رأسه.

ـ أأستطيع أن أتحدث إليك لحظة يا عمي «جوليون»؟

وكان الذي يتوقع «سومز» أن يستخلصه من تلك المحادثة، غير محقق.

وما عدا تلك الخشية، الغامضة نوعًا، التي يشعر بها أفراد أسرة «فورسايت» حيال «جوليون الكبير»، نظرًا إلى تغيره الفلسفي. أو لعله نظرًا إلى ذقنه ـ كما يمكن أن يقول «هيمنجز» ـ فإن هناك، بل إن هناك دائمًا، ذلك الخلاف المكير بين الرجل الأصغر والرجل الأكبر. كان يكمن طي مسلكهما الجاف في تحية كل منهما للآخر، وفي التلميحات المطلقة التي يغمز بها كل منهما الآخر. بل لعله نشأ مما يتصوره «جوليون الكبير» عن الإصرار الهادئ الذي يتصف به الشاب (ومن الطبيعي أن يدعوه «جوليون»، على الأرجح «عنادًا») أو نشأ من شك خفي في تمكنه من أن يسلك معه على طريقته.

وكان كلا هذين «الفورسايتيين» المختلفين من نواحٍ كثيرة اختلاف

القطبين، يملك بأساليبه الخاصة المختلفة ـ زيادة عما يملكه سائر أفراد الأسرة ـ تلك الصفة الضرورية، صفة الفراسة المصرة الحذرة النافذة إلى «الأعمال» التي هي أعلى الدلالات على طبقته الكبيرة. وكان كل منهما ـ لو واتاه قليل من الحظ والفرصة المواتية ـ جديرًا بأن يضطلع بمهنة رفيعة. كان يمكن أن يصبح كل منهما رجلًا ماليًّا ناجحًا، أو مقاولًا عظيمًا، أو سياسيًّا: إلا إن «جوليون الكبير»، في حالات من صفاء مزاجه ـ وهو متأثر بتدخين سيجار، أو بطبيعته ـ يكون كفؤًا، لا لإمكان ازدراء منصبه السامي، ولكن للتشكك فيه بالتأكيد. في حين أن «سومز» الذي لا يدخن السيجار، لن يكون كذلك.

ثم هناك أيضًا ما يلازم ذهن «جوليون الكبير» من تنغيص دائم بسبب أن ابن «جيمس» ـ «جيمس» الذي رآه دائمًا ضئيل القدر جدًّا ـ يواصل التقدم في سبيل النجاح، في حين أن ابنه هو...!

وأخيرًا، وليس آخرًا ـ ذلك أنه لم يكن أبعد عن محيط إشعاع القيل والقال الدائر في الأسرة من أي فرد آخر من أفرادها ـ وصلت إلى سمعه الآن الشائعة المشؤومة عن «بوزيني»، تلك الشائعة غير المحددة، ولكنها مع ذلك ليست أقل إزعاجًا. وجرح ذلك كبرياءه جرحًا عميقًا.

ولم ينصب حنقه بالطبع على «آيرين»، ولكن على «سومز». ففكرة كون «آيرين»، زوجة ابن أخيه (لماذا لم يولها هذا الفتى اهتمامًا أكبر، أوه، يا للظلم الغريب! وكأنما كان «سومز» يستطيع أن يوليها عناية أكبر!). فكرة كونها تستميل حبيب «جون»، مهينة له إلى حد لا يُطاق. وهو لم يخف الخطر، إذ رآه، وراء مجرد الانفعال العصبي، كما فعل «جيمس» ولكنه أقر، برزانته الناشئة من سعة أفقه، بأن الأمر ليس بمستبعد، فهناك شيء حول «آيرين» جذاب للغاية!

وقد خالجه هاجس عن الموضوع الذي ينوي «سومز» الإفضاء به إليه، وذلك في أثناء مغادرتهما غرفة اجتماع المجلس معًا، وخروجهما إلى ضوضاء «تشيبسايد» وإسراع المارين. وسارا معًا مدة طويلة دون أن يتبادلا الحديث.

سار «سومز» في هيئته المتربصة، وخطوته المتبخترة. وسار «جوليون الكبير» منتصب القامة، مستعملًا مظلته في فتور استعمال عصا المشي.

ولم يلبثا أن تحول سكونهما إلى سكون نسبي، ذلك أن ذهاب «جوليون الكبير» إلى اللافتة الثانية سيؤدي به إلى اتجاه شارع «مورجيت».

ثم بدأ «سومز» الكلام دون أن يرفع عينيه:

ـ تلقيت هذه الرسالة من «بوزيني». انظر ماذا يقول، ظننت أنه ينبغي أن أطلعك على الأمر. إني أنفقت على هذا المنزل أكثر مما كنت أنوي إنفاقه، وأريد أن يصبح الموقف واضحًا.

وجرى «جوليون الكبير» بعينيه في الرسالة قسرًا عنه، وقال:

ـ إن ما يقوله واضح وضوحًا كافيًا.

وأجاب «سومز»:

ـ إنه يتحدث عن «حرية التصرف».

ونظر إليه «جوليون الكبير».

وانطلق من جوانحه ما كبحه مدة طويلة من هياج وعداء لذلك الشاب الذي أخذت أعماله تطغى على أعمال عمه:

ـ حسنًا. إذا كنت لا تثق فيه فلماذا تستخدمه؟

واسترق «سومز» إليه النظر بطرف عينه، وقال:

ـ لقد فات أوان التحدث في ذلك. أنا لا أريد إلا أن يكون مفهومًا تمامًا أني إذا أجزت حرية التصرف فلا ينبغي أن يحمله ذلك على خداعي. وقد خطر لي أنك إذا قمت أنت بالتحدث إليه، فسيكون لذلك وزن أكبر.

وقال «جوليون الكبير» في خشونة:

ـ لا، لن يكون لي شأن بهذا!

وكانت كلمات كل من العم وابن أخيه تشعر السامع بمعانٍ كامنة وراءها، غير منطوقة، ذات أهمية أكبر من أهميتها بكثير. وكانت النظرات التي تبادلاها أشبه بكشف لذلك الشعور. وقال «سومز»:

ـ حسنًا. ظننت أنه يجدر إخبارك بالأمر من أجل «جون»؛ هذا هو كل ما هنالك، وظننت من الأجدر أن تعلم أني لن أحتمل أي هراء!

وأوقفه «جوليون الكبير» عند حده قائلًا:

ـ وأي شأن لي بهذا؟

وقال «سومز»:

ـ أوه؟ لست أدري.

وأزعجته تلك النظرة الحادة فلم يستطع أن يزيد. بيد أنه أضاف قوله، وقد تمالك جأشه:

ـ لا تقل بعد ذلك إني لم أطلعك على الأمر.

وقال «جوليون الكبير»:

ـ تطلعني على الأمر! إني لا أفهم ما تعنيه. إنك تزعجني بالتحدث عن أمر من هذا القبيل. ولست أرغب في سماع شيء عن شؤونك، وعليك أن تعالجها بنفسك!

وقال «سومز» في سكون:

ـ حسنًا جدًّا، سأفعل ذلك!

وقال «جوليون الكبير»:

ـ أسعدت صباحًا، إذن.

وافترقا.

وعاد «سومز» أدراجه. ودخل مطعمًا مشهورًا فطلب وجبة من «السلمون» المدخن، وكأسًا من نبيذ «شابليس». وهو نادرًا ما يكثر من الطعام ظهرًا، وعلى الأغلب يأكل واقفًا، إذ يجد هذا الوضع ملائمًا لكبده السليمة للغاية، ولكنه يود تحميلها همومه قاطبة.

وذهب إلى مكتبه على مهل بعد انتهائه من تناول طعامه، وسار مطأطئ الرأس دون أن ينتبه إلى آلاف المارة المتزاحمين الذين لم ينتبهوا إليه بدورهم.

وحمل بريد المساء إلى «بوزيني» الرد التالي:

«فورسايت، باستارد وفورسايت»

وكلاء أعمال قانونية

٩٢٠٠١، «برانش لين»، «بولتري»، ا. س.

١٧ مايو سنة ١٨٨٧

عزيزي «بوزيني»:

تسلمت رسالتك التي أدهشتني عباراتها بعض الدهشة. وقد كنت أظن أنك كنت، وظللت طوال الوقت، «مطلق التصرف»، فأنا لا أتذكر أنك وافقت على أي اقتراحات دفعني سوء الحظ إلى اقتراحها. وإني إذ أمنحك «حرية التصرف»، بناء على طلبك، أود أن تعلم، دون لبس، أن جملة النفقات التي يستهلكها المنزل حتى يتم تسليمه إليَّ، كامل الزخرفة، بما في ذلك أجرك، ينبغي ألا تتجاوز اثني عشر ألف جنيه. وهذا سيتيح لك الإنفاق في حدود واسعة. وهي كما تعلم أوسع بكثير مما فكرت فيه أصلًا.

المخلص

«سومز فورسايت»

وفي اليوم التالي وصلت إليه رسالة من «بوزيني»:

«فيليب بينز بوزيني»

مهندس معماري

٣٠٩ د، شارع «سلون»، س. و.

١٨ مايو

عزيزي «فورسايت»:

أخشى أن تكون مخطئًا إذا ظننت أني أستطيع تقييد نفسي بحساب الجنيه في مسألة دقيقة كزخرفة منزل. وأرى أنك ضقت بالاتفاق، وعلى ذلك فالأفضل لي أن أستقيل.

المخلص

«فيليب بينز بوزيني»

وفكر «سومز» تفكيرًا طويلًا مؤلمًا في الرد، وفي ساعة متأخرة من الليل صاغ الرسالة الآتية في غرفة الطعام، بعد أن أوت «آيرين» إلى فراشها:

٦٢ ميدان «مونبيلييه»، س. و.

١٩ مايو سنة ١٨٨٧

عزيزي «بوزيني»،

أظن أنه في مصلحتنا نحن الاثنين أن يكون من غير المرغوب فيه أبدًا أن تترك الأمور حتى تصل إلى هذا الحد. إني لم أقصد أن أقول قط إنك إذا تجاوزت في الإنفاق مبلغ عشرين جنيهًا، أو حتى مبلغ خمسين جنيهًا، فسيقع بيننا خلاف على ذلك. وما دام الأمر كذلك فأرجو أن تعيد النظر في إجابتك السابقة. إن لك «حرية التصرف» في الحدود الواردة في رسالتي، وآمل أن تعمل على إتمام الزخرفة. وهذه مسألة أعرف أن من الصعب ضبط نفقاتها تمامًا.

المخلص

«سومز فورسايت»

وكان رد «بوزيني» الذي وصل خلال اليوم التالي، هو:

٢٠ مايو

عزيزي «فورسايت»،

حسنًا جدًّا.

«ف. بوزيني»

الفصل الخامس عشر

«جوليون الكبير» في حديقة الحيوان

قام «جوليون الكبير» بتصريف أمور الاجتماع الثاني ـ وهو اجتماع موجز للمجلس ـ وكان مستبدًّا بالأمر إلى حد أن زملاءه المديرين أخذوا يتآمرون على التسلط المتزايد لـ«فورسايت الكبير» الذي أصبحوا بعيدين عن احتماله مدة أطول كما يقولون.

وخرج واستقل قطار الأنفاق إلى محطة «بورتلاند رود» حيث ركب عربة ذهب بها إلى حديقة الحيوان.

كان هناك على موعد من تلك المواعيد التي أخذ تكرارها يتزايد في الآونة الأخيرة، والتي كان يسوقه إليها ازدياد قلقه على «جون»، «وما طرأ عليها من تغير»، بحسب تعبيره.

كانت تتوارى عن الأنظار، وتزداد نحولًا؛ وإذا حادثها لا يظفر بجواب، أو يتلقى جوابًا يصدع رأسه، أو تبدو الفتاة كأنها ستنفجر باكية. لقد تغيرت إلى أقصى حد ممكن، وذلك كله بسبب «بوزيني». أما عن إفضائها إليه بشيء فلم يكن ثمة أثر من ذلك!

كان يقضي نوبات طويلة يفكر وصحيفته اليومية منشورة أمامه، وبين شفتيه سيجار منطفئ. لقد كانت خير رفيق له منذ بلغ عمرها ثلاث سنوات! وكان يحبها حبًّا جمًّا!

كانت هناك قوى، لا علاقة لها بالأسرة أو الطبقة أو العادة، تقلل من احتراسه. وثمة أحداث لا سيطرة له عليها تلقي ظلالها حول رأسه. وإذا هياج رجل اعتاد أن ينفذ إرادته يثور على ما لا يعرف كنهه.

ووصل إلى باب حديقة الحيوان وهو يتململ من بطء سير العربة. ولكنه بفعل غريزته اللامعة التي تمكنه من انتهاز الناحية الطيبة من كل لحظة استطاع وهو يسير إلى مكان الموعد المضروب أن ينسى غيظه.

ومن الشرفة الحجرية المقامة فوق مأوى الدببة نزل ابنه وحفيداه عندما رأوا «جوليون الكبير» مقبلًا، وقادوه إلى قفص الأسود. وسنده حفيداه من جانبيه، حيث أمسك كل منهما بإحدى يديه، في حين كان «جولي» العنيد كأبيه، يحمل مظلة جده على نحو يصيد بقوس مقبضها أرجل الناس.

وتبعهم «جوليون الصغير».

وكان مما يسر أن يرى أباه مع ولديه، ولكنه كان سرورًا من ذلك النوع الذي يحجب الدموع وراءه. والعين يمكن أن تقع في أي ساعة من ساعات النهار على رجل هرم يمشي مع طفلين صغيرين، ولكن مشهد «جوليون الكبير» وهو مع «جولي» و«هولي»، بدا لـ«جوليون الصغير» كلمحة من مشهد خاص لأشياء تكمن في أعماق القلوب. واستسلام ذلك الشخص الهرم المنتصب القامة، استسلامه الكامل لهذين الطفلين الممسكين بكلتا يديه، كان ذا رقة شديدة التأثير. ولما كان من عادة «جوليون الصغير» أن تنعكس الأمور على نفسه فقد دعا الله في صوت رقيق هامس. لقد أثر فيه المشهد تأثيرًا لا يليق بـ«الفورسايتي» الذي لا يكون شيئًا مذكورًا إذا هو لم يكن قادرًا على كتمان عواطفه.

وهكذا وصلوا إلى قفص الأسود.

وكان هناك حفل نهاري في «حديقة النباتات». وأتى هذا الحفل بعدد كبير من «الفورسيين» ـ أي القوم المتأنقين من مالكي العربات ـ أتت بهم إلى حديقة الحيوان حتى يصيبوا متعة أكبر، نظير ما أنفقوا من مال، إذا كان ذلك ممكنًا قبل عودتهم إلى «روتلاند جيت» أو «بريانستون سكوير».

كان كل منهم يقول للآخر: «لنذهب إلى حديقة الحيوان، فسيُتاح لنا اللهو هناك». وكان رسم دخول الحديقة «شلنًا» في ذلك اليوم، ولن تحضر كل تلك الحثالة من العامة.

وتجمعوا في صفوف أمام خط الأقفاص الطويل، وراقبوا تلك الوحوش الضارية، النحاسية اللون، التي تنتظر وراء القضبان تلك المتعة التي لا تظفر بغيرها كل أربع وعشرين ساعة. وكلما كان الوحش أشد جوعًا، كان أشد جاذبية. ولم يعرف «جوليون الصغير» أتلك الجاذبية ترجع إلى أن المشاهد يحسد الوحش على شهيته، أم ترجع إلى أمر أكثر إنسانية من ذلك، وهو أن الوحش سيشبع جوعه عما قريب. وتطرقت الملاحظات إلى أذنيه على التوالي: «هذا النمر وحش كريه المنظر»، «أوه، ما أحلاه! انظر إلى فمه الصغير!»، «نعم، إنه لطيف نوعًا! لا تقتربي منه كثيرًا يا أمي».

وكثيرًا ما وضع متفرج أو آخر يده على جيوبه الخلفية، وربتها ربتًا خفيفًا، ودار بنظره فيما حوله، وكأنه يتوقع من «جوليون الصغير»، أو من بعض الذين يظهرون عدم الاهتمام، أن يريحوه مما تحتويه هذه الجيوب.

وقال رجل بدين يرتدي صدارًا أبيض، مخرجًا القول من بين أسنانه في بطء:

ـ إنه نهم ليس إلا، فهذه الوحوش لا يمكن أن تكون جائعة، وكيف لا، وهي لا تريض.

ولدى نطق هذه الكلمات انتزع أحد النمور قطعة من كبد دامية، وضحك الرجل البدين. ولامته زوجته، وهي سيدة ترتدي سترة باريسية الطراز، وتستعمل مشابك ذهبية:

ـ كيف تستطيع يا هاري الضحك؟ إنه لمنظر بشع!

وقطب «جوليون الصغير».

إن ظروف حياته جعلته عرضة لنوبات من الاستخفاف، برغم أنه كف عن النظر إلى تلك الظروف من وجهة نظر شخصية بحتة، والطبقة

التي كان ينتمي إليها ـ طبقة أصحاب العربات ـ هي التي تثير سخريته على الأخص.

إن حبس أسد أو نمر في قفص بربرية شنيعة دون شك، ولكن ليس هناك رجل مثقف يقر بذلك.

وفكرة أن حبس الوحوش المفترسة عمل بربري لم تكن، على الأرجح، تخطر مثلًا حتى ببال أبيه؛ فهو ينتمي إلى المدرسة القديمة التي ترى من فورها أن حبس القردة والنمور استئناس لها وتهذيب. وهذه المدرسة تأخذ، دون شك، بوجهة النظر التي تقول إنها قد تحمل تلك الحيوانات على ألا تموت وراء قضبان أقفاصها تعاسة واكتئابًا ـ تلك الميتة لا تُعد غير معقولة إلى حد كبير ـ وتدفع المجتمع بذلك إلى دفع نفقة الإتيان بغيرها. إن متعة رؤية هذه الحيوانات الجميلة واقعة في الأسر تفوق كثيرًا في نظره، كما تفوق في نظر كل «الفورسايتيين»، عدم ملاءمة الإقدام على حبس الوحوش التي أقامها الخالق في بيئة مكفولة الحرية بشكل مسرف! ومن مصلحة الحيوانات نقلها على الفور من موطن الأخطار التي لا تُعد، أخطار الهواء الطلق والتريض، إلى حيث تقوم أعضاؤها بوظائفها وهي في عزلتها المأمونة داخل أقفاصها الخاصة. ومن المشكوك فيه حقًّا أن تكون الوحوش قد خُلقت لسبب غير حبسها في أقفاص!

ولكنه لمَّا كانت فطرة «جوليون الصغير» تنطوي على عناصر من عدم الانحياز فقد خطر له أن الذي يصم مجرد قصور الخيال بالبربرية يقع في الخطأ؛ ذلك أن أحدًا ممن يعتنقون تلك الآراء لم يوضع في موضع شبيه بأقفاص الحيوانات التي يحبسها فيها، ولهذا لا يمكن أن ينتظر منه التغلغل إلى مشاعرها.

ولم يجد «جوليون الكبير» فرصة لمحادثة ابنه في الأمر القريب إلى قلبه إلا عندما هموا بمغادرة الحديقة ـ وكان «جولي» وأخته «هولي» في نشوة من السعادة ـ وقال لابنه:

ـ لست أدري كيف أفسر الأمر؛ ولو أنها استمرت على تلك الحال فلن

أستطيع التنبؤ بما سيحدث. لقد أردت منها أن تعرض نفسها على طبيب ولكنها رفضت. هي لا تشبهني البتة، وإنما هي كأمها تمامًا، عنيدة كالبغل! وإذا أبت أن تفعل أمرًا لم تفعله، وينتهي الإشكال!

وابتسم «جوليون الصغير» وسرحت عينه في ذقن أبيه.

وقال لنفسه: «إنها شبيهتك تمامًا»، ولكنه لم ينبس بكلمة.

وواصل «جوليون الكبير» القول:

ـ ثم إن هناك «بوزيني». إني لأود أن ألكم رأس الفتى، ولكني لا أستطيع على ما أظن...

وأضاف متشككًا:

ـ ولكني لا أرى سببًا يمنعك من ذلك.

ـ ماذا فعل؟ من الأفضل كثيرًا وضع حد للأمر إذا هما لم يستطيعا الاتفاق!

ونظر «جوليون الكبير» إلى ابنه، وشعر بالريبة إذ وصلا الآن فعلًا إلى مناقشة موضوع يتصل بعلاقات «الجنس». فمن المؤكد أن ابنه يستمسك برأي منحل أو بآخر. وقال:

ـ حسنًا. أنا لا أدري ما الذي تراه. ولعلك تعطف على تصرفه، وإني لن أدهش لذلك؛ ولكني أحسب أن مسلكه سيئ للغاية، وإذا صادفته في طريقي فسأصارحه بذلك.

وأسدل الستار على الموضوع.

إن من المستحيل أن يتناقش مع ابنه في الطبيعة الحقيقية لعيب «بوزيني»، وفي معنى ذلك العيب. ألم يرتكب ابنه نفس الشيء منذ خمسة عشر عامًا؟ ـ إن لم يكن ما ارتكبه ابنه أشد سوءًا ـ ويبدو أن عواقب مثل هذه الفعلة الطائشة لا حد لها!

ولزم «جوليون الصغير» الصمت أيضًا، فقد تغلغل إلى فكر أبيه؛ ذلك أنه أصبح مرهف الحدس والدهاء معًا بعد خلعه عن العرش السامي، عرش رؤية الأشياء واضحة غير معقدة.

والموقف الذي اتخذه منذ خمسة عشر عامًا حيال مسائل «الجنس» كان يختلف اختلافًا كبيرًا عن موقف أبيه. وليس هناك جسر يصل بين الهوتين. قال ببرود:

ـ أحسبه تعلق بحب امرأة أخرى؟

ورشقه «جوليون الكبير» بنظرة ارتياب، وقال:

ـ لست أدري. هم يقولون ذلك!

وأبدى «جوليون الصغير» هذه الملاحظة على غير انتظار:

ـ من الأرجح إذن أن يكون هذا صحيحًا. وأحسب أنهم قالوا لك من تكون تلك المرأة؟

وقال «جوليون الكبير»:

ـ نعم، زوجة «سومز».

ولم تصدر منه شهقة، فإن ظروف حياته الخاصة جعلته غير قادر على إطلاق شهقة بمناسبة أمر كهذا. ولكنه نظر إلى أبيه في حين حوَّم شبح ابتسامة على وجهه.

وإذا كان «جوليون الكبير» قد رأى ذلك، فإنه لم يعره اهتمامًا. وغمغم قائلًا:

ـ كانت هي و«جون» صديقتين حميمتين.

وقال «جوليون الصغير» بصوت منخفض:

ـ مسكينة «جون» الصغيرة!

وكان يرى ابنته على أنها لا تزال طفلة في الثالثة.

وتوقف «جوليون الكبير» فجأة، وقال:

ـ أنا لا أصدق كلمة واحدة عن هذا الأمر؛ فهو حكاية من حكايات امرأة عجوز. جئني بعربة يا «جو»، فأنا أموت إعياء!

ووقفا في أحد الأركان انتظارًا لعربة خالية مقبلة، وفي ذلك الوقت كانت العربات تمر في إثر العربات، حاملة من حديقة الحيوان مختلف الأصناف

من «الفورسايتيين». وكانت عدد الخيل، وحلل السائقين، وأغطية الجياد الساطعة، تتلألأ تحت أشعة شمس مايو. وبدت كل عربة من نوع «إكويبدج»، و«لانداو»، و«سوشيابل»، و«باريوش»، و«فكتوريا»، و«برويم» وهي تكاد تنطلق في زهو من قيد عجلاتها.

«وأنت تعرفني وتعرف جيادي ورجالي»، إن عدة العربة وعديدها كلفتني قدرًا كبيرًا من المال، ولكنها تستحق كل مليم دفع فيها، انظر الآن إلى صاحبها والآنسات والركب، الكل مستريحون في طمأنينة، آه! هذه هي المتعة الحقيقية!

هذه، كما يعلم الجميع، هي الرفقة الخليقة بـ«الفورسايتي» المتنزه في عربة.

ومن بين هذه العربات كانت هناك «باريوش» تقبل في سرعة تفوق سرعة غيرها، ويجرها جوادان كميتان أصيلان. وترجرجت فوق زنبركها العالي، وتأرجح الأشخاص الأربعة الذين يملأونها وكأنهم في أرجوحة.

ولفتت هذه العربة نظر «جوليون الصغير». وعرف فجأة عمه «جيمس»، جالسًا في المقعد الخلفي، ولم يكن ليخطئ معرفته برغم ازدياد شاربه بياضًا. وجلست تجاهه، في حمى الظل، كل من «راشيل فورسايت»، وأختها «وينيفريد دارتي» الأكبر سنًّا، وإن كانت متزوجة. جلستا في هندام يقصر عنه النقد، ورفعتا رأسيهما في زهو كطائرين كانتا قد رأتاهما في حديقة الحيوان؛ في حين اتكأ «دارتي» إلى جانب «جيمس» في سترة جديدة من نوع «الفروك»، مشدودة العرى مستقيمة، يبرز من طرف كل من كميها عند المعصمين منديل تيلي متقن التلوين.

واتصفت هذه العربة بلألاء، يكون رائعًا لو كان أخف قليلًا، وبلمسات إضافية من أحسن أنواع الطلاء والدهان. وبدا أن ذلك ميزها عن سائر العربات. وكأنما حدث، بشيء من الإسراف السعيد ـ مثل الإسراف الذي يميز «العمل الفني الحقيقي» عن «الصورة العادية» ـ حدث أن عُدت هذه العربة النموذجية، عُدت العرش الحقيقي للمملكة «الفورسايتية».

ولم يرهم «جوليون الكبير» وهم يمرون إذ كان يدلل «هولي» المسكينة وقد نال منها التعب. ولكن مَن في العربة رأوا الجماعة الصغيرة. ومال رأسا السيدتين فجأة، واضطربت المظلات في حركة تشنجية لمداراة أصحابها. وبرز وجه «جيمس» في سذاجة، مشبهًا رأس طائر طويل، وانفرج فمه في بطء. وصغرت دائرة المظلات، الشبيهة بالدروع، شيئًا فشيئًا، ثم توارت.

وأدرك «جوليون الصغير» أنهم عرفوه، بل عرفته حتى «وينيفريد» التي لم تكن تتجاوز الخامسة عشرة عندما أضاع حقه في أن يعد «فورسايتيًّا».

لم يكن ثمة تغير كبير طرأ عليهم! وتذكر على وجه الدقة هيئتهم التي تبدلت خلال ذلك الزمن المنصرم ـ فالخيل والرجل والعربة، كل ذلك مختلف الآن تمامًا، ما في ذلك شك ـ ولكن طابع ما قبل خمس عشرة سنة ظل كما هو، نفس المظهر النظيف، ونفس الكبرياء المقدرة تقديرًا لطيفًا، والدعة المطمئنة ونفس التأرجح، والجلسة في الظل، نفس روح الأمر كله.

ومرت عربة في إثر عربة تحت أشعة الشمس وقد احتمى راكبوها في ظل الدروع العالية من المظلات.

وقال «جوليون الصغير»:

ـ لقد مر عمي «جيمس» توًّا مع النساء من أهله.

واغبر وجه أبيه.

ـ وهل رآنا عمك؟ نعم؟ همف! ماذا يريد من مجيئه إلى هذه الأنحاء؟

وأقبلت العربة الخالية في هذه اللحظة، وأوقفها «جوليون الكبير». وقال:

ـ سأراك عما قريب يا بني، ولا تلقِ بالًا أبدًا لما قلته لك عن «بوزيني»، إني لا أصدق كلمة واحدة من ذلك!

ودخل العربة بعد تقبيل الطفلين اللذين حاولا استبقاءه، وحملته وانصرفت.

ووقف «جوليون الصغير» الذي حمل «هولي» بين ذراعيه، وقف في الركن دون حراك، مرسلًا طرفه وراء العربة.

الفصل السادس عشر

عند «تيموثي» عصرًا

إذا كان «جوليون الكبير» قد قال وهو يركب العربة «إني لن أصدق كلمة واحدة عن هذا الأمر!»، فإنه يكون قد عبَّر على نحو أصدق عن مشاعره.

وفكرة أن «جيمس» وأهل بيته قد رأوه في صحبة ابنه لم تُثِر فيه مجرد الضجر الذي يشعر به دائمًا عندما يناقضه أحد، ولكنها أثارت أيضًا ذلك العداء الطبيعي بين الإخوة. وجذور هذا العداء ـ ومردها إلى منافسات الطفولة الضئيلة الشأن ـ تشتد أحيانًا، وتعمق على كر الأيام، وهي وإن خفيت كل الخفاء، تعين على نماء شجرة تطرح في موسمها أشد الثمار مرارة.

ولم ينشأ إلى الآن بين أولئك الإخوة الستة شعور عدائي يزيد عما ينشأ من الارتياب الخفي الطبيعي في أن بعضهم قد يصبح أوسع ثراءً من بعضهم الآخر، وذلك شعور يصل إلى ذروة الفضول باقتراب الأجل ـ وهو نهاية مواطن الضعف جميعًا ـ و«بالحرج» الشديد الذي يساورهم بحسبان كل منهم رجل الأعمال الذي يزعم، في شيء من الحكمة، جهل «نيكولاس» حقيقة دخل «جيمس»، وجهل «جيمس» حقيقة دخل «جوليون الكبير»، وجهل هذا الأخير حقيقة دخل «روجر»، وجهل «روجر» حقيقة دخل «سويذن»، في حين يقول لـ«سويذن»، في إثارة شديدة، إن «نيكولاس»

لا بد أن يكون رجلًا واسع الثراء. ويُستثنى من ذلك «تيموثي» وحده لكونه بلغ غاية الطمأنينة ماليًّا.

ولكن نشأ الآن، بين اثنين منهم على الأقل، شعور بالإساءة مختلف كل الاختلاف. فمنذ اللحظة التي بلغ فيها «جيمس» من الوقاحة مبلغ التدخل في شؤون «جوليون الكبير» ـ على حد تعبير هذا الأخير ـ لم يعد، أي «جوليون الكبير»، لم يعد يؤثر تصديق تلك الحكاية الرائجة عن «بوزيني». لقد استخف عضو من أعضاء أسرة «ذلك الرجل» بحفيدته! واستقر رأيه على أنهم تقوَّلوا على «بوزيني»، وأن هناك دون شك أسبابًا أخرى لانحرافه.

لقد ترامت عليه «جون»، أو حدث شيء من هذا القبيل، فهي جامحة العاطفة إلى أقصى حد مستطاع!

وأراد «جوليون الكبير» أن يطلع «تيموثي» على قدر قليل مما يدور بخلده، ويرى هل يعمد إلى الإدلاء بتلميحات! وهو لن يدع الحشائش تنمو تحت قدميه. وسيذهب إلى هناك من فوره، ويحرص كل الحرص على ألا يحتاج إلى معاودة الذهاب في نفس المهمة مرة أخرى.

ورأى عربة «جيمس» تسد الطريق أمام «ذي بووار»، لقد وصلوا إلى هناك إذن قبله، ولعلهم يقوقئون الآن عن موضوع رؤيتهم له! وعلى مسافة أبعد كان جوادا «سويذن» الأشهبان يدوران بأنفيهما صوب أنفي الجوادين الكميتين المملوكين لـ«جيمس»، وكأنما كانت تلك الجياد تتهامس عن الأسرة في اجتماع سري، على حين كان السائقان يعقدان فوقها مثل هذا الاجتماع السري أيضًا.

وبعد أن وضع «جوليون الكبير» قبعته على المقعد القائم في الردهة الضيقة، وهو الذي حسبوا منذ زمن طويل أن قبعة «بوزيني» الموضوعة عليه قطة، مر بيده النحيلة، في تجهم، على وجهه ذي الشارب الأبيض الكبير المتدلي، وكأنما قصد إزالة كل أثر لما ارتسم عليه من تعبير، ثم اتخذ طريقه إلى الدور العلوي.

ووجد غرفة الاستقبال الأمامية مكتظة. وهي مكتظة إلى حد ما في كل وقت ـ حتى وهي بدون زوار وبدون أن تحوي أحدًا ـ لأن «تيموثي» وأخواته، اتباعًا لتقاليد جيلهم، لا يجدون أي غرفة حسنة تمامًا إذا لم تكن مفروشة على نحو لائق.

ولذلك اشتملت الغرفة على أحد عشر كرسيًّا، وعلى مقعد مستطيل، وثلاث مناضد، ومكتبين وعدد لا يُحصى من النوافل، و«بيانو» كبير. والآن تحتلها السيدة «سمول»، والعمة «هيستر»، و«سويذن»، و«جيمس»، و«راشيل»، و«وينيفريد»، و«أوفيميا» التي جاءت ثانية لترد قصة «العاطفة والمخدر»، وكانت قد قرأتها بعد الغداء. وصديقتها «فرانسيس»، ابنة «روجر»، (موسيقار أسرة «فورسايت»، وهي التي لحنت بعض الأغاني). ولم يبق خاليًا إلا مقعد واحد، مع استثناء المقعدين اللذين لم يجلس فيهما أحد قط، وغرفة المنزل الوحيدة التي لا تستعمل هي التي يحتلها «القط»، وهي التي اجتازها «جوليون الكبير» في حزم.

وفي هذه الأيام لم يكن من غير المعتاد بحال أن يتردد على «تيموثي» عدد غير قليل من الزوار. فقد كان أفراد الأسرة جميعًا يكنون دائمًا احترامًا حقيقيًّا للعمة «آن»، أما وقد رحلت الآن عن الدنيا فإنهم يكررون مجيئهم إلى «ذي بووار» أكثر من ذي قبل، ويمكثون في هذا المنزل مدة أطول.

وكان «سويذن» أول من حضر، وجلس جامدًا في مقعد مُذهب الظهر، مكسو بالحرير الأحمر اللون، ونم مظهره عن أنه سيعمر أكثر من الآخرين. وبدا وهو يرمز بقامته الهائلة وضخامته، وشعره الأبيض الكثيف، ووجهه السمين الساكن الحليق، إلى الاسم الذي أطلقه عليه «بوزيني» وهو «الرجل الكبير». بدا على الفطرة، في هذه الغرفة الثمينة الرياش، أكثر من أي وقت مضى.

وتحوَّل حديثه، كما هي العادة في الأيام الأخيرة، تحوَّل في الحال إلى «آيرين». ولم يضيِّع وقتًا في الإدلاء برأيه للعمة «جولي»، و«هيستر»، عن

الشائعة التي سمع أنها تدور حولها. لا ـ بحسب ما قال ـ إنها قد تكون في حاجة إلى شيء يسير من المغازلة، فلا بد للمرأة الجميلة من أن تسدد سهامها؛ ولكنه لا يعتقد أن هناك شيئًا أكثر من ذلك. ليس هناك شيء مهتوك الستر؛ فإن لها قدرًا كبيرًا من حسن الفهم، ومن التقدير السليم لما يليق بمركزها، وبالأسرة! ليست هناك فضـ.. وأوشك أن يقول «فضيحة»، ولكن فكرة الفضيحة بالذات كانت غير معقولة إلى حد أنه لوح بيده، وكأنه يقول: «ولكن، لنغض النظر عن هذا!».

ومن المسلم به أن «سويذن» نظر إلى الموقف نظرة رجل أعزب، ومع ذلك، أي شيء لا يرجع الفضل فيه بالفعل إلى هذه الأسرة التي عمل كثيرون من أفرادها على توفير الخير لأنفسهم، وتوصلوا إلى مراتب حسنة؟ وهو إذا كان قد سمع في لحظات مظلمة مشؤومة كلمات مثل «من خاصة الفلاحين» أو «من أصل صغير الشأن جدًّا»، يربطها قائلها بسلالته، فهل كان يصدق ذلك؟

لا! فهو يعز، ويضم إلى صدره في حنان، تلك النظرية الغامضة التي تقول إن هناك شيئًا من التميز كامنًا في ناحية ما من تاريخ أجداده.

وقد قال مرة لـ«جوليون الصغير»، قبل انحراف هذا الأخير: «لا بد أن هذا صحيح. انظر إلينا، «إننا» نتقدم! فلا بد أن دمًا زكيًّا يجري في ناحية من عروقنا».

كان مغرمًا بـ«جوليون الصغير». فالفتى كان حسن السير في كليته، وعرف هناك أبناء سير «تشارلز فيست» الخبيث ـ وقد انحرف أحدهم أيضًا، وهو وغد لطيف، له شيء من الأسلوب المتميز ـ وألف أسف على أنه انزلق مع تلك الفتاة الأجنبية، وهي فوق ذلك مربية أطفال؛ وإذا كان لا بد له أن ينزلق على ذلك النحو فلماذا لم يستطع أن يختار امرأة أخرى يمكن أن تشرفهم! وماذا أصبح الآن؟ موقِّع صكوك في مصرف «لويد»؛ ويقال إنه رسام صور، صور! سحقًا! كان يمكن أن يصبح آخر

الأمر سير «جوليون فورسايت» رجل الأعمال، وأن يكون له مقعد في مجلس النواب ومكانة في البلاد!

وكان «سويذن» هو الذي ذهب إلى مكتب «هيرالدز»، مسوقًا بالدافع الذي يحث كل عضو من أعضاء الأسرة الكبيرة، إن عاجلًا وإن آجلًا، على الذهاب إلى هذا المكتب. وقد أكدوا له هناك أنه ينتمي دون شك إلى نفس الأسرة المعروفة باسم «فورسيت» ـ بدون ألف ـ وهي التي تتخذ شعارًا لها «ثلاث دروع إلى اليمين من خطين أحمرين عموديين على أرضية رمادية». وكانوا يأملون من وراء ذلك، دون شك، أن يشتري منهم ذلك الشعار.

وبرغم ذلك لم يشتره «سويذن». ولكنه بعدما تأكد من أن زينة الشعار من أعلى كانت «طائرًا بريًا ملونًا»، وأن جملة الشعار المأثورة هي «من أجل فورسيت» فقد طبع على عربته، وعلى أزرار سائقها، صورة الطائر البري الملون، وتوج أوراق مكاتباته بكل من الصورة، والجملة المأثورة. أما الشعار الذي اهتز له طربًا، فقد رأى من ناحية، لأنه لم يدفع ثمنه، أن وضعه على عربته يبدو من قبيل الزهو، وهو يكره الزهو. ووجد من ناحية أخرى، لأنه، كأي رجل من الرجال العمليين المنتشرين في بلده، ينطوي على مقت خفي واحتقار للأشياء التي لا يدركها. وجد من الصعب عليه أن يستسيغ «ثلاث دروع إلى اليمين من خطين أحمرين عموديين على أرضية رمادية»، ولعل أي إنسان آخر كان يجد ما وجده.

وهو مع ذلك لم ينسَ قط ما قالوه له من أنه يصبح صاحب حق في استعمال الشعار إذا ما دفع ثمنه. وقد ثبت هذا اقتناعه بأنه نبيل. واقتبس سائر أفراد الأسرة صورة «الطائر البري الملون». واستعمل بعض أفرادها الأكثر جدًا عبارة الشعار المأثورة؛ بيد أن «جوليون الكبير» أبى استعمال تلك العبارة، قائلًا إنها دجل، لا يعني شيئًا بحسب ما يستطيع أن يرى.

ولعله كان معروفًا، في واقع الأمر، بين أفراد الجيل المتقدم سنًا، من أي واقعة تاريخية استخلصوا «زينة شعارهم». وإذا ما ضيق عليهم أحد الخناق

حول هذا الموضوع اعترفوا دون إبطاء بأن «سويذن» نالها بطريقة ما، مؤثرين ذلك على الكذب، فهم يكرهون الكذب، شاعرين بأن الفرنسيين والروس هم وحدهم الذين يكذبون.

وبين الجيل الأصغر سنًّا أحيط الموضوع بلفافة من حسن التبصر، فإن أفراده لم يشاءوا جرح مشاعر من يكبرونهم، وكذلك لم يشاءوا أن يظهروا أنفسهم في مظهر مضحك، فاستعملوا «زينة الشعار» في بساطة.

قال «سويذن»:

ـ لا، فقد أتيحت له رؤية الأمر بنفسه، والذي كان ينبغي أن يقوله هو إنه ليس في مسلكها حيال «القرصان» الشاب، أو «بوزيني»، وأيًّا كان اسمه، ما يختلف عن مسلكها حياله؛ كان ينبغي له أن يقول، في الواقع...

ولكن دخول «فرانسيس» و«أوفيميا» في هذه اللحظة، وضع حدًّا غير موفق للحديث. ذلك أن الموضوع ليس مما يمكن بحثه أمام الشباب.

وبالرغم من أن «سويذن» انزعج نوعًا لأنه قُوطع على هذا النحو وهو يوشك أن يقول شيئًا مهمًّا، فإنه لم يلبث أن استعاد بشاشته. كان أميل إلى التعلق بـ«فرانسيس»، أو «فرانسي»، بحسب ما كانوا يدعونها في الأسرة. كانت شديدة الحذق. وقد أخبروه أنها كسبت قدرًا وفيرًا من المال لمصروفها الخاص من بيع أغانيها؛ ووصف ذلك بأنه حذق شديد منها.

وكان أميل إلى التفاخر فعلًا بموقفه التحرري من النساء، إذ لم ير أي مانع يحول دون إقبالهن على رسم الصور، أو تلحين الأغاني، أو حتى تأليف الكتب لمجرد واقعة قيامهن بذلك. لا سيما إذا استطعن الحصول على قرش مفيد من وراء أعمالهن. ليس هناك قط ما يحول دون ذلك، فهذه الأعمال تحميهن من السوء. والأمر يختلف لو كنَّ رجالًا!

وكانت «فرانسي الصغيرة» ـ فهكذا اعتادوا أن ينادوها في استخفاف غير خبيث ـ شخصية هامة، وإن لم يرجع ذلك إلا إلى أنها شاهد حي على موقف أسرة «فورسايت» من الفنون. وهي لم تكن صغيرة الحجم، بل أقرب إلى

الطول. وكان شعرها أميل إلى السواد بالنسبة لفتاة من أسرة «فورسايت». وهذا، بالإضافة إلى عينيها الرماديتين، خلع عليها مظهر الفتاة «السلتية». وقد نظمت أغاني باسم: «تنهدات متلهفة» أو باسم «قبليني، يا أماه، قبل أن أموت»، مع مذهب موسيقي شبيه بالتسبيح:

مكتبة
t.me/soramnqraa

«قبليني، يا أماه، قبل أن أموت؛
قبليني، قبليني يا أماه، آه!
قبليني، آه! قبليني قـ... قبل أن...
قبليني، يا أماه قبل أن أ... أ... أموت!»

وكتبت كلمات الأغاني بنفسها، ونظمت أشعارًا أخرى. ونظمت في لحظات أروع أغانٍ راقصة. وكادت إحداها، وهي أغنية «ضوضاء كينسنجتون» كادت تكون مماثلة لأغنية «كينسنجتون»، إذ اشتملت على تموجات لطيفة مدونة بالنوتة الموسيقية في براعة.

كانت مبتكرة أي ابتكار. ثم هناك: «أغانٍ لصغار الناس»، وهي أغانٍ تربوية وفكهة في نفس الوقت، لا سيما أغنية «أسماك جدتي»، وتلك الأنشودة التي تكاد تنضح متنبئة بالروح الإمبريالي المقبل، وهي المسماة «أكحل عينيه الصغيرتين».

وأي ناشر يود لو يشتري هذه الأعمال. والمجلات من أمثال مجلة «هاي ليفنج» و«ليديز جينتيل جايد» تنشر عنها، وقد استخفها الطرب: «أنشودة أخرى لامعة عاطفية من أناشيد الآنسة «فرانسيس فورسايت» الجريئة. وقد أثارتنا نحن أنفسنا إلى حد البكاء والضحك. والآنسة «فورسايت» جديرة أن تسير في ذلك قدمًا».

وقد نجحت «فرانسي»، بغريزة جنسها الصادقة، في التعرف إلى الأناس المناسبين، الأناس الذين يمكن أن يكتبوا عنها، ويتحدثوا عنها، وهم أناس مجتمعات أيضًا، وقد احتفظت في ذهنها بسجل عن الناحية الصائبة التي تبذل فيها جهود فتنتها، ولا تغفل عن ميزان صعود الأسعار الذي لا يختل،

وهو الذي يمثل المستقبل في نظرها. وبهذه الطريقة وفرت لنفسها احترام الجميع.

وإذا حدث ذات مرة أن استثارت علاقة حب عواطفها ـ ذلك أن طبيعة الحياة في بيت «روجر»، بما اشتملت عليه من مجموعة السمات العاطفية، بعثت في نفس ابنته الوحيدة ميلًا إلى الانفعال العاطفي ـ إذا حدث ذلك تحولت إلى العمل الكبير الصادق، واختارت شكل «السوناتا» لألحانها المعزوفة على الكمان، وهذا النوع من أعمالها هو النوع الوحيد الذي أزعج أسرة «فورسايت»، فقد شعروا من فورهم أنه لن يُباع.

وقد أقلقت «سوناتا الكمان» هذه بال «روجر» الذي أعجبه أن تكون له ابنة بارعة إلى حد لا بأس به، والذي أومأ مرارًا إلى المال الذي حصلت عليه لمصروفها الخاص.

وكان يدعو تلك «السوناتا»: «نفاية كهذه!». وقد اقترضت «فرانسي» لحن «فلاجيوليتي» الشاب لعزفه في قاعة الاستقبال «برنسيسز جاردن».

وكان «روجر» على صواب في واقع الأمر. فقد كانت نفاية، ولكنها مضجرة! فهي من نوع النفايات التي لا تُباع. والنفايات التي تُباع ليست نفايات على الإطلاق، كما يعلم «الفورسايتيون» جميعًا. هي بعيدة عن ذلك كل البعد.

بيد أنه، برغم الإدراك العملي السليم الذي يحدد قيمة الفن بقدر ما يجلبه من ربح، فإن بعض «الفورسايتيين» ـ كالعمة «هيستر» مثلًا، وهي التي كانت موسيقية دائمًا ـ لم يستطيعوا إلا أن يأسفوا على أن موسيقى «فرانسي» ليست كلاسيكية؛ وكذلك شعرها. ثم إنهم، على حد قول العمة «هيستر»، لا يشاهدون في هذه الأيام شعرًا؛ فالقصائد كلها «أشياء خفيفة صغيرة» وليس هناك من أحد يستطيع أن ينظم قصيدة مثل قصيدة «الفردوس المفقود»، أو قصيدة «تشايلد هارولد»، وكل منها تشعرك أنك قرأت حقًّا شيئًا ذا قيمة. ومع ذلك فإنه مما يسر أن يكون لـ«فرانسي» شيء يشغلها.

فهي تكسب المال، في حين تنفقه سائر الفتيات في شراء أشياء لهن. وكلتا العمة «هيستر» والعمة «جولي»، على استعداد لسماع آخر الحكايات عن كيفية تمكن «فرانسي» من رفع أجرها.

وهما تنصتان لما يُقال الآن، هما و«سويذن» الذي تظاهر بعدم الإنصات، لأن أولئك الشباب يتحدثون في سرعة وتمتمة شديدتين إلى حد أنه لم يستطِع قط أن يلتقط كلمة مما يقولون!

وقالت السيدة «سيبتموس»:

ـ أنا لا أتصور كيف تفعلين ذلك. وينبغي ألا تكون لي مثل هذه الجرأة أبدًا!

وابتسمت «فرانسي» ابتسامة خفيفة:

ـ إني لأوثر كثيرًا أن أعامل الرجال على أن أعامل النساء. فالنساء شديدات الحذق!

وصاحت السيدة «سمول»:

ـ أنا واثقة، يا عزيزتي، من أننا لسنا كذلك.

وواصلت «أوفيميا» ضحكها الصامت الذي ينتهي بصرير، وقالت وكأنها تختنق:

ـ أوه، إنك ستقتلينني يومًا يا عمتاه.

ولم يجد «سويذن» ضرورة للضحك ما دام لم يتبين نكتة فيما قيل. وكان بالفعل يكره «أوفيميا» كل الكراهية. ويشير إليها دائمًا بقوله: «ابنة «نيك»... ماذا تُدعى... الفتاة الشاحبة؟». وقد أفلت في آخر لحظة من أن يكون «إشبينها». وقد أوشك أن يكون ذلك لولا الموقف الصلب الذي اتخذه ضد الاسم المستهجن الذي أطلقوه عليها. وكان يكره أن يصبح «إشبينًا»، وعندئذ قال «سويذن» لـ«فرانسي» في وقار: «إنه يوم بديع... إرر... بالنسبة لهذا الوقت من العام». ولكن «أوفيميا» التي لم تجهل أنه رفض أن يكون لها «إشبينًا»، دارت إلى العمة «هيستر». وطفقت تقول

لها كيف رأت «آيرين» ـ السيدة «سومز» ـ في الكنيسة، وفي «المخازن التجارية».

وقالت العمة «هيستر» التي لم يكن قد أتيح بعد للسيدة «سمول» أن تحدثها عن هذه الواقعة:

ـ هل كان «سومز» معها؟

ـ «سومز» معها؟ لا، بالطبع!

ـ ولكن هل كانت في لندن بمفردها؟

ـ أوه، لا. كان السيد «بوزيني» معها. وكانت تتزيًا على أكمل وجه.

ولكن «سويذن»، إذ سمع اسم «آيرين»، نظر في قسوة إلى «أوفيميا» التي لم تكن في الواقع تبدو حسنة المنظر قط في أي ثوب ترتديه، مهما بذلت من جهد في مناسبات أخرى. وقال:

ـ كانت تتزيًا كسيدة عظيمة، ولا شك عندي في ذلك. وإنه لمما يسر الإنسان أن يراها.

وفي هذه اللحظة أُعلن قدوم «جيمس» وبناته، ولما كان «دارتي» قد شعر برغبة شديدة في الشراب، فإنه تعلل بأن بينه وبين طبيب الأسنان موعدًا، وبعد أن أنزلوه عند «ماربل آرش» استقل عربة من هناك، وهو الآن يجلس إلى نافذة ناديه في «بيكاديللي».

وقال لأخلائه إن زوجته أرادت اصطحابه لتأدية بعض الزيارات. وهذا لا يلائمه، لا يلائمه تمامًا. ها ها!

ونادى الخادم. وأرسله إلى القاعة الخارجية ليرى أي حصان فاز في سباق الساعة الرابعة والنصف. وقال إن التعب أنهكه. وكان ذلك هو حقيقة الأمر، فقد تردد في العربة، مع زوجته، طوال عصر ذلك اليوم، على «المعارض». وألقى في النهاية عصا الترحال، والفتى ينبغي أن يحيا حياته الخاصة.

وفي هذه اللحظة، وهو يطل من الشباك ـ ذلك أنه يحب الجلوس في هذا

المقعد حيث يستطيع مشاهدة كل من يمر ـ تصادف أن وقعت عينه لسوء الحظ، أو لعله لحسن الحظ، على طلعة «سومز» الذي كان «يتشمم» وهو يجتاز الطريق من ناحية «جرين بارك»، قاصدًا، كما هو واضح، أن يدخل، لأنه هو أيضًا عضو في نادي «ذي إيسيوم».

وهب «دارتي» واقفًا على قدميه، ممسكًا بقدحه، وغمغم كلمات عن سباق الساعة الرابعة والنصف، ثم انسحب على عجل إلى غرفة «لعب الورق» التي لا يدخلها «سومز» أبدًا. وهناك في عزلة تامة، وتحت ضوء خافت، عاش حياته الخاصة حتى الساعة السابعة والنصف، وهي الساعة التي يعلم علم اليقين أن «سومز» لا بد أن يكون قد غادر النادي قبلها.

«لا فائدة»، هذا هو ما يظل يكرره لنفسه كلما شعر بأن الدافع الذي يدفعه إلى الانضمام لزمرة المتقولين المجتمعين عند الشباك، يشتد إلى حد لا قبل له به، لا فائدة البتة، مع مثل حالته المالية السيئة، ومع هذا الرجل العجوز («جيمس») الذي صدئ تمامًا بعد مسألة «أسهم الزيوت»، لا فائدة من المجازفة بإثارة جدل جديد مع «وينيفريد».

وإذا رآه «سومز» في النادي فسيصل إلى علمها دون شك أنه لم يذهب إلى طبيب الأسنان، إنه لم يعرف قط أسرة تدور بينها الأقاويل على هذا النحو. وجلس يعض سبابته متضايقًا بين «موائد الورق» الخضر، وعلى وجهه الليموني اللون اكفهرار، ورجله في سروالها الملون موضوعة فوق رجل، وحذاؤه الجلدي المتميز يسطع في الغرفة الداكنة، جلس يعض سبابته، ويتساءل من أين يستطيع الحصول على المال إذا لم يتمكن «إروتيك» من الفوز في السباق «بكأس لانكشاير».

وتحولت خواطره في انقباض إلى أسرة «فورسايت». يا لهم من مجموعة! لا سبيل إلى الإفادة منهم بشيء ـ أو ذلك ـ على الأقل، صعب المنال للغاية. فهم مدققون تدقيقًا في الأمور المتعلقة بالمال. وليس هناك، في جملتهم، رجل واحد رياضي الخلق، إلا أن يكون ذلك الرجل هو «جورج». أما ذلك

الفتى «سومز»، مثلًا، فإنه قمين أن يصاب بنوبة فيما إذا حاولت اقتراض فلس منه. وإن لم يصب بنوبة، فإنه لينظر إليك بعينيه المتعجرفتين اللعينتين كما لو كنت إنسانًا ضائعًا لأن المال يعوزك.

أما زوجته هذه (وجرى ريق «دارتي» بغير إرادته) فقد حاول «دارتي» أن تكون علاقته بها حسنة، كما يمكن أن يحدث هذا، على نحو طبيعي، مع أي نسيبة جميلة. ولكن اللعنة تحل به إذا أرادت هذه الـ... (ووصفها في ذهنه بوصف خشن) أن تقول له شيئًا. فإنها تنظر إليه ـ في الواقع ـ كما لو كان شيئًا قذرًا، ويمكن مع ذلك أن تتمادى في الأمر، ولا مانع لديه من أن يراهن على ذلك. إنه يعرف النساء، فهن لم يخلقن رقيقات العيون، ذوات أشكال كهذه عبثًا. وسيقف «سومز» على ذلك عما قريب إذا كان هناك شيء مما سمعه يدور عن «القرصان جوني»، قد حدث فعلًا.

ونهض «دارتي» من مقعده، ودار دورة عبر الغرفة إلى أن صار أمام المرآة المعلقة فوق ظهر المدفأة المرمري؛ ووقف مدة طويلة هناك متأملًا وجهه المنعكس في المرآة. وكان لوجهه ذلك الشكل الخاص ببعض الرجال، فهو بشاربه الأسمر المشمع، وشعر عارضيه الذي بدأ بداية وجيهة في نموه، يبدو كأنه غمس في زيت «بذر الكتان». ورأى «دارتي» في اهتمام بشائر بثور على جانب أنفه الذي تشوبه مسحة من التقوس والسمنة.

وفي هذه الأثناء لقي «جوليون الكبير» المقعد الباقي في غرفة الاستقبال المريحة بمنزل «تيموثي». وظهر جليًا أن مجيئه وضع حدًا للحديث الدائر، إذ حل الارتباك الجلي بالمجلس. وسارعت العمة «جولي»، بما عرف عنها من طيبة القلب، إلى إعادة راحة النفس للقوم ثانية، وقالت:

ـ نعم، يا «جوليون»، لقد كنا نقول عنك إنك لم تأتِ إلى هنا منذ وقت طويل؛ ولكن ينبغي ألا يدهشنا ذلك، أنت مشغول بالطبع؟

وكان «جيمس» يتحدث من توه عن شدة ازدحام هذا الوقت من العام بالعمل.

وقال «جوليون الكبير» وهو ينظر إلى «جيمس» نظرة صارمة:
ـ أكان يقول ذلك؟ إن هذا الوقت لم يكن ليزدحم بالعمل نصف هذا الازدحام لو أن كل إنسان لم يشغل نفسه إلا بشؤونه.

وحرَّك «جيمس» قدميه مرتبكًا وهو قابع في مقعد صغير ارتفعت ركبتاه فوقه، ووضع عفوًا إحدى قدميه على قط كان التجأ إليه، في غير تبصر، هروبًا من «جوليون الكبير» الجالس إلى جواره. وقال في صوت ينم عن الشعور بالإساءة، ساحبًا قدمه في انفعال عصبي بعد أن شعر بضغطها على الجسد الناعم المغطى بالفراء:

ـ هنا، إنك لتجد قطًّا هنا.

وقال «جوليون الكبير» متنقلًا بطرفه من وجه إلى وجه:

ـ إنها قطط عديدة، وقد وطئت قدمي واحدة منها توًّا.

وساد الصمت بعد ذلك.

ثم سألت السيدة «سمول»، وهي تلوي أصابعها، وتنظر حولها في هدوء عاطفي:

ـ كيف حال «جون» العزيزة؟

ونفذت بارقة سخرية من خلال عيني «جوليون الكبير» الصارمتين، إن «جولي» عجوز غريبة الأطوار! فليس هناك أحد يفوه مثلها بالعبارات غير الموفقة! وقال:

ـ حالها سيئة! إن مدينة لندن لا توافقها، فهي مزدحمة بالناس، مليئة بالضوضاء والأقاويل على قدر ازدحامها.

وضغط على الكلمات وهو ينطقها، ونظر إلى وجه «جيمس» ثانية.

ولم ينبس أحد بكلمة.

واستولى على الجميع شعور بأن هناك خطرًا شديدًا في اتخاذ أي خطوة في أي اتجاه. أو المجازفة بأية ملاحظة.

وإذا بشيء من التهديد شبيه بما يستحوذ على من يشاهد «تراجيديا إغريقية».

إذا به يغشى تلك الغرفة الثمينة الرياش. المليئة بأولئك الرجال المسنين، ذوي الشعر الأبيض، وسترات «الفروك»، والمليئة كذلك بالسيدات الأنيقات. وجميع هؤلاء من دم واحد، وبينهم شبه متعذر الإدراك.

وغشيان مثل هذه الأرواح المشؤومة الرهيبة، لا يفطن إليه الحاضرون، ولكنهم يشعرون به فحسب.

ثم نهض «سويذن»، فهو لم يشأ أن يجلس هناك معانيًا مثل هذا الشعور، إنه ليس ممن يفرض عليه أحد الخضوع! ودار حول الغرفة في مناورة، وأضاف أبهة إلى أبهته. وصافح كلًّا من الحاضرين فردًا فردًا، وقال:

ـ نبئوا «تيموثي» عني أنه يدلل نفسه كثيرًا.

ثم دار إلى «فرانسي» التي يعدها ذكية الفؤاد، وأضاف:

ـ تعالي يومًا من الأيام لنتنزه بالعربة.

ولكن قوله هذا ابتعث كالسحر رؤيا تلك النزهة الخطيرة التي دار حولها كل ذلك القيل والقال. ووقف لحظة ملتزمًا الصمت، جامد العينين، وكأنه ينتظر أن يستخلص مغزى ما قاله هو نفسه. ثم دار إلى «جوليون الكبير»، وقد فطن فجأة إلى أنه لا يهتم فتيلًا بشيء. وقال:

ـ حسنًا، أستودعك الله يا «جوليون»! ينبغي ألا تخرج دون ارتداء معطفك، فإنك ستصاب بداء «عرق النسا» أو شيء من هذا القبيل!

وخرج بهيكله الضخم بعد أن ركل القط بطرف حذائه الجلدي الثمين.

وما انصرف حتى اختلس كل من الحاضرين النظر إلى الآخر ليرى كيف قوبل ذكر كلمة «نزهة العربة» ـ هذه الكلمة التي أصبحت ذات شهرة، واكتسبت أهمية غامرة بحسبانه «النبأ الرسمي»، على حد القول ـ النبأ «الرسمي» الوحيد المتصل بالشائعة الغامضة المشؤومة العالقة بألسنة أفراد الأسرة.

وقالت «أوفيميا»، مذعنة لحافز معين، مرسلة ضحكة قصيرة:

ـ لقد أسعدني أن العم «سويذن» لا يطلب إليَّ التنزه معه في العربة.

وأجابت السيدة «سمول»، لتعيد الطمأنينة إلى قلب الفتاة، وتلطف الارتباك الذي قد يحدثه الموضوع:

ـ إنه يميل، يا عزيزتي، إلى اصطحاب فتاة حسنة الهندام، تستطيع أن تشرفه. وأنا لن أنسى أبدًا «نزهة العربة» التي دعاني إليها.. لقد كانت تجربة!

وإذا وجهها المكبب المستدير الهرم ينبسط سرورًا للحظة من اللحظات، ثم يعتوره التقطيب، وتصعد الدموع إلى عينيها. لقد تذكرت «نزهة العربة» التي مضى عليها زمن طويل، والتي قامت بها مرة من المرات مع «سيبتموس سمول».

وأفاق «جيمس»، الذي كان مسترسلًا في تأمله العصبي. أفاق فجأة، وقال، ولكن بطريقة تنم عن نصف انتعاش:

ـ إن «سويذن» هذا رجل مضحك.

وأبقاهم صمت «جوليون»، وعيناه الصارمتان، فيما يشبه الشلل. وكان هو نفسه مشغول البال من أثر كلماته ذاتها، وهو أثر يبدو أنه زاد من أهمية عين الشائعة التي وضع لها الآن حدًّا. ولكنه ظل غاضبًا.

وهو لم يقنع بما صنع بهم بعد ـ لا، لا ـ فهو لا بد أن يدعكهم دعكة أخرى أو دعكتين!

ولم يشأ أن يدعك بنات إخوته، فليست هناك مشاحنة بينه وبينهن. وكل أنثى شابة، لائقة المظهر، تستدر دائمًا رأفة «جوليون الكبير». أما هذا الرجل «جيمس» فيستحق كل ما يصيبه، ويستحق ذلك أيضًا هؤلاء الآخرون، بيد أنهم قد يستحقون بقدر أقل. وسأل هو أيضًا عن «تيموثي».

وكأنما شعرت العمة «جولي» بأن ثمة خطرًا يتهدد أخاها الأصغر، فقدمت الشاي فجأة وقالت:

ـ هاكم الشاي باردًا كريهًا، إذ انتظركم في غرفة الاستقبال الأخرى الخلفية، ولكن «سميذر» ستعد لكم شايًا جديدًا.

ونهض «جوليون الكبير» وقال وهو يصوب نظره لـ«جيمس»:

ـ أشكرك. ولكن ليس لديَّ متسع من الوقت للشاي، ولحديث الفضيحة، وسائر الأمور! آن أوان عودتي إلى البيت. وداعًا يا «جولي»؛ وداعًا يا «هيستر»، وداعًا يا «وينيفريد».

وخرج دون أن يزيد من تحيات الوداع.

وتبخر غضبه مرة أخرى وهو في عربته؛ ذلك أن سورة غضبه كانت على هذا النحو دائمًا، فهي تتبدد عندما يحتد في القول، وخيمت عليه الكآبة، ولعله أسكت ألسنتهم، ولكن في مقابل أي ثمن! في مقابل علمه المؤكد بأن الشائعة التي قرر ألا يصدقها حقيقية. إن خاطب «جون» هجرها، هجرها بسبب زوجة ابن هذا الرجل، شعر بأن الشائعة صحيحة. وتحامل على نفسه ليتصرف حيالها كما لو كانت غير ذلك. ولكن الألم الذي داراه وراء هذا التصميم بدأ يتمخض في بطء، وبدون ريب، عن حقد على «جيمس» وابنه.

وبدأت النساء الست، والرجل الأوحد ـ أولئك الذين بقوا في غرفة الاستقبال الصغيرة ـ بدأوا يتحدثون في يسر، بالقدر الذي تسمح به الحال بعد مثل الذي حدث؛ فبرغم أن كلًّا منهم كان يوقن أنه لم يتحدث قط عن الشائعة، فإن كلًّا منهم كان يعلم كذلك أن الستة الباقين تحدثوا عنها. ولهذا تولاهم الغضب جميعًا، وأُسقط في أيديهم. ولزم «جيمس» الصمت وحده، وانزعج إلى قرارة أعماق نفسه.

ولم تلبث «فرانسي» أن قالت:

ـ أتعرفون! أنا أرى أن عمي «جوليون» تغير في هذه السنة الأخيرة تغيرًا رهيبًا. فما رأيك يا عمتي «هيستر» في ذلك؟

وقامت العمة «هيستر» بحركة صغيرة تدل على التراجع، وقالت:

ـ أوه، اسألي عمتك «جولي»، فأنا لا علم لي بشيء عن هذا الأمر.

ولم يخشَ أحد غيرها أن يسلم بصدق ما قال. وغمغم «جيمس»، ناظرًا إلى الأرض في اكتئاب:

ـ إنه لم يعد بعض الرجل الذي كانه فيما مضى.

وواصلت «فرانسي» قولها:

ـ إني لاحظت ذلك منذ زمن طويل. لقد تقدمت به السن تقدمًا كبيرًا.

وهزت العمة «جولي» رأسها. وبدا كأن وجهها تحول فجأة إلى كتلة ضخمة من التقطيب. وقالت:

ـ مسكين «جوليون» العزيز، لا بد أن يهتم أحد بالأمر نيابة عنه!

وخيَّم الصمت من جديد. ثم وقف الزوار الخمسة معًا، وكأنما حدث ذلك خوفًا من أن يجد أحد نفسه متخلفًا بمفرده، وأخذوا ينصرفون.

وبقيت السيدة «سمول»، والعمة «هيستر»، وحيدتين هما وقطهما، ودل صوت إغلاق أحد الأبواب من بعيد على اقتراب «تيموثي».

وفي ذلك المساء، عقب ذهاب العمة «هيستر» مباشرة لتنام في الغرفة التي كانت تستعملها العمة «جولي» قبل أن تحتل غرفة العمة «آن»، فتحت عليها السيدة «سمول» الباب وهي ترتدي حلة نوم حمراء، وتمسك شمعة بيدها. وقالت:

ـ «هيستر»! «هيستر»!

وخشخشت العمة «هيستر» ثوبها خشخشة خفيفة.

وكررت العمة «جولي» نداءها حتى تتيقن تمامًا من أنها أيقظت أختها:

ـ «هيستر»، إني مبلبلة الخاطر تمامًا بشأن «جوليون» العزيز المسكين. «ما» (وتريثت وهي تنطق هذه الكلمة الأخيرة) «ما» رأيك فيما ينبغي صنعه؟

وخشخشت العمة «هيستر» ثوبها ثانية. وسُمع صوتها متوسلًا في وهن:

ـ ينبغي صنعه؟ وكيف لي أن أعلم ذلك؟

وعادت العمة «جولي» أدراجها راضية. وتركت الباب وهي تغلقه في رفق شديد حتى لا تزعج «هيستر» العزيزة، تركته يفلت من بين أصابعها، محدثًا قعقعة.

وإذ عادت إلى غرفتها وقفت عند النافذة. وتطلعت إلى القمر المشرق فوق أشجار «البارك». تطلعت إليه من خلال فتحة بالستائر الحريرية المضمومة الشقين حتى لا يراها أحد. وهناك فكرت ـ بوجهها الكامل الاستدارة، العابس تحت قلنسوتها الحمراء، وبعينيها الدامعتين ـ فكرت في «جوليون العزيز» المتقدم الشيخوخة، الشديد العزلة، كيف يمكن أن تكون ذات نفع له على نحو ما، وكيف لا بد أن ينتهي أمره بحبها حبًّا لم تظفر بمثله قط، منذ رحيل «سيبتموس» المسكين إلى العالم الآخر.

الفصل السابع عشر

حفل راقص بمنزل «روجر»

كان منزل «روجر» في «برنسيس جاردنز» متألق الأنوار، فقد جُمع عدد وفير من الشموع، ووُضع في شمعدانات مزينة بقطع الزجاج المدلاة منها. وقد عكس ضوء هذه الأفلاك الساطعة خشب «الباركيه» الذي يكسو غرفة الاستقبال الطويلة الواسعة. وأمكن توفير مظهر فسيح حقًّا للغرفة بعد نقل أثاثها جميعه إلى الدور العلوي، وإحاطتها بتلك «الملحقات» الحضارية الغريبة المعروفة باسم مقاعد «المآدب».

وفي ركن قصي، مظلل بسعف النخل، قام «بيانو» من النوع الذي يُوضع في الأكواخ، وظهرت على حامله الموسيقي «نوتة» مفتوحة للحن «كينسنجتون كويل».

وكان «روجر» قد اعترض على مجيء فرقة موسيقية، فهو لم يدرك مطلقًا سبب رغبتهم في حضور مثل تلك الفرقة. إنه لن يدفع نفقة مجيئها، وكان هذا خاتمة للموضوع. واضطرت «فرانسي» (وكانت أمها تأوي إلى فراشها في مثل هذه المناسبات، بعد أن سبب لها «روجر» الإصابة بتخمة مزمنة) اضطرت أن ترضى بأن تضيف إلى عزف البيانو عزف شاب ينفخ في النفير. وعلى ذلك نسقت سعف النخل بحيث يمكن أن يخيل إلى من لا ينعم النظر في صميم الأمور أن موسيقيين عديدين يختبئون هناك. وقد

اعتزمت أن تطلب إلى عازف البيانو وعازف البوق أن يعلوَا بنغمات العزف، والبوق يرسل نغمات عديدة فيما إذا وضع العازف روحه فيه.

وفي آخر الأمر «عِيل صبرها» ـ على حد التعبير الأمريكي الأكثر رقيًّا ـ عِيل صبرها عبر ذلك التيه المتعرج، تيه «اصطناع الحيل» الذي لا بد من اجتيازه قبل إمكان التوفيق بين المظهر «العصري» الراقي، واقتصاد «الفورسايتي» المكين. وتنقلت من مكان إلى مكان، نحيلة، ولكن متألقة، في سترتها الصفراء ذات الشفوف المتراكمة على كتفيها، متزينة بقفازها، مرسلة طرفها وراء كل شيء.

وحادثت في أمر النبيذ الخادم الأجير (ذلك أن «روجر» لا يستبقي في بيته إلا الخادمات). هل فهم تمامًا أن السيد «فورسايت» يرغب في تقديم اثنتي عشرة زجاجة من «شمبانيا» محل «وايتلي»؟ ولكن إذا فرغت هذه الزجاجات (وهي لا تعتقد أنها ستفرغ جميعها لأن أغلب السيدات يشربن الماء دون شك) ولكن إذا فرغت، فهناك «شمبانيا» البرميل، وعليه أن ينتفع منها على خير وجه مستطاع.

وكانت تكره أن تتحدث إلى خادم في مثل هذا الأمر، فإن ذلك «يحط» جدًّا من قدرها. ولكن ماذا تستطيع أن تصنعه مع أبيها؟ وسينزل «روجر» الآن دون شك، بعد إصراره على تنفير الناس منه فيما يتعلق بالرقص، سينزل بجبينه البارز الناضر اللون ـ وكأنما هو الذي أبدعه ـ وسيبتسم، ولعله سيصحب أجمل سيدة لتناول العشاء. وفي الساعة الثانية، أي في نفس الوقت الذي يبلغ فيه الرقص غاية انطلاقه، سيذهب خفية إلى الموسيقيين، ويطلب عزف نشيد «حفظ الله الملكة»، ثم ينصرف.

وكانت «فرانسي» ترجو، في ابتهال، لو أن التعب يصيبه من فوره، فينسل من الحفل ليأوي إلى فراشه.

واشتركت معها صديقاتها الثلاث، أو الأربع ـ اللواتي بقين في البيت بمناسبة حفلة الرقص هذه، اشتركن معها بغرفة صغيرة مهجورة من غرف

الدور العلوي ـ في تناول الشاي وأفخاذ دجاج باردة أُعدت لهن على عجل. أما الرجال فقد أرسلوا ليتعشوا في مطعم نادي «أوستيس»، إذ شعر أصحاب البيت بألا بد من إطعامهم.

وما إن دقت الساعة معلنة التاسعة حتى وصلت السيدة «سمول» وحدها. وقدمت اعتذارات محبوكة عن تخلف «تيموثي» عن الحضور، وأغفلت كل إشارة إلى تخلف العمة «هيستر» التي قالت في آخر لحظة إنها لا تستطيع احتمال إزعاجها. واستقبلتها «فرانسي» محتفلة بمقدمها، وأجلستها على مقعد من مقاعد «الولائم»، وتركتها هناك عابسة وحيدة في ثوبها الحريري بلون «اللافندر»، وكانت هذه أول مرة ترتدي فيها ثوبًا ملونًا منذ وفاة العمة «آن».

وجاءت الآن الفتيات الصديقات المخلصات من غرفهن. وكأنما حدث، بترتيب سحري، أن تزينت كل منهن بسترة تختلف لونًا عن غيرها. ولكن ستراتهن جميعًا استباحت التحلي بالشفوف فوق الأكتاف والصدور. تلك الشفوف المستحبة لكل فتاة. وجيء بهن جميعًا إلى السيدة «سمول»؛ ولم تبقَ واحدة منهن معها أكثر من لحظات، ولكنهن ظللن يتحادثن مجتمعات، ويعدلن برامجهن الخاصة بالحفل، ويختلسن النظر إلى الباب في انتظار ظهور أول قادم من الرجال.

ثم وصل أفراد من أسرة «نيكولاس» زمرة واحدة، وهم يواظبون دائمًا على المواعيد ـ وهذه هي الطريقة الحديثة الطراز في طريق «لادبروك جروف» ـ وفي أعقابهم جاء «أوستيس» ورجاله، متجهمين، تفوح منهم على الأغلب رائحة السجاير.

وظهر الآن ثلاثة أو أربعة من عشاق «فرانسي»، واحدًا تلو الآخر. وقد سبق لها أن حملت كلًّا منهم على أن يعدها بالمجيء مبكرًا. وكان كل منهم حليق الوجه رشيقًا، متميزًا بذلك النوع الخاص من رشاقة الشباب التي غزت «كينسنجتون» أخيرًا. ولم يبدُ على أي منهم أنه يهتم في قليل أو كثير بوجود

الآخرين. وكانوا يعقدون أربطة أعناقهم على نحو يبرز أطرافها، ويرتدون الصُّدرات البيض، والجوارب المزينة بالأشكال الزخرفية. ويخفون جميعهم مناديل في أكمام قمصانهم. ويتنقلون مبتهجين، وقد تسلح كل منهم بمرح اتخذه حرفة له، وكأنه جاء ليقوم بجلائل الأعمال. وكانت وجوههم في أثناء الرقص بعيدة عن أن تبدو عليها تلك النظرة التقليدية العابسة التي تبدو على وجه الراقص الإنجليزي. كانت مستهترة جذابة متحررة، وكانوا يقفزون، ويوسعون خطواتهم وهم يدورون بمن يراقصونهن دون أن يولوا أي اهتمام متحذلق بوقع أنغام الموسيقى.

وكانوا ينظرون إلى سائر الراقصين بسخرية خفيفة الظل ـ هم، رجال «اللواء العسكري» السريع التنقل، هم أبطال رقصات «كينسنجتون» المائة ـ في حين لا يُرجى السلوك المستقيم، والبسمة والخطوة المناسبتان إلا منهم.

وأسرع الجدول في تدفقه بعد ذلك؛ وتجمعت المرافقات على طول الحائط المواجه للمدخل، العنصر الخفيف الذي غذَّى الدوامة في الغرفة الأوسع مساحة.

وكان الرجال نادرين. واتخذت وجوه «زهرات الحائط» تعبيرها العاطفي الخاص. اتخذت ابتسامة كليلة مريرة بدا كأن صاحبتها تقول: «أوه، لا! لا تخطئني، أنا أعرف أنك لا تقبل لتراقصني، إني لا أكاد أتوقع ذلك!». وقد تتوسل «فرانسي» إلى أحد عشاقها، أو إلى شاب غرير فتقول: «والآن، في سبيل إرضائي، دعني أقدمك للآنسة «بينك». إنها فتاة لطيفة جدًّا، لطيفة حقًّا!». وقد تأتي به إلى الفتاة وتقول: «يا آنسة «بينك»، هذا السيد «جاذركول»، أتستطيعين أن تحتفظي له برقصة؟». ثم تبتسم الآنسة «بينك» ابتسامتها المغتصبة، ويتغير لونها قليلًا وهي تجيب: «أوه! أظن أني أستطيع ذلك». وتحجب مفكرتها الخالية، وتكتب بها اسم «جاذركول» في خانة، وتتهجى اسم «جاذركول» ولهانة وهي تكتبه في خانة المفكرة الخاصة بالرقصة التي اقترحها، وهي الرقصة الإضافية الثانية.

ولكن عندما غمغم الشاب قائلًا إن الجو حار، وغادر الفتاة، عادت هذه إلى حالة التوقع اليائس، وإلى ابتسامتها المريضة المريرة.

وراقبت الأمهات، وهن يحركن مراوحهن في بطء، راقبن بناتهن. وكان في وسع المرء أن يقرأ في عيونهن قصة أقدار أولئك البنات. أما فيما يتعلق بأنفسهن، فإنهن لا يبالين أن يجلسن ساعة بعد ساعة، لائذات بالصمت من شدة التعب، أو متحدثات في تشنج، لا يبالين بذلك ما دامت بناتهن متمتعات بوقت طيب. أما أن يرين الشبان يهملونهن، ويمرون بهن معرضين! آه! إنهن، يبتسمن عندئذ، ولكن أعينهن تسدد الطعنات كأعين الإوز المنزعجة. إنهن يتقن إلى انتزاع الشاب «جاذركول» من أطراف أكمامه الأنيقة، وجره إلى بناتهن. ذاك الشاب الوقح!

وفي ميدان المعركة الدائرة بقاعة الرقص هذه في «كينسنجتون»، جرى عرض قسوة الحياة كلها، وشدائدها وأشجانها، وفرصها غير المتكافئة، والغرور ونسيان الذات والصبر.

وكان هنا وهناك أيضًا عشاق ـ لا يشبهون عشاق «فرانسي» المتميزين بتهذب خاص، ولكنْ عشاق عاديون ـ مرتجفون، مصطبغو الوجوه، صامتون، يلتمس كل منهم حبيبته بالنظرات الطائرة، يلتمس وصالها ولمسها في متاهات الرقص، ثم يثير، هو وحبيبته، دهشة الناظر إليهما بالنور المنبعث من عيونهما وهما يعاودان الرقص معًا حينًا بعد حين.

وحضرت أسرة «جيمس» في العاشرة دون أن تتقدم على ذلك الوقت لحظة واحدة، حضرت «إميلي»، و«وينيفريد» (ولم يصطحبن «دارتي» لأنه شرب قدرًا كبيرًا من «الشمبانيا» بمنزل «روجر» في مناسبة سابقة) وحضرت «سيسيلي»، أصغر أخواتها، وكان ذلك هو بدء حضورها في الحفلات. وجاء في إثرهن «سومز» و«آيرين»، مستقلين عربة أحضرتهما من منزل الأب حيث تغديا.

واستعملت هؤلاء السيدات جميعًا أشرطة الأكتاف دون الشفوف،

وبذلك أظهرن من فورهن، بجرأة عرضهن للحم أكتافهن، أنهن جئن من ناحية «البارك» الأكثر مشايعة للأناقة الحديثة.

واتخذ «سومز» لنفسه مكانًا تجاه الحائط، متجنبًا الاحتكاك بالراقصين. ووقف يرقبهم متحصنًا بابتسامته الشاحبة. وتعاقبت رقصات «الفالس» رقصة بعد رقصة. واحتك الراقصون بعضهم ببعض، زوجين بعد زوجين مارين بشفاه مبتسمة، وضحكات وعبارات مختطفة. أو بشفاه مطبقة، وعيون تستكشف الحشد. أو بشفاه منفرجة، وعيون ينظر بعضها إلى بعض. وفاحت رائحة المهرجان، وعبير الزهر، والشعر، والعطر الذي يحبه النساء. فاحت هذه الروائح على نحو خانق في حر الليلة الصيفية.

وبدا «سومز»، وهو يلزم الصمت، وفي ابتسامته شيء من السخرية، بدا كأنه لم يلحظ شيئًا. ولكن عينيه كانتا تعثران، بين الحين والحين، على ما تبحثان عنه، وتركزان نظراتهما على نقطة بين الحشد المتنقل، فتموت الابتسامة على شفتيه.

ولم يراقص أحدًا. ورقص بعض الرجال مع زوجاتهم. ومنذ زواجه بـ«آيرين» لم يسمح له إحساسه «بالشكليات» أبدًا أن يراقصها. وإله «الفورسايتيين» هو الذي يدري وحده أيجد «سومز» في ذلك فرجًا أم لا. ومرت به وهي تراقص رجالًا آخرين، وتطايرت أطراف ثوبها السوسني اللون من حول أقدامها. كانت تجيد الرقص. وسئم «سومز» سماع قول النساء وهن يبتسمن ابتسامة مريرة: «ما أجمل رقص زوجتك يا سيد «فورسايت»، إن من الممتع للمرء أن يرقبها!». وسئم الرد على كل منهن بقوله وهو ينظر نظرته الجانبية: «أتظنين ذلك!».

وعلى مقربة منه هز اثنان من الراقصين مروحتيهما، كل بدوره، فأطلقا هبات ريح كريهة. وكانت «فرانسي» وأحد عشاقها يقفان غير بعيد، ويتحدثان عن الحب.

وسمع «سومز» صوت «روجر» من خلفه وهو يصدر لأحد الخدم أمرًا

متعلقًا بالعشاء. وكان كل شيء دارجًا جدًّا، وود لو أنه لم يأتِ. وسأل «آيرين» أهي في حاجة إليه، وأجابت بإحدى ابتساماتها التي تطيش الصواب: «أوه، لا!».

لماذا جاء؟ إنه لم يرها خلال ربع الساعة الأخير، ها هو ذا «جورج» يتقدم بوجهه ذي النظرة الخبيثة، وقد فات وقت الابتعاد عن طريقه. وقال ذلك المضحك السادر في غلوائه:

ـ أرأيت القرصان؟ إنه يسلك مسلكًا عدائيًّا، شعره مقصوص، وكل شيء فيه متحفز!

وقال «سومز» إنه لم يره. واجتاز الغرفة نصف الخالية، في أثناء فاصل الرقص، وخرج إلى الشرفة وأطل على الشارع.

وأقبلت عربة تحمل بعض القادمين المتأخرين وتجمع حول الباب جماعة من المترقبين الصابرين الذين يبرزون في شوارع لندن تلبية لنداء الأنوار والموسيقى. وكانت لوجوههم الشاحبة الناظرة إلى أعلى من فوق هياكلهم السود الصدئة، هيئة ترقُّب سمجة ضايقت «سومز». لماذا يسمح لهم بالتسكع هناك؟ لماذا لا يبعدهم الشرطي؟

ولكن الشرطي لم يعرهم اهتمامًا فقد تسمَّرت قدماه متباعدتين فوق البساط الأحمر الممدود عبر الرصيف واتخذ وجهه، من تحت خوذته، نفس هيئة ترقبهم السمجة.

واستطاع «سومز» أن يرى وراء الطريق، من خلال السياج، أغصان الأشجار تلتمع وهي تعكس لألاء مصابيح الشارع، وتتحرك تحركًا خفيفًا في مهب النسيم. واستطاع أن يرى وراء ذلك أيضًا أضواء أعلى المنازل في الجانب الآخر، وأعينًا كثيرة تطل على سواد الحديقة الساكن. ومن أعلى ذلك كله خيمت السماء، السماء اللندنية الباهرة، وقد اغبرَّت بعدد لا يحصى من انعكاسات المصابيح التي لا تُعد. قبة بين النجوم منسوجة مما تعكسه حاجات البشر، وتصورات البشر، مرآة هائلة للأبهة والبؤس تنشر، مساء بعد مساء، سخريتها الرحيمة فوق أميال آهلة بالمنازل والحدائق والقصور

والقاذورات. فوق «الفورسايتيين»، ورجال الشرطة، والمترقبين المعتصمين بالصبر في الشوارع.

ودار «سومز» ببصره، وحدَّق في الغرفة المضاءة وهو متوارٍ في المكان المنعزل. ورأى القادمَين الجديدين يدخلان، وهما «جون» وجدها. ما الذي أخَّر مجيئهما إلى هذا الوقت؟ ووقفا بعتبة الباب. وكانا يبدوان منهكين. تصور العم «جوليون» يحضر في مثل هذه الساعة من الليل! لماذا لم تمر «جون» بـ«آيرين» كما كانت تفعل عادة؛ وخطر بباله فجأة أنه لم يرَ «جون» منذ مدة طويلة.

وراقب وجهها في خبث عابث، ورآه يتغير، لقد شحب وجهها إلى حد أن ظنها ستسقط على الأرض، ثم احتقن حتى صار قرمزيًّا. وتلفت «سومز» ليرى إلى أي شيء تنظر، فشاهد زوجته تتأبط ذراع «بوزيني» وهما مقبلان من ركن الموسيقى في أقصى الغرفة. وكانت عيناها مرفوعتين إليه، وكأنها تجيب عن سؤال وجهه إليها. وهو يشخص إليها في اهتمام.

وعاد «سومز» فنظر إلى «جون». وكانت يدها تستند إلى ذراع «جوليون الكبير»؛ وبدت كأنها تطلب منه شيئًا. ورأى نظرة عجب تبدو على وجه عمه؛ ودارا، واجتازا الباب، وتواريا عن الأنظار.

وأخذت الموسيقى تصدح من جديد ـ تصدح لحنًا من ألحان «الفالس» ـ وانتظر «سومز» ساكنًا كالتمثال في عزلته عند النافذة، جامد الوجه، ولكن دون ابتسامة تعرو شفتيه. ولم تلبث زوجته أن مرت به هي و«بوزيني» على بعد خطوة من الشرفة المظلمة. والتقط أنفه رائحة زهرة «الجاردينيا» التي تزينت بها. ورأى صدرها يعلو ويهبط، وشاهد فتور عينيها، وانفراج شفتيها، ونظرة ترتسم على وجهها لا عهد له بمثلها من قبل. وإذ صدحت نغمات الرقص البطيئة المتموجة التي رقصا على وقعها ـ وقد خُيِّل إليه أن كلًّا منهما يلتصق بالآخر ـ رآها ترفع عينيها اللطيفتين الداكنتين إلى «بوزيني» ثم تخفضهما ثانية.

وعاد إلى الشرفة شديد الشحوب، وحدق في الميدان وهو متكئ على حافتها. وكانت الوجوه لا تزال تنظر هناك إلى أعلى صوب الأنوار في مثابرة بليدة. ووجه رجل الشرطة كان مرفوعًا أيضًا إلى أعلى، محدقًا؛ ولكن «سومز» لم يرَ شيئًا من هذا. وأقبلت عربة تحت الشرفة، واستقلها شخصان، ومضت بهما.

وفي ذلك المساء كانت «جون» و«جوليون الكبير» قد جلسا إلى مائدة العشاء في الوقت المعتاد. وارتدت الفتاة سترة الفروك المعهودة، العالية العنق، ولم يلبس «جوليون الكبير» رداء السهرة.

وكانت «جون» قد تحدثت في أثناء تناول الفطور عن حفلة العم «روجر» الراقصة. كانت ترغب في الذهاب إليها. وقالت إنها ارتكبت حماقة كبيرة إذ لم يخطر ببالها أن تطلب إلى أحد ما أن يصحبها إليها، والوقت متأخر الآن.

ورفع «جوليون الكبير» عينيه الثاقبتين. فقد اعتادت «جون» أن تذهب إلى حفلات الرقص مع «آيرين» على نحو ما كانت تجري الأمور! وركز عليها نظرته عمدًا وسأل: «ولماذا لم تلتمس «آيرين»؟».

لا! إن «جون» أبت أن تسأل «آيرين» الذهاب معها. وهي لن تذهب إلا... إلا إذا لم يرَ جدها بأسًا في مصاحبتها مرة واحدة ليس إلا... ولمدة قصيرة!

وقبل «جوليون الكبير» طلبها في تذمر إذ رأى نظرتها الشديدة التلهف، الشديدة الإعياء. وقال إنه لا يعرف ما غايتها من الذهاب للرقص على هذا النحو، فهو يراهن أن غايتها تافهة، وهي ليست أكثر لياقة للرقص من قطة! فالذي تحتاج إليه هو هواء البحر. وهو سيكون على استعداد لاصطحابها بعد انفضاض الاجتماع العام لشركة «جلوبيولار جولد كونسيشنز». ألا تريد أن تذهب؟ آه! إنها تريد أن ترهق نفسها! وبعد أن اختلس نظرة حزينة إليها، واصل تناول فطوره.

وخرجت «جون» مبكرة، وتجولت دون أن تهدأ في حمارة القيظ. وكان جسمها الصغير الخفيف، الذي واصل الحركة أخيرًا في وهن شديد

لقضاء مصالحه، كان قد اشتعل كله نارًا. اشترت لنفسها بعض الأزهار، لقد أرادت... لقد قصدت أن تبدو في أحسن حال. فلا بد أن يكون «هو» هناك! كانت تعلم علمًا ليس بالظن أنه مدعو، ولا بد أن تظهر أنها لا تبالي. ولكنها اعتزمت، في أعماق نفسها، أن تستعيده إليها في ذلك المساء. وعادت إلى المنزل متوردة اللون، وتألقت في حديثها طوال مدة الغداء. وكان «جوليون الكبير» هناك، وخدعه ذلك.

وعرتها بعد الظهر نوبة يائسة من الزفرات. وكتمت الصوت بوسائد فراشها، ولكنها، بعد انتهاء النوبة، رأت في المرآة وجهها منتفخًا، له عينان محمرتان تدور حولهما دوائر بنفسجية. وبقيت في الغرفة المظلمة حتى حان وقت العشاء.

وظل الصراع يدور داخل نفسها طوال مدة ذلك العشاء الصامت. وقد بدت مكفهرة، منهكة القوى، إلى حد أن أخبر «جوليون الكبير» «سانكي» أنه ألغى أمر إعداد العربة، فهو لن يسمح لها بالخروج، وعليها أن تأوي إلى فراشها! ولم تبدِ الفتاة أي مقاومة. وصعدت إلى غرفتها، وجلست في الظلام. وفي الساعة العاشرة دقت الجرس مستدعية وصيفتها:

ـ أحضري لي ماء ساخنًا، وانزلي وأخبري السيد «فورسايت» أني أشعر براحة تامة الآن. وقولي له إنه إذا كان متعبًا جدًّا فأنا أستطيع الذهاب بمفردي إلى حفلة الرقص.

وحدجتها الوصيفة بلحظها، فدارت إليها «جون» في غطرسة وقالت:

ـ اذهبي، وأحضري الماء الساخن في الحال!

وكان ثوب الحفلة ما زال موضوعًا على المقعد المستطيل. وارتدته في نوع من الاهتمام العنيف، وحملت الأزهار في يدها، ونزلت إلى الدور السفلي، وكان وجهها الصغير شامخًا تحت عبء شعرها واستطاعت أن تسمع حركة جدها في غرفته وهي تمر بها.

كان يرتدي ملابسه حائرًا مغيظًا. وكانت الساعة قد تجاوزت العاشرة؛

فهما لن يصلا إلى هناك قبل الحادية عشرة. إن الفتاة مجنونة؛ ولكنه لم يجرؤ على إغضابها، إن تعبير وجهها وقت تناول العشاء لم يبارحه.

وصقل شعره بفرشاة كبيرة من خشب الأبنوس حتى لمع كالفضة تحت الضوء؛ ثم خرج هو أيضًا إلى السلم المظلم.

والتقت به «جون» في أسفل السلم، وذهبا إلي العربة دون أن ينبسا بكلمة.

وعندما دخلت غرفة الاستقبال بمنزل «روجر»، بعد رحلة العربة التي بدت كأنها ستدوم إلى الأبد، أخفت تحت ستار من التصميم عذابًا أليمًا مما تعانيه من اضطراب وانفعال، وقد أخمد شعورها بالخجل ـ مما يمكن أن يسموه «جريها وراءه» ـ أخمده خوفها من أنها قد لا تجده هناك. قد لا تراه فضلًا عن ذلك أبدًا، مع ما هي منطوية عليه من ذلك العزم المتشبث باستعادته ثانية، على نحو ما، لا تعرف كيف يتم.

وبثت فيها قاعة الرقص، بأرضها الساطعة، شعورًا بالفرحة والانتصار. ذلك أنها تحب الرقص، وهي تسبح عندما ترقص. فقد كانت خفيفة جدًّا، خفيفة كروح صغير متحمس متلهف. وسيطلب إليها دون شك أن يرقص معها، وهو إذا رقص معها، فسيعود كل شيء حتمًا إلى ما كان عليه من قبل. ونظرت إلى ما حولها في لهفة.

وصدمها صدمة شديدة المفاجأة منظر «بوزيني» وهو مقبل مع «آيرين» من «ركن الموسيقى»، متسمًا بتلك النظرة المرتسمة على وجهه، الدالة على استغراقه التام. ولم يرَ أحد حزنها ـ ولا ينبغي أن يراه أحد ـ حتى جدها نفسه.

ووضعت يدها على ذراع «جوليون»، وقالت بصوت منخفض جدًّا:

ـ لا بد من عودتي إلى البيت يا جدي إذ أشعر بأني مريضة.

وخرج بها على عجل، مغمغمًا لنفسه بأنه كان على علم بما ستكون عليه الحال.

ولم يقل لها شيئًا إلا عندما استقلَّا ثانية العربة التي كانت قد تلكأت، لحسن الحظ، بالقرب من الباب. فقد سألها حينذاك:

ـ ما الأمر يا عزيزتي؟

وشعر بجزع شديد عندما رأى الزفرات تهز جسمها الدقيق كله. لا بد أن يفحصها الطبيب «بلانك» غدًا. وسيصر على ذلك، فهو لا يستطيع أن يراها على هذا النحو... لا، لا!

وسيطرت «جون» على زفراتها. واضطجعت على ظهرها في ركنها وهي تضغط يده ضغطًا محمومًا، وقد سترت وجهها بمئزر.

ولم يستطع أن يرى إلا عينيها تحدقان في الظلام وتشخصان. ولكنه لم يكف عن الربت على يدها بأصابعه النحيلة.

الفصل الثامن عشر
سهرة في «ريتشموند»

كانت هناك عيون أخرى، غير عيني «جون» و«سومز»، قد رأت «هذين الاثنين» (كما سبق لـ«أوفيميا» أن دعتهما) مقبلين من ركن الموسيقى، وعيون أخرى لاحظت النظرة التي ارتسمت على وجه «بوزيني».

وهناك لحظات تكشف فيها الطبيعة عن العاطفة المختبئة خلف هدوئها غير المبالي في حالاتها العادية، نبع عنيف من النور يفيض بياضًا على زهر لوزي خلال السحب الأرجوانية، ذروة ثلجية، مضاءة بنور القمر، منفردة بنجمها الأوحد، تحلق متطلعة إلى الزرقة الولهانة؛ أو شجرة سرو عتيقة قائمة وراء لهب الغروب كحارس غامض لسر خطير ما.

وهناك أيضًا لحظات تحين عندما تغزو لوحة، علق عليها مشاهد عرضي في معرض صور، بهذه العبارة ««تيتيان»... بديعة على نحو ملحوظ»، تغزو هذه اللوحة حصون فرد من أسرة «فورسايت»، لعله تناول غداء أدسم من أقربائه، وتخلب لبه، وتصيبه بنوع من الغيبوبة. ثمة أشياء... يشعر تمامًا بأن ثمة أشياء هي... حسنًا، هي بالفعل أشياء. هناك أمر يستحوذ عليه فوق متناول الجدل، ومتناول العقل. وهو إذا حاول تعريفه أفلت منه وتسرب كنشوة النبيذ الذي شربه، حين تتسرب وتتركه غاضبًا شاعرًا بتعب كبده. وهو يشعر بأنه كان مسرفًا، مفرطًا في شيء، لقد انحسرت عنه الفضيلة،

ولم يرغب في إلقاء تلك اللمحة على ما يكمن وراء النجوم الثلاثة التي سجلها المشاهد العرضي في «فهرسه» لا سمح الله أن يرغب في معرفة شيء عن قوى الطبيعة! لا سمح الله أن يقر لحظة بأن هناك مثل هذه القوى! وهو إذا أقر مرة بذلك فماذا يكون وضعه؟ إن هناك من يدفع «شلنًا» للدخول وآخر يدفعه للحصول على الفهرس.

إن النظرة التي رأتها «جون»، ورآها آخرون من أفراد أسرة «فورسايت»، تشبه ومض شمعة نفذ فجأة من ثقب في نسيج لوحة متخيلة، وكانت الشمعة تتحرك وراء هذا النسيج، إنه إدراك مفاجئ لوهج غامض ضال وهمي أخاذ. وقد جلب إلى البيت شعورًا للمشاهدين بأن هناك قوى ذات خطر تضطلع بالعمل. وقد لاحظوا هذه القوى مغتبطين مهتمين للحظة من اللحظات، ثم شعروا جميعًا بأنهم ينبغي ألا يلاحظوها.

بيد أنها أمدتهم مع ذلك بعلة مجيء «جون» متأخرة جدًّا وبانصرافها ثانية دون أن ترقص، بل حتى دون أن تصافح حبيبها. وقيل إنها كانت مريضة، ولا عجب.

ولكن كلًّا منهم نظر هنا إلى الآخر شاعرًا بالإثم. فهم لا يرغبون في نشر الفضيحة، لا يرغبون في أن يكونوا سيئي الخلق، ومن ذا الذي يرغب في ذلك؟ ولم يتنفس أحدهم بكلمة لأجنبي، فهناك قانون غير مكتوب يلزمهم السكوت.

ثم وردت الأنباء بأن «جون» ذهبت إلى شاطئ البحر مع «جوليون الكبير».

لقد رحل بها إلى «برودستيرز»، وهو مكان اتجه الميل إليه في هذا الوقت بالذات، إذ فقد شاطئ «يارماوث» قيمته برغم رأي «نيكولاس». وليس هناك «فورسايتي» يذهب إلى شاطئ البحر دون أن يقصد التظاهر بغناه على نحو يجعله صفراوي المزاج لمدة أسبوع. وهذا الميل الأرستقراطي المحتوم، ميل أول «فورسايتي» إلى شرب نبيذ «ماديرا»، جعل ذريته سهلة القياد دون ريب.

وهكذا ذهبت «جون» إلى شاطئ البحر، وانتظرت الأسرة تطور الأمور؛ فليس هناك عمل آخر تؤديه.

ولكن، إلى أي مدى... إلى أي مدى ذهب «هذان الاثنان»؟ أيمكن أن يذهبا حقًّا إلى أي مدى كان؟ إن ذلك لا يمكن قطعًا أن يثمر، فإن كلًّا منهما يفتقر إلى المال. وقصاراه مغازلة بينهما تنتهي في الوقت المناسب ككل علاقات المحبة.

وسخرت «وينيفريد دارتي»، أخت «سومز»، من فكرة انطواء الأمر على شيء مريب، فقد تشبعت بالنسمات التي تهب في «مايفير» ـ إذ هي تقطن في «جرين ستريت» ـ فهناك المبادئ الخاصة بسلوك الزوجات، عصرية أكثر مما هو شائع في «لادبروك جروف» مثلًا. إن «الشيء الصغير» ـ كانت «آيرين» أطول منها قامة؛ وكان دليلًا حقيقيًّا على قيمة «الفورسايتي» الثابتة أن تظل «آيرين» هكذا على الدوام «شيئًا صغيرًا» ـ إن «الشيء الصغير» عانت الضجر، فلماذا لا تلهي نفسها؟ و«سومز» متعب نوعًا. أما السيد «بوزيني» ـ و«جورج» الهزأة هو الذي ينبغي وحده أن يدعوه «القرصان» ـ فإنها تصر على أنه فتى «أنيق» جدًّا.

إن ذلك القول المأثور ـ وهو أن «بوزيني» أنيق ـ أحدث أثرًا مثيرًا؛ بيد أنه عجز عن إقناع أحد.

إنهم على استعداد للتسليم بأنه «وسيم على نحو ما». أما أن يستطيع أحد وصف رجل ناتئ أعلى الخدين، غريب العينين، ويلبس القبعات اللينة، بأنه «أنيق»، فهو دليل آخر على طريقة «وينيفريد» المسرفة في الجري وراء شيء جديد ما.

كان ذلك هو الصيف الشهير الذي عُدَّ فيه الإسراف طرازًا عصريًّا، وكانت الأرض نفسها مسرفة. فقد امتدت أشجار الكستناء محملة بالنور، وانغمست الأزهار في العطر على نحو لم يسبق له من قبل مثيل. وانبثقت الورود في كل حديقة. لم يكد يتسع المساء للنجوم المحتشدة. وفي كل يوم، وخلال

كل نهار بطوله؛ كانت الشمس، وهي في كامل عدتها، تهز درعها النحاسية فوق «البارك»؛ وكان الناس يقومون بأعمال غريبة فيتغدون ويتعشون في الهواء الطلق. وكانت حكاية عربات الركوب، والعربات الخاصة المتدفقة فوق جسور النهر المتألق، حاملة آلافًا من أفراد الطبقة فوق المتوسطة إلى الروائع الخضر في «بوشي» و«ريتشموند» و«كيو» و«هامبتون كورت». كانت حكاية لم يسبق لها مثيل. فقد قامت كل أسرة، على الأغلب، مدعية أي ادعاء أنها من طبقة أصحاب العربات، قامت في ذلك العام بزيارة لأكمة الكستناء الهندي في «بوشي»، أو تجولت بالعربة بين أشجار الكستناء الإسبانية في «ريتشموند بارك». وبينما كانت العربات تتدحرج براكبيها في سهولة، وإن علا غبار من صنعهم على طول الطريق، أخذ أولئك القوم يحدقون، بطريقة عصرية، في قرون الوعل الكبير المتواني، وقد برز بها من غابة الديشار التي تبشر عشاق الخريف بستار كثيف لم يروا نظيرًا له من قبل. وبين الحين والحين، إذ يهب أريج الحب المنبعث من زهر الكستناء والديشار، ويقترب كل الاقتراب، قد يقول أحدهم للآخر: «يا عزيزي! يا لها رائحة غريبة!».

وازدهر زهر الزيزفون في ذلك العام ازدهارًا نادرًا، وصار لونه قريبًا من لون العسل. وأخذ ينفث في أركان ميادين لندن، عند غروب الشمس، أريجًا أعذب من الأريج الذي امتصه النحل، أريجًا حرك حنينًا لا يوصف في قلوب «الفورسايتيين» وأشباههم الذين يستروحون بعد الغداء في رحاب الحدائق التي لا يملك غيرهم مفاتيحها.

وهذا الحنين يحملهم على التريث بين الأشكال المعتمة لأحواض الزهور وقت الغروب. ويحملهم كذلك على التلفت، والتلفت، ثم التلفت كأنما هناك أحباب ينتظرونهم، ينتظرون تبدد آخر بصيص من النور تحت ظلال الأغصان.

وكأنما ابتعثت رائحة زهر الزيزفون ميلًا غامضًا ما، ابتعثت رغبة أخوية في أن تتحقق «وينيفريد» من الأمر بنفسها، ابتعثت فكرة هي أن تقيم الدليل

على سلامة رأيها المأثور، وهو أنه «ليس في الأمر شيء يريب»، أو لعل مجرد اشتهاء الذهاب إلى «ريتشموند»، المغري في ذلك الصيف إغراء لا يقاوم، هو الذي دفع أم أولاد «دارتي» الصغار، وهم («بابليوس الصغير»، (أوف إيموجين)، و«مود» و«بينيديكت») دفعها إلى إرسال الخطاب التالي لزوجة أخيها:

٣٠ يونيو

عزيزتي «آيرين»،

بلغني أن «سومز» سيرحل غدًا إلى «هينلي»، وسيقضي ليلة هناك، فخطر لي أننا إذا انتظمنا في جماعة صغيرة، وقصدنا إلى «ريتشموند»، فستكون في ذلك متعة ومرح، فهل تسألين السيد «بوزيني» في ذلك، وسأصطحب أنا «فليبارد» الشاب. وستقرضنا «إميلي» (كانوا يدعون أمهم «إميلي»، فهذا تصرف عصري جدًّا) ستقرضنا العربة. وسأمر بك، وبفتاكِ في الساعة السابعة.

أختك المحبة

«وينيفريد دارتي»

ملحوظة: يعتقد «مونتيج» أن الطعام في «كراون أند سيبتر» شهي جدًّا.

و«مونتيج» هو اسم «دارتي» الثاني، وهو الأكثر شهرة، أما اسمه الأول فهو «موسى»؛ وهو يستعمل الاسم الثاني لأنه لن يكون شيئًا مذكورًا إذا لم يكن «رجل العالم».

وقُوبلت خطتها بمقاومة من القدر أشد مما يستحقه مشروع خيِّر كهذا. وحدث أولًا أن كتب إليها «فليبارد»:

عزيزتي السيدة «دارتي»،

متأسف جدًّا، فأنا مشغول إلى حد كبير.

المخلص

«أُغُسطس فليبارد»

وكان الوقت متأخرًا بحيث لا يسمح بإرسال الرسل إلى المنعطفات والأسيجة لعلاج الكارثة. ولجأت «وينيفريد» إلى زوجها مدفوعة بحزم الأم وسلوكها. وكانت تتمتع حقًّا بطبيعة التصميم، ولكن مع التساهل، تلك الطبيعة المتمشية إلى حد كبير مع منظر وجهها الجانبي، والشعر الأشقر، والعينين الخضراوين. وهي لم تكن ترتبك قط، أو نادرًا ما كان يحدث هذا. أو لو حدث هذا فإنها كانت تستطيع دائمًا أن تحوله إلى كسب.

وكان «دارتي» في حالة معنوية عالية أيضًا. إن الجواد «إروتيك» لم يفز في سباق «لانكاشاير كوب». لم ينطلق هذا الحيوان الشهير حتى منذ بداية السباق وهو مملوك لرجل من أساطين حلبة السباق. وقد راهن هذا الرجل بآلاف كثيرة من الجنيهات على فوز جواد آخر. وكانت الساعات الأربع والعشرون التي أعقبت الخدش الذي أصاب «دارتي» من أشد ساعات حياته ظلمة.

وحامت حوله رؤى «جيمس» ليلًا ونهارًا. وامتزجت خواطره على «سومز» بأضأل الآمال. وبلغ من تأثره الشديد أن سكر ليلة الجمعة. ولكن غريزة المضارب في سوق الأوراق المالية تغلبت عليه صباح السبت. وإذ كان مدينًا ببضع مئات من الجنيهات ليس هناك أي احتمال لإمكان سدادها، فقد ذهب إلى المدينة، وراهن بكل ما لديه على الفرس «كونشيرتينا» في سباق «سالتاون بورو هانديكاب».

وهذا ما قاله لـ«الميجور سكروتون» الذي تغدى معه في «إسيوم»: «ذلك الغلام اليهودي الصغير المدعو «ناثانز» هو الذي أشار عليه بهذه المراهنة. وهو لا يهتم بالأمر فتيلًا، فهو يستحم في... مزبلة... وإذا حدث وخسر الرهان. حسنًا إذن، فإن على الرجل العجوز عندئذ أن يدفع!».

وزجاجة من نبيذ «بول روجر» أمدته، لفرط وقاحته، باحتقار جديد لـ«جيمس».

ونجح الأمر. واشتد الضغط على «كونشيرتينا» ففازت بطول رقبة، ضجة رهيبة! ولكن، كما قال «دارتي»، ليس هناك شيء يضارع جني الربح!

ولم يكن يكره بحال نزهة «ريتشموند»، فهو نفسه يستطيع «احتمالها!». وكان يكن إعجابًا بـ«آيرين»، ويود أن تكون صلة الصداقة بينهما أكثر مرحًا.

وفي الساعة الخامسة والنصف جاء خادم «بارك لين»، وقال: «السيدة «فورسايت» تبدي أشد الأسف، فإن أحد الجياد مصاب بالسعال!».

ولم تنل هذه الصدمة الجديدة من شجاعة «وينيفريد»، فقد أرسلت من فورها «بابليوس» الصغير مع مربيته (وهو يبلغ الآن السابعة) إلى ميدان «مونبيلييه». مكتبة سُر مَن قرأ

سيذهبون في عربات ركوب، ويتقابلون الساعة الثامنة إلا ربعًا في «كراون أند سيبتر».

وإذ سمع «دارتي» ذلك سُر كثيرًا، فهذا أفضل من ذهابك وظهرك إلى الجياد! ولم يكن يعترض على الذهاب في العربة مع «آيرين». وحسب أنهم سيعثرون على الآخرين في ميدان «مونبيلييه» ويبدلون العربات هناك؟

ولما أخبروه أن اللقاء سيكون في «كراون أند سيبتر»، وأنه سيستقل العربة مع زوجته، عبس وقال إن عربات الركوب، عليها اللعنة، بطيئة!

وبدأوا السير في السابعة؛ وعرض «دارتي» على السائق أن يراهن بنصف «كراون» على أنه سيعجز عن الوصول في ثلاثة أرباع الساعة.

ولم يتبادل الزوج وزوجته الملاحظات في أثناء الطريق إلا مرتين وحسب.

وقال «دارتي»:

ـ سينخلع أنف السيد «سومز» من مكانه إذا علم أن زوجته ركبت العربة مع السيد «بوزيني»!

وأجابت «وينيفريد»:

ـ لا تقل مثل هذا الهراء يا «مونتي»!

وكرر «دارتي»:

ـ هراء! أنت لا تعرفين النساء يا سيدتي اللطيفة!

وفي المناسبة الأخرى لم يكن منه إلا أن سأل:

ـ كيف أبدو؟ أأبدو منتفخًا قليلًا حوالي أنفي؟ إن المشروب الفوار الذي يغرم به الفتى «جورج» كثيرًا، هو النبيذ الزكي الرائحة!

وكان قد تناول الغداء مع «جورج فورسايت» في «هافرسنيك».

ووصل «بوزيني» و«آيرين» قبلهما. وكانا يقفان إلى جوار نافذة من نوافذ الشرفات المستطيلة المطلة على النهر.

وكانت النوافذ في ذلك الصيف تظل مفتوحة طوال النهار، وطوال الليل أيضًا، وتنفذ منها ليلًا ونهارًا روائح الزهور والأشجار، والرائحة الدافئة للحشائش اللافحة، والرائحة الرطبة للأنداء الكثيفة.

وبدا لِعين «دارتي» الدقيقة الملاحظة أن ضيفيه لا يبدوان كثيري الحركة، فهما يقفان هناك متجاورين دون أن ينطقا بكلمة. و«بوزيني» مخلوق فقير الهيئة، ولا يُرجى منه نفع كثير!

وتركهما مع ذلك لـ«وينيفريد»، وشغل نفسه باختيار أصناف الطعام.

و«الفورسايتي» يطلب الطعام الجيد، إن لم يطلب الطعام الطيب، إن لم يطلب الطعام الرقيق؛ أما مثل «الدارتي» فهو يبهظ موارد «كراون أند سيبتر».

وهو إذ يعيش، كما هي حاله، عيشة الكفاف، فليس هناك طعام أثمن في نظره من أن يأكله؛ وهو سيأكله. كذلك شرابه ينبغي أن يختاروه له بعناية؛ فهذه البلاد ملأى بأشربة لا تليق كثيرًا بـ«الدارتي»، وهو لا بد أن يحصل على أفخر شراب. وما دام يدفع الثمن من مال غيره، فليس هناك ما يدعو إلى التضييق على نفسه، فالتضييق على نفسك علامة على أنك مخبول، ولست «دارتيًّا».

الحصول على أجود صنف! ليس هناك مبدأ أسلم من هذا يستطيع المرء أن يتخذه أساسًا لحياته ما دام حموه ذا دخل وفير جدًّا، ومتحيزًا لحفدته.

واستنبط «دارتي»، بعينه غير العاجزة، استنبط هذا العجز في «جيمس» في نفس العام الأول التالي لمولد «بابليوس»، (وقد حدث ذلك خطأ)

وأفاد من نفاذ بصيرته. وأصبح الآن أربعة من «الدارتيين» الصغار نوعًا من التأمين الدائم.

وكان طابع الوليمة، دون جدال، سمك «البوري» الأحمر. وقد تم أولًا قلي هذا السمك الشهي، المجلوب من مكان شديد البعد في حالة من الوقاية تكاد تبلغ درجة الكمال، ثم نُزعت أشواكه، وقدم محفوظًا في الثلج، مغموسًا في شراب «ماديرا» بدلًا من المرق العادي، وذلك طبقًا لوصفة يعرفها قليلون من أهل الخبرة.

وليس هناك شيء آخر يستحق الملاحظة إلا سداد «دارتي» لقائمة الحساب.

وقد تلطف إلى حد كبير طوال العشاء، ولم تنصرف نظرته الجريئة المعجبة عن وجه «آيرين» وجسمها إلا نادرًا. وهو لم يستطِع أن يحملها على تغيير موقفها منه ـ كما اضطر أن يقر بذلك فيما بينه وبين نفسه ـ كانت باردة إلى حد ما، باردة ككتفيها الباديتين كذلك تحت نقابها الشفاف اللبني اللون. وقد توقع أن يفاجئها «متلبسة» بمداعبة «بوزيني». ولكن لم تكن هناك مسحة من ذلك، فقد أحسنت التمسك بهدفها على نحو ملحوظ. أما هذا الفتى المهندس فكان متجهمًا كالدب موجع الرأس. ولم تكد «وينيفريد» تستطيع أن تستخلص منه كلمة واحدة. وهو لم يأكل شيئًا، ولكنه احتسى شرابه بالتأكيد. وظل وجهه يزداد بياضًا، وبدت عيناه غريبتين.

وكان كل شيء ملهيًا جدًّا.

ذلك أن «دارتي» نفسه كان في حالة عظيمة، وتحدث بطلاقة، مع شيء من الجد، فهو ليس بالأبله. وحكى حكايتين أو ثلاث حكايات متحاشيًا القول غير اللائق، مراعاة منه للمجلس، فلم تكن من عادة حكاياته أن تتحاشى ذلك. وطلب في عبارة ساخرة أن تشرب الجماعة نخب «آيرين». ولم يشرب أحد نخبها. وقالت «وينيفريد»: «لا تكن أضحوكة على هذا النحو يا «مونتي»!».

وذهبوا بعد العشاء، بناء على اقتراحها، إلى الشرفة العمومية المطلة على النهر. وقالت: «أود أن أرى عامة الناس يتطارحون الغرام، فهذا مسلٍّ جدًّا!».

وكان عدد منهم يسير في الجو الرطب، بعد حرارة النهار، وانتعش الهواء برنين أصوات، بعضها أجش عالٍ، وبعضها ناعم كأنه همهمة أسرار.

ولم يطل الزمن قبل أن تجد لهم «وينيفريد»، بفطنتها المتميزة، مقعدًا خاليًا، وكانت هي «الفورسايتية» الوحيدة الموجودة بينهم، وجلسوا عليه في صف واحد. ونشرت شجرة ظليلة فوق رؤوسهم مظلة كثيفة، واسود غبش المساء في بطء فوق النهر.

وجلس «دارتي» في طرف المقعد، وإلى جواره جلست «آيرين»، ثم «بوزيني»، ثم «وينيفريد». ولم يكد المقعد يتسع لأربعة أشخاص. واستطاع رجل العالم أن يشعر بذراع «آيرين» محشورة في ذراعه. ولم يغب عنه أنها لا تستطيع سحبها دون أن تبدو وقحة، وأمتعه ذلك. وتذرع بين الحين والحين بحركة تزيدها قربًا منه. وقال لنفسه: «لن يستولي ذلك القرصان عليها كلها! هذا التصاق بديع ملائم بالتأكيد!».

وترامى عن بعد من ناحية النهر المظلم الجاري أسفل الشرفة رنين لحن عذب، وأصوات تغني ذلك الدور القديم:

«قارب، قارب يعبر النهر

سنستقله ونمرح،

ونضحك، ونرتوي، ونشرب «الشيري» الأحمر الداكن!».

وظهر القمر فجأة، فتيًا رقيقًا، سابحًا على ظهره وراء الشجرة. وكأنما تنفس، فازداد الهواء برودة، ولكن رائحة الزيزفون الدافئة كانت تهب دائمًا في أثر ذلك الهواء الأشد برودة.

وتطلع «دارتي» من فوق سيجاره إلى «بوزيني» الذي كان يجلس مكتوف اليدين، محدقًا أمامه مباشرة. وعلى وجهه هيئة رجل يكابد التعذيب.

وصوَّب «دارتي» نظرة إلى الوجه البادي بينهما، المتشح بالظلال المخيمة

إلى حد أنه لم يبدُ إلا كقطعة أشد ظلمة من الظلام المخيم، متكونة الشكل، مترددة الأنفاس، رقيقة غامضة جذابة.

وخيَّم الصمت على الشرفة ذات الضجيج، وكأنما فكر المتجولون جميعًا في أسرار أغلى من كشفها بالحديث.

وقال «دارتي» لنفسه: «النساء!».

وتبدد الوهج الذي علا النهر، وتوقف الغناء. واحتجب القمر الفتي وراء شجرة، وأظلم كل شيء، وضغط على «آيرين» بجسمه ثانية.

ولم يجزع من الرعشة التي سرت في الأوصال التي لمسها، أو من نظرة عينيها المضطربة الساخرة. وشعر بها تحاول أن تبتعد عنه فابتسم.

ولا بد من الاعتراف بأن «رجل العالم» شرب من الخمر بقدر ما يصلح له.

وكانت له هيئة مخلوق خرافي، خبيث مع ما بدا من شفتيه الغليظتين المنفرجتين تحت شاربه المفتول بعناية، وعينيه الجريئتين الحانيتين على الفتاة.

وانتظمت النجوم على طول امتداد السماء بين حواجز أعالي الأشجار، وبدت كأنها تنتقل وتتزاحم وتتهامس كالآدميين تحتها. ثم انفجرت الضوضاء في الشرفة ثانية، وخطر لـ«دارتي»: «آه! إن «بوزيني» هذا شيطان تافه، مبتذل المظهر!». والتصق بـ«آيرين» ثانية.

واستحقت حركته قدرًا أكبر من النجاح. فقد نهضت «آيرين»، وتبعها الآخرون. وازداد «رجل العالم» تصميمًا ـ أكثر من أي وقت مضى ـ على معرفة حقيقة أمرها. وظل قريبًا من مرفقها وهم يقطعون عرض الشرفة؛ وقد امتلأ بقدر طيب من الخمر. وكانت مسافة العودة بالعربة إلى المنزل طويلة. كانت هناك تلك المسافة الطويلة، وضيق العربة الدافئ الظليل السار، مع العزلة عن العالم، تلك العزلة التي ابتدعها رجل عظيم طيب، ويمكن لذلك الفتى المهندس النهم أن يركب العربة الأخرى مع زوجته ـ أي زوجة «دارتي» ـ وتمنى له أن يمتع نفسه بها! ولما كان على وعي من

أنه لا يتمالك صوته تمامًا، فقد حرص على تحاشي الكلام؛ ولكن ابتسامة ثبتت على شفتيه الغليظتين.

وتمشوا صوب العربتين اللتين تنتظرانهم من الناحية القصوى. وكانت خطته تتصف بميزة كل الخطط العظيمة، وهي البساطة التي تكاد تكون همجية، فما عليه إلا أن يظل لصيقًا بمرفقها حتى تركب العربة، فيسارع عندئذ إلى الركوب على أثرها.

ولكن «آيرين» لم تركب العربة لدى وصولها إليها، بل مرقت، بدلًا من الركوب، إلى رأس الحصان. ولم يكن «دارتي» يسيطر في تلك اللحظة على قدميه بالقدر الذي يكفي لملاحقتها. ووقفت تمسح أنف الحصان، ووجد لشدة ضيقه، أن «بوزيني» سبقه إلى الوقوف بجوارها. ودارت إليه، وحدثته على عجل، بصوت منخفض، ووصلت إلى أذن «دارتي» عبارة «هذا الرجل». ووقف في عناد إلى جانب سلم العربة منتظرًا عودتها. وكان يعلم أن الحيلة تساوي ضعف مناورتها هذه!

وكان هنا في أحسن حالاته، كان «رجل العالم» تمامًا، وقد بدت هيئته على ضوء مصباح الطريق (لم يزد طوله على المتوسط) بدت متناسقة وهو في صدار السهرة الأبيض، ومعطفه الخفيف ملقى على ذراعه. وزهرة حمراء عالقة بعروته؛ وتلك النظرة، نظرة الوقاحة الجريئة الفكهة ترتسم على وجهه المظلم.

وكانت «وينيفريد» الآن في عربتها. وخطر لـ«دارتي» أن «بوزيني» سيقضي معها وقتًا سقيمًا في العربة إن لم يبدُ حاذقًا! وعلى حين فجأة تلقى دفعة كادت تلقي به على ظهره في عرض الطريق. ورن صوت «بوزيني» في أذنه:

ـ إني سأرافق «آيرين» في عودتها، أتفهم؟

ورأى وجهًا يبيض انفعالًا، وعينين تحملقان فيه كعيني قط بري. وغمغم:

ـ إيه؟ ماذا؟ أبدًا، رافق زوجتي!

وأز أزيز «بوزيني»:

ـ ابتعد! وإلا ألقيت بك في الطريق!

وتراجع «دارتي» إلى الوراء؛ فقد رأى، على قدر ما يُستطاع من وضوح، أن الفتى يعني ما يقول. وخطت «آيرين» إلى العربة من خلال المسافة التي تراجع عنها، وتمسح ثوبها في قدميه، وخطا «بوزيني» وراءها.

وسمع القرصان يصيح قائلًا:

ـ انطلق!

وألهب السائق ظهر جواده، فقفز إلى الأمام.

ووقف «دارتي» لحظة في ذهول، ثم اندفع إلى العربة التي جلست فيها زوجته واقتحمها. وصاح بالسائق:

ـ سق العربة، وإياك أن يغيب هذا الفتى المنطلق أمامك عن نظرك!

واندفع يسب ويلعن بعد جلوسه إلى جوار زوجته، وإذ هدأ روعه بعد بذل مجهود كبير، أضاف قائلًا:

ـ لقد أربكتِ الأمر إرباكًا شديدًا بتركك القرصان يركب معها إلى بيتها. لماذا، بالله عليكِ، لم تستطيعي أن تمسكي به؟ لقد جن حبًّا، أي أبله يستطيع أن يدرك هذا!

وأغرق إجابة «وينيفريد» بدعوات أخرى إلى الله جلت قدرته؛ ولم يكف عن ندبه إلا عند وصولهما إلى «بارنيز»، وكان في أثناء ذلك قد شتمها، وشتم أباها وأخاها، و«آيرين» و«بوزيني»، واسم «فورسايت»، وأولاده أنفسهم؛ ولعن اليوم الذي تزوج فيه.

وتركته «وينيفريد» وهي امرأة على خلق متين، تركته يقول ما يريد، وعلى أثر ذلك استغرق في صمت صارم. ولم تتحول عيناه الغاضبتان قط عن ظهر تلك العربة التي حامت في الظلام أمامه كأنها أمل مفقود.

ومن حسن الحظ أنه لم يستطِع سماع توسلات «بوزيني» العاطفية، تلك التوسلات التي أطلقها سلوك «رجل العالم» كما ينطلق السيل. ولم يستطِع أن يرى «آيرين» ترتجف كأنما تمزق عن جسدها كساء، أو أن يرى عينيها

السوداوين، المثيرتين للحزن، الشبيهتين بعيني طفل مضروب، ولم يستطِع سماع «بوزيني» وهو يتوسل، ويتوسل، ويظل يتوسل. ولم يستطِع سماع بكائها المفاجئ الرقيق، أو أن يرى ذلك الإبليس المسكين، الجائع الهيئة، وهو خائف يرتعد ويلمس يدها في مذلة.

وفي ميدان «مونبيلييه» عرج سائقهما بأمانة وراء العربة الراكضة أمامه، متبعًا التعليمات التي تلقاها اتباعًا حرفيًّا. وإذا «دارتي» وزوجته يريان «بوزيني» يقفز من العربة، و«آيرين» تتبعه، مسرعة الخطى، مطأطئة الرأس. ولا شك أن مفتاح البيت كان في يدها لأنها توارت على الأثر. وكان من المستحيل أن نعرف هل التفتت لتحدث «بوزيني».

وأقبل هذا الأخير، مارًّا بعربتهما. وتمكن كل من الزوج وزوجته أن يرى منظر وجهه جيدًا على ضوء مصباح الشارع. وقد كان منفعلًا بأعنف العواطف.

ونادت «وينيفريد»:

ـ مساء الخير يا سيد «بوزيني».

وجفل «بوزيني»، وخلع قبعته، وأسرع في المسير. ومن الواضح أنه نسي وجودهما. وقال «دارتي»:

ـ انظري! أرأيتِ وجه الحيوان! ألم أقل لكِ؟ ألاعيب لطيفة!

لقد حسن موقفه من هذه المناسبة.

وبدا واضحًا أن أزمة وقعت في العربة إلى حد أن «وينيفريد» لم تستطع أن تدافع عن نظريتها. وقالت:

ـ إني لم أنبس بكلمة عن هذا، فلست أرى أي جدوى من إثارة لغط حوله!

ووافق «دارتي» من فوره على وجهة النظر هذه. ولما كان ينظر إلى «جيمس» على أنه ملك خاص له، فقد عارض في إزعاجه بمتاعب الآخرين. قال:

ـ هذا صحيح. لندع «سومز» يهتم بأموره، فهو قادر على ذلك تمامًا!

وإذ نطق بهذا دخل هو وزوجته منزلهما في «جرين ستريت»! وكان «جيمس» يدفع إيجاره، والتمسا هناك راحة استحقاها بجدارة. وكان الليل قد انتصف. ولم يبق وقتئذ «فورسايتي» واحد خارج بيته في الطريق ليتجسس على «بوزيني» في طوافه، وليراه وقد عاد ووقف مستندًا إلى حاجز حديقة «سكوير»، مرتدًّا عن وهج مصباح الشارع. ثم ليراه واقفًا هناك تحت ظلال الأشجار، مراقبًا المنزل الذي تتوارى في ظلمته تلك التي يهب العالم كله في سبيل رؤيتها للحظة واحدة، تلك التي صارت له الآن عبير أشجار الزيزفون ومعنى النور والظلام، بل صارت لقلبه ضرباته ذاتها.

الفصل التاسع عشر
تشخيص طبيعة «الفورسايتي»

إن من طبيعة «الفورسايتي» أن يكون جاهلًا بأنه «فورسايتي». ولكن «جوليون الصغير» كان على علم تام بأنه أحد «الفورسايتيين». وهو لم يدرك ذلك إلا بعد أن أقدم على الخطوة الفاصلة التي جعلته منبوذًا؛ ومن ثم لازمه هذا الإدراك دون انقطاع. لقد شعر بذلك من خلال صلاته، ومن خلال جميع معاملاته، وشعر به مع زوجته الثانية التي لم تكن «فورسايتية» بحال.

علم بأنه لو لم يملك إلى حد كبير صفة الاهتمام بما يرغب فيه، وإصراره على الاحتفاظ به، وشعوره بحماقة التفريط فيما بذل من ثمن باهظ للحصول عليه ـ وبعبارة أخرى، صفة «الشعور بالملكية» ـ لولا ذلك لما استطاع قط أن يستبقي زوجته (ولعله لم يكن ليرغب قط في استبقائها) خلال تلك المتاعب المالية كلها، وخلال الإهانات والتقولات التي تعرض لها خلال تلك السنوات الخمس عشرة؛ ولما حملها قط على الزواج به بعد موت زوجته الأولى. ولما عاش قط هذه الحياة حتى النهاية، ونحل جسمه، كما هي الحال، ولكن مع الاحتفاظ بابتسامة.

كان واحدًا من أولئك الرجال الذين يبتسمون أبدًا ابتسامة مريبة، ضاحكين من أنفسهم، وهم يجلسون القرفصاء، كالأصنام الصينية المصغرة، في أقفاص صنعوها على هواهم. وليس معنى ذلك أن تلك الابتسامة التي بلغت ذلك

المبلغ من الألفة والسرمدية، تتدخل في أعماله التي لم تكن ـ كذقنه وطبعه ـ إلا مزيجًا من اللين والتصميم.

وكان يدرك أيضًا أنه «فورسايتي» في عمله، في الرسم بالألوان المائية، ذلك الرسم الذي كرس له جهدًا كبيرًا، مراقبًا نفسه دائمًا حتى لكأنه لا يستطيع أن يزاول مهنة غير عملية إلى هذا الحد مزاولة جدية، شاعرًا دائمًا بقلق غريب معين مرده إلى أنه لم يحصل من ذلك العمل على ربح أكبر.

وذلك الإدراك لمعنى كونه «فورسايتيًّا»، هو إذن الذي جعله يتلقى بمزيج من العطف والامتعاض خطاب «جوليون الكبير» التالي:

«شيلدريك هاوس»،

«برودستيرز»،

اليوم الأول من يوليو.

عزيزي «جو»،

(كان خط أبيه قد تغير قليلًا في أثناء الأعوام الثلاثين الغريبة، بحسب ما يتذكر.)

لقد مضى علينا هنا أسبوعان كان الطقس خلالهما طيبًا على وجه العموم، إن الهواء منعش، ولكن كبدي مختلة، ويسرني كثيرًا أن أعود إلى المدينة. أنا لا أستطيع أن أقول لك شيئًا كثيرًا سارًّا عن «جون»، فصحتها وروحها المعنوية ليستا على ما يرام؛ ولست أتبين ما سيسفر عنه ذلك. إنها لا تقول شيئًا، ولكن من الواضح أنها تضرب على وتر تلك «الخطبة» التي هي «خطبة» و«لا خطبة»، بل يعلم الله ما هي. فهل ينبغي السماح لها بالعودة إلى لندن في مثل هذه الحالة الحاضرة؟ وإني أشك في ذلك، ولكنها عنيدة إلى حد أنه يمكن أن تقرر العودة في أي لحظة.
والواقع أنه ينبغي أن يتحدث أحد إلى «بوزيني». ويستوثق من مقصده. وأنا نفسي أخشى الإقدام على ذلك لأني سأدق عندئذ مفاصله دون ريب؛ ولكني فكرت في أنك قد تصل معه إلى أمر، نظرًا إلى معرفتك به في النادي، وتستوثق من شأن ذلك الفتى.

وأنت بالطبع لن تتخلى عن مسؤوليتك قِبل «جون» بحال من الأحوال. وسيسرني أن أعلم منك في خلال بضعة أيام هل وفقت في الحصول على أي معلومات. إن الحالة تحزنني حزنًا شديدًا، وتقض مضجعي ليلًا... حبي لـ«جولي» و«هولي».

أبوك الذي يحبك

«جوليون فورسايت»

وفكر «جوليون الصغير» تفكيرًا طويلًا جادًّا في هذا الخطاب، إلى حد أن زوجته لاحظت اشتغال باله، وسألته عن الأمر فأجابها: «لا شيء هنالك».

وكان مبدأ من مبادئه الثابتة ألا يشير إلى «جون» أبدًا؛ وقد تتوجس زوجته شرًّا؛ وهو لم يعرف ماذا يمكن أن يخطر على بالها، ولذلك أسرع إلى إبعاد كل أثر للمشغولية عن سلوكه، ولكنه لم يصب في ذلك من التوفيق إلا زهاء ما كان يمكن أن يصيبه أبوه، ذلك أنه ورث عن «جوليون الكبير» شفافيته كلها في الأمور المتعلقة بـ«الذوق العائلي»؛ وحامت زوجة «جوليون الصغير» هنا وهناك، وهي تشغل نفسها بشؤون المنزل، مطبقة الشفتين، مختلسة إليه نظرات لا يسبر غورها.

وانطلق عصرًا إلى النادي، حاملًا الرسالة في جيبه، ولم يكن قد استقر بعد على رأي.

وكان يكره، بنوع خاص، أن يسبر غور إنسان للوقوف على «نياته»، ولم ينقص موقفه الشاذ من ذلك الكره، ومما هو أشبه بأفراد أسرته، وأشبه بكل من يعرفونهم ويخالطونهم، أن يفرضوا ما يسمونه حقوقهم على إنسان ما، ويضعوه في موضعه. والأشبه بهم كذلك أن يطبقوا مبادئ أعمالهم على صلاتهم الخاصة!

وكيف أن عبارة «وأنت بالطبع لن تتخلى عن مسؤوليتك قِبل «جون» بحال من الأحوال»، كيف أن هذه العبارة كشفت عن الأمر كله.

وبرغم ذلك كان الخطاب طبيعيًّا جدًّا، مع ما دل عليه من حزن شخصي، واهتمام بـ«جون»، و«دق المفاصل». ولا عجب أن يرغب أبوه في الوقوف على ما يعنيه «بوزيني»، ولا عجب أن يكون غاضبًا.

كان من الصعب رفض طلبه! ولكن لماذا أحال عليه الأمر ليضطلع به؟ إن هذا غير لائق أبدًا بالتأكيد. ولكن ما دام «الفورسايتي» يحقق غرضه فهو لا يهتم كثيرًا بالوسيلة، على شريطة إنقاذ المظهر.

كيف ينبغي أن يشرع في الأمر، أو كيف يرفض ذلك؟ كلتا الحالين تبدوان مستحيلتين. وبعد، يا «جوليون الصغير»!

ووصل إلى النادي في الساعة الثالثة، وكان أول من رآه هو «بوزيني» نفسه، جالسًا في أحد الأركان، محملقًا فيما وراء النافذة.

وجلس «جوليون الصغير» غير بعيد عنه، وبدأ يعيد النظر منفعلًا في موقفه. واسترق النظر إلى «بوزيني» الجالس هناك غير واعٍ. ولم يكن يعرفه معرفة جيدة. ولعله لأول مرة، عمد إلى امتحانه في انتباه؛ رجل له هيئة غير مألوفة، فهو مختلف في لبسه ووجهه وسلوكه عن أغلب أعضاء النادي، ومع أن «جوليون الصغير» نفسه أصبح مختلفًا في سلوكه ومزاجه، فقد ظل متشبثًا بالتحفظ الأنيق لمظهر «الفورسايتي»؛ ومن بين «الفورسايتيين» كان هو الوحيد الذي يجهل «كنية» «بوزيني». إن الرجل غير عادي. هو ليس بالشاذ، ولكنه غير عادي؛ وقد بدا منهوك القوى، شديد الشحوب، غائر الوجنتين تحت عظمتي خديه العريضتين العاليتين، وبرغم ذلك لم يبدُ عليه أي مظهر لاعتلال الصحة، ذلك أنه كان قوي البنية، ذا شعر مجعد، يدل مظهره على كل ما تشتمل عليه البنية القوية من حيوية.

وبدا على وجهه وهيئته شيء أثر في «جوليون الصغير». فقد عرف كيف يكون الألم، وبدا هذا الرجل كأنه يتألم.

ونهض، ولمس ذراعه.

وجفل «بوزيني»، ولكنه لم يظهر أي علامة على الضيق عندما رأى من لمسه.

وجلس «جوليون الصغير»، وقال:

ـ إني لم أرَكَ منذ مدة طويلة، كيف يسير العمل في بيت ابن عمي؟

ـ سيتم بناؤه في خلال أسبوع.

ـ أهنئك.

ـ شكرًا... أنا لا أرى في ذلك موضوعًا جديرًا بالتهنئة.

وتساءل «جوليون الصغير»:

ـ ألا تراه كذلك؟ كان ينبغي أن أظن أنه يسرك التخلص من مهمة طالت على هذا النحو. ولكني أحسبك تشعر بمثل ما أشعر أنا به عندما أفارق صورة أرسمها... أما هي أشبه بالطفل؟

ونظر إلى «بوزيني» بعطف. فقال «بوزيني» وقد ازداد توردًا:

ـ نعم. إنها تخرج من يدك، ويكون ذلك آخر عهدك بها، أنا لم أعلم أنك تشتغل بالرسم.

ـ أنا لا أرسم إلا بالألوان المائية. ولست أستطيع أن أزعم أني أؤمن بعملي.

ـ لا تؤمن بعملك؟ وكيف تستطيع إذن أن تؤديه؟ لا فائدة تُرجى من أي عمل ما لم تؤمن به!

وقال «جوليون الصغير»:

ـ صحيح، هذا بالضبط ما كنت أقوله دائمًا. والشيء بالشيء يذكر. ألم تلاحظ أنه كلما قال المرء: «صحيح»، يضيف باستمرار إلى ذلك قوله: «هذا بالضبط ما كنت أقوله دائمًا!»، وإذا سألتني كيف أؤدي ذلك العمل أجبت بأن مرجع ذلك إلى أني «فورسايتي».

ـ «فورسايتي!» أنا لم أنظر إليك قط على أنك واحد منهم!

وأجاب «جوليون الصغير»:

- «الفورسايتي» ليس حيوانًا غير عادي، فإنه بين أعضاء النادي مئات من «الفورسايتيين»، ومئات أخرى منهم خارج النادي في الطرقات، فأنت تقابلهم أيان ذهبت!

وقال «بوزيني»:

- وهل تسمح أن أسألك كيف تعرفهم؟

- بما لهم من «حاسة التملك». إن «الفورسايتي» يرى الأمور من وجهة نظر عملية - ويمكن أن يُقال من وجهة نظر البصيرة الواعية - ووجهة نظرهم العملية إلى الأمور ترتكز أساسًا على «حاسة التملك». وإنك لتلاحظ أن «الفورسايتي» لا يفضح نفسه بزلة لسان أبدًا.

- أتمزح؟

وأومضت عين «جوليون الصغير».

- قليلًا... وبحسباني أنا نفسي «فورسايتي» فليس من شأني أن أتحدث في هذا. ولكني نوع من «هجين» أصيل. وأنا هنا لا أخطئ فهمك، فأنت تختلف عني بقدر ما أختلف أنا عن عمي «جيمس»، الذي هو نموذج كامل لـ«الفورسايتي»، فحاسة التملك عنده بلغت الذروة، في حين أنك مجرد منها. ولولا وجودي بينكما لبدوتما كأنكما من فصيلتين مختلفتين. إني حلقة الاتصال المفقودة. ونحن جميعًا عبيد بالطبع «للملكية»، وأنا أقر بأن المسألة مسألة درجات؛ ولكن الذي أدعوه «فورسايتيًّا» هو الرجل الذي يكون حتمًا عبدًا للملكية أكثر من اللازم. إنه يعرف الشيء الطيب، يعرف الشيء المضمون؛ وإطباق قبضته على ملكيته هو طابعه الرسمي، ولا يهم أن يكون ذلك الشيء زوجة أو بيتًا أو مالًا أو شهرة.

وغمغم «بوزيني»:

- آه! عليك أن تسجل هذه العبارة.

وقال «جوليون الصغير»:

ـ إني لأود أن أحاضر عنها. «الملكيات وصفة «الفورسايتي»»، إن هذا الحيوان الصغير الذي يقلقه سخف مصيره، لا يتأثر في تصرفاته بضحك المخلوقات الغريبة (مثلك أو مثلي). وهو لما له من استعداد لقصر النظر بالوراثة لا يعترف إلا بالأشخاص الذين هم من نوعه، وبيئته والذين هم على شاكلته، ويعيش بينهم عيشة اطمئنان في ظل التنافس.

وقال «بوزيني»:

ـ إنك تتحدث عنهم كأنهم نصف قُطَّان إنجلترا.

وأجاب «جوليون الصغير»:

ـ إنهم بالفعل نصف قُطَّان إنجلترا، ونصفهم الأفضل أيضًا، نصفهم المأمون، نصفهم الذي يحصل على الربح البالغ ثلاثة في المائة، نصفهم الذي يحسب أن ثروتهم وكفالتهم هي التي تجعل كل شيء ممكنًا؛ هي التي تجعل فنك ممكنًا، وتجعل الأدب والعلم، بل حتى الدين ممكنًا، لولا «الفورسايتيون» الذين لا يؤمنون بشيء من هذه الأمور، ولكنهم يحولونها كلها إلى أشياء ذات نفع؛ لولاهم أين كنا نكون؟ إن «الفورسايتيين»، يا سيدي العزيز، هم الطبقة المتوسطة، هم التجار، هم أعمدة المجتمع، هم حجر الزاوية للتقاليد، هم كل ما هو باهر!

وقال «بوزيني»:

ـ لست أدري هل أدرك مقصدك. ولكني أظن أن في مهنتي كثيرين من «الفورسايتيين»، كما تدعوهم.

وأجاب «جوليون الصغير»:

ـ بالتأكيد. فالفريق الأغلب من المهندسين المعماريين والرسامين والكتاب لا مبدأ لهم، فهم في ذلك أشبه بأي «فورسايتي». إن الآداب والفنون والمعتقدات الدينية لا تظل حية إلا بفضل قلة من المتهورين المؤمنين حقًّا بمثل هذه الأمور، ومن «الفورسايتيين» العديدين الذين يتاجرون بها. وإن ثلاثة من كل أربعة أعضاء من «الأكاديمية الملكية»

هم، على أقل تقدير، من «الفورسايتيين» وكذلك سبعة من ثمانية قصصيين ونسبة كبيرة من رجال الصحافة. أما العلماء فلا أستطيع أن أحدثك عنهم، و«الفورسايتيون» ممثلون أروع تمثيل في ميدان الدين. ولعلهم موجودون في مجلس النواب أكثر مما هم موجودون في أي مكان آخر، والأرستقراطية تتحدث عن نفسها. ولكني لا أمزح؛ فإن من الخطر أن تقف في وجه الأغلبية!

وركز نظره على «بوزيني» واستطرد:

ـ إن من الخطر أن تدع أي شيء يجرفك، سواء أكان ذلك الشيء منزلًا، أو لوحة، أو امرأة!

ونظر كل منهما إلى الآخر. وكأنما أقدم «جوليون الصغير» على ما لم يقدم عليه «فورسايتي» ـ وهو كشف سريرته بزلة لسانه ـ وعلى ذلك انسحب إلى داخل قوقعته. وقطع «بوزيني» حبل الصمت، فقال:

ـ لماذا تتخذ من أهلك نموذجًا؟

وأجاب «جوليون الصغير»:

ـ أهلي ليسوا شديدي التطرف، ولهم مميزاتهم الخاصة بهم، شأنهم في ذلك شأن أفراد أي أسرة. ولكنهم يملكون إلى حد ملحوظ صفتين هما المحك الحقيقي لـ«الفورسايتي»، هما القدرة على عدم الاستسلام أبدًا لأي شيء روحًا وجسمًا، «وحاسة التملك».

وابتسم «بوزيني»:

ـ وماذا عن كبيرهم، مثلًا؟

وسأله «جوليون الصغير»:

ـ أتقصد «سويذن»؟ آه! إنه لا يزال ينطوي على شيء من البدائية. إن المدينة، وحياة الطبقة المتوسطة لم تهضماه بعد. لقد استقر في نفسه نظام جميع القرون القديمة وقوتها الغاشمة، والتصقا به، ومع ذلك فهو رجل ممتاز جدًّا.

وبدا على «بوزيني» أنه يفكر، وقال فجأة:

ـ حسنًا أنك وُفِّقت إلى وصف ابن عمك طبق الأصل، «إنه» لن ينتحر أبدًا.

وصوَّب إليه «جوليون الصغير» نظرة نافذة، وقال:

ـ لا، إنه لن يقدم على ذلك. احترس من قبضتهم! من السهل أن تضحك، ولكن لا تخطئ فهم ما أقول. إن ازدراء «الفورسايتي» لا يفيد؛ إن عدم الاكتراث بهم لا يفيد!

ـ وأنت نفسك فعلت هذا برغم ما تقدم!

واعترف «جوليون الصغير» بأن محدثه أصاب المرمى، وذلك بفقدان ابتسامته. وقال في زهو عجيب:

ـ أنت نسيت أني أستطيع أنا أيضًا الصمود، فأنا نفسي «فورسايتي». إننا جميعًا واقعون في طريق قوى كبيرة. والرجل الذي يترك مأواه وراء الجدار... حسنًا... أنت تعرف ما أقصد... أنا لا...

وختم عبارته بصوت منخفض جدًّا، وكأنه يتوعد:

ـ أنا لا أنصح كل رجل أن... يسلك... مسلكي، فهذا يتوقف على الظروف.

واندفع الدم إلى وجه «بوزيني»، ولكنه سرعان ما تراجع، تاركًا ذلك الوجه شاحبًا قاتمًا كما كان. وضحك «بوزيني» ضحكة قصيرة تركت شفتيه ثابتتين على ابتسامة غريبة صارمة. وهزأت عيناه من «جوليون الصغير»، وقال:

ـ شكرًا، إن هذا عطف شيطاني منك. ولكنكم لستم وحدكم الفتيان الذين يستطيعون الصمود.

ونهض. وتابعه «جوليون الصغير» بنظره في أثناء انصرافه؛ وتنهد وهو يسند رأسه بيده.

وفي الغرفة التي يخيم عليها الخمول، وتكاد تكون خالية، لم يتردد إلا صوت حفيف أوراق الصحف، وحك عيدان الكبريت لدى إشعالها. وبقي مدة طويلة دون حراك، مستعيدًا عيشته خلال تلك الأيام التي جلس

فيها كذلك ساعات طوالًا وهو يرقب ساعة الحائط، منتظرًا مرور الدقائق، ساعات طويلة طافحة بالعذاب والشك، والألم العنيف العذب. وعاودته أوجاع ذلك العهد، عاودته أوجاعه البطيئة اللذيذة بما اشتملت عليه من الحدة القديمة. وقد أثار فيه منظر «بوزيني» بوجهه الشاحب، وعينيه القلقتين الحائمتين دائمًا حول ساعة الحائط، أثار فيه شفقة ممزوجة بحسد غريب لا يُقاوم.

لقد عرف العلامات جيدًا. إلى أين هو ذاهب، إلى أي مصير؟ وما نوع هذه المرأة التي تجذبه إليها بقوة مغناطيسية لا تثبت أمامها أي مراعاة للشرف، وأي مبدأ، وأية مصلحة؛ والتي لا سبيل إلى النجاة منها غير الهرب؟

الهرب! ولكن ماذا يضطر «بوزيني» إلى الهرب؟ إن الإنسان ليهرب عندما يكون هناك ما ينذر بهدم بيت أسرة، وعندما يكون هناك أطفال، أو عندما يحس أنه ينتهك المثل العليا، أو يحطم شيئًا. ولكن كل شيء هنا على حد ما سمع، محطوم من ناحية ذلك الفتى.

وهو نفسه لم يهرب، وكذلك لن يهرب فيما إذا حدث الأمر كله ثانية. ومع ذلك فإنه ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه «بوزيني»، فقد هدم بيته التعس، ولم يهدم بيت أحد سواه. وعاد إلى ذاكرته المثل القديم: «إن مصير الإنسان يكمن في قلبه هو نفسه».

في قلبه هو نفسه! إن الدليل على صنف أكلة ما لا يتاح إلا بأكلها، وما زال على «بوزيني» أن يأكل أكلته.

وانتقلت خواطره إلى المرأة؛ تلك المرأة التي لم يعرفها، ولكنه سمع عن مجمل قصتها.

زواج غير سعيد! ليس هناك سوء معاملة، ولكن ذلك الفتور الذي لا يُوصف، تلك الآفة المفزعة التي تقتل كل عذوبة تحت السماء، وتظل هكذا من نهار إلى نهار، ومن مساء إلى مساء، ومن أسبوع إلى أسبوع، ومن عام إلى عام، حتى يضع الموت لها حدًّا!

ولكن «جوليون الصغير» الذي خفف الزمن من مرارة مشاعره؛ رأى الموضوع من وجهة نظر «سومز» أيضًا. ومن أين لرجل مثل ابن عمه؛ مشبع بميول طبقته ومعتقداتها؛ أن يستمد الفراسة أو الإلهام الذي لا بد منه لوضع حد لهذه الحياة؟ إن المسألة مسألة تخيل؛ مسألة انتقال المرء إلى المستقبل، متخطيًا الأقاويل الكريهة، والتهكم والثرثرة التي تعقب مثل ذلك الفراق بين الزوجين، ومتخطيًا كذلك الغصة العابرة المتولدة من غياب الزوجة عن بصره، والاستنكار الخطير الذي يبديه أصحاب المقام الكبير. ولكن قليلًا من الناس، وعلى الأخص ممن ينتمون إلى طبقة «سومز»، يتمتعون بالخيال الذي يكفي لتحقيق ذلك. هناك قدر كافٍ من الأحياء في هذه الدنيا، ولكن ليس لديهم قدر كافٍ من الخيال للتصرف! ويا للسماء، ما أكبر الفارق بين النظرية والتطبيق، وكم من رجل ـ وقد يكون من بين أولئك الرجال حتى «سومز» نفسه ـ كم من رجل يعتنق آراء بطولية فيما يتعلق بمثل تلك الأمور، فإذا ضغط حذاؤه على قدمه وجد باعثًا مميزًا يجعل من نفسه استثناء.

ثم إنه ارتاب أيضًا في صحة حكمه. لقد مر بالتجربة هو نفسه، وذاق مرارة الحياة الزوجية التعسة حتى الثمالة، فكيف يمكن أن يأخذ بوجهة النظر المتسعة الأفق، غير المتأثرة بالتجربة. وجهة نظر الذي لم يتعرض قط لاختبار المعركة؟ ثم إن صحته مستمدة كذلك من مصدرها الأصلي، فهي كالحجة في الأمور العسكرية، حجة الجندي الذي طال خوضه لغمار الخدمة العملية، حجته عند وضعها في مقابل حجة المدنيين الذين يكابدون ضرر رؤية الأمور عن قرب، وأغلب الناس يمكن أن يعدوا الزيجات الشبيهة بزيجة «سومز» و«آيرين» ناجحة كل النجاح، فهو يملك المال، وهي تملك الجمال، فالمسألة مسألة اتفاق متبادل؛ وليس هناك من سبب يحول دون مواصلتهما الحياة معًا حتى ولو كره كل منهما الآخر. ولا يهم إذا سار كل منهما قليلًا على هواه ما داما يراعيان الاحتشام،

ويحترمان قدسية رابطتهما الزوجية، وبيتهما المشترك. إن نصف زيجات الطبقة العليا تسير على هذا المنوال: «لا تجرح مشاعر المجتمع؛ لا تجرح مشاعر الكنيسة». وإن تجنب جرح تلك المشاعر يعادل التضحية بأية مشاعر خاصة. وفوائد الحياة الزوجية المستقرة واضحة محسوسة، فبها عدد كبير من القطع المملوكة؛ والحالة التي هي عليها لا تنطوي على أي مجازفة. وتحطيم الحياة الزوجية على أحسن الوجوه، تجربة خطرة، وهي علاوة على ذلك تنطوي على الأثرة.

هذه هي القضية فيما يتعلق بالدفاع. وتنهد «جوليون الصغير»، وخطر له: «إن لب الأمر كله هو الملكية، ولكن هناك أناسًا كثيرين لا يميلون إلى طرح المسألة على هذا النحو، فهو في نظرهم: «قدسية الرابطة الزوجية». ولكن قدسية الرابطة الزوجية تعتمد على قدسية الأسرة؛ وقدسية الأسرة تعتمد على قدسية «الملكية»، وإني أتصور مع ذلك أن هؤلاء جميعًا أتباع «واحد أوحد» (يقصد المسيح) لم يملك قط شيئًا... هذا غريب!».

وتنهد «جوليون الصغير» ثانية: «هل أطلب إلى جميع المساكين الذين سأقابلهم في طريق عودتي إلى بيتي أن يشاركوني في طعام عشائي الذي سيصبح نصيبي منه عندئذ قليلًا جدًّا؛ أو نصيب زوجتي منه، على أي حال، قليلًا جدًّا، وهي ضرورية لتوفير صحتي وسعادتي؟ ولعل «سومز»؛ فضلًا عن ذلك، يحسن صنعًا إذ يمارس حقوقه، ويؤيد بممارسته لها مبدأ «الملكية» المقدس الذي ينفعنا جميعًا؛ باستثناء أولئك الذين يعانون من جراء هذا المنهج».

وعلى هذا غادر مقعده، وسلك طريقه من خلال «تيه» المقاعد، وتناول قبعته، وقطع طريقه إلى بيته في فتور، ذارعًا الشوارع الحارة، المزدحمة بالعربات، الفائحة بالروائح المتربة.

وأخرج من جيبه رسالة «جوليون الكبير» قبل وصوله إلى شارع «ويستاريا»، وإذ مزقه إربًا إربًا في عناية، بعثر أجزاءه فوق غبار الشارع.

ودخل البيت بعد أن فتح لنفسه الباب بمفتاحه، ونادى زوجته باسمها، ولكنها كانت قد خرجت مع «جولي» و«هولي»؛ وكان البيت خاليًا. ورقد الكلب «بالثازار» في جانب الظل من الحديقة، هارسًا الذباب بقبضته.

وهناك اتخذ «جوليون الصغير» لنفسه مقعدًا، هو أيضًا، تحت شجرة الكمثرى التي لا تحمل ثمارًا.

الفصل العشرون

«بوزيني» يفي بوعده

في اليوم التالي لأمسية «ريتشموند» عاد «سومز» من «هينلي» في قطار الصباح. ولم يكن بطبيعته يهتم برياضة الشواطئ، وزيارته لتلك البلدة كانت أقرب إلى قضاء مصلحة منها إلى زيارة متعة، فإن عميلًا من عملائه له بعض الأهمية طلب منه الحضور إلى هناك.

وذهب رأسًا إلى المدينة، ولكنه إذ رأى الأعمال كاسدة، غادرها في الساعة الثالثة، فرحًا بالفرصة المتاحة لعودته إلى بيته في هدوء. ولم تكن «آيرين» تتوقع قدومه. ولم تدفعه أي رغبة في التجسس على تصرفات «آيرين»، ولكن ليس ثمة ضرر في مراقبة المشهد على هذا النحو دون توقع.

وبعد استبدال ملابس «البارك» بملابس السفر توجه إلى غرفة الاستقبال. وكانت تجلس هناك متكاسلة على طرف مقعد مستطيل، وهو مقعدها الذي تؤثره؛ وارتسمت دوائر تحت عينيها كأنما هي لم تنم. وسألها:

ـ كيف ظللت في البيت؟ أتنتظرين قدوم أحد؟

ـ نعم، أقصد أني لا أنتظر أحدًا بصفة خاصة.

ـ من تنتظرين؟

ـ قال السيد «بوزيني» إنه قد يحضر.
ـ «بوزيني»، إنه ينبغي أن يكون في مكان عمله.
ولم تجب عن هذا بشيء، وقال «سومز»:
ـ حسنًا. أريدك أن تذهبي معي إلى متجر «ستورز»، ثم نتوجه بعد ذلك إلى حديقة «البارك».
ـ لست أريد الخروج؛ فأنا مصابة بصداع.
وأجابها «سومز»:
ـ إذا طلبت إليك في أي وقت القيام بعمل اعتذرت دائمًا بالصداع، سيفيدك الخروج والجلوس تحت الأشجار.
ولم تحر جوابًا. والتزم «سومز» الصمت بضع دقائق، وقال آخر الأمر:
ـ أنا لا أعرف رأيك فيما يكون عليه واجب الزوجة. ولم أعرف ذلك في يوم من الأيام!
ولم يتوقع منها أن تجيب عن قوله هذا، ولكنها أجابت:
ـ لقد حاولت أن أقوم لك بما تريد، ولكن ليس ذنبي أني لم أستطِع تأدية ذلك بإخلاص.
ـ الذنب ذنب مَن إذن؟
ولاحظها بطرف عينيه:
ـ أنت وعدتني. قبل زواجنا، بأن تطلق سراحي فيما إذا لم ينجح ذلك الزواج، فهل تراه أصاب النجاح؟
وقطب «سومز»، وقال متلعثمًا:
ـ أصاب النجاح! كان قمينًا أن يصيبه لو أنك تصرفتِ كما ينبغي.
وقالت «آيرين»:
ـ إني بذلت جهدي، فهل تطلق سراحي؟
وأدار لها «سومز» ظهره. وانزعج في سره فلجأ إلى القول الطنان:
ـ أطلق سراحك؟ أنت لا تدرين عم تتحدثين. أطلق سراحك؟ كيف

أقدم على ذلك؟ نحن متزوجان، أليس كذلك؟ ثم، عم تتحدثين؟ بالله عليكِ دعينا من هذا النوع من الهراء! اذهبي وأحضري قبعتك، وتعالي فاجلسي في «البارك».

ـ أنت لن تطلق إذن سراحي؟

وشعر بعينيها تستقران عليه وتصوبان نظرة غريبة مؤثرة. وقال:

ـ أطلق سراحك! وماذا بالله يمكنك أن تفعلي بنفسك فيما إذا أقدمت أنا على ذلك؟ أنت لا تملكين مالًا!

ـ أستطيع أن أتصرف على نحو ما.

وأخذ يذرع الغرفة على عجل ذهابًا وإيابًا؛ ثم أقبل فوقف أمامها وقال:

ـ اعلمي لآخر مرة أني لا أسمح لك أن تفوهي بمثل هذا، اذهبي وأحضري قبعتك!

ولم تتحرك، فقال «سومز»:

ـ أحسبك لا تودين أن تفوتك رؤية «بوزيني» إذا جاء!

وقامت «آيرين» على مهل، وغادرت الغرفة. وعادت وقبعتها في يدها. وخرجا معًا.

وفي «البارك» كانت ساعة العصر المنوعة الألوان قد انقضت، وهي التي يتنزه فيها الأجانب وغيرهم من العاطفيين في عرباتهم، ويحسبون أنهم من آخر طراز. كانت الساعة الصحيحة المناسبة قد حلت، وأوشكت أن تنقضي، قبل أن يجلس «سومز» و«آيرين» تحت تمثال «أخيل».

لقد مر بعض الزمن على آخر مرة تمتع فيها بصحبتها في «البارك». وكانت هذه المتعة إحدى متعه الأولى في موسمي حياته الزوجية الأولين، حيث كان شعوره بأنه أصبح أمام لندن كلها، مالك هذه المخلوقة الأنيقة، فخره الأكبر، وإن كان هذا الفخر سرًّا مكتومًا. وكم من عصر يوم جلس فيه إلى جوارها، أنيقًا غاية الأناقة، وفي يديه قفاز رمادي، وعلى ثغره ابتسامة باهتة متعجرفة، وجعل يومئ لأصدقائه، ويرفع قبعته بين حين وحين!

وكان لا يزال مكسو اليدين بالقفاز الرمادي، وعلى شفتيه ابتسامته التهكمية؛ ولكن أين كانت المشاعر الجياشة في صدره؟

وأخذت المقاعد تخلو بسرعة، ولكنه أبقاها مع ذلك هناك صامتة شاحبة، وكأنه قصد أن يدبر لها عقوبة خفية. وأبدى بعض التعليقات مرة أو مرتين، فأحنت رأسها، أو أجابت بقولها «نعم» وهي تبتسم ابتسامة كليلة.

وكان هناك رجل يسير إلى جانب السور في سرعة زائدة إلى حد جعل الناس يحملقون وراءه عند مروره بهم. وقال «سومز»:

ـ انظري إلى هذا الحمار! لا بد أن يكون مجنونًا ليسير على ذلك النحو في حمارة القيظ!

ودار برأسه؛ وبدرت من «آيرين» حركة سريعة، وقال:

ـ يا الله! إنه صديقنا «القرصان»!

وجلس ساكنًا، مبتسمًا ابتسامته الهازئة، شاعرًا بأن «آيرين» تجلس أيضًا ساكنة مبتسمة. وقال لنفسه: «أهي ستومئ له برأسها؟».

ولكنها لم تبدِ أي إشارة.

ووصل «بوزيني» إلى نهاية السور، وارتد متجولًا بين المقاعد، سابرًا طريقه ككلب الصيد. ووقف جامدًا عندما رآهما، ورفع قبعته.

ولم تغادر الابتسامة وجه «سومز» قط. ورفع هو أيضًا قبعته.

وأقبل «بوزيني» عليهما، وبدا منهوك القوى كما يبدو الرجل بعد القيام برياضة بدنية عنيفة. وبرز العرق في قطرات على جبينه. وبدت ابتسامة «سومز» كأنها تقول: «إنك أمضيت وقتًا شاقًا يا صديقي!». وسأله:

ـ ماذا تفعل هنا في «البارك»؟ كنا نظن أنك تزدري مثل هذا الطيش!

لم يبد على «بوزيني» أنه سمع قوله. ووجه رده إلى «آيرين»:

ـ كنت آمل أن أجدك في البيت.

وربت أحد الأشخاص على كتف «سومز»، وتحدث إليه. وفات هذا

الأخير سماع الرد، إذ كان يتبادل الكلام التافه ملتفتًا إلى محدثه، واعتزم عندئذ أمرًا؛ وقال لـ«بوزيني»:

- نحن على وشك العودة إلى البيت، ويحسن أن تأتي وتتعشى معنا.

وقد أبدى في هذه الدعوة شجاعة غريبة، وعطفًا أشد غرابة. وبدا كأن نظرته ولهجته تقولان: «أنت لا تستطيع خداعي، ولكن انظر... إني أثق بك... أنا لا أخشاك!».

وشرعوا يعودون جميعًا إلى ميدان «مونبيلييه»، وسارت «آيرين» بين الرجلين ونظرًا لزحمة الشوارع تقدم «سومز» رفيقيه، ولم ينصت إلى حديثهما. وكان عزمه الغريب على الثقة بهما يبدو كأنه يبث الحيوية في تدبيره المستور. وقال لنفسه كما يقول المقامر: «إنها ورقة لا أجرؤ على التطويح بها... لا بد أن ألعب بها لما لها من قيمة. وليست لديَّ فرص كثيرة أخرى».

وارتدى حلة السهرة على مهل. وسمعها تغادر غرفتها، وتنزل إلى الدور السفلي، وقضى بعد ذلك خمس دقائق كاملة متلكئًا في غرفة التجمل، ثم نزل بدوره، وأغلق الباب محدثًا عن قصد صوتًا عاليًا ليعلنهما بمقدمه. ووجدهما واقفين إلى جانب المدفأة، ولعلهما كانا يتبادلان الحديث، أو لعلهما لم يتبادلاه، فهو لم يستطع أن يقف على ذلك.

ولعب دوره في التمثيلية الهزلية طوال المساء. وكان سلوكه مع ضيفه وديًا أكثر من أي وقت مضى. وقال عندما هم «بوزيني» آخر الأمر بالانصراف:

- ينبغي أن تعاود المجيء قريبًا، فإن «آيرين» تود أن تجلس إليها وتحدثها عن «المنزل»!

ونم صوته ثانية على الشجاعة الغريبة، والعطف الأشد غرابة، ولكن يده كانت باردة كالثلج.

وإخلاصًا منه لقراره ابتعد عنهما وقت افتراقهما. ابتعد عن زوجته وهي واقفة تحت المصباح المعلق لتودع ضيفها. ابتعد عن منظر رأسها الذهبي

الساطع تحت الضوء، ومنظر شفتيها المبتسمتين الحزينتين. ابتعد عن منظر عيني «بوزيني» وهما تنظران إليها وتشبهان كل الشبه عيني الكلب وهو ينظر إلى سيده.

وأوى إلى فراشه وهو على يقين من أن «بوزيني» يحب زوجته.

وكانت تلك الليلة الصيفية حارة. كانت شديدة الحرارة والسكون إلى حد أنه لم يهب من كل نافذة مفتوحة إلا هواء أشد حرارة. ورقد مدة طويلة وهو ينصت إلى تنفسها.

لم تستطع «آيرين» أن تنام، وكان عليه أن يرقد في الفراش متيقظًا. وحمل نفسه، في أثناء رقاده متيقظًا، على أن يلعب دور الزوج الرصين الواثق في زوجته.

وفي الهزيع الأخير انسل من فراشه، ودخل غرفة التجمل، واتكأ على النافذة المفتوحة.

ولم يستطع التنفس إلا في صعوبة.

وعادت إلى ذاكرته ليلة مرت به منذ أربعة أعوام، وهي الليلة السابقة على زواجه؛ وكانت حارة خانقة كهذه الليلة.

وتذكر كيف اضطجع على مقعد خيزراني مستطيل قائم إلى جوار نافذة غرفته المخصصة للجلوس في بيته الواقع إلى جانب شارع «فيكتوريا». وتحت البيت، في شارع جانبي، دق رجل باب بيت من البيوت، وصاحت امرأة من الداخل، وتذكر صوت الضجيج، وصك الباب، والسكوت المطبق الذي أعقب ذلك. تذكر هذا كله كما لو حدث الآن. ثم اقتربت من خلال ضوء المصباح الغريب الهيئة، العقيم، عربة الرش المبكرة، وهي تطهر الشارع من الغبار. وبدا كأنه يسمع قعقعتها من جديد وهي تقترب شيئًا فشيئًا حتى تمر وتتبدد في بطء.

ومال ميلًا شديدًا إلى خارج النافذة القائمة في غرفة التجمل، مطلًّا على الفناء الصغير الواقع تحته، ورأى خيوط الفجر الأولى تنتشر. وانطمست

معالم الحيطان والأسقف لحظة من اللحظات، ثم تجلت أوضح مما كانت عليه من قبل.

وتذكر كيف راقب في تلك الليلة الأخرى ضوء المصابيح وهي تشحب على طول شارع «فيكتوريا»، وكيف ارتدى ملابسه على عجل، ونزل إلى الشارع، واجتاز المنازل والميادين إلى الشارع الذي تقيم فيه. ووقف هناك ينظر إلى الناحية الأمامية من البيت الصغير الساكن الأشهب الشبيه بوجه ميت.

ونفذ فجأة إلى ذهنه خاطر أشبه بوهم رجل مريض: «ماذا يفعل، ذلك الفتى الذي يلاحقني؛ ذلك الفتى الذي كان هنا هذا المساء، والذي يحب زوجتي، ماذا يفعل وهو يتحسس خارج البيت هناك، باحثًا عنها كما كان يبحث عنها عصر هذا اليوم، بحسب ما أعلم؛ إن كل ما أستطيع قوله هو أنه يرقب الآن بيتي!».

واسترق الخطو، عبر عتبة السلم، إلى ناحية المنزل الأمامية؛ وأزاح ستارًا في خفية، ورفع مصراع نافذة.

وتعلق النور الرمادي بأطراف أشجار الميدان، وكأنما الليل؛ الشبيه بفراشة هائلة ذات وبر؛ قد مسح تلك الأشجار بأجنحته. وكانت المصابيح لا تزال مضاءة شاحبة جميعها، ولكن لم يتحرك هناك مخلوق؛ لم يقع شيء حي تحت البصر!

بيد أنه سمع على حين فجأة صيحة ضعيفة جدًّا، منبعثة عن بعد من جوف السكون المطبق، صيحة تتلوى كصوت روح هائم على وجهه، مطرود من الجنة، يبكي سعادته الضائعة. وترددت هناك ثانية... وثالثة! وأغلق «سومز» النافذة وهو يرتعش.

ثم خطر له: «آه! إنها ليست سوى صيحات الطواويس فوق الماء».

الفصل الحادي والعشرون

«جون» تقوم ببعض الزيارات

وقف «جوليون الكبير» في قاعة «برودستيرز» الضيقة، مستنشقًا رائحة الأنسجة «المشمعة»، وسمك «الرنجة»؛ تلك الرائحة التي تنفذ من جميع البيوت اللائقة المعدة للتأجير على طول الشاطئ. وكان هناك صندوق للرسائل أسود موضوع على مقعد جلدي لامع يعرض في زهو «شعر الحصان» المدلى من تجويف أعلى ذراعه اليسرى. وأخذ «جوليون الكبير» يملأ ذلك الصندوق بالأوراق، وبأعداد من جريدة «التايمز»، وبزجاجة من ماء «الكولونيا». وفي ذلك اليوم كان لديه اجتماع في «جلوبيولار جولد كونسيشنز»، واجتماع آخر في شركة «نيو كولياري ليمتد»، وكان سيحضرهما لأنه لا يتخلف أبدًا عن اجتماعات مجالس الإدارات، فمثل هذا التخلف يُعد أكثر من شاهد على تقدم سنه، ولا يمكن لروحه «الفورسايتي» الغيور أن يحتمل هذا.

وبدت عيناه، وهو يملأ صندوق الرسائل الأسود، كأنهما قد تلتهبان غضبًا في أي لحظة؛ وعين التلميذ تلتمع على هذا النحو عندما تحيط به حلقة من زملائه المتحرشين، ولكنه يسيطر على نفسه إذ تمنعه مساعفة الحظ لهم وتخليه عنه. وسيطر «جوليون الكبير» على نفسه، قامعًا الاضطراب الذي غذته في نفسه ظروف حياته، متمكنًا من ذلك بقدرته الجبارة على ضبط النفس، تلك القدرة التي أخذت تتبدد الآن.

لقد تلقى من ابنه خطابًا غير عملي بدا فيه كاتبه الفتى، بما ضمنه من عموميات شاردة، كأنه يحاول التهرب من الإجابة عن مسألة واضحة. وقد قال فيه: «رأيت «بوزيني». إنه ليس بمجرم. وكلما ازددت إدراكًا للناس ازداد اقتناعي بأنهم ليسوا قط أخيارًا أو أشرارًا، ولكنهم إما مثيرون للضحك أو مستحقون لأن يُرثى لحالهم، وأنت على الأرجح لا توافقني على هذا الرأي!».

ولم يوافقه «جوليون الكبير» على هذا الرأي، وعدَّ تعبير المرء عن نفسه بهذه الطريقة نزعة ساخرة. فهو لم يبلغ بعد من سنه ذلك الحد الذي يحطم فيه حتى «الفورسايتيون» بعد فقدانهم تلك الأوهام والمبادئ التي راعوها في عناية لأغراض عملية، دون الإيمان بها مطلقًا؛ وبعد فقدانهم جميع المتع الحسية، وإصابتهم في صميم قلوبهم بتلك الحالة التي لا يتبقى فيها شيء يتمنونه، يحطمون فيه سدود التحفظ ويقولون أشياء ما كانوا يعتقدون قط أنهم قادرون على قولها.

ولعله لم يؤمن بـ«الخير» و«الشر» أكثر مما يؤمن ابنه بهما؛ ولكنه وفقًا لما كان يمكن أن يقوله هو نفسه، لكنه لا يدري، لا يستطيع أن يدلي برأي؛ فقد يكون في ذلك القول شيء من الصحة؛ بيد أنه لماذا تحرم نفسك تحقيق مصلحة ممكنة بتعبيرك غير الضروري عن عدم الإيمان؟

واعتاد أن يقضي عطلاته بين الجبال، وبرغم أنه لم يحاول قط، (كـ«الفورسايتي» الصميم) أن يقدم على أمر ينطوي على مغامرة كبيرة، أو تهور كبير، فقد كان مغرمًا جدًّا بتلك الجبال. وعندما يتكشف له المنظر الرائع بعد جهد التسلق (وقد أشير إلى ذلك في دليل «بيديكير»: «أمر متعب، لكنه مُجز»). كان يشعر دون شك بوجود مبدأ عظيم جليل يتوِّج معارك الحياة المشوشة، ووهادها الحقيرة، وشقوقها الصغيرة المظلمة الساخرة. ولعل هذه هي أقرب مسافة من الدين وصل إليها روحه العملي في يوم من الأيام.

ولكن مضت سنوات عديدة على آخر عهد له بالجبال. فقد اصطحب

«جون» إليها عامين متواليين بعد موت زوجته، وأدرك في مرارة أن أيام سيره على الأقدام قد ولَّت.

لقد ظل مدة طويلة غريبًا عن تلك الثقة القديمة في وجود نظام أعلى للأشياء، تلك الثقة التي يبثها الجبل.

كان يعلم أنه كبير السن، وشعر مع ذلك بأنه شاب، وقد أزعجه ذلك. وأزعجه أيضًا وحيَّره أن يرى نفسه، وهو الذي كان شديد الحرص دائمًا، مكتوبًا عليه أن يصبح أبًا وجدًّا لهذين اللذين يبدوان كأنهما خُلقا لينكبا. وهو ليس لديه قول يقوله ضد «جو» ـ ومن ذا الذي يستطيع أن يقول شيئًا ضد ذلك الغلام وهو الفتى المحبوب؟ ـ ولكن موقفه يرثى له. ومسألة «جون» هذه تكاد تبلغ موقفه سوءًا. وبدا الأمر كأنه قدر محتوم، والقدر المحتوم هو من بين الأشياء التي لا يمكن لرجل من نوعه أن يفهمها أو يطيقها.

وهو عندما كتب إلى ابنه لم يكن يؤمل في الواقع أن يسفر ذلك عن أي فائدة. وقد رأى حقيقة الوضع في وضوح تام منذ حفلة «روجر» ـ ففي إمكانه استخلاص الحقيقة بأسرع مما يستطيع ذلك أغلب الناس ـ وعرف أكثر من أي «فورسايتي» آخر؛ ومثال ابنه نفسه بادٍ أمام عينيه؛ أن لهب الحب يحرق أجنحة الرجال سواء أرغبوا في ذلك أم لم يرغبوا.

وفي الأيام السابقة على خطبة «جون»، عندما كانت هي والسيدة «سومز» لا تفترقان أبدًا، رأى من «آيرين» ما يكفيه ليشعر بالسحر الذي تمس به الرجال وهي لم تكن لعوبًا. بل لم تكن حتى غنجة ـ هذه كلمات عزيزة على قلوب أبناء جيله الذين يميلون إلى نعت الأشياء بكلمات لطيفة فضفاضة لا تفي بالغرض، ولكنها خطرة. ولم يستطِع إيضاح السبب، حدثه عن صفة غريزية في بعض النساء ـ عن قوة مغرية تتجاوز حدود سلطانهن هن أنفسهن! ـ حدثه عن ذلك يجبك: «دجل!». إنها امرأة خطرة، وليس ثمة شيء خلاف ذلك. وكان يريد أن يغمض عينيه عن هذه المسألة، ليكن ما يكون؛ فهو لا يرغب في سماع شيء جديد عنها، وكل ما يرغب فيه هو أن ينقذ موقف

«جون» ويحتفظ لها بهدوء بالها. وكان لا يزال يرجو أن يكون من الممكن أن تصبح له سلوى من جديد.

وعلى هذا كتب رسالته، ولم يخرج من الرد عليها إلا بخلاصة زهيدة جدًّا، أما ما أدلى به «جوليون الصغير» عن المحادثة فلم يكن في الواقع إلا هذه العبارة العجيبة: «إن ما أستخلصه هو أنه مندفع في التيار». التيار! أي تيار؟ ما هذه الطريقة العصرية الطراز في التعبير؟

وتنهد، وطوى آخر ورقة تحت حاشية الحقيبة؛ وكان يعرف ما المقصود تمامًا.

وخرجت «جون» من غرفة الطعام، وعاونته على لبس سترته الصيفية. وأدرك على الفور ما سيحدث؛ أدرك ذلك من الثوب الذي ترتديه، ومن تعبير وجهها الصغير القوي التصميم. وقالت:

ـ إني سأخرج معك.

ـ هذا هراء يا عزيزتي؛ فإني سأذهب إلى المدينة رأسًا، ولا أستطيع أن أدعك تعربدين هنا وهناك!

ـ لا بد لي من لقاء السيدة «سميتش».

وقال «جوليون الكبير» مدمدمًا:

ـ أوه، صديقتك الغالية «المفلسة»!

ولم يصدق هذه العلة التي تعللت بها، ولكنه كف عن معارضتها؛ فلم يكن أمامه شيء يفعله إزاء إصرارها هذا.

وفي محطة «فيكتوريا» أركبها عربة كان قد طلبها لركوبه هو، وهذا التصرف من مميزاته، فهو لم يكن يتصف بالأثرة الدنيئة، وقال:

ـ والآن لا تجهدي نفسك بكثرة التجول يا عزيزتي.

واستقل عربة انطلقت به إلى المدينة.

وذهبت «جون» أول الأمر إلى شارع خلفي في «بادينجتون» حيث تقيم السيدة «سميتش»، صديقتها «المفلسة»، وهي امرأة مسنة؛ على صلة

بشواغل الناس اليومية، وبعد أن قضت «جون» نصف ساعة وهي تنصت إلى حديثها المحزن المعتاد، وتدعها تحت رحمة هذه الراحة المؤقتة؛ ذهبت إلى «ستانهوب جيت». وكان المنزل الكبير مغلق الأبواب مظلمًا.

وكانت قد قررت أن تعلم شيئًا مهما كان الثمن. فمن الأفضل أن تواجه أسوأ ما في الأمر وتضع له حدًّا. وكانت خطتها هي الآتية: أن تذهب أولًا إلى السيدة «بينز» عمة «فيل»، فإذا أخفقت عندها في الحصول على معلومات، توجهت إلى «آيرين» نفسها. ولم تكن لديها فكرة واحدة عما ستجنيه من وراء هذه الزيارات.

ووصلت إلى ميدان «لوندز» في الساعة الثالثة. وكانت قد تزيت بأحسن ثوب لديها، مدفوعة بغريزة المرأة عندما يكون هناك أمر مزعج تضطر إلى مواجهته، ومضت إلى المعركة متحصنة بنظرة تماثل في شجاعتها نظرة «جوليون الكبير» نفسه. وتحول ترددها إلى حماسة.

وعندما أعلن مقدم «جون» كانت السيدة «بينز» ـ عمة «بوزيني» (واسمها «لويزا») ـ كانت في مطبخها تشرف على إعداد الطعام، فهي ربة منزل ممتازة؛ «وفي العشاء الطيب الشيء الكثير»، كما اعتاد «بينز» أن يقول دائمًا، فهو يضطلع بأحسن أعماله بعد العشاء. و«بينز» هو الذي بنى ذلك الصف اللطيف الملحوظ من المنازل القرمزية السامقة التي تنافس منازل أخرى كثيرة في الفوز بلقب «أقبح منازل لندن».

ولدى سماعها اسم «جون» هرعت إلى غرفة نومها، وأخرجت من صندوق مصنوع من جلد مراكشي أحمر، موضوع في درج مغلق، سوارين عريضين طوقت بهما معصميها الأبيضين، ذلك أنها تتصف إلى حد ملحوظ بـ«حاسة الملكية»، وهذه الحاسة، كما نعلم، هي محك «الفورسايتية»، وأساس الخلق المتين.

وانعكس شكلها المتوسط الطول، العريض البنيان، المائل إلى السمنة، في مرآة صوان ملابسها المصنوع من خشب أبيض، انعكس في ثوب تم

صنعه وفقًا لتصميمها، وله لون من تلك الألوان نصف الحائلة التي تذكر الإنسان بدهان حيطان الممرات المخفف في الفنادق الكبرى، ورفعت يديها إلى شعرها الذي صفَّفته على طريقة «أميرة غال»، ولمسته هنا وهناك لتزيده تثبيتًا على رأسها. وامتلأت عيناها «بواقعية» غير واعية، وكأنما كانت تنظر إلى وجه واقعة من وقائع الحياة الخسيسة، وتعمل على تجميله بقدر المستطاع. وكانت وجنتاها أيام صباها في لون اللبن والورد، ولكنهما أصبحتا الآن مبقعتين بفعل السن المتوسطة، وبينما كانت تعفر جبينها بملقط «البودرة» عادت إلى عينيها تلك الصراحة الصارمة القبيحة. وبعد أن وضعت ذلك الملقط جانبًا وقفت أمام المرآة بلا حراك لترسم ابتسامة على أنفها العالي الهام، وعلى ذقنها (الذي لم يكن قط عريضًا، وازداد الآن صغرًا نظرًا لتضخم عنقها) وعلى شفتيها الدقيقتين، وفمها المدلى. وأمسكت ذيل ثوبها بكلتا يديها في قوة، وأسرعت إلى الدور السفلي قبل أن تفقد ابتسامتها أثرها.

كانت تتوقع هذه الزيارة منذ وقت مضى، فقد ترامت إليها همسات تقول إن الأمور بين ابن أخيها وخطيبته ليست موفقة تمامًا. ولم يزرها واحد منهما منذ أسابيع، وقد دعت «فيل» للعشاء مرارًا فكان جوابه الذي لا يختلف أنه «مشغول جدًّا».

وأحست الخطر ـ بغريزتها ـ وغريزة هذه المرأة الممتازة مرهفة في مثل هذه الأمور. وكان ينبغي أن تكون «فورسايتية»، فإن لها دون شك هذه الميزة بحسب المفهوم الحرفي لقول «جوليون الكبير»، وتستحق مثل هذا الوصف.

لقد زوجت بناتها الثلاث زواجًا قال الناس عنه إنه فوق ما يستأهلنه. فقد كن يتصفن ببساطة أهل الحرف، وهي تلك البساطة التي لا تتوفر إلا بين نوع النساء اللواتي يقمن بأعمال أشد قربًا إلى أعمال البر. واسم هذه السيدة يبدو في سجل اللجان المشرفة على عدد لا يحصى من المشروعات الخيرة التي ترتبط بالكنيسة ـ فمن حفلات رقص، إلى حفلات مسرحية،

إلى أسواق خيرية ـ وهي لا تعير اسمها لتلك المشروعات إلا إذا استوثقت مقدمًا من أنها نُظِّمت على أكمل وجه.

وهي تؤمن، كما كانت تقول غالبًا، بوضع الأشياء على أساس تجاري؛ ووظيفة الكنيسة، ومشروعات البر، وكل شيء على وجه التأكيد، هي تقوية «جهاز المجتمع»؛ وعلى هذا كانت تعد النشاط الفردي غير أخلاقي. فالمنظمات هي الشيء الوحيد المجدي، وأنت تستطيع، عن طريق المنظمات وحدها، أن تستوثق من الحصول على مقابل لما تبذل من مال، المنظمات... ثم المنظمات! ولا شك أنه لم تكن تختلف عما دعاها به «جوليون الكبير»، إذ قال: «هي بارعة في ذلك». وقد ذهب إلى أبعد من ذلك فدعاها «دجَّالة».

والمشروعات التي تشترك فيها كانت باهرة التنظيم إلى حد أن المنح تصبح بالفعل، عند تسليمها، لبنًا نزعت منه «قشدة» العطف الإنساني. ولكن ينبغي ـ على حد ما كانت تلاحظه بحق في أغلب الأحيان ـ ينبغي استبعاد العاطفة، لقد كانت في الواقع تميل قليلًا إلى «الأكاديمية».

هذه المرأة العظيمة الطيبة، المقدرة أسمى تقدير في الدوائر الكنسية، كانت كاهنة من الكاهنات الرئيسيات في معبد «الفورسايتية»؛ فهي تحافظ على اشتعال النار المقدسة ليل نهار في سبيل «إله الملكية» الذي نُقشت على محرابه هذه الكلمات الملهمة: «لا شيء مقابل لا شيء، والشيء الزهيد على نحو ملحوظ حقًّا مقابل القروش المعدودة».

وهي عندما تدخل غرفة يشعر الموجودون بأن شيئًا جوهريًّا دخلها، ولعل هذا هو سبب شهرتها بأنها «رئيسة». وعندما يدفع الناس مالًا نظير شيء يودون أن يكون هذا الشيء جوهريًّا؛ وهم قد ينظرون إليها ـ وهي محاطة في قاعات حفلات البر بمعاوناتها؛ بادية بأنفها العالي، وهيكلها العريض المربع؛ مرتدية ثوبًا مزركشًا بالترتر ـ ينظرون إليها كما لو كانت جنرالًا.

والشيء الوحيد الذي يؤخذ عليها هو أنها لم تكن تسمى باسمين؛ لقد كانت قوة فعالة في مجتمع الطبقة فوق المتوسطة، مع ما اشتمل عليه ذلك

المجتمع من مئات الجماعات والدوائر التي تتقابل وتفترق جميعها في ميدان المعركة العامة الخاصة بوظائف البر؛ وتتمسح أذيالها في ذلك الميدان تمسحًا لطيفًا كل اللطف بأذيال المجتمع «الكبير»؛ لقد كانت السيدة «بينز» قوة فعالة في المجتمع الأدنى مكانة، وإن كان أوسع نطاقًا، وأكبر أهمية، وأقوى نفوذًا، حيث المؤسسات المسيحية ذات النزعة التجارية، وحيث الأقوال المأثورة و«المبادئ» التي تجسدها تلك السيدة، هي دم الحياة الحقيقي متدفقًا في حرية، هي المجرى الحقيقي للأعمال، وليست مجرد المحاكاة الجامدة التي تجري في عروق المجتمع «الأصغر عددًا» الأكبر مكانة. وكل من عرف تلك السيدة شعر بأنها يُركن إليها... امرأة يُركن إليها؛ لا تورط نفسها أبدًا، ولا تفرط في أي شيء كان، إذا أمكن أن يكون ذلك في استطاعتها.

كانت على أسوأ علاقة بأبي «بوزيني» الذي جعل منها غالبًا موضوعًا لسخرية لا تُغتفر. وهي تشير إليه الآن بحسبانه «أخاها المسكين العزيز غير الوقور».

وحيَّت «جون» بتلك الحماسة الحذرة التي كانت تجيدها كل الإجادة. وشعرت حيالها بقدر قليل من الخوف لا يتجاوز ما ينتاب امرأة لها مثل سمو شأنها في العالم التجاري، والعالم المسيحي، ذلك أن «جون» الفتاة الصغيرة الحجم جدًّا، تتمتع بهيبة كبيرة خلعتها عليها عيناها الجريئتان. والسيدة «بينز» أدركت أيضًا، في خبث، أن هناك قدرًا كبيرًا من «الفورسايتية» وراء صراحة «جون» التي لا تلين؛ ولو كانت هذه الأخيرة مجرد فتاة صريحة شجاعة لحسبتها السيدة «بينز» فتاة «هوائية» ولاحتقرتها؛ ولو كانت مجرد «فورسايتية» ـ ولنقل مثل «فرانسي» ـ لراعتها السيدة «بينز» لمحض كونها امرأة ذات وزن ونفوذ؛ ولكن «جون»، برغم صغر حجمها، أشاعت القلق في نفس مضيفتها ـ السيدة التي تعجب بالأحجام الكبيرة ـ وأجلستها هذه الأخيرة في مقعد مواجه للضوء.

وكان هناك سبب آخر لاحترامها ـ والسيدة «بينز» آخر من يعترف بهذا السبب فهي، بحسبانها من نساء الكنيسة، أشد صلاحًا من أن تكون دنيوية ـ لقد سمعت زوجها يصف «جوليون الكبير» مرارًا بأنه واسع الثراء، وأنه يحابي حفيدته محاباة تستند إلى أوثق الأسباب، وقد شعرت اليوم بمثل الانفعال الذي نحسه ونحن نقرأ قصة تصف بطلًا وميراثًا، ونتنزعج في عصبية خوفًا من أن يترك ذلك الشاب في النهاية دون الحصول على الميراث بسبب هفوة مرعبة يرتكبها مؤلف القصة.

وكان مسلكها حماسيًّا؛ وهي لم تدرك من قبل في مثل هذا الوضوح الشديد كم كانت هذه الفتاة متميزة شائقة. وسألتها عن صحة «جوليون الكبير». إنه رجل رائع بالنسبة لسنه؛ منتصب القامة تمامًا؛ يبدو في ريعان الشباب، كم عمره؟ واحد وثمانون عامًا! إنها لم تكن لتظن ذلك قط! أرحلا إلى الشاطئ! هذا مفيد جدًّا لهما؛ إنها لتحسب أن «جون» تتلقى رسائل من «فيل» كل يوم؟ وجحظت عيناها الشهباوان على نحو أشد وهي تسأل هذا السؤال، ولكن الفتاة واجهت نظرتها دون أن يختلج لها جفن وقالت:

ـ لا، إنه لا يكتب أبدًا!

وأرخت السيدة «بينز» عينيها، ولم تكن تنوي أن تفعل ذلك، ولكنها أرختهما. ثم استعادت وضعهما السابق من فورها.

ـ إنه لا يكتب بالطبع. وهذه خليقته. وقد كان هكذا دائمًا!

وقالت «جون»:

ـ أكان هكذا؟

وترددت ابتسامة السيدة «بينز» المشرقة لحظة بسبب اقتضاب هذا الرد، وسترتها صاحبتها بحركة سريعة، وقالت وهي تنشر ذيل ثوبها من جديد:

ـ لا تعجبي يا عزيزتي، إنه أكبر طائش على وجه التحديد؛ وعلى الإنسان ألا يهتم أقل اهتمام بما يفعله!

واقتنعت «جون» فجأة بأنها تضيع وقتها سدى فهي لن تستخلص شيئًا من هذه المرأة حتى ولو وجهت إليها سؤالًا صريحًا.

وسألتها ووجهها يصطبغ بلون قرمزي:

ـ أتقابلينه؟

ونبتت حبات العرق في جبين السيدة «بينز» من تحت مسحوق «البودرة».

ـ أوه، نعم! وأنا لا أتذكر متى رأيته آخر مرة، إننا بالفعل لا نراه كثيرًا في هذه الآونة الأخيرة، فهو منهمك في بناء منزل ابن عمك. وقد قيل لي إن ذلك البناء سيتم توًّا؛ ولا بد أن نعد وليمة عشاء صغيرة للاحتفال بهذا الحدث. أرجو أن تحضري وتبقي ذلك المساء معنا!

وقالت «جون»:

ـ شكرًا.

وخطر لها من جديد هذا الخاطر: «إني أضيع وقتي وحسب. فهذه السيدة لن تفضي إليَّ بشيء».

ونهضت لتنصرف. وطرأ تغير على السيدة «بينز»، ونهضت هي أيضًا، واختلجت شفتاها، وأخذت تحرك يديها، ولم يخف أن ثمة شيئًا منحرفًا أشد الانحراف؛ ولم تجرؤ السيدة على سؤال الفتاة التي وقفت هناك بقدها النحيل، وجسمها الصغير، ووجهها الثابت العزيمة، وفمها المطبق، وعينيها الحانقتين؛ ولم يكن من عادة السيدة «بينز» أن تخشى توجيه الأسئلة، فالمنظمات جميعها تقوم على أساس توجيه الأسئلة!

ولكن الأمر كان خطيرًا إلى حد أن أعصابها القوية عادة، اهتزت نوعًا؛ فإن زوجها قال لها هذا الصباح بالذات: «لا بد أن السيد «فورسايت الكبير» يملك أكثر من مائة ألف من الجنيهات!».

وهذه الفتاة تقف هناك، باسطة يدها... باسطة يدها!

قد تكون الفرصة على وشك الإفلات ـ لم يكن في مقدورها أن تعرف حقيقة الأمر ـ فرصة إبقائها في نطاق الأسرة، ولم تجرؤ مع ذلك على الكلام.

واقتفت عيناها «جون» حتى الباب.

وأغلق الباب.

ثم ركضت السيدة «بينز» إلى الأمام وهي تصيح صيحة تعجب، وتتمايل بهيكلها الضخم من جانب إلى جانب، وفتحت الباب ثانية.

تأخرت كثيرًا! وسمعت صكة الباب الخارجي، ووقفت بلا حراك، وعلى وجهها تعبير عن الغضب الحقيقي وخيبة الأمل.

واجتازت «جون» الميدان بسرعتها الشبيهة بسرعة الطير، وقد كرهت تلك المرأة الآن، وكانت معتادة في أيامها الأكثر سعادة أن تراها كريمة جدًّا، أكُتب عليها أن تصد دائمًا على هذا النحو، وأن تضطر إلى مكابدة هذا القلق الشديد العذاب؟

ومن الممكن أن تذهب إلى «فيل» نفسه، وتسأله عن مقصده، فإن من حقها أن تعلم. وأسرعت مجتازة شارع «سلون» حتى وصلت إلى منزل «بوزيني». وبعد أن اجتازت الباب السفلي، المتحرك المصراعين، صعدت في السلم راكضة وقلبها يدق في ألم.

وتوقفت في أعلى الدور الثالث لتلتقط أنفاسها. ووقفت تنصت وهي متعلقة بدرابزين السلم. ولم ينبعث صوت من أعلى.

وصعدت إلى الدور الأخير ووجهها شديد البياض. ورأت الباب واللوحة التي كُتب عليها اسمه، وإذا العزيمة التي دفعت بها إلى الحد البعيد تتبخر.

وفطنت إلى المعنى الكامل لسلوكها، واتقدت النار في جسمها كله. وابتلت راحتاها تحت غطاء قفازها الحريري الرقيق.

وارتدَّت إلى السلم، ولكنها لم تنزل فيه. وحاولت وهي تميل مستندة إلى الدرابزين، أن تتخلص من الشعور بالاختناق. وتطلعت إلى الباب شاعرة بنوع من الشجاعة الرهيبة. لا! إنها ترفض أن تنزل. أيهمها ما يراه الناس في مسلكها؟ إنهم لن يعرفوا ما تكابده مطلقًا! ولن يعينها أحد إذا هي لم تعن نفسها! إنها لن تتوقف حتى تنجز الأمر.

وعلى هذا دقت الجرس وهي تُرغم نفسها على التخلي عن سند الحائط. ولم يفتح أحد الباب. وعلى حين فجأة تخلى عنها كل ما شعرت به من خوف وخزي. وعادت فدقت الجرس مرارًا وتكرارًا، وكأنما كانت تستطيع أن تنتزع من الغرفة المغلقة ـ برغم فراغها ـ ردًّا ما، تعويضًا ما عما كلفتها هذه الزيارة من خزي وخوف، ولم يفتح أحد الباب؛ وكفت عن دق الجرس. ودفنت وجهها في يديها وهي تجلس في أعلى السلم.

ولم تلبث أن انسلت إلى الدور السفلي، ثم إلى الهواء الطلق وشعرت كأنها كابدت مرضًا سيئًا. ولم تعد ترغب الآن إلا في العودة إلى بيتها بأسرع ما تستطيع. وبدا على الناس الذين قابلتهم كأنهم عرفوا أين كانت، وماذا كانت تفعل. وفجأة رأت «بوزيني» نفسه، سائرًا في الجانب المقابل، متجهًا من ناحية ميدان «مونبيلييه» إلى مسكنه.

وهمت أن تخترق حركة المرور. والتقت عيناهما، ورفع لها قبعته. ومرت مركبة «أومنيبوس» حائلة بينها وبين الرؤية. ثم رأته، من فرجة بين المارة، وهي واقفة على حافة الرصيف، رأته يواصل سيره.

ووقفت «جون» دون حراك وهي تشيعه بنظرها.

الفصل الثاني والعشرون

إتمام بناء البيت

«صحفة من المرق الخالص، وصحفة من حساء ذيل العجل؛ وكأسان من نبيذ «بورتو»».

كان «جيمس» وابنه يجلسان لتناول الغداء في الغرفة العليا من مطعم «فرينش»، حيث لا يزال «الفورسايتي» يستطيع أن يأكل طعامًا إنجليزيًّا دسمًا.

وكان «جيمس» يؤثر المجيء إلى هنا على غشيان جميع المطاعم الأخرى فهناك شيء من البساطة حول هذا المطعم، ومن النكهة الطيبة والإشباع. وبرغم تطرق الفساد إليه نوعًا ما بسبب الحاجة إلى أن يكون عصريًا، واتجاه العادة إلى مراعاة الدخل الذي ينبغي أن يزيد، فإن الناس لا يزالون يؤمونه في لحظات هدوء المدينة متأثرين بصحاف لحومه الشهية في أيامه الخالية. وهنا يقوم على خدمتك غلمان المطعم الإنجليز، الطوال الشعور، وهم يتشحون بمآزرهم، وهناك انتثرت نشارة الخشب على الأرض. وتعلقت فوق مستوى النظر ثلاث مرايا مذهبة. ولم يتخلصوا في ذلك المطعم إلا أخيرًا من المقاصير المكعبة التي تستطيع أن تتناول فيها، كالسيد الإنجليزي المهذب، شريحة وزندًا من لحم الضأن، مع بطاطس مسحوقة، دون أن يراك جارك.

ودس طرف منشفته الأعلى وراء عروة صداره الثالثة، وهذه عادة اضطر إلى الإقلاع عنها في «ويست إند» منذ سنوات. وشعر بأن عليه أن يتمتع

بتناول حسائه، فقد انهمك طوال الصباح في تصفية عقار مملوك لأحد أصدقائه القدامى.

وبعد أن ملأ فمه بخبز «بيتي» يابس، بدأ من فوره يقول:

ـ كيف ستذهب إلى «روبن هل»، أستصطحب «آيرين»؟ الأفضل أن تصطحبها. وأحسب أن ستكون هناك أشياء كثيرة تحتاج إلى فحص.

وأجاب «سومز» دون أن يرفع بصره:

ـ إنها لن تذهب.

ـ لن تذهب؟ ما معنى هذا. إنها ستقطن في هذا المنزل، أليس كذلك؟

ولم يحر «سومز» جوابًا. وغمغم «جيمس»:

ـ لست أدري ماذا أصاب النساء في هذه الأيام. أنا لم أتعود قط أن ألاقي منهن أي متاعب. لقد حظيت بقدر زائد من الحرية... لقد أفسدها التدليل...

ورفع «سومز» بصره، وقال على غير انتظار:

ـ أنا لا أسمح بأي قول يُقال ضدها.

ولم يقطع الصمت عندئذ إلا ارتشاف «جيمس» لحسائه.

وجاء خادم المطعم بكأسي النبيذ، فاستوقفه «سومز»، وقال:

ـ ليست هذه هي الطريقة التي تقدم بها النبيذ. عد بهما وأحضر الزجاجة.

وإذ أفاق «جيمس» من تأمله وهو مكب على صحفة الحساء، لجأ إلى إحدى طرقه في تبديل نظرته إلى الوقائع المحيطة به. وقال:

ـ أمك ملازمة لفراشها، وفي وسعك أن تأخذ العربة لتذهب بها. وأحسب أن «آيرين» تحب الذهاب بالعربة، وسيكون الفتى «بوزيني» هناك، على ما أعتقد، ليريكما المنزل.

وأومأ «سومز». وواصل «جيمس» قوله:

ـ وإني أود أن أرى بنفسي شكل المهمة التي أنجزها. وسآتي بالعربة وأصطحبكما كليكما.

وأجاب «سومز»:

ـ سأذهب بالقطار. وإذا وددت أن تحضر بالعربة وترى «آيرين»، فقد تذهب معك. ولست أجزم بشيء.

وأشار إلى خادم المطعم ليحضر قائمة الحساب التي سددها «جيمس».

ومضيا إلى «سانت بول» حيث انفصل «سومز» ذاهبًا إلى المحطة، واستقل «جيمس» «الأومنيبوس» متجهًا غربًا.

واتخذ لنفسه مقعدًا في الركن المجاور للسائق حيث صار من العسير على أي راكب أن يمر نظرًا لطول ساقيه. وتطلع باشمئزاز إلى جميع المارين وكأنما لم يكن من حقهم أن يستعملوا مساحته الشخصية.

وكان ينوي أن ينتهز في عصر ذلك اليوم فرصة للتحدث إلى «آيرين». فإن قول كلمة في أوانها يوفر تسع كلمات. وبما أنها ستذهب لتعيش في الريف فستُتاح لها فرصة لتفتح صفحة جديدة من حياتها!

وقد أمكنه أن يرى أن «سومز» لن يستطيع احتمال تصرفاتها أكثر كثيرًا مما احتمل!

ولم يخطر له أن يحدد ما يعنيه بكلمة «تصرفاتها». فذلك التعبير واسع الحدود، غامض ملائم لـ«فورسايتي». ونصيب «جيمس» من الشجاعة يزيد بعد تناول الغداء عن نصيبه العادي.

وما إن وصل إلى بيته حتى أمر بإعداد عربته ذات المقعدين، وأصدر تعليمات خاصة إلى السائس بالركوب أيضًا. وأراد أن يلاطفها، ويتيح لها كل فرصة.

وعندما فتح باب المنزل المرقوم ٦٢ استطاع أن يسمعها وهي تغني، وقال إنه سمعها حتى لا تتاح فرصة لرفض دخوله.

نعم، إن السيدة «سومز» موجودة، ولكن الخادمة لا تعرف أهي على استعداد لاستقبال الناس.

وسار «جيمس» بتلك السرعة التي لم تزل تدهش الذين لاحظوا هيكله

الطويل، وتعبيره المستغرق في التأمل؛ ومضى من فوره إلى غرفة الاستقبال دون أن يسمح بالتحقق من دخوله. ووجد «آيرين» تجلس إلى «البيانو» ويداها متوقفتان عن الحركة فوق مفاتيحه، وبدا واضحًا أنها تنصت إلى الأصوات الصادرة من الردهة. وحيته دون أن تبتسم، وبدأ يقول وهو يؤمل أن يضمن عطفها من فوره:

ـ إن حماتِك تلازم فراشها، والعربة معي هنا، فكوني الآن فتاة لطيفة، والبسي قبعتك، وتعالي معي لنقوم بنزهة في العربة، فإن ذلك سيفيدك!

ونظرت إليه «آيرين» كما لو كانت توشك أن ترفض، ولكنها صعدت إلى الدور العلوي وقد لاح أنها غيَّرت رأيها، ونزلت ثانية لابسة قبعتها. وسألته:

ـ أين ستذهب بي؟

ولفظ «جيمس» بكلماته في سرعة شديدة:

ـ سنذهب فقط إلى «روبن هل»، فالجياد في حاجة إلى رياضة، وأنا أود أن أرى ما يقومون به من عمل هناك.

وتراجعت «آيرين»، ولكنها رجعت في رأيها ثانية، وخرجت إلى العربة في حين لازمها «جيمس» من قريب ليتحقق تمامًا من الأمر.

ولم يبدأ قوله إلا بعد أن قطع بها أكثر من نصف الطريق:

ـ «سومز» شديد التعلق بك، إنه لا يسمح بأي قول يُقال ضدك؛ لماذا لا تبدين له قدرًا أكبر من المودة؟

واحمر وجه «آيرين»، وقالت بصوت خافت:

ـ لا أستطيع أن أبدي ما ليس عندي.

ونظر «جيمس» إليها بحدة؛ وشعر بأنه يسيطر الآن حقًّا على الموقف وهي في حوزته، مستقلة عربته الخاصة، محاطة بخيله وخدمه؛ إنها لا تستطيع أن تتملص منه، ولا تود أن تتشاحن علنًا. وقال:

ـ أنا لا أستطيع أن أدرك ما أنت بصدده. إنه زوج صالح جدًّا!

وكانت إجابة «آيرين» خافتة جدًّا إلى حد أنها لم تكد تُسمع وسط الضجيج المنبعث من حركة المرور. والتقطت أذن «جيمس» هذه الكلمات:

ـ أنت لم تتزوجه!

ـ وما علاقة هذا بالأمر؟ لقد منحك كل ما تشائين، وهو مستعد في كل وقت لاصطحابك إلى أي مكان. وقد أقام لك الآن منزلًا في الريف. إن الأمر ليس كما لو كنت تملكين شيئًا خاصًّا بك.

ـ لا.

ونظر «جيمس» إليها ثانية؛ ولم يستطِع أن يتبين التعبير المرتسم على وجهها. وبدت كأنها توشك أن تبكي، ومع ذلك...

وغمغم على عجل:

ـ أنا واثق. لقد حاولنا جميعًا أن نحوطك بعطفنا.

وارتجفت شفتا «آيرين». وأفزع «جيمس» أن يرى دمعة تتسرب منحدرة على خدها. وشعر بغصة تتصاعد إلى حلقه. وقال:

ـ نحن متعلقون بك جميعًا، لو أنك فقط...

وأوشك أن يقول: «تسلكين مسلكًا لائقًا»، ولكنه استبدل بذلك ما يلي: «تصبحين له أقرب إلى الزوجة».

ولم تجبه «آيرين». وكف «جيمس» أيضًا عن الكلام. وكان في صمتها شيء يثير بلباله. إنه لم يكن صمت عناد؛ ولكن صمت إذعان لكل ما كان يستطيع العثور عليه من قول. وبرغم ذلك أحس «جيمس» كأنه لم يقل بعد الكلمة الأخيرة؛ فهو لم يستطع إدراك الأمر.

ولم يستطع مع ذلك أن يلوذ بالصمت طويلًا. وقال:

ـ أحسب أن الشاب «بوزيني» سيتزوج «جون» الآن؟

وتغيَّر وجه «آيرين»، وقالت:

ـ لست أدري؛ عليك أن تسألها هي.

ـ ألا تراسلك؟

ـ لا.

وقال «جيمس»:

ـ كيف ذلك؟ ظننت أنكما كنتما صديقتين حميمتين.

ودارت إليه «آيرين»، وقالت:

ـ أقول ثانية إن عليك أن تسألها هي!

واضطرب «جيمس»، مذعورًا من نظرتها:

ـ حسنًا؛ إنه من الغريب حقًّا ألا أستطيع الظفر بإجابة صريحة عن سؤال صريح، ولكن ها هو ذا الأمر.

وجلس يجتر إهانتها، وانفجر قائلًا آخر الأمر:

ـ حسنًا، إني حذرتك. أنت لا تنظرين بعيدًا. و«سومز» قليل الكلام، ولكن أستطيع أن أرى أنه لن يحتمل هذا النوع من التصرف كثيرًا. وأنتِ لن تجدي من تلومينه إلا نفسك. والأدهى من ذلك أنك لن تجدي أحدًا يعطف عليك.

وأمالت «آيرين» رأسها في انحناءة باسمة:

ـ أشكرك شكرًا جزيلًا.

ولم يدرِ «جيمس» ماذا يقول.

وكان الصباح المشرق الحار قد تحول شيئًا فشيئًا إلى عصر أشهب يقبض الصدر، وصعدت من الجنوب سحب متراكمة ذات صبغة دالة على قرب انفجار الرعد، وأخذت تزحف إلى أعلى. وتهدلت أغصان الأشجار عبر الطريق دون أن تتحرك، ودون أن تضطرب أوراقها أقل اضطراب. وعلقت بالجو الكثيف رائحة «غراء» خفيفة تفوح من الجوادين الساخنين. وتبادل السائق والسائس همهمات خاطفة دون أن يدورا برأسيهما وهما يجلسان على مقعديهما جامدين منتصبي القامة.

وشعر «جيمس» بالفرح الشديد لوصولهما آخر الأمر إلى المنزل، فقد

أزعجه الصمت، وتمنُّع تلك المرأة التي تجلس إلى جواره، والتي ظنها دائمًا لينة العريكة، دمثة الخلق.

ووصلت بهما العربة إلى الباب، ودخلا المنزل.

وكانت الردهة رطبة، شديدة السكون إلى حد أن كانا كأنهما يغشيان قبرًا. وسرت رجفة في عمود «جيمس» الفقري. ورفع على عجل ستائر جلدية ثقيلة تفصل بين الأعمدة والفناء الداخلي.

ولم يستطع أن يكبح صيحة استحسان.

فالزخرفة دلت ـ في الحق ـ على ذوق ممتاز. وكان القرميد المعتم، الياقوتي اللون، الممتد من أسفل الحيطان إلى حافة مجموعة من أشجار السوسن قائمة على شكل دائرة، والمحيط كذلك بحوض منخفض، مصنوع من المرمر الأبيض، مملوء بالماء، كان يبدو أنه من أحسن صنف. وأعجب «جيمس» أشد الإعجاب بالستائر الجلدية القرمزية التي تنسدل على جانب واحد حتى آخره، وتحيط، مثل الإطار، بموقد ضخم مصنوع من القرميد الأبيض. وكانت الأجزاء الوسطى من نور السماء قد تراجعت، وتسرب الهواء الدافئ من الخارج إلى صميم المنزل.

ووقف واضعًا يديه خلف ظهره، وانحنى رأسه إلى الوراء فوق كتفيه العاليتين الضيقتين. وأخذ يرقب وشي الأعمدة، ونقش الطنف الممتد حول الحيطان العاجية اللون في أسفل الرواق. وبدا واضحًا أن كل جهد بُذل في هذا السبيل. فالبيت بيت سيد نبيل حقًّا. وتقدم إلى الستائر، وأسدلها بعد أن اطلع على كيفية صنعها، وفتح باب رواق اللوحات الذي ينتهي إلى نافذة هائلة تستغرق آخر الغرفة بأكمله، واكتست أرض الغرفة بألواح من خشب البلوط الأسود. وكانت حيطانها كذلك عاجية اللون. وراح يفتح الأبواب ويطل منها. وكان كل شيء مرتبًا أحسن ترتيب، مستعدًّا للسكنى على الفور.

ودار أخيرًا ليحادث «آيرين»، ورآها واقفة عند مدخل الحديقة مع زوجها و«بوزيني».

وبرغم أن «جيمس» لم يكن مرهف الحس فقد شعر من فوره أن ثمة شيئًا لا يستقيم. ومضى إليهم، شاعرًا بانزعاج مبهم، غير ملم بطبيعة المحنة، فحاول أن يلطف الأمور، وقال وهو يمد يده:

ـ كيف حالك يا سيد «بوزيني»؟ عليَّ أن أقول إنك أنفقت هنا المال بلا حساب!

وأدبر «سومز»، ومضى مبتعدًا عنهم. وتحول نظر «جيمس» من وجه «بوزيني» العابس إلى «آيرين». وفي أثناء اضطرابه عبَّر عن خواطره بصوت عالٍ: «حسنًا، إني لا أعرف ما الأمر، فما من أحد يفضي إليَّ بشيء». وسمع وهو يقتفي أثر ابنه ضحكة «بوزيني» القصيرة، «حسنًا، شكرًا لله! إنك تبدين...». ولم يسمع باقي الجملة لفرط سوء حظه.

ماذا حدث؟ التفت إلى الوراء، وكانت «آيرين» قريبة جدًّا من المهندس المعماري. وبدا وجهها مختلفًا عن الوجه الذي عرفه. ومضى مسرعًا إلى ابنه.

وكان «سومز» يتمشى في رواق اللوحات. وقال «جيمس»:

ـ ما الأمر؟ ما هذا كله؟

ونظر إليه «سومز» محتفظًا بهدوئه المتعجرف. ولكن «جيمس» كان على بينة تامة من أنه على غضب عنيف. وقال «سومز»:

ـ إن صديقنا تجاوز التعليمات الصادرة إليه للمرة الثانية، هذا كل ما في الأمر، فما أردأ ما صنع هذه المرة.

ودار، ومشى عائدًا صوب الباب. وتبعه «جيمس» مسرعًا، مستحثًّا خطواته ليتقدم. ورأى «آيرين» تبعد إصبعها من أمام شفتيها، وسمعها تنطق شيئًا بصوتها الطبيعي. وبدأ يقول قبل أن يصل إليها:

ـ إن العاصفة مقبلة، وأولى بنا أن نعود. وأحسب أننا لا نستطيع أن نصطحبك يا سيد «بوزيني». لا، أحسب أننا لا نستطيع ذلك.

ومد يده. فلم يتناولها «بوزيني»، ولكنه دار ضاحكًا، وقال:

ـ وداعًا يا سيد «فورسايت». لا تدع العاصفة تدركك.

ومضى مبتعدًا. وبدأ «جيمس» يقول:

ـ حسنًا، لست أدري...

ولكن منظر وجه «آيرين» ألجم لسانه وأمسك بمرفق زوجة ابنه فرافقها إلى العربة. وكان على ثقة... على ثقة تامة من أنهما يضربان موعدًا، أو ما أشبه، للقائهما.

وليس في هذه الدنيا شيء أقدر دون شك على إزعاج «الفورسايتي» من أن يجد شيئًا اشترط أن ينفق عليه مبلغًا معينًا، فإذا هذا الشيء يكلفه أكثر مما اشترط. وهذا معقول، لأن سياسة حياته كلها مرتبة على أساس ضبط تقديراته. فهو إذا لم يستطع الاعتماد على قيم محددة لأملاكه، اختلت بوصلته، وهام على وجهه في مياه عالية دون أن يكون لديه دفة للسفينة.

كان «سومز» قد أبعد عن ذهنه مسألة نفقات المنزل بعد أن كتب إلى «بوزيني» رسالة تتضمن الاشتراطات التي سبق أن سُجلت، وقد اعتقد أنه أوضح مسألة المبلغ النهائي لنفقات المنزل إيضاحًا شديدًا إلى حد أنه لم يخطر بباله قط إمكان تجاوزه مرة أخرى. وقد بهت لونه من الغضب عندما علم من «بوزيني» أنه أنفق ما يقرب من أربعمائة جنيه زيادة على المبلغ الذي حدده له وهو اثنا عشر ألف جنيه. لقد كان تقديره الأصلي لنفقات إتمام المنزل مبلغ ثمانية آلاف من الجنيهات وكم من مرة عنَّف نفسه على انقياده للزيادات المتكررة. بيد أن «بوزيني»، بإنفاقه هذا المبلغ الأخير، أوقع نفسه في الخطأ تمامًا. كيف بالله يستطيع إنسان أن يقع في مثل هذه الغفلة؟ لم يتصور «سومز» ذلك؛ ولكنه وقع في هذه الغفلة. وإذا جماع الضغينة، والغيرة المكنونة التي اضطرمت ضد «بوزيني» منذ زمن طويل؛ إذا هي تتركز في سورة غضب من جراء هذا الجزء من التبذير الذي توج ما قبله، لقد انقضى موقف الزوج المنطوي على الثقة والود، ذلك الموقف الذي اتخذه «سومز» ليحمي ملكيته ـ أي زوجته ـ وفي سبيل الاحتفاظ بملكية من نوع آخر، أضاع الآن تلك.

وقد قال لـ«بوزيني» عندما استطاع أن يتكلم:

ـ آه! أحسب أنك راضٍ عن نفسك تمام الرضا. ولكني أستطيع كذلك أن أقول لك إنك أخطأت الرجل الذي استهدفته كل الخطأ.

وفي ذلك الوقت لم يعرف، على وجه التحديد، ما قصده بهذه الكلمات، ولكنه رجع بعد العشاء إلى الرسائل المتبادلة بينه وبين «بوزيني» ليتأكد تمامًا من الأمر، فوجد أنه لا يختلف فيه رأيان، فإن الفتى أقر بأنه مسؤول عن المبلغ الزائد البالغ أربعمائة جنيه، أو مسؤول على أي حال، عن مبلغ ثلاثمائة وخمسين جنيهًا. وسيلزمه «سومز» بذلك فعلًا.

وكان ينظر إلى وجه زوجته عندما وصل إلى هذه النتيجة؛ وكانت تغير شريط «ياقة» وهي تجلس جلستها المعتادة على مقعد مستطيل. ولم تخاطبه مرة واحدة طوال المساء.

وتقدم إلى طنف المدفأة، وقال وهو يتأمل وجهه في المرآة:

ـ لقد سخر صديقك «القرصان» من نفسه، وسيدفع ثمن ذلك!

ونظرت إليه مستهزئة، وأجابت:

ـ لست أدري عم تتحدث!

ـ ستدرين عما قريب، مجرد شيء زهيد لا يرقى إلى احتقارك، أربعمائة جنيه.

ـ أتعني أنك ستحمله على دفع هذا المبلغ في سبيل ذلك المنزل الكريه؟

ـ سأفعل ذلك.

ـ وأنت تعلم أنه لا يملك شيئًا؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

ـ نعم.

ـ أنت إذن أخس مما كنت أظن.

وتحول «سومز» عن المرآة. وإذ تناول من فوق رف المدفأة، دون وعي قدحًا من الصيني، ضمه بيديه، وكأنه أخذ يصلي. ورأى صدرها يعلو ويهبط، وعينيها تظلمان غضبًا، وسأل في هدوء دون أن يعير مؤاخذتها اهتمامًا:

ـ هل أنتِ مسترسلة في مغازلة «بوزيني»؟
ـ كلَّا!

والتقت عيناها بعينيه، فأشاح عنها بنظره. ولم يصدقها أو يكذبها؛ ولكنه أدرك أنه أخطأ في توجيه سؤاله. وأثار حنقه إثارة جاوزت كل حد منظر وجهها الغامض، وفكر في مئات الليالي التي ظل يراها في أثنائها جالسة على هذا النحو وديعة مستسلمة، ولكنها مستعصية على الإدراك والفهم. وقال:

ـ أعتقد أنكِ خُلقتِ من حجر.

قال ذلك وهو يشد أصابعه شدًّا عنيفًا إلى حد أنه حطم القدح الهش، وتساقطت أجزاؤه على المدفأة. وابتسمت «آيرين» وقالت:

ـ يبدو أنك نسيت أن القدح ليس من حجر!

وأمسك «سومز» ذراعها، وقال:

ـ إن الضرب الساخن هو الوسيلة الوحيدة لإعادتك إلى صوابك.

ولكنه عاد على أعقابه، وغادر الغرفة.

الفصل الثالث والعشرون

«سومز» يجلس على السلم

صعد «سومز» تلك الليلة في السلم وهو يشعر بأنه تجاوز حده. وكان على استعداد للاعتذار عن عباراته.

وأطفأ المصباح الغازي الذي كان لا يزال مضيئًا في الممر خارج غرفتهما. وإذ توقف، واضعًا يده على مقبض الباب، حاول أن يهيئ اعتذاره؛ فلم يكن في نيته أن يدعها ترى انفعاله.

ولكن الباب لم ينفتح، حتى بعد أن شده، وأدار المقبض بشدة. لا بد أنها أغلقته بالمفتاح لسبب ما، ونسيت ذلك.

ودخل إلى غرفة التجمل حيث كان المصباح الغازي لا يزال كذلك مضيئًا ضعيف الاشتعال. ومضى مسرعًا إلى الباب الآخر، فوجده مغلقًا أيضًا. ثم لاحظ أن «سرير المخيمات» الذي يستعمله عرضًا، كان معدًّا لنومه، وأن لباس نومه موضوع عليه. ورفع يده إلى جبينه، وأعادها مبتلة، فقد ظهر له أنه مُنع من الدخول.

وعاد إلى الباب ثانية. وقعقع مقبضه خلسة، ونادى:

ـ افتحي قفل الباب، أتسمعين؟ افتحي قفل الباب!

وتصاعدت خشخشة خافتة. ولكن لم يُسمع جواب.

ـ أتسمعين؟ دعيني أدخل في التو. إني أصر على أن تدعيني أدخل!

واستطاع أن يسمع صوت تنفسها قريبًا من الباب، وكان كتنفس مخلوق يتهدده الخطر.

وكان هناك شيء مفزع في ذلك السكوت الصارم، وفي استحالة الوصول إليها. وعاد إلى الباب الآخر، ووضع عليه ثقل جسمه كله محاولًا أن يفتحه عنوة. ولكن الباب كان جديدًا ـ فهو نفسه الذي جدد الأبواب استعدادًا لعودته مع زوجته من شهر العسل ـ ورفع قدمه، في سورة غضب، ليدفع بها مصراعه إلى الداخل، ولكن فكرة وجود الخدم منعته عن ذلك، وشعر فجأة بأنه غُلب على أمره.

وارتمى على مقعد في غرفة التجمل، وتناول كتابًا.

ولكن خُيل إليه أنه يرى زوجته بدلًا من الأحرف المطبوعة، يرى زوجته بادية بشعرها الأصفر المتدفق على كتفيها العاريتين، وبعينيها الكبيرتين السوداوين، يراها واقفة وقوف حيوان متحفز. وتجلى له المعنى الكامل لواقعة تمردها. لقد قصدت أن يكون ما أقدمت عليه قاطعًا.

ولم يستطع أن يهدأ في جلسته، ومضى إلى الباب ثانية، وأمكنه إلى الآن أن يسمعها، ونادى: «"آيرين"! "آيرين"!».

ولم يقصد أن يجعل صوته عاطفيًّا. وسكتت الأصوات الخافتة، وكان ذلك هو الرد المشؤوم. ووقف يفكر مشبك اليدين.

ولم يلبث أن دار خلسة على أطراف أصابع قدميه، وجرى بغتة إلى الباب الآخر، وبذل جهدًا أقصى ليحطم قفله. وصر صرير الباب، ولكنه لم يذعن. وجلس «سومز» على السلم، ودفن وجهه في يديه.

وقضى مدة طويلة وهو جالس هناك في الظلام. وبسط القمر النافذ من كوة علوية بقعة باهتة أخذت تمتد صوبه في بطء منحدرة على السلم. وحاول أن يفكر فلسفيًّا.

ما دامت قد أغلقت بابها فهي لم تعد تملك بعد ذلك حقوق الزوجة، وفي وسعه أن يواسي نفسه بامرأة أخرى!

ولم تكن جولاته بين مثل هذه المتع إلا جولات خيالية، فهو لا قابلية عنده لمثل هذه المغامرات، وهو لم يقدم عليها إلا قليلًا، ثم فقد تلك العادة، وشعر بأنه لن يستعيدها أبدًا. ولن يستطيع إشباع جوعه إلا بزوجته العنيدة الخائفة وراء هذين البابين المغلقين. وليست هناك امرأة أخرى تستطيع عونه.

وساوره هذا الاقتناع في قوة رهيبة هناك في جنح الظلام.

وانحسرت عنه الفلسفة، وحل محلها غضب عارم، فإن سلوكها هذا سلوك غير أخلاقي، سلوك لا يُغتفر، وهو يستحق أي عقاب يستطيعه. إنه لا يرغب إلا فيها، وهي رفضته!

لا بد أنها تمقته إذن! إنه لم يصدق ذلك قط حتى الآن. بل لا يصدقه الآن. فالأمر يبدو غير مصدق. وشعر كأنه فقد إلى الأبد قدرته على الحكم. وإذا استطاعت أن تتخذ هذه الخطوة الحاسمة، وهي الدمثة المستسلمة بحسب ما كان يراها دائمًا، فأي شيء يمكن ألا يحدث؟

ثم عاد فسأل نفسه أهي تدبر مكيدة مع «بوزيني». ولم يصدق ذلك، لم يكن في وسعه أن يقدم على تصديق مثل هذا التعليل لسلوكها، فهذه الفكرة لا يمكن مواجهتها.

وإنه لمن غير المحتمل أن يفكر في اضطراره إلى جعل علاقاته الزوجية ملكية عامة. ولما كانت تعوزه أشد الأدلة إقناعًا فلا بد أن يظل يرفض التصديق، لأنه لا يريد أن يعاقب نفسه، بيد أنه كان طوال الوقت يصدق ذلك فعلًا، في أعماق نفسه.

وخلع ضوء القمر على وجهه لونًا رماديًا وهو منحنٍ على حائط السلم.

إن «بوزيني» يحبها! و«سومز» يكره ذلك الفتى، ولن يبقي عليه الآن. وهو يستطيع أن يرفض ـ وسيرفض ـ دفع قرش واحد أكثر من مبلغ اثني عشر ألفًا وخمسين جنيهًا، وهو الحد الأقصى المحدد في رسالته. أو أحرى به أن يدفع الزيادة، أن يدفعها ويقاضيه مطالبًا بتعويض الخسارة. سيذهب إلى مكتب «جوبلنج وبولتر» المحاميين، ويضع الأمر بين أيديهما. سيحطم

ذلك المتسول المعدم! وخطر له فجأة ـ ومع ذلك، ما الصلة بين خواطره هذه؟ ـ خطر له أن «آيرين» لا مال لها كذلك، فهما معدمان كلاهما. وأحدث له هذا راحة غريبة.

وقطع الصمت حفيف خافت انبعث من الحائط. إنها تأوي آخر الأمر إلى فراشها. آه! لتنعم بالسرور والأحلام المبهجة! وهي إذا فتحت الباب على مصراعيه فإنه لن يدخل الآن! ولكن شفتيه اللتين التوتا في ابتسامة مريرة، رف رفيفهما، وغطى عينيه بكلتا يديه.

وكانت الساعة متأخرة في عصر اليوم التالي عندما وقف «سومز» إلى نافذة قاعة الطعام محدقًا في الميدان، كاسف البال.

وكان ضوء الشمس لا يزال يمطر الأشجار المستوية. وقد سطعت أوراقها المرحة العريضة وتراقصت في مهب النسيم على وقع أنغام صادرة من صندوق أرغن في ركن الميدان. وكان اللحن المعزوف لحن رقصة «فالس»، رقصة فالس قديمة انقضى أوانها، واشتملت نغماتها على إيقاعٍ مشؤوم. وظلت النغمات تتوالى وتتوالى، وإن لم يرقص على وقعها فعلًا إلا أوراق الشجر.

ولم تبدُ عازفة الأرغن شديدة المرح، والسبب في ذلك أنها متعبة؛ ولم يلقِ إليها أحد من سكان المنازل العالية قطعًا من النقود. وانتقلت بالأرغن، وبدأت تعزف عليه من جديد بعد أن تجاوزت ثلاثة منازل.

وكان لحن «الفالس» هو الذي عزفوه في بيت «روجر» عندما رقصت «آيرين» مع «بوزيني». وعادت إلى أنف «سومز» رائحة أزهار «الجاردينيا» التي تزينت بها «آيرين»، وقد ساقتها إليه تلك الموسيقى المؤذية كما ساقتها إليه زوجته وقتذاك، عندما مرت به، وشعرها يلتمع، وعيناها لينتان أشد اللين، وهي تسحب «بوزيني»، وتظل تسحبه عبر قاعة رقص لا آخر لها.

وأدارت عازفة الأرغن مقبضه في بطء؛ وقد ظلت تطحن لحنها طوال

اليوم، ظلت تعزفه غير بعيد في شارع «سلون»؛ ولعلها عزفته لـ«بوزيني» نفسه.

ودار «سومز»، وتناول سيجارة من العلبة المنقوشة، وسار ثانية إلى النافذة. لقد نوَّمه اللحن تنويمًا مغناطيسيًّا. ومن ثم بدت «آيرين»، منحسرة المظلة، مسرعة عبر الميدان إلى البيت، مرتدية سترة رقيقة، وردية اللون، مهدلة الأكمام، لم يكن رآها من قبل؛ وتوقفت أمام الأرغن، وأخرجت كيسها، ونفحت المرأة نقودًا.

وانكمش «سومز» مرتدًّا إلى الردهة حيث يستطيع مشاهدة ما يحدث.

دخلت بعد أن فتحت قفل الباب بمفتاحها، ووضعت مظلتها جانبًا، ووقفت تنظر إلى نفسها في المرآة. كان خداها متوردين كأن الشمس لفحتهما، وكانت شفتاها منفرجتين عن ابتسامة. ومدت ذراعيها كأنها تحاول أن تحتضن نفسها، ضاحكة ضحكة كالزفرة سواء بسواء.

وتقدم «سومز» وقال:

ـ وسيمة... جدًّا!

ولكنها دارت كأنها أصيبت بطلق ناري، وأرادت أن تمر به، وتصعد في السلم؛ فسدَّ عليها الطريق. وقال وقد تعلقت عيناه بخصلة شعر تساقطت محلولة فوق أذنها، ولم يعرفها إلا بصعوبة، فقد بدت كأنها تضطرم لفرط ما بلغته ألوان وجنتيها وعينيها وشفتيها، والصدرية الغريبة التي ترتديها، من عمق وغنى.

ورفعت يدها، وسوَّت خصلة شعرها. وكانت تردد أنفاسًا سريعة عميقة كأنها ركضت شوطًا. وبدا كأن عطرًا شبيهًا بعطر الوردة المتفتحة يفوح من شعرها، ومن جسمها، مع كل نفس تردده. وقال «سومز» على مهل:

ـ أنا لا أميل إلى هذه الصدرية، فهي شيء رخو، لا شكل له!

ورفع إصبعه في اتجاه الصدرية، فدفعت يده جانبًا؛ وصاحت:

ـ لا تلمسني!

وأمسكها من معصمها، فلوته متملصة، وسألها:

ـ وأين تراكِ كنت؟

ـ في جنة الخلد... خارج هذا البيت!

ومع نطق هذه الكلمات فرت إلى الدور العلوي.

وفي الخارج، أمام الباب عينه، كان الأرغن الدائر ـ حمدًا لله ـ يردد لحن «الفالس».

ووقف «سومز» بلا حراك؛ ما الذي منعه من ملاحقتها؟

هل السبب أنه تخيل ـ وقد أيقن أن ما تخيل حقيقة ـ «بوزيني» وهو يطل من النافذة العالية في شارع «سلون»، محدقًا ببصره ليظفر من وجه «آيرين» المتواري بلمحة أخرى، مرطبًا وجهه الملتهب، حالمًا باللحظة التي ترتمي فيها على صدره؟ وكانت رائحتها لا تزال منتشرة في الجو المحيط به، وكذلك ضحكتها الشبيهة بالزفرة.

الجزء الثالث

الفصل الرابع والعشرون

بينة السيدة «ماكاندر»

هناك دون شك أناس كثيرون ـ من بينهم رئيس تحرير «أولترا فيفيسيكشيونيست» التي كانت وقتذاك في شرخ شبابها المزدهر ـ يمكن أن يقولوا إن «سومز» لا يرقى إلى مستوى الرجال لأنه لم يحطم أقفال باب زوجته، ولم يسترجع سعادة الحياة الزوجية بعد أن يضرب زوجته ضربًا شديدًا.

إن الوحشية لم تعد تُمزج بالإنسانية مزجًا بائسًا على نحو ما كانت حالها فيما مضى. وهناك برغم ذلك فريق من الناس قد لا يزال يريحه أن يعلم أن «سومز» لم يرتكب شيئًا من هذه الأشياء. ذلك أن الوحشية الفعلية ليست شائعة بين «الفورسايتيين»؛ فهم شديدو التحرز، بل هم، على العموم، رقاق النفوس جدًّا. و«سومز» ينطوي على شيء من اعتزاز دارج لا يكفي لحمله على الاضطلاع بالأعمال الكريمة حقًّا؛ ولكنه يكفي لمنعه من الانغماس في عمل من الأعمال الوضيعة جدًّا، اللهم إلا إذا كان في حالة هياج شديد. وعلاوة على ذلك كله فإن هذا «الفورسايتي» الحق يأبى أن يشعر بأنه مضحك. أما وقد أعوزه أن يضرب زوجته فعلًا فقد أدرك أنه لم يعد هناك شيء يستطيع عمله. وعلى ذلك سلَّم بالوضع دون أن ينبس بكلمة أخرى.

وظل طوال الصيف والخريف يذهب إلى مكتبه، وينسق لوحاته، ويدعو أصدقاءه إلى العشاء.

ولم يغادر المدينة، فقد أبت «آيرين» أن ترحل. وظل المنزل المشيد في «روبن هل» خاليًا بلا أصحاب، برغم الفراغ من إعداده. ورفع «سومز» دعوى على «القرصان» طالبه فيها بدفع مبلغ ثلاثمائة وخمسين جنيهًا.

وتولى مكتب المحامين الأستاذين «فريك» و«إيبل» الدفاع عن «بوزيني». ومع تسليمهما بالوقائع أثارا نقطة حول الرسالة تتحصل، إذا ما جردت من الصيغة القانونية، فيما يلي: إذا تحدثنا عن «حرية التصرف طبقًا للشروط الواردة في الرسالة»، فهذه صيغة أيرلندية دارجة.

وعن طريق المصادفة العرضية ـ وإن لم تكن بعيدة الاحتمال في النطاق الضيق للدوائر القانونية ـ وصل إلى أذن «سومز» قدر كبير من المعلومات المتعلقة بخطة سياسة الدفاع. فقد حدث أن جلس «باستارد»؛ المحامي المضطلع بالعمل في المكتب، في الحفلة التي أقيمت بمنزل «والميسلي»، رئيس الضرائب، حدث أن جلس إلى جوار «شانكري» الشاب، عضو هيئة المحامين العامة.

والحاجة إلى الكلام فيما هو معروف باسم «حديث المهنة»، هذه الحاجة التي تستبد بجميع المحامين عند غياب السيدات عن مجلسهم، حملت «شانكري»، المحامي الشاب الذي يُرجى منه مستقبل باسم، على أن يطرح أحجية مبهمة على جار له لا يعرف اسمه، ذلك أن «باستارد»، الذي ظل وضعه في المؤخرة دائمًا، لم تكن له بالفعل شهرة.

قال «شانكري» إن لديه قضية قادمة تشتمل على «مشكلة لطيفة جدًّا». ثم شرح المعضلة المعروضة في قضية «سومز»، محافظًا على كل سر من أسرار المهنة وقال إن كل من حدَّثه في هذا الأمر رأى المشكلة لطيفة. والمسألة قليلة الشأن، لسوء الحظ، برغم أنها، على ما يعتقد، ذات أهمية كبيرة بالنسبة لموكله، إن «الشمبانيا» في وليمة «والميسلي» رديئة؛ ولكنها

متوفرة جدًّا. هو يخشى أن يتعجل القاضي في نظرها، ولذلك ينوي أن يبذل مجهودًا كبيرًا، إن المشكلة لطيفة، ماذا قال جاره؟

ولـم يقل «باستارد» شيئًا، فهو مثال يُحتذى في كتمان السر. بيد أنه قص الواقعة على «سومز» في شيء من الخبث. ذلك أن هذا الرجل الهادئ كان قادرًا على استشعار العواطف الإنسانية، وختم قوله بإبداء رأيه الخاص، وهو أن المسألة «لطيفة جدًّا».

وكان صاحبنا «الفورسايتي» قد وضع قضيته، وفقًا لما استقر عليه رأيه، بين أيدي المحاميين «جوبلنج» و«بولتر». ومنذ اللحظة التي أقدم فيها على ذلك ندم على أنه لم يتولَّ الأمر بنفسه. وما إن وصلت إليه نسخة من دفاع «بوزيني» حتى توجه إلى مكتبهما.

وأخبره «بولتر» الذي يتولى أمر القضية ـ فقد مات «جوبلنج» منذ سنوات ـ أخبره أنه يرى «المسألة لطيفة نوعًا ما»، وهو يريد أن يستطلع «رأيًا استشاريًّا» فيها.

وأشار عليه «سومز» أن يلجأ إلى قانوني ضليع، وذهبا إلى «وتربوك» مستشار الملكة القانوني، وكانا يقدرانه أسمى التقدير، وقد أبقى الأوراق عنده ستة أسابيع، ثم كتب ما يلي:

> إن التفسير الحقيقي لهذه الرسالة يتوقف، في رأيي، على نية المتعاقدين، وسينجلي في الجلسة بحسب البينة المقدمة. وإني أرى القيام بمحاولة للحصول على اعتراف من المهندس المعماري بأن الذي فهمه هو ألا ينفق مع الإضافات، مبلغًا يزيد على اثني عشر ألفًا وخمسين جنيهًا. أما فيما يتعلق بعبارة (حرية التصرف بحسب نصوص الرسالة)، وهي التي اتجه إليها اهتمامي، فالمشكلة فيها طريفة. ولكن الرأي عندي أن القاعدة القانونية الواردة في قضية «بوالو» ضد شركة «ذي بلاستد سيمنت» تنطبق على حالتنا هذه.

وعملًا بهذه المشورة، دبرا الأسئلة الاستفهامية المحرجة، ولكن الذي

ضايقهما أن المحاميين «فريك» و«إيبل» أجابا عنها بأسلوب فيه من الأستاذية ما حال دون إقرارهما بشيء، ودون المساس بأي حق.

وكان «سومز» قد قرأ رأي «وتربوك» في اليوم الأول من أكتوبر وهو جالس في غرفة الطعام قبل العشاء. وأثار ذلك الرأي أعصابه. ولا يرجع السبب في ذلك إلى قضية «بوالو» ضد شركة «ذي بلاستد سيمنت»، بقدر ما يرجع إلى أن المعضلة بدأت أخيرًا تبدو له هو أيضًا طريفة. فإن فيها بالذات شيئًا من تلك الحرافة اللذيذة، حرافة الدهاء التي تثير شهية أقدر المحامين. وإن تأييد «وتربوك» للأثر الذي انطبع في نفسه لمما يقلق أي إنسان.

وجلس يقلب النظر في الأمر، ويشخص ببصره إلى المدفأة المنطفئة، ذلك أن الجو، برغم حلول الخريف، ظل رائعًا في ذلك العام كما لو كان الشهر لا يزال شهر أغسطس. وأن انزعاج المرء ليس بالشيء الذي يسر، وعلى ذلك رغب رغبة حارة في وضع قدمه على عنق «بوزيني».

وبرغم أنه لم يرَ المهندس المعماري منذ عصر هذا اليوم الذي قابله فيه آخر مرة في «روبن هل»، فإنه لم يتخلص قط من الشعور بوجوده، لم يتخلص قط من ذكرى وجهه المضني، بعظمتي خديه الناتئتين، وعينيه المتحمستين. ولن نبالغ إذا قلنا إنه لم يتخلص قط كذلك من الشعور الذي أحسه في تلك الليلة عندما سمع في الفجر صيحة الطاووس، ومن الشعور بـ«بوزيني» يحوم حول منزله؛ وكان كل رجل يمر به في الليالي المظلمة، تبدو له هيئته كأنها هيئة ذلك الذي دعاه «جورج» بحق «القرصان».

«آيرين» لا تزال تقابله، إنه واثق من ذلك. ولم يعرف أين يتم اللقاء وكيف، ولم يسأل، فقد منعه عن ذلك خوف غامض خفي، خوف من أن يعلم أكثر مما ينبغي. يبدو أن كل شيء يجري طي الخفاء في أيامنا هذه.

وكلما سأل زوجته أين كانت؟ وهو لا يزال يهتم بسؤالها عن ذلك، كما ينبغي لكل «فورسايتي» أن يفعل، كلما سألها بدت غريبة الهيئة جدًّا،

وبدا تمالكها لجأشها مدهشًا. ولكن كان يكمن في بعض اللحظات، وراء نقاب وجهها الذي ظهر غامضًا كعادته دائمًا، تعبير لم يتعود قط أن يراه هناك.

ودرجت على تناول غدائها خارج الدار أيضًا. وعندما كان يسأل الخادمة «بيلسون» إن كانت سيدتها قد عادت إلى المنزل لتتغدى، وهذا ما لا يحدث غالبًا، كانت تجيب: «لا، يا سيدي».

وعارض بشدة طوافها بمفردها، وصارحها بذلك، ولكنها لم تعر ذلك اكتراثًا. وكان هناك شيء يتعلق بالطريقة الهادئة التي تهمل بها رغباته، شيء أغضبه، وأدهشه، بيد أنه يسليه. لقد كانت في الواقع كأنها تحتضن فكرة انتصار عليه.

ونهض بعد الاطلاع على رأي «وتربوك»، وإذ صعد إلى الدور العلوي دخل غرفتها، ذلك أنها كانت تترك أبوابها مفتوحة حتى يحين موعد النوم ـ ووجد أنها بذلك احتشمت لتنقذ الخدم من الشعور بالحرج ـ وكانت تمشط وقتذاك شعرها، والتفتت إليه في قسوة غريبة، وقالت:

ـ ماذا تريد؟ أرجوك أن تغادر الغرفة!

وأجاب:

ـ أريد أن أعرف إلى متى ستدوم هذه الحال القائمة بيننا؟ إني صبرت عليها مدة كافية.

ـ هل تتفضل فتغادر الغرفة؟

ـ هلّا عاملتني كما ينبغي أن تعاملي زوجك؟

ـ لا.

ـ سأتخذ الخطوات إذن لحملك على ذلك.

ـ اتخذها.

وحملق متعجبًا لهدوء جوابها. لقد انطبقت شفتاها في خط دقيق وانسدل شعرها في جدائل كثيفة على كتفيها العاريتين، مع كل ذلك التباين الغريب

بين لونه الذهبي، وسواد عينيها، هاتان العينان المنتعشتان بمشاعر الخوف والمقت والازدراء، وهيئة الانتصار الغريبة المطيفة بهما.

ـ هل تتفضل الآن، وتغادر الغرفة؟

ودار، وخرج عابس الوجه.

كان يعرف جيدًا أنه لا ينوي اتخاذ أي خطوات، وكان يرى أنها تعرف ذلك أيضًا، وتعرف أنه يخشى اتخاذ تلك الخطوات.

وكان من عادته أن يخبرها بكل ما فعله في يومه؛ كيف زاره فلان وفلان من عملائه، وكيف دبر رهنًا لـ«باركس»، وكيف تسير القضية الطويلة الأمد، المرفوعة من «فراير» على «فورسايت»، هذه القضية التي تولدت من مدة، وهي منبعثة من المزاج الشاذ، الحريص على الملكية، مزاج عمه الكبير «نيكولاس» الذي عطل الفصل فيها على نحو لا يتمكن معه أي إنسان من الحصول على تلك الأرض أبدًا. بدت كأنها ستظل على الأرجح مصدرًا لدخل عدة محامين إلى يوم الحساب.

واعتاد أن يخبرها كيف ذهب إلى «جوبسون»، ووجد أن لوحة من لوحات «بوشي» قد بيعت، وهي لـ«تاليران وأولاده» في «بول مول»، وقد فاته شراؤها قيد شعرة.

وكان يعجب بـ«بوشي» و«واتو» ومدرستهما كلها، كان من عادته أن يخبرها بهذه الأمور جميعها وقد داوم على ذلك حتى الآن، متحدثًا في فترات طويلة متعاقبة خلال العشاء، وكأنما حسب أنه يستطيع بتدفق الكلمات أن يداري عن نفسه أوجاع قلبه.

وهو كثيرًا ما يحاول تقبيلها عندما تودعه مساء وهما في خلوة. ولعل خاطرًا مبهمًا ما كان يراوده، مؤداه أنها قد تدعه يقبِّلها في ليلة من الليالي. أو لعل الأمر لا يعدو أن يكون شعورًا بأن على الزوج أن يقبِّل زوجته. إذ ينبغي له، على أي حال، ألا يقع في الخطأ بإهماله هذه السنة القديمة.

ولماذا تبغضه؟ إنه لا يستطيع، إلى الآن، أن يصدق ذلك كل التصديق.

إنه لغريب أن يشعر إنسان بأنه مكروه، هذه عاطفة متطرفة جدًّا. وهو مع هذا يكره «بوزيني»، ذلك «القرصان»، ذلك المتشرد الهائم على وجهه، الجوَّاب الليل، إن «سومز» كان يراه ـ في خاطره ـ مستلقيًا ينتظر شارد الذهن. آه، ولكن لا بد أنه في ضنك! فقد رآه «بوركيت» المهندس المعماري الشاب، يغادر مطعمًا من الدرجة الثالثة، وقد بدا مهموم الخاطر! وفي أثناء الساعات التي كان يقضيها وهو يضطجع صاحيًا، مفكرًا في الموقف الذي بدا أنه لا ينتهي ـ إلا إذا عادت فجأة إلى صوابها ـ لم تخطر على ذهنه جديًّا، حتى ولا مرة واحدة، فكرة الافتراق عن زوجته.

و«الفورسايتيون»! ما هو الدور الذي يلعبونه في هذه المرحلة من مراحل مأساة «سومز» التي تجري طي الخفاء؟

الحق يُقال إن دورهم في ذلك صغير، أو لا دور لهم البتة، لأنهم يصطافون على شاطئ البحر.

كانوا يستحمون يوميًّا حيث ينزلون في الفنادق، ومصحات العيون المائية، أو بيوت الأجرة، ويتزودون بحصيلة من الأوكسيجين تبقى لهم إلى آخر الشتاء.

وكان كل فريق، في الكرمة التي وقع اختياره عليها، يزرع وينتقي ويعصر عناقيد هواء الشاطئ المحبوب، ويعبئ عصارتها.

وبدأ آخر شهر سبتمبر يشاهد عودتهم جماعات متفرقة.

كانوا يصلون يوميًّا من أطراف البلاد المختلفة في عربات «أومنيبوس»، صغيرة غير صحية، وقد اصطبغت خدودهم بألوان وفيرة. وكان الصباح التالي يطلع عليهم وهم في مقر أعمالهم.

وفي يوم الأحد التالي، غص منزل «تيموثي» بالزوار من وقت الغداء إلى وقت العشاء.

وكان من بين الأقاويل ـ وهي أكثر عددًا، وأشد أهمية من أن تروى ـ ما أشارت إليه السيدة «سيبتموس سمول» عن عدم سفر «سومز» و«آيرين».

وبقي على أحد الغرباء «نسبيًا» أن يقدم الدليل التالي الهام.

وتصادف أن حدث، عصر أحد الأيام، في أواخر شهر سبتمبر، أن السيدة «ماكاندر»، أعز صديقة لـ«وينيفريد دارتي»، مرت بـ«آيرين» و«بوزيني»، في أثناء تريضها بدراجتها في «ريتشموند بارك» مع «أوجوستوس فليبارد» الصغير. مرت بهما وهما يخرجان من أكمة ويسيران صوب «شين جيت».

ولعل تلك المرأة الصغيرة المسكينة شعرت بالعطش، فقد سارت بالدراجة في طريق طويل وعر جاف. ومدينة لندن تعرف كلها أن ركوب الدراجة، والتحدث إلى «فليبارد» الصغير، يجهدان أصلب الناس عودًا، أو لعل منظر الأكمة الرطبة التي خرج «هذان الاثنان» منها، أثار حسدها. الأكمة الرطبة القائمة في أعلى التل، تظللها أفرع أشجار البلوط حيث تطلق الحمائم لحن عرس لا نهاية له، والخريف المهمهم يهمس في أذن العشاق تحت الخميلة، حين ينسل الظبي في جوارهم. الأكمة ذات المباهج التي لا تدرك، وذات اللحظات الذهبية التي تتخلل زواج الأرض بالسماء، زواجهما الطويل الأمد! الأكمة المقدسة عند الظباء، وعند آلهة جذوع الأشجار المقطوعة، تلك الآلهة الغريبة التي ترقص صيفًا في الغسق حول البياض الفضي لحورية من حوريات شجرة البتولا.

كانت هذه السيدة تعرف جميع «الفورسايتيين»، ولما كانت قد زارت «جون» في بيتها، فهي لم يربكها أن ترى مع من تتصرف. ولم يكن زواج هذه المرأة المسكينة موفقًا، ولكنها إذ كانت تملك الإدراك السليم والتمكن من إرغام زوجها على ارتكاب خطأ جهير، فقد سلكت طريق الإجراءات الضرورية للطلاق دون أن تعرض نفسها لملامة.

وصارت لذلك حكمًا في مثل هذا النوع من الأمور، وهي تقطن في واحد من تلك المباني الضخمة التي يتجمع في شققها الصغيرة عدد لا يعقل من «الفورسايتيين» الذين ينحصر ترويحهم الرئيسي عن النفس بعد ساعات العمل في مناقشة بعضهم شؤون بعضهم الآخر.

امرأة صغيرة مسكينة؛ لعلها كانت ظمأى. بيد أنها كانت ضجرة دون ريب، لأن «فليبارد» حصيف. ورؤيتها «لهذين الاثنين» في مثل هذه البقعة التي لا يتوقع أحد رؤيتهما فيها كانت «نجدة» حقيقية لها.

والزمن يتوقف عند السيدة «ماكاندر»، كما يتوقف في لندن كلها.

إن هذه السيدة الصغيرة ـ وإن كانت خطيرة ـ تستحق الالتفات، فعينها التي لا تخفى عليها خافية، ولسانها الذرب، هما وسيلتان تعملان في غموض على مناصرة أهداف «القدر».

ومع ما يبدو عليها من علامات اقتراب الأجل، فإنها كانت ذات قدرة فاجعة على العناية بنفسها، ولعلها ساهمت، على طريقتها، أكثر مما ساهمت أي امرأة أخرى بالمدينة، في عملية تحطيم «حاسة الفروسية»، تلك الحاسة التي لا تزال عالقة بعجلة الحضارة. كانت لبقة جدًّا، ودعاها الناس، وهم يتحدثون عنها في إعزاز: ««ماكاندر» الصغيرة!».

كانت تلبس الثياب المحبوكة، وتحسن لبسها، وتنتمي إلى نادٍ للنساء، ولكنها لم تكن بحال من طراز الأعضاء المضطربات الأعصاب، المتشائمات، اللواتي لا ينقطعن عن التفكير في حقوقهن. فهي تنال حقوقها عن غير قصد، إذ تصل إليها هذه الحقوق على نحو طبيعي، وهي تعرف تمامًا كيف تفيد منها على أتم نحو دون أن تثير شيئًا غير الإعجاب بها بين تلك الطبقة العظيمة التي تضمها. ولعلها لا تحقق ذلك، على وجه الدقة، بسلوكها، ولكن بنسبها، وتنشئتها، وبذلك المعيار الصادق الخفي، معيار «حاسة الملكية».

إنها، وهي ابنة محام من «بيدفورد شاير»، وأمها ابنة قسيس، لم تفقد قط ـ خلال التجربة المريرة لزواجها برسام وديع جدًّا، شديد الولع بالطبيعة، هجرها بسبب ممثلة ـ لم تفقد قط اتصالها بمطالب المجتمع ومعتقداته، ومشاعره الباطنية، وقد وضعت نفسها، دون عناء، بعد حصولها على حريتها، في غمرة «الفورسايتية».

وكانت تُقابل من الجميع بالترحيب وهي المرحة دائمًا، «الممتلئة الجعبة

بالمعلومات». ولم تكن تثير لا دهشة ولا تأييدًا عندما يلتقي بها أحد في «الراين»، أو في «زيرمات»، سواء وهي منفردة، أو مصطحبة في رحلتها سيدة وسيدين. كان شعور الناس عنها أنها قادرة على رعاية نفسها؛ وتحمست قلوب جميع «الفورسايتيين» لهذه الغريزة المدهشة التي مكنتها من الاستمتاع بكل شيء دون أن تعطي أي شيء. وكان الشعور العام أنه ينبغي لنا أن نوجه نظرنا إلى نساء من طراز السيدة «ماكاندر» إذا ما أردنا الاحتفاظ بأفضل نموذج لسيداتنا، والإكثار منه. إنها لم ترزق بأولاد قط.

وإذا كان هناك شيء تضيق به أكثر مما تضيق بغيره فهو المرأة التي من صنف أولئك النساء الناعمات اللواتي يقول الرجال عنهن إن لهن «فتنة». وكانت تشعر نحو السيدة «سومز» دائمًا بنفور خاص.

كانت تشعر ـ على نحو غامض دون شك ـ بأننا إذا بدأنا نتخذ «الفتنة» مقياسًا، فلا بد من إخفاق اللباقة والمقدرة. لقد كرهت ـ وهي كراهية وصلت من العمق إلى حد أن ذلك الذي يدعونه فتنة يبدو في بعض الأحيان أنه يشوب كل تقدير ـ كرهت ذلك الإغراء النافذ الذي لم تستطع أن تغمض عنه عينيها كلية في «آيرين».

وقد قالت، مع ذلك، إنها لا ترى أي ميزة في هذه المرأة، ليست فيها «حيوية»، ولن تستطيع الدفاع أبدًا عن نفسها، وفي وسع أي إنسان أن يستغلها، هذا أمر واضح. وهي، أي السيدة «ماكاندر»، لا ترى في الواقع ما وجده الرجال فيها ليعجبوا بها!

وهي لم تكن في الحقيقة سيئة بطبعها، ولكنها، في سبيل الاحتفاظ بمكانتها بعد ظروف حياتها الزوجية الشاقة، وجدت أنه لا مناص أبدًا من أن تكون «مليئة الجعبة بالمعلومات» إلى حد أن فكرة إمساك لسانها عن وجود «ذينك الاثنين» في «البارك» لم تخطر قط ببالها.

وهكذا حدث أنها كانت ستتعشى في ذلك المساء نفسه بمنزل «تيموثي» حيث كانت تذهب في بعض الأحيان «لتنعش أولئك العجائز». واعتادت دائمًا

أن تطلب مقابلة نفس الأشخاص: «وينيفريد دارتي» وزوجها، و«فرانسي»، بسبب انتمائها إلى محافل الفن. ذلك أن السيدة «ماكاندر» كانت تمد مجلة «ذي ليديز كينجدوم كوم» بمقالات عن الأزياء، وكذلك مقابلة الغلامين «هيمان» لمداعبتهما، على شريطة أن يكون الظفر بهما في الإمكان. وبرغم أنهما لا يصرحان بشيء أبدًا فالمظنون أنهما على صلة وثيقة تامة بكل ما هو طريف في المجتمع الراقي.

وفي الساعة السابعة وخمس وعشرين دقيقة أطفأت النور الكهربائي في ردهتها الصغيرة. والتفعت بعباءة السهرة ذات الطوق الوبري. وخرجت إلى الدهليز. وتريثت لحظة لتستوثق من أنها أخذت معها مفتاح باب البيت. إن هذه «الشقق» الصغيرة المكتفية بذاتها، ملائمة. ولا شك أنها تفتقر إلى النور والهواء. ولكن السيدة «ماكاندر» تستطيع إغلاق بابها والخروج متى أرادت. فليست هناك مضايقات مع الخدم. وهي لم تشعر قط بأنها مقيدة على النحو الذي اعتادته عندما كان «فريد» العزيز المسكين يبدو في نواحي المنزل دائمًا على طريقته الخرقاء. وهي لم تظل تحقد على «فريد» العزيز المسكين، فإنه أبله كبير؛ ولكن فكرة تلك الممثلة لا تزال تنتزع منها إلى الآن ابتسامة صغيرة مريرة هازئة.

وإذ صكت الباب بحزم اجتازت الدهليز بحيطانه المصفرة المظلمة، وأبوابه البنية المرقومة الممتدة على جانبيه إلى ما لا نهاية. وكان «المصعد» يهبط وقتئذ، فانتظرت وقوفه عند «طابقها»، انتظرته ساكنة، ملتفة حتى أذنيها بملاءتها العالية، وقد استوت كل خصلة من شعرها الأحمر الداكن في موضعها. وانفتح الباب الحديدي محدثًا صريرًا؛ ودخلت المصعد. وكان يحتله من قبل ثلاثة أشخاص أحدهم رجل يرتدي صدارًا أبيض كبيرًا، وله وجه عريض ناعم كوجه طفل، والأخريان عجوزان ترتديان الثياب السود والقفازات.

وابتسمت لهم السيدة «ماكاندر»، فهي تعرف الجميع. وبدأ أولئك الثلاثة

يتحدثون جميعًا على الأثر، وكانوا من قبل يلتزمون الصمت على نحو يدعو للإعجاب. وهذا هو سر السيدة «ماكاندر» الناجح، فهي تستثير الحديث.

واستمر الحديث في أثناء نزول المصعد خمسة أدوار. وكان غلام المصعد يقف مديرًا لهم ظهره، بينما يطل وجهه المتهكم من خلال القضبان.

وافترقوا في الدور السفلي، واتجه الرجل ذو الصدار الأبيض في شغف عاطفي إلى غرفة «البليارد»، وذهبت السيدتان للعشاء، وقالت كل منهما للأخرى: «إنها لسيدة صغيرة لطيفة!»، «يا لها من ضوضاء!». وذهبت السيدة «ماكاندر» إلى عربتها.

وبينما كانت السيدة «ماكاندر» تتعشى في منزل «تيموثي»، اتخذ الحديث (برغم أنهم لم يستطيعوا أبدًا إقناع «تيموثي» نفسه بالحضور)، اتخذ الحديث تلك اللهجة العريضة، لهجة «رجل العالم» الشائعة بين «الفورسايتيين» كل الشيوع. وهذا ما رفع دون شك من قدرها هناك.

ووجدت السيدة «سمول» والعمة «هيستر» تغييرًا سارًّا في حضورها؛ وقالتا: «لو يرضى «تيموثي» فقط أن يقابلها!». وكان الشعور السائد أن ذلك يفيده. فهي تستطيع أن تنبئك مثلًا بآخر قصة لابن سير «تشارلز فيستي» في «مونت كارلو»؛ ومن تكون البطلة الحقيقية في قصة «تينيماوث إيدي» العصرية التي يحتفظ بها الجميع؛ وماذا يصنعون في باريس فيما يتعلق بلبس الألوان الزاهية. وهي أيضًا ذات إدراك مرهف جدًّا، إذ تعرف كل شيء عن تلك المسألة المتنازع عليها، وهي: أيرسلون الابن البكر من أبناء «نيكولاس» إلى البحرية وفقًا لمشيئة أمِّه، أم يجعلونه محاسبًا وفقًا لرأي أبيه الذي يجد ذلك أسلم عاقبة؟ لقد استعاذت بقوة من البحرية، فإنك إذا لم تكن ألمعيًّا على نحو غير عادي، ولم تكن لك صلات غير عادية، أهملوك على نحو شائن جدًّا. وما الذي ننتظره، على أي حال، من وراء ذلك حتى لو أصبحت أميرالًا؟ إنه لشيء زهيد! وأمام المحاسب فرص أكبر عددًا، ولكن لندعه يتدرب في شركة طيبة حيث لا تكون هناك مجازفة في بداية العمل!

وهي تشير عليهم أحيانًا برأي عن الأوراق التي سيصعد سعرها في بورصة العقود. وليس معنى ذلك أن السيدة «سمول» والعمة «هيستر» تأخذان بهذا الرأي، فإنهما لا تمتلكان مالًا تستثمرانه. ولكن يبدو أن ذلك كان يصلهما وصلًا مثيرًا بحقائق الحياة؛ فهو حدث، وكانتا تقولان إنهما ستسألان «تيموثي» عن رأيه في الأمر ولكنهما لم تسألاه قط لعلمهما أن ذلك سيزعجه. وكانتا مع ذلك تقرآن خلسة، أسبوعًا بعد أسبوع، تلك الصحف التي تنظران إليها نظرة احترام بسبب اتجاهاتها العصرية الحقة، كانتا تقرآنها لتريا أصعدت أسهم شركة «برايتس روبيز»، أو شركة «ذي وُلن ماكنتوش»، أصعدت تلك الأسهم أم هبطت. وفي بعض الأحيان كانتا تعجزان تمامًا عن العثور على اسم الشركة المقصودة، ومن ثم تنتظران مجيء «جيمس»، أو «روجر»، أو حتى «سويذن»، وتسألانهم بصوت يرتجف فضولًا عن حال شركة «بوليفيا لايم سبيلتريت»، فهما لم تستطيعا العثور على اسمها في الجريدة.

وكان «روجر» يجيب: «وماذا يدعوكما إلى معرفة ذلك؟ إنها شركة من سقط المتاع! إنكما ستحرقان أصابعكما باستثمار أموالكما في شركة الجير وغيرها من الأشياء التي لا تعرفان عنها شيئًا! مَن أخبركما بذلك؟». وإذ تؤكدان له ما سمعتاه ينصرف عنهما؛ ولعله، بعد أن يتحرى عن الأمر في المدينة، يقدم على استثمار بعض ماله هو نفسه في هذا المشروع.

وحدث فيما يقرب من منتصف العشاء، أو على وجه التحديد، عندما جاءت «سميذر» بقطعة لحم من ظهر الخروف؛ حدث أن قالت السيدة «ماكاندر»، وهي تدور ببصرها في ابتهاج: «أوه! ومن الذي تظنون أني مررت به اليوم في «ريتشموند بارك»؟ إنكم لن تحزروا ذلك أبدًا، هي السيدة «سومز»، و... السيد «بوزيني». لا بد أنهما كانا ذاهبين لإلقاء نظرة على المنزل!».

وسعلت «وينيفريد دارتي»، ولم ينبس أحد بكلمة. كانت هذه هي قطعة الدليل التي انتظرها الجميع عن غير وعي.

وإنصافًا للسيدة «ماكاندر» نقول إنها كانت متغيبة في سويسرا، وفي البحيرات الإيطالية، مع ثلاثة من الرفقاء، فلم تسمع بالشقاق الذي حدث بين «سومز» ومهندسه المعماري. ولذلك لم تتوقع الأثر العميق الذي ستحدثه كلماتها.

ونقلت عينيها الصغيرتين المكيرتين من وجه إلى وجه، منتصبة القامة، محمرة الوجه، وحاولت أن تسبر غور الأثر الذي أحدثته كلماتها. وإلى كل جانب من جانبيها جلس أحد الأخوين «هيمان» وطفق يأكل من شريحة ضأنه مواظبًا، ووجهه النحيل الصامت الجائع متجه صوب صحفته.

وكان «جايلز» و«جيسي» وهما الغلامان المذكوران، متشابهين تمامًا، ومتلازمين دائمًا، إلى حد أنهما عُرفا بالأخوين «درومِيوس» وهما لا يتكلمان أبدًا، ويبدوان دائمًا أنهما مشغولان تمامًا بعدم الاشتغال بأي شيء. وكان الظن السائد أنهما يستعدان لامتحان هام، كانا يسيران عاريي الرأس لمدة ساعات، متريضين في «الحدائق» الملاصقة لبيتهما، مثقلي اليدين بكتب، وفي أعقابهما كلب صيد؛ وكانا يدخنان دائمًا دون أن يفوها بكلمة، ويستأجران كل صباح حصانين هزيلين، أرجلهما طويلة كأرجل راكبيهما، ويخبان بهما إلى «كامدن هل»، وبينهما مسافة تقرب خمسين خطوة. وبعد مرور ساعة من كل صباح كانا يعودان راكضين أيضًا، وبينهما نفس المسافة، وفي كل مساء كان يمكن أن يراهما الناس زهاء الساعة العاشرة والنصف منحنيين على حاجز منتزه «الحمراء»، أيًّا كان المكان الذي تعشيا فيه.

لم يكن يراهما الناس إلا معًا، وعلى هذا النحو أنفقا حياتهما مسرورين بذلك تمامًا على ما يبدو.

ودارا إلى السيدة «ماكاندر» في هذه اللحظة المؤلمة وقد ألهمهما اضطراب داخلي صامت منبعث من مشاعرهما بحسبانهما سيدين نبيلين، وقالا في صوت واحد تمامًا:

ـ أرأيت الـ...؟

وكان من دهشتها، إذ خُوطبت على هذا النحو، أن وضعت «شوكة» الأكل على المائدة. ورفعت «سميذر» صحفة طعامها من فورها، وكانت تمر بها وتذاك. بيد أن السيدة «ماكاندر» قالت ببديهتها الحاضرة على الأثر:

ـ لا بد لي من شريحة صغيرة أخرى من لحم هذا الضأن اللذيذ.

ولكنها جلست بعد ذلك، في غرفة الاستقبال، إلى جانب السيدة «سمول»، معتزمة الوقوف على صميم الأمر، وبدأت تقول:

ـ ما ألطف السيدة «سومز» هذه، فإن لها مثل ذلك الطبع الجذاب! إن «سومز» رجل سعيد الحظ حقًّا!

ولم يظفر تلهفها على المعلومات بقدر كافٍ من القبول لدى السجية «الفورسايتية» الخفية المتأصلة التي تأبى أن يشاركها الغرباء في همومها، وقامت السيدة «سمول»، وقد نصبت قامتها، واهتز كيانها كله، وقالت وهي تنتفض أنفة:

ـ هذا يا عزيزتي موضوع لا نتحدث عنه!

الفصل الخامس والعشرون

ليلة في «البارك»

برغم أن السيدة «سمول» قالت، بدافع غريزتها المعصومة من الخطأ، نفس الشيء الذي يجعل ضيفتها «أشد حيرة من أي وقت مضى»، فإنه من العسير على المرء أن يرى كيف كانت تستطيع أن تصدق في تعبيرها.

إن الموضوع ليس مما يستطيع «الفورسايتيون» أن يتحدثوا عنه حتى فيما بينهم، وإذا استعملنا العبارة التي ابتدعها «سومز» ليحدد الموقف لنفسه، قلنا إن الموضوع «باطني».

ومع ذلك، ففي خلال الأسبوع التالي للمقابلة التي جرت للسيدة «ماكاندر» في «ريتشموند بارك» علم الجميع ـ ما عدا «تيموثي» الذي حرصوا على كتمان الأمر عنه ـ علم «جيمس» في محيطه الممتد من «بولتري» إلى «بارك لين»؛ وعلم «جورج» الهمجي، في ميدان جولاته الممتد من النافذة المقوسة في «هفرسنيك» إلى غرفة «البليارد» في «رد بوتل». علم الجميع أن «هذين الاثنين» قد تجاوزا الحدود.

وعبَّر «جورج» (وهو الذي ابتدع الكثير من تلك التعبيرات المثيرة التي لا تزال ذائعة في الدوائر العصرية) عبَّر عن المسألة تعبيرًا أدق من أي تعبير سواه حين قال لأخيه «أوستيس» عن «القرصان» إنه «تهور»، وقال إنه يظن أن «سومز» بلغ «مرحلة الشبع».

وساد الشعور بأنه لا بد بلغ هذه المرحلة، ومع ذلك، ماذا يمكن صنعه؟ ربما ينبغي له أن يتخذ خطوات في الأمر. ولكن اتخاذ خطوات سيكون أمرًا يؤسف عليه.

وكان من العسير أن يتبينوا أي خطوات يمكن أن يتخذوها بدون الفضيحة العلنية التي لم يستطيعوا أن يجدوا سبيلًا للتوصية بها. والشيء الوحيد المتاح في هذا المأزق هو ألا يذكروا شيئًا، وألا يذكر بعضهم شيئًا لبعض، والواقع أن عليهم أن يتغاضوا عن الأمر.

ولعله كان من الممكن أن يؤثروا على «آيرين» بعض التأثير بإبداء فتور متعالٍ حيالها، ولكنهم لم يعودوا يرونها الآن إلا نادرًا، وبدا أن ثمة صعوبة طفيفة في التماس لقائها عمدًا لإبداء فتورهم حيالها. وكان «جيمس» يكشف أحيانًا لـ«إميلي»، وهما في خلوتهما بغرفة النوم، حقيقة الألم الذي سببته له محنة ابنه.

وقد يقول: «حرت في الأمر، إنه يزعجني حتى يكاد يقضي عليَّ. ستكون هناك فضيحة، وهو لن يفيد من ذلك. إني لن أقول له شيئًا، وقد لا يتمخض الأمر عن شيء. ما رأيك أنتِ؟ يقولون لي إنها ذات موهبة فنية قوية. ماذا؟ أوه، إنك مثل «جولي» تمامًا! حسنًا، لست أدري؛ إني أتوقع الأسوأ. هذا ما يسفر عنه عدم إنجاب الأولاد. كنت أعلم كيف ستكون العاقبة منذ البداية. هما لم يخبراني قط أنهما لا ينويان إنجاب أولاد، ليس هناك أحد يخبرني بشيء»!

وقد يهمس للحاف، راكعًا إلى جانب الفراش، وقد اتسعت عيناه وشخصتا من الهم. وصار أشبه بنوع من الطير الأبيض الطويل وهو في قميص نومه مادًّا رقبته إلى الأمام، مقوس الظهر.

وردد قوله: «يا أبانا...» وقلب في ذهنه فكرة الفضيحة الممكنة مرارًا وتكرارًا.

وكان في أعماق نفسه، مشبهًا «جوليون الكبير»، يلقي العيب في هذه

المأساة على تدخل الأسرة، أي شأن يدعو هذا الفريق ـ وأخذ يفكر في أفراد فرع الأسرة القاطنين في «ستانهوب جيت»، ومن بينهم «جوليون الكبير»، وابنته، بحسبانهم الفريق المقصود ـ أي شأن يدعوهم إلى تقديم شخص مثل «بوزيني» للأسرة؟ (لقد سمع عن الكنية التي ابتدعها «جورج»، وهي «القرصان»، ولكنه لم يفهم منها شيئًا، فالفتى ليس قرصانًا، ولكنه مهندس معماري).

وبدأ يشعر بأن أخاه «جوليون»، الذي اعتاد أن يلجأ إليه دائمًا، ويعتمد على رأيه، لم يكن نفس الشخص الذي توقعه.

وكان أقرب إلى الحزن منه إلى الغضب لأنه لم يتصف بمثل خلق أخيه القوي. ووجد راحته الكبرى في الذهاب إلى منزل «وينيفريد»، واصطحاب ولدي «دارتي» الصغيرين في عربته إلى «كينسنجتون جاردنز». وكان يُرى هناك مرارًا وهو يسير إلى جانب البركة المستديرة مصوبًا عينيه في قلق إلى قارب «بابليوس دارتي»، وقد اعتاد أن يضع على سطحه «قرشًا» وكأنه متيقن من أن القارب لن يعود إلى شاطئ البركة أبدًا. في حين كان «بابليوس» الصغير ـ الذي أبهج «جيمس» أن يقول عنه إنه لا يشبه أباه في شيء ـ يحاول، وهو يقفز إلى جانب القارب، تحت الريح التي تزجيه، أن يدفع جده إلى المراهنة ثانية على أن القارب لن يعود أبدًا، وذلك بعد أن وجده يعود دائمًا. وكان «جيمس» يراهنه على ذلك، ويدفع مبلغ الرهان دائمًا، وكانت المبالغ التي يدفعها تبلغ أحيانًا ثلاثة قروش، أو أربعة قروش في اليوم الواحد، ذلك أن اللعبة لم تكن، على ما يبدو، تفقد جدتها أبدًا في نظر «بابليوس» الصغير. وكان «جيمس» يقول دائمًا وهو يدفع الرهان: «والآن، خذ هذا لتضعه في حصالتك، إنك بسبيل أن تصبح رجلًا موسرًا حقًّا!». وكانت فكرة ازدياد ثروة حفيده تسره سرورًا حقيقيًّا. ولكن «بابليوس» الصغير كان يعرف دكانة تبيع الحلوى. وغلبت حيلته على حيلة جده.

وكانا يسيران عبر «البارك»؛ ويبسط هيكل «جيمس» ـ بكتفيه العاليتين، ووجهه المنزعج المستغرق في التفكير ـ يبسط حمايته الطويلة النحيلة، غير الملحوظة الإشفاق، على هيكلي «إيموجين» و«بابليوس» الصغيرين، هذين الهيكلين الطفوليين السمينين.

ولكن هذه «الحدائق» و«البارك» ليست مكرسة لـ«جيمس» وحده. فإن «الفورسايتيين» والمتشردين، والأطفال والعشاق، يستروحون هناك ويتجولون يومًا بعد يوم، وليلة في إثر ليلة، ملتمسين جميعًا بعض التحرر من العمل، ومن أبخرة الشوارع وضوضائها.

ودكن لون أوراق الشجر المتريثة تريث الشمس، ودفء الليالي الشبيه بدفء الصيف.

وفي يوم السبت، الخامس من أكتوبر، أخذت السماء تدكن بعد الغروب حتى صارت في لون الكرم الأرجواني، بعد أن كانت زرقاء صافية. ولم يكن ثمة قمر، والتف ظلام صافٍ، كأنه رداء مخملي، بالأشجار التي سكنت أفرعها الدقيقة، الشبيهة بالريش. سكنت في الهواء الراكد الدافئ. وتدفقت «لندن» كلها إلى «البارك» مستنزفة كأس الصيف حتى ثمالتها.

كان الناس يلجون من كل باب، زوجين في إثر زوجين، متدفقين على الدروب، وعلى الحشائش المحترقة. وتوارى كل زوجين خلسة، وفي تعاقب، عن الأماكن المضاءة، والتجآ إلى الأشجار الكثيفة الأوراق. وتاها عن كل شيء إلا عن نفسيهما في قلب الظلام الرقيق حيث شاب ظلهما جذع شجرة، أو حيث جلسا في ظل بعض الشجيرات.

وكان القادمون الجدد، على امتداد الدروب، يجدون أن أولئك السابقين في المجيء ليسوا إلا جزءًا من الظلام العاطفي المخيم الذي لا تصدر منه إلا همهمة شبيهة بخفقان القلب المرتبك. ولكن كلما وصلت هذه الهمهمة إلى الجالسين في ضوء المصابيح ترنحت أصواتهم وصمتت، وتعانقت أذرعهم، وأخذت عيونهم تبحث وتفتش في الظلام، وتسبر غوره. وإذا هم

على حين فجأة، يتخطون السياج أيضًا، كأنما جذبتهم أيدٍ خفية، ويبتعدون عن النور، صامتين كالأشباح.

والسكون المحيط عن بعد بضجيج المدينة الذي لا يهدأ، دبت فيه الحياة بفعل عشرات الآلاف من العواطف والآمال، ومشاعر الحب الجياشة في صدور «الذرات» الآدمية من جموع الكادحين. ذلك أنه على الرغم من اعتراض هيئة «الفورسايتيين» الضخمة، وهيئة المجلس البلدي ـ وهما الهيئتان اللتان تعدان «الحب»، كما تعدان مشكلة «المجاري»، أكبر خطر يتهدد المجتمع ـ فإن عملية كانت تحدث تلك الليلة في «البارك»، وفي مئات الحدائق الأخرى، عملية لولاها لأصبحت آلاف المصانع والكنائس، والحوانيت، والمكوس، و«المجاري» التي تحافظ عليها هاتان الهيئتان، شرايين بغير دماء، أو آدميًا بلا قلب.

إن غريزة نسيان الذات، وغريزة العاطفة والحب، إذ تختبئ تحت الأشجار، بعيدة عن وصاية عدوها المجرد من الضمير، وهو «حاسة الملكية»، تمرح هناك خلسة. وفي ذلك الحين كانت ضحكة خافتة، أو رنة قبلة، تستنزف الدم من قلب «سومز» الذي كان عائدًا وقتذاك من «بيزوتر» ـ فقد ذهب وحده إلى منزل «تيموثي» ليتغدى هناك ـ سائرًا بإزاء شاطئ البركة، في طريقه إلى بيته، مشتغل البال بالقضية المقبلة. وقد خطر له أن يكتب في اليوم التالي مقالًا لجريدة «التايمز» يلفت فيه نظر رئيس تحريرها إلى حالة حدائقنا العامة، ومع ذلك لم يكتب المقال لأنه كان ينفر من رؤية اسمه مطبوعًا.

ولكن الأصوات المهمهمة في السكون المخيم، والأشكال التي تظهر نصف ظهور في الظلام، استفزته استفزازًا ممرضًا وهو على ما كان عليه من جوع روحي. وترك الطريق المحاذي لشاطئ البركة، وانسل تحت الأشجار، سائرًا إلى جانب ظل النباتات العميق، حيث كانت أقواس شجر الكستناء تدلي أوراقها الكبيرة على ارتفاع منخفض، وهناك كان المأوى أشد ظلمة، وأخذ يدور وهو يسلك طريقه، قاصدًا اختلاس النظر إلى المقاعد

المتجاورة المستندة إلى جذوع الأشجار، مقاعد العشاق المتعانقين الذين كانوا يتحركون كلما اقترب.

ووقف الآن جامدًا على المرتفع، مشرفًا على «السيربانتاين»، حيث يجلس في مسقط نور المصباح دون حراك، عاشقان يبدو شكلهما مظلمًا وراء الماء الفضي. وكانت المرأة تدفن وجهها في عنق الرجل، وامتزجا في شكل واحد كأنه تمثال منحوت للحب، صامت غير مستحٍ.

وسارع «سومز»، إذ وخزه المنظر، فتوغل في ظلال الشجر توغلًا أعمق فأعمق.

ومن ذا الذي يعلم شيئًا كان يدور في خلده، وأي شيء كان ينشده في بحثه هذا؟ أهو غذاء لجوعه، أهو الضياء في الظلام؟ من ذا الذي يعلم أي شيء توقع أن يجده، أهو معرفة عامة للقلب البشري، أهو نهاية لمأساته الخاصة الخفية؟ نعود فنقول: مَن يعلم؟ اللهم إلا إذا أمكن أن يكون كل عاشقين مغمورين، غير مسميين، أو لا اسم لهما، «هو» و«هي».

ولكن لا يمكن أن يكون مثل هذا العلم هو الذي يبحث عنه، زوجة «سومز فورسايت» تجلس في «البارك» مثل أي فاجرة دارجة؟ لا، لا يمكن تصور مثل هذه الأفكار، وانتقل، بخطواته غير المسموعة، من شجرة إلى شجرة.

وكانوا يسبونه مرة، وكان يسمع مرة أخرى همسًا يقول: «لو أن هذا يمكن أن يدوم»!، فيستنزف هذا القول الدم من قلبه مرة أخرى، ومكث صابرًا، متربصًا، منتظرًا هناك أن ينصرف هذان «الاثنان». ولكن الفتاة التي مرت به لم تكن إلا فتاة مسكينة هزيلة ساقطة من مستخدمات الدكاكين، تدلف في سترتها المتسخة، متعلقة بذراع عاشقها.

وكان هناك من سائر العشاق يعبرون عن ذلك «الأمل»، هامسين تحت سكون الأشجار، ومئات آخرون يتعلق بعضهم ببعض.

ولكن «سومز» عاد إلى الممر وهو ينتفض فجأة في امتعاض وترك ذلك البحث عما لا يعرف ما هو.

الفصل السادس والعشرون

التقاء في حدائق «بوتانيكال»

كان «جوليون الصغير» الذي اختلفت ظروفه عن ظروف أي «فورسايتي»، يجد أحيانًا صعوبة في توفير المال الذي يحتاج إليه القيام بذلك الطواف والبحث في الطبيعة؛ ما دام لم يرسم لوحات مبتكرة لم تبدع مثلها ريشة فنان يرسم بالألوان المائية.

وكثيرًا ما كان يضطر، في واقع الأمر إلى حمل صندوق ألوان، والذهاب إلى حدائق «بوتانيكال»، حيث يقضي هناك الساعات الطوال في التخطيط، جالسًا على مقعده الصغير في ظل شجرة غريبة، أو في حمى شجرة مطاط.

وعبَّر ناقد من نقاد الفن عن رأيه في أعماله التي رآها أخيرًا بما يلي:

> إن لوحاتك، من ناحية، جيدة جدًّا؛ فالأسلوب واللون في بعضها يدل دون شك على شعور تام بالطبيعة. ولكنها، كما ترى، مبعثرة الموضوعات جدًّا. وأنت لن تحصل على جمهور يلتفت إليها. بيد أنك إذا تناولت موضوعًا محددًا، مثل موضوع «لندن في المساء»، أو موضوع «القصر البلوري في الربيع»، ورسمت سلسلة من اللوحات عن هذين الموضوعين، فالجمهور سيعرف من فوره أي لوحات يتطلع إليها. أنا لا أستطيع أن أعلق أهمية كبيرة على صورك هذه. إن جميع الرجال الذين يحققون لأنفسهم شهرة كبيرة في ميدان الفن مثل «كروم

ستون» و«بليدر»، إنما يحققونها حين يتجنبون «غير المتوقع»، حين يتخصصون ويضعون أعمالهم كلها في نفس «الخانة»، وبذلك يعرف الجمهور اتجاهها من فوره. ولا ريب في ذلك، لأنه إذا كان هناك رجل يهوى جمع اللوحات، فهو لا يريد أن يتحسس الناس ليعرفوا من الذي رسم الصورة، بل يريدهم أن يكونوا قادرين على القول من فورهم: «هذه صورة عظمى بريشة «فورسايت»!». ومن أهم الأمور بالنسبة لك، ما دام أسلوبك لا يتميز بأصالة واضحة كل الوضوح، أن تحرص على اختيار موضوع يستطيع الناس أن يضعوا يدهم عليه من فورهم.

وأنصت «جوليون الصغير» وهو واقف إلى جانب «البيانو» الصغير الذي ظهرت فوقه «زهرية» موضوعة على قطعة من الدمقس الباهت، وبها أوراق زهرة ذابلة، وهي الشيء الوحيد الذي جادت به الحديقة.

وقال وهو يدور إلى زوجته، التي كانت تنظر إلى المتحدث، وقد ظهرت على وجهها النحيل هيئة الغضب:

ـ أرأيتِ يا عزيزتي؟

وأجابت بصوتها المتقطع الذي لا يزال يحتفظ بلكنة أجنبية خفيفة:

ـ كلَّا، فإن لأسلوبك أصالة.

ونظر إليها الناقد، وابتسم مجاملًا، ولم ينبس بكلمة أخرى. لقد كان يعرف قصتهما كسائر الناس جميعًا.

وأثمرت هذه الكلمات لدى «جوليون الصغير» إثمارًا حسنًا. لقد كانت على نقيض كل ما آمن به، وكل ما رآه من الناحية النظرية طيبًا في الفن، ولكن غريزة غريبة عميقة حثته، برغم إرادته، على تحويل هذه الكلمات إلى عمل مربح.

وعلى ذلك وجد ذات صباح أنه قد طرأت عليه فكرة رسم سلسلة من الصور بالألوان المائية لمدينة لندن. ولم يستطِع أن يعرف كيف نبتت هذه الفكرة. وفي العام التالي فقط، عندما أتم رسم تلك الصور، وباعها بثمن

طيب، وجد نفسه ـ وهو في حالة انطلاق ذهني ـ قادرًا على أن يتذكر الناقد الفني، وأن يستكشف في نجاحه هذا دليلًا جديدًا على أنه «فورسايتي».

وقرر أن يبدأ برسم حدائق «بوتانيكال» التي تم له القيام بدراسات عديدة عنها، واختار البركة الصناعية الصغيرة التي أمطرها الخريف الآن بوابل من أوراق الشجر الحمر والصفر، ذلك أن البستانيين عجزوا عن الوصول إليها بمكانسهم على الرغم من رغبتهم في كنسها. أما سائر أرجاء «الحدائق» فكانوا يكنسونها وينظفونها جيدًا، عاكفين كل صباح على إزالة الوابل المنهمر من أوراق الشجر، وتكويمه أكوامًا يصعد من احتراقها البطيء دخان عذب نافذ هو الرمز الحقيقي للخريف، كما أن صدح البلبل يدل على الربيع، ورائحة شجر الزيزفون تدل على الصيف. إن أرواح البستانيين المجبولة على التنسيق لا تستطيع أن تبقي على النماذج الذهبية والسندسية والقرمزية المطروحة فوق الحشائش، وينبغي أن تظل الطرق المكسوة بالحصى نظيفة منظمة منسقة، غير مدركة لحقائق الحياة، لا، ولا الاضمحلال البطيء الجميل الذي يقذف بالتيجان تحت الأقدام ليرصع الأرض بالأمجاد المتهاوية، ومن ثم يقفز الربيع الثائر من جديد إذ يدور الفلك دورته.

وعلى هذا فإن كل ورقة شجر تسقط، تتميز منذ اللحظة التي ترف فيها مودعة وتقع، بانحرافها البطيء عن منبتها في غصنها.

ولكن أوراق الشجر تسبح فوق البركة الصغيرة في سلام، وهي تثني على السماء بما تبديه من ألوان، في حين تحوم أشعة الشمس فوقها.

وهكذا اهتدى «جوليون الصغير» إليها.

وجاء إليها ذات صباح، في منتصف شهر أكتوبر، فضايقه أن يجد مقعدًا محتلًّا، يبعد زهاء عشرين خطوة من مكانه، ذلك أنه ينفر نفورًا شديدًا من أن يراه أحد في أثناء قيامه بعمله.

كانت تجلس هناك سيدة ترتدي سترة من المخمل، ولا تتحول بعينيها

عن الأرض. وقامت بينهما مع ذلك أشجار غار مزدهرة، وأعد «جوليون الصغير» عدة الرسم، محتميًا وراء تلك الأشجار.

وتمهل في استعداداته، فقد كان يتعلق ـ كأي فنان أصيل ـ بأي شيء يمكن أن يؤخره لحظة عن بذل جهد العمل، ووجد نفسه يختلس النظر إلى السيدة المجهولة.

كان يهتم بكل وجه جميل يبدو أمامه، على نحو ما فعل أبوه من قبله، وهذا الوجه كان فاتنًا.

رأى ذقنًا مستديرًا مستقرًّا على يد ناصعة البياض، ووجهًا ذا عينين واسعتين وشفتين لينتين، واحتجب الشعر وراء قبعة كقبعات الصور. واتكأ جسمها اتكاء خفيفًا على ظهر المقعد، والتفت الساق بالساق. وبرز من تحت ذيلها حذاء جلدي ثمين. كان هناك، دون شك، شيء شائق حول شخص هذه المرأة، ولكن انتباه «جوليون الصغير» تعلق على الأخص بهيئة وجهها التي أذكرته زوجته. وكأن صاحبة هذه الهيئة قد احتكت بقوى أشد من أن تحتملها. وأزعجه ذلك، مستثيرًا فيه شعور التعلق والفروسية. من تكون؟ وماذا تفعل هناك، وحدها؟

وأقبل سيدان جريئان حييان في نفس الوقت ـ من ذلك الصنف الذي يظهر في حديقة «ريجينت» ـ أقبلا وهما في طريقهما إلى «ملعب التنس»، ولاحظ «جوليون الصغير» في استنكار حملقة الإعجاب التي كانا يختلسانها. وتوقف بستاني متباطئ للقيام بعمل لا ضرورة له في مخضرة ممتدة الأطراف. لقد التمس هو أيضًا حجة لاختلاس النظر. ومر سيد هرم، تدل قبعته على أنه من أساتذة فلاحة البساتين، ومر ثلاث مرات ليمتحنها بنظرات طويلة مختلسة، وعلى شفتيه تعبير غريب.

وشعر «جوليون الصغير» لأولئك الرجال جميعًا بنفس انفعال السخط الغامض. ولم تنظر السيدة إلى واحد منهم. بيد أنه كان واثقًا من أن أي عابر سينظر إليها على هذا النحو لا محالة.

لم يكن وجهها وجه عرافة تعرض المتعة على الرجال في كل نظرة من نظراتها؛ ولم تتحلَّ بشيء من الجمال «الشيطاني» الذي فاز بتقدير كبير بين «الفورسايتيين» الأول في هذه البلاد. ولم تكن كذلك من ذلك الطراز المقترن بعلب الشوكولاتة، وهو لا يقل فتنة عن الطرازين السابقين. إنها ليست من ذلك النوع العاطفي روحيًّا، أو الروحي عاطفيًّا؛ ذلك النوع الذي تختص به زخارف المنازل، والشعر الحديث. ولا يبدو كذلك أنها تصلح مادة لكاتب المسرحيات، يخلق منها تلك الشخصية الشائقة «العصبية» التي تنتحر في نهاية الفصل الأخير.

فقد أذكره وجه هذه السيدة ـ في شكله وألوانه، وفي استكانته الناعمة الجذابة، وطهارته الحسية ـ أذكره لوحة «تيتيان» المسماة «الحب السماوي»، وهي اللوحة المعلقة فوق الصوان، في غرفة طعامه. ويبدو أن جاذبيتها تتولد من تلك الاستكانة الناعمة ومن الشعور الذي توحي به، وهو أنها لا بد مستسلمة للضغط.

ماذا كانت تنتظر، أو مَن كانت تنتظر وسط السكون، وبين الأشجار التي تلقي ورقة هنا وورقة هناك، والطيور التي تتبختر، على مقربة، فوق الحشائش، متأثرة بلألاء جليد الربيع؟

ثم ظهرت اللهفة على وجهها الفاتن. وإذ نظر «جوليون الصغير» فيما حوله، وهو يكاد يشعر بغيرة العاشق، رأى «بوزيني» يوسع الخطى عبر الحشائش.

وأخذ يرقب في فضول لقاءهما، ونظرات أعينهما، وتشابك أيديهما الطويل، جلسا معًا متقاربين، متصلين برغم كل ما يبدو من انفصالهما الخارجي. وسمع همهمة حديثهما السريعة، ولكنه لم يستطِع أن يلتقط ما قالاه.

لقد ركب سفينة العبيد هذه هو نفسه، وجدف بمجدافها، وعرف ساعات الانتظار الطوال، ولحظات اللقاء القصار في مكان شبه عام، وعذابات القلق الذي يلاحق العاشق الآثم.

ولم يكن المرء يحتاج، مع ذلك، إلا إلى إلقاء نظرة واحدة على وجهيهما ليدرك أن الأمر ليس قط من نوع تلك الشؤون الموسمية التي تسلي رجال المدن ونساءها. وليس قط من نوع تلك الرغبات التي توقظ غريزة التسلط، ثم تتخم وتنام ثانية في خلال ستة أسابيع، إنما هذا هو الأمر الجدي الحقيقي! هذا هو ما حدث له! وهو قمين أن يسفر عن أي عاقبة!

كان «بوزيني» يتوسل في حين جلست هي متطلعة إلى الحشائش، هادئة أشد الهدوء، لينة أشد اللين. ومع ذلك كانت في استكانتها ثابتة لا تتزعزع.

أهذا هو الرجل الذي ظفر بها، بهذه المخلوقة الرقيقة المستكينة التي لا تخطو خطوة من تلقاء نفسها؟ هذه المخلوقة التي أسلمته نفسها والتي ترضى أن تموت في سبيله، ولكنها قد لا ترضى بحال أن تهرب معه!

وخُيل إلى «جوليون الصغير» أنه استطاع أن يسمعها تقول: «ولكن هذا سيدمرك يا حبيبي!». ذلك أنه اختبر تمام الاختبار ذلك الخوف الواخز الكامن في قرارة قلب كل امرأة، خوفها من أن تكون عقبة في سبيل من تحب.

وكف عن اختلاس النظر إليهما، ولكن حديثهما الناعم السريع كان يبلغ أذنيه ممزوجًا بأغنية متلعثمة لعصفور يبدو أنه يحاول تذكر ألحان الربيع: الفرح ـ المأساة! أيهما؟ أيهما؟

وتوقف حديثهما شيئًا فشيئًا، وأعقبه صمت طويل.

وخطر ببال «جوليون الصغير»: «وما موقف «سومز» من هذا؟ يظن الناس أنها مشغولة البال بخطيئة خداعها لزوجها! ولكن قليلًا ما يعرفونه عن النساء! إنها تطعم الآن بعد مجاعة، وتأخذ بثأرها! كان الله في عونها، فإنه سيأخذ بثأره هو أيضًا».

وسمع حفيف الحرير. ورآهما ينصرفان وهو يتلصص عليهما من وراء أشجار الغار، ورأى أيديهما تشتبك خلسة.

وفي آخر شهر يوليو اصطحب «جوليون الكبير» حفيدته إلى الجبال؛ وفي هذه الرحلة (التي هي آخر رحلة قاما بها) استردت «جون» صحتها وحيويتها

إلى حد كبير. ففي الفنادق المكتظة بـ«الفورسايتيين» البريطانيين ـ ذلك أن «جوليون الكبير» لم يكن يحتمل «فصيلة الألمان»، على حد تسميته للأجانب كافة ـ كانت ترمق بعين الاحترام، فهي الحفيدة الوحيدة للسيد «فورسايت الكبير»، الحسن المظهر، الواسع الثراء على ما يبدو؛ وهي لم تكن تختلط بالناس في سهولة ـ فمثل هذا الاختلاط لم يكن من عادة «جون» ـ ولكنها أنشأت بعض صداقات، لا سيما في «رون فالي» حيث صادقت فتاة فرنسية شارفت الموت بمرض السل.

وإذ قررت من فورها ألا تدع صديقتها تموت، نسيت، في أثناء تدبيرها لحملة على الموت، قدرًا كبيرًا من همومها.

وراقب «جوليون الكبير» هذه الألفة الجديدة شاعرًا بالفرج والاستنكار معًا؛ ذلك أن هذا الدليل الإضافي على أنها ستنفق حياتها بين المعوزات أقلق خاطره. أهي لن تنشئ أبدًا علاقة صداقة، أو تهتم بشيء يمكن أن يعود عليها بنفع أكيد؟

لقد دعا علاقتها الجديدة: «ارتباطًا بثلة من الغرباء». وكان مع ذلك يحضر معه، في كثير من الأحيان، عنبًا أو وردًا، ويقدمه لتلك «المدمازيل» وهو يغمز بطرف عينه غمزة تودد.

وحوالي آخر سبتمبر، وبرغم استنكار «جون»، لفظت الآنسة «فيجور» آخر أنفاسها في فندق صغير واقع في «سانت لوك»، كانوا قد نقلوها إليه. وحزنت «جون» لتلك الهزيمة حزنًا عميقًا إلى حد أن رحل بها «جوليون الكبير» إلى باريس. وهناك وهي تتأمل تمثالي «فينوس دي ميلو»، و«لا مادلين» نفضت عنها كآبتها. وعندما عادا إلى لندن، حوالي منتصف أكتوبر، اعتقد جدها أنه وفر لها الشفاء.

ولم يكادا يستقران، مع ذلك، في «ستانهوب جيت» حتى أدرك، لفرط جزعه أنها عادت إلى عادتها القديمة، عادة الانطواء والاستغراق في التفكير. فهي قد تجلس، شاخصة ببصرها إلى الأمام، واضعة ذقنها على

كفها، عابسة مصممة كأنها طيف نرويجي صغير، في حين كانت غرفة الاستقبال الكبيرة ساطعة الأرجاء بالضوء الكهربي الذي تم تركيبه أخيرًا، مطرزة النسيج حتى أطرافها، مملوءة بأثاث من محال «بابل وبولبريد». وكانت تنعكس في مرآتها الكبيرة، المذهبة الإطار مجموعة من تماثيل «درسدن» الخزفية، وهي لفتيان أكمامهم مشدودة على سواعدهم، يركعون تحت أقدام سيدات ناهدات ترضع كل منهن حملًا أليفًا فوق حجرها. وكان «جوليون الكبير» قد اشترى تلك المجموعة قبل زواجه وقدرها أكبر تقدير في تلك الأيام التي انحط فيها الذوق. لقد كان رجلًا واسع الأفق إلى أقصى حد، وأكثر تطورًا مع الزمن من أي «فورسايتي» آخر، ولكنه لم يستطع أن ينسى قط أنه اشترى هذه المجموعة من «جوبسون»، ودفع قدرًا كبيرًا من المال ثمنًا لها. وكثيرًا ما قال لـ«جون» في شيء من استخفاف الرجل الذي خاب رجاؤه: «إنك لا تبالين بها! فهي ليست من الأشياء البشعة البراقة التي تعجبك وتعجب صديقاتك، ولكنها كلفتني سبعين جنيهًا!».

وهو لم يكن بالرجل الذي يسمح لأحد أن يزعزع ذوقه عندما يعلم علمًا مستندًا إلى أسباب متينة أن ذوقه هذا سليم.

ومن الخطوات الأولى التي خطتها «جون» منذ عودتها إلى بيتها هي ذهابها إلى دار «تيموثي». وقد أقنعت نفسها بأن الواجب يدعوها إلى القيام بزيارة عمها، وإبهاجه بسرد أخبار رحلاتها؛ ولكنها ذهبت إليه في الحقيقة لأنها لم تعرف مكانًا آخر تستطيع فيه، بحديث ارتجالي، أو بسؤال غير مباشر، أن تتسقط أخبار «بوزيني».

واستقبلوها استقبالًا وديًا للغاية: كيف حال جدها العزيز؟ إنها لم تأتِ لزيارتهم منذ شهر مايو. وعمها «تيموثي» في حالة صحية منحرفة جدًا، وقد عانى ضيقًا شديدًا عند تنظيف المدخنة بغرفة نومه، فقد أسقط الرجل الأبله أوساخها على الأرض، وأزعج ذلك عمها كل الإزعاج.

وأمضت «جون» هناك وقتًا طويلًا وهي تخشى، وترجو مع ذلك في حرارة، أن يتحدثوا عن «بوزيني».

ولكن السيدة «سيبتموس سمول»، وقد شل لسانَها تحرُّز لا يمكن تعليله، لم تدع كلمة تفلت منها، لا ولم توجه لـ«جون» سؤالًا عنه، وأخيرًا سألت الفتاة، بعد يأسها، هل «سومز» و«آيرين» موجودان في المدينة؟ فهي لم تزر أحدًا إلى الآن.

وكانت العمة «هيستر» هي التي أجابت عن السؤال: أوه، نعم إنهما في المدينة، ولم يرحلا عنها أبدًا. وقد نشأت مشكلة صغيرة خاصة بالمنزل، على ما تعتقد. ولا شك أن «جون» سمعت شيئًا عن ذلك! والأفضل أن تسأل العمة «جولي» عن الأمر!

ودارت «جون» إلى السيدة «سمول» التي كانت تجلس منتصبة القامة في مقعدها، موشجة اليدين، مكسوة الوجه بتجاعيد لا تُعد. وقد أجابت عن نظرة الفتاة بالتزام صمت غريب. وعندما تحدثت كان ذلك لتسأل «جون» هل اعتادت أن تلبس جوارب عند نومها في تلك الفنادق العالية المواقع، حيث لا بد أن يكون البرد قاسيًا في أثناء الليل؟

وأجابت «جون» بأنها لم تكن تلبسها لأنها تمقت تلك الأشياء التي تضايق الأنفاس، ونهضت لتنصرف.

ووجدت الصمت الذي اختارته السيدة «سمول»، ولم تتحول عنه، أشأم بكثير من أي قول كان يمكن أن يُقال.

ولم يمر على ذلك نصف ساعة حتى كانت قد انتزعت الحقيقة من السيدة «بينز»، في ميدان «لاوندز»، وهي أن «سومز» أقام دعوى ضد «بوزيني» خاصة بزخرفة المنزل.

وأحدث هذا النبأ في نفسها ـ بدلًا من أن يزعجها ـ أثرًا مهدئًا على نحو غريب، وكأنها رأت لنفسها أملًا جديدًا فيما ينتظر من هذا العراك. وعلمت أن الدعوى ستنظر بعد حوالي شهر، وأن أمل «بوزيني» في كسبها ضئيل، أو معدوم.

وقالت السيدة «بينز»:

ـ لست أستطيع أن أتصور ماذا سيصنع، فالأمر ـ كما تعلمين ـ رهيب بالنسبة له، فهو لا مال عنده، هو في ضنك شديد. وأنا واثقة من أننا لا نستطيع عونه. وقيل لي إن مقرضي المال لن يمنحوه قرضًا إلا بضمان، وهو لا يملك ضمانًا، لا يملكه البتة.

لقد ازدادت سمنتها في العهد الأخير، وهي الآن في أوج معمعان التنظيم الذي يجري في الربيع، ومكتبها مكدس تمامًا بالأوراق الخاصة بأعمال البر. ونظرت إلى «جون» قصدًا بعينيها الشهباوين المستديرتين الشبيهتين بعيني الببغاء.

وذلك الاحمرار الفجائي الذي صعد إلى وجه الفتاة القوي التصميم ـ لا بد أنها رأت أملًا كبيرًا ينبثق أمامها ـ وتلك العذوبة الفجائية التي غشيت ابتسامتها، كانا يرتدان غالبًا إلى ذاكرة السيدة «بينز» في السنوات التالية (لقد أُنعم على زوجها «بينز» بلقب فارس لاضطلاعه ببناء «متحف الفن» الذي وفر أعمالًا كثيرة جدًّا للموظفين، ومتعًا قليلة جدًّا للطبقة العاملة التي شُيد من أجلها).

إن ذكرى هذا التغير الذي طرأ على الفتاة ـ ذكراه الحية المؤثرة، الشبيهة بتفتح الزهرة، أو بأول طلوع للشمس بعد شتاء طويل، وكذلك ذكرى كل ما أعقبه ـ كانت غالبًا ما تقحم نفسها إقحامًا غير منتظر، وغير مفهوم، على السيدة «بينز» حينما كان ذهنها ينصرف إلى أهم الأمور.

وحدث هذا في نفس عصر اليوم الذي شاهد فيه «جوليون الصغير» ذلك اللقاء في حدائق «بوتانيكال». وفي هذا اليوم أيضًا زار «جوليون الصغير» موكليه المحامين «فورسايت، باسترد وفورسايت» في «بولتري». ولم يكن «سومز» في المكتب، فقد ذهب إلى «سومرست هاوس». وكان «باسترد» غارقًا حتى رأسه بين الأوراق في تلك الغرفة النائية التي وُضع فيها بحق ليتمكن من أن يقوم بأكبر قدر مستطاع من العمل. ولكن «جيمس» كان

يجلس في الغرفة الأمامية، عاكفًا على عض إصبعه، وتقليب المذكرات الخاصة بقضية «فورسايت» ضد «بوزيني».

كان هذا المحامي المتمكن لا يشعر إلا بنوع من خوف مرفه من «تلك المشكلة اللطيفة»، يكفي لبث شعور ممتع بما ستحدثه من ضجة، ذلك أن إدراكه العملي السليم أوحى إليه أنه لو كان في منصة الحكم لما أولاها اهتمامًا كبيرًا. ولكنه كان يخشى أن يصيب الإفلاس «بوزيني» هذا، ويكون على «سومز»، برغم ذلك كله، أن يجد وسيلة لتحصيل مبلغه، ونفقات الصفقة، ووراء هذا الخوف المحسوس كان يكمن دائمًا ذلك الهم المحسوس أيضًا، المتربص من الخلف، الشديد التعقيد، المظلم، الشائن، الذي يشبه حلمًا مفزعًا، والذي لم تكن تلك الدعوى إلا مظهرًا له وعلامة ظاهرة.

ورفع رأسه عندما دخل «جوليون الكبير»، وغمغم:

ـ كيف حالك يا «جوليون»؟ نحن لم نرك منذ حقب. قيل لي إنك كنت في سويسرا. هذا الفتى «بوزيني» أوقع نفسه في ورطة. كنت أعلم ما سيكون عليه الأمر.

وأمسك بالأوراق ناظرًا إلى أخيه الذي يكبره في تجهم عصبي.

وقرأها «جوليون الكبير» صامتًا، وبينما كان يقرؤها ظل «جيمس» طوال الوقت ينظر إلى الأرض، ويعض أصابعه.

وطوَّح بها «جوليون الكبير» على المكتب أخيرًا، فوقعت مصطكة بكومة من وثائق الملف الخاص بوفاة «بانكومب»، وهذا الملف هو واحد من الأفرع الكثيرة المتولدة من الشجرة الأصلية المربحة وهي قضية «فريبار» ضد «فورسايت»، وقال «جوليون الكبير»:

ـ لست أعرف ما الذي يقصده «سومز»، أيقصد إثارة ضجة بسبب بضع مئات من الجنيهات؟ لقد ظننته رجلًا من ذوي الأملاك.

والتَوت شفة «جيمس» العليا في غضب. فهو لم يستطِع أن يحتمل التهجم على ابنه في مثل هذا الصدد. وبدأ يقول:

ـ المسألة ليست مسألة مال...

ولكنه توقف عن الكلام إذ التقت عينه بنظرة أخيه المباشرة المكيرة الحكيمة وساد الصمت.

وأخيرًا قال «جوليون الكبير» وهو يشد شاربه:

ـ إني جئت في شأن وصيتي.

واستيقظ فضول «جيمس» من فوره. وقد لا يكون هناك شيء في حياتنا هذه أشد إثارة له من «وصية»؛ فهي المعاملة الكبرى مع الملكية، هي الصفقة الأسمى لممتلكات الإنسان، هي الكلمة الأخيرة عن القيمة التي يساويها. ودق الجرس.

وقال لموظف كتابي مذعور، أسود الشعر:

ـ أحضر وصية السيد «جوليون».

وسأل أخاه:

ـ أستُدخل عليها بعض التعديلات؟

وومضت خلال ذهنه هذه الفكرة: «والآن، هل ثروتي تعادل ثروته؟».

ووضع «جوليون الكبير» الوصية في جيب صداره، وثنى «جيمس» ساقيه الطويلتين في أسف. وقال:

ـ نُبئت أنك عقدت صفقات شراء رابحة أخيرًا.

وأجاب «جوليون الكبير» بحدة:

ـ لست أدري من أين تحصل على معلوماتك. متى يحين موعد القضية؟ أفي الشهر الآتي؟ لست أدري ما في نيتكما أنت و«سومز»، وعليكما أن تتدبرا أموركما بنفسيكما. ولكنك إذا أخذت بنصحي فاعمل على تسوية المسألة خارج المحكمة. وداعًا!

وانصرف وهو يصافحه في فتور.

وبدأ «جيمس» يعض إصبعه في حين أخذت عينه الزرقاء المشهبة الشاخصة تخترق رؤيا خفية مقلقة.

ومضى «جوليون الكبير» بوصيته إلى مقر شركة «نيو كولياري»، وجلس ليقرأها في غرفة مجلس الإدارة الخالية. وعندما رأى «هيمنجز» ـ المكنى «الذي تخلَّت عنه الأقدار» ـ عندما رأى رئيسه يجلس هناك، دخل عليه الغرفة ليعرض عليه التقرير الأول المرفوع من وكيل الأعمال الجديد، فرد عليه «جوليون الكبير» بحدة شديدة جعلت «السكرتير» ينسحب في إباء آسف، وأرسل في طلب كاتب الحسابات، وعنفه إلى أن حار الفتى المسكين، ولم يدر أين يتجه بنظره.

ليس لفتى إمعة مثله أن يأتي إلى مكتب هذه الشركة، ويظن أنه إله قادر على كل شيء، قسمًا إنه (أي «الذي تخلَّت عنه الأقدار») سيقول له ذلك. وقد قضى (أي «الذي تخلَّت عنه الأقدار») رئيسًا لهذا المكتب عددًا من السنين أكثر مما يستطيع غلام كهذا أن يعدها. وإذا ظن أنه، بعد إتمام عمله، يستطيع أن يجلس هناك دون أن يعمل شيئًا، فهو إذن لا يعرف «هيمنجز» «الذي تخلَّت عنه الأقدار»، وهلم جرًّا.

وفي الناحية الأخرى من الباب المكسو «بالجوخ» الأخضر جلس «جوليون الكبير» إلى مائدة مجلس الإدارة، الطويلة المصنوعة من خشب الماهوجني والجلد، وجثمت عويناته الصدفية الإطار على قصبة أنفه، مضمومة عليه في لين، وجرى قلمه الذهبي على بنود وصيته.

وكانت المسألة بسيطة، فقد خلت الوصية من تلك العطايا والهبات التي يُوصى بها لأعمال البر، والتي تبدد ممتلكات الفرد، وتفسد عظيم الأثر الذي تحدثه تلك الفقرة الصغيرة المخصصة في الصحف لـ«الفورسايتيين» الذين يموت الواحد منهم، ويترك مائة ألف من الجنيهات.

مسألة بسيطة؛ فهي ليست إلا وصية لابنه بمبلغ عشرين ألفًا من الجنيهات. «أما عن باقي أملاكي أيًّا كان نوعها، سواء في ذلك العقاري منها والشخصي، والجامع بين الصفتين، فإني أعتمد على دفع محصولها وإيرادها، وحصيلة أسهمها وفوائدها، بما لها أو عليها، لحفيدتي «جون

فورسايت» أو لمن تعينه في أثناء حياتها، على أن يكون ذلك كله لمنفعتها وفائدتها هي وحدها، أو غير ذلك، إلى آخره. ومن بعد موتها أو وفاتها أعتمد على تحويل أو تخصيص أو نقل أو هبة ما ذكرت أعلاه من الأراضي، والعقارات والمنازل والودائع وقيمة الأسهم والأموال والمستثمرات والتأمينات وما إلى ذلك، بحسب ما ستكون موجودة وممثلة عندئذ إلى الشخص أو الأشخاص سواء أكانوا فردًا واحدًا أو أكثر، وأن تخصص للمقاصد والأغراض والمنافع، وعلى العموم بحسب الطريقة والشكل الذي تراه «جون فورسايت» المذكورة، بحسب ما ستكون عليه إرادتها ووصيتها الأخيرة وأية كتابة أو كتابات لها طبيعة الوصية، أو معدة إعداد الوصية، وتكون صادرة منها صدورًا قانونيًّا، وممهورة بتوقيعها، وتتضمن التخصيص والتحويل والمنح والترتيب بحسب ما ذكر، وفي حالة عدم وجود وصية... إلخ. على شريطة أن يكون دائمًا...»، إلى آخر الوصية التي بلغت سبع صفحات مكتوبة بعبارات مختصرة واضحة.

كان «جيمس» هو الذي كتب الوصية في أيامه الزاهرة، ونفذ ببصيرته لجميع ما قد يقع من طوارئ تقريبًا.

وقضى «جوليون الكبير» وقتًا طويلًا وهو جالس يقرأ الوصية، وتناول أخيرًا من «خانة» الورق نصف صفحة، وخط عليها بقلمه ملحوظة مطوَّلة. وبعد أن غلف الوصية طلب إحضار عربة، واستقلها إلى مكتب المحاميين «بارامور» و«هيرينج» في «لنكولن إن فيلدز». وكان «جاك هيرينج» قد توفي، ولكن ابن أخيه لم يزل يمارس العمل في المكتب. وخلا به «جوليون الكبير» لمدة نصف ساعة.

وكان قد استبقى العربة، وعندما خرج ثانية طلب إلى السائق أن يذهب به إلى المنزل رقم ٣ بشارع «ويستاريا».

وشعر براحة غريبة غشيته في بطء، وكأنه قد أحرز انتصارًا على «جيمس» وعلى صاحب الملك («سومز»). فهما لن يدسا أنفيهما في شؤونه بعد ذلك

أبدًا؛ فقد رجع الآن عن ائتمانهما على وصيته؛ وسيسحب من بين أيديهما أعماله كلها ويضعها بين يدي «هيرينج» الشاب، وسيحول إليه أعمال شركته أيضًا. ولو أن «سومز» الشاب هذا كان «صاحب ملك» حقًّا لما أضاع قط كسب ألف جنيه، أو ما يقرب هذا المبلغ، سنويًّا. وابتسم «جوليون الكبير» ابتسامة عابسة من تحت شاربه الأبيض. وشعر بأن الذي يصنعه إنما هو من قبيل العدل الجزائي الذي يستحقانه أوفر استحقاق.

وفي بطء وتأكيد، وبهذه العملية الخفية الباطنية التي تعمل على تدمير الشجرة العتيقة، وأخذ سم الجراح ـ التي أصابت هناءته وعزيمته وكبرياءه ـ أخذ هذا السم يقوض صرح فلسفته الملائمة. لقد أنهكته الحياة من أحد جانبيه حتى فقد توازنه، كما فقدت الأسرة التي يرأسها توازنها.

وبدت له فكرة تدبيره الجديد لممتلكاته، وهي التي تولدت شمالًا في بيت ابنه والتي أخذ في تنفيذها الآن. بدت له على نحو غامض في صورة ضربة عقاب مسددة إلى أفراد تلك الأسرة، وذلك المجتمع الذي بدا له أن «جيمس» وابنه يمثلانه. لقد ردَّ «اعتبار» «جوليون الصغير»، وردُّ «اعتبار» ابنه «جوليون» أرضى لهفته الخفية إلى الانتقام، الانتقام من الزمن، ومن الحزن، وتدخل الناس، ومن مجموع تلك الكمية التي لا تحصى من الاستنكار الذي خص به العالم ابنه الوحيد مدة خمسة عشر عامًا. وقد بدا هذا الانتقام على أنه الطريقة الوحيدة التي يؤكد بها مرة أخرى سيادة إرادته، ويرغم بها «جيمس» و«سومز» وسائر أفراد الأسرة، وكل تلك الجموع الخفية من «الفورسايتيين» ـ هذا السيل الهائل المتدفق المصطدم بسد واحد هو إرادته ـ يرغمهم جميعًا على الاعتراف أولًا وأخيرًا على أنه سيكون السيد. وكان لطيفًا أن يخطر بباله أنه سيجعل من ابنه آخر الأمر رجلًا أغنى بكثير من ابن «جيمس»، ذلك الرجل «صاحب الملك». وكان لطيفًا أن يعطي «جو» ماله، فهو يحب ولده.

ولم يكن «جوليون الصغير» أو زوجته في بيتهما، (لم يكن «جوليون الصغير» قد عاد وقتذاك فعلًا من حدائق «بوتانيكال») ولكن الخادمة الصغيرة

أخبرته أنها تتوقع عودة سيدها في أي لحظة: «إنه يكون في المنزل دائمًا وقت تناول الشاي ليلعب مع طفليه».

وقال «جوليون الكبير» إنه سينتظره. وجلس صابرًا نوعًا في غرفة الاستقبال الرثة الحائلة اللون، التي أظهرت كراسيها ومقاعدها القديمة ـ بعد أن رُفعت عنها الآن كسوة الصيف التيلية ـ كل معايبها المنحولة. وتاق إلى استدعاء الطفلين، وإلى وجودهما في جواره، والتصاق بدنيهما البضين بركبتيه، وسماع «جولي» وهو يقول: «هالو يا جدي!»، ورؤية اندفاعه، وشعوره بيد «هولي» الصغيرة الناعمة تنسل وتنبسط على خده. ولكنه أبى استدعاءهما. فالأمر الذي جاء بسببه تكتنفه الخطورة، ولا بد أن ينتهي منه قبل أن يركن للعب. وألهى نفسه بالتفكير في كيف سيعيد إلى هذا المنزل الصغير، بضربتين من قلمه، هيئة «سلالته» التي غابت غيبة صارخة عن كل شيء فيه، وكيف سيستطيع أن يملأ هذه الغرف، أو غرفًا أخرى في منزل أكبر، بروائع الفن من متجر «بابل وبولبريد»، وكيف سيستطيع أن يلحق «جولي» الصغير بكلية «هارو» أو «أكسفورد»، (فهو لم يعد يثق بكليتي «إيتون» و«كمبريدج» لأن ابنه كان فيهما)، وكيف سيستطيع أن يتيح لـ«هولي» الصغيرة أن تظفر بأرقى تعليم موسيقي، فإن للطفلة استعدادًا ملحوظًا.

وبينما كانت هذه الرؤى تتجمع أمامه، وتسبب له انفعالًا انتفخ له صدره، نهض، ووقف إلى جوار النافذة، مطلًّا على الحديقة المسورة الجرداء التي قامت بها شجرة الكمثرى، مجردة من أوراقها قبل الأوان: هزيلة الأفرع بين ضباب يتجمع بطيئًا في عصر يوم من أيام الخريف. وكان الكلب «بالثازار» الذي التوى ذيله التواء شديدًا فوق ظهر أرقط غزير الشعر، يسير في الطرف الأقصى من الحديقة، متشممًا النباتات، ويضع رجله على الحائط بين الفينة والفينة، مستندًا إليه.

واستغرق «جوليون الكبير» في التأمل.

أية متعة بقيت له غير الإعطاء؟ إن الإعطاء ممتع عندما تستطيع أن تجد

إنسانًا يشكرك عليه، ويكون هذا الإنسان من لحمك ودمك. وليس هناك ارتياح يمكن استخلاصه من إعطائك المال لمن لا ينتمون إليك، لمن ليس لهم حق عليك. إن مثل هذا الإعطاء خيانة لمعتقداته الفردية، ولتصرفاته في الحياة، ولجميع مشروعاته وكده واقتصاده، ولتلك الواقعة الكبرى الداعية إلى الفخر، وهي أنه، كغيره من عشرات الآلاف من «الفورسايتيين» الموجودين في الحاضر، وأمثالهم الذين سيوجدون في المستقبل، كوَّن نفسه بنفسه في الحياة، وحافظ على ما كوَّنه بنفسه.

وبينما وقف هناك مطلًّا على أوراق شجر الغار الملوث بالغبار، وعلى الحشائش الملطخة بالسواد، وجولات الكلب «بالثازار»، امتزجت مرارة الآلام التي دامت خمسة عشر عامًا، مجردة من المتع الشرعية. امتزجت مرارتها بعذوبة اللحظة المقتربة.

وأخيرًا جاء «جوليون الصغير» راضيًا عن عمله. منتعشًا بفعل الساعات الطويلة التي قضاها في الهواء الطلق. ولما سمع عن وجود أبيه في غرفة الاستقبال سأل على عجل هل السيدة «فورسايت» موجودة بالمنزل. وإذ أخبروه أنها غير موجودة تنفس الصعداء. وبعد أن وضع أدوات رسمه بعناية في حجرة الملابس الصغيرة بعيدة عن الأنظار، دخل غرفة الاستقبال.

وطرق «جوليون الكبير» الموضوع من فوره بتصميمه الذي تميز به. فقال:

ـ لقد أدخلت تعديلًا على ترتيباتي. وأنت تستطيع أن تتوسع قليلًا في معاشك مستقبلًا، فقد دبرت لك مبلغ ألف جنيه تتسلمه منذ الآن سنويًّا. وسيكون نصيب «جون» من الميراث عند موتي خمسين ألفًا من الجنيهات، وسيكون لك باقي ثروتي. إن كلبك هذا يتلف الحديقة، ولو كنت مكانك لما احتفظت عندي بكلب.

وكان الكلب «بالثازار» يرقب ذيله وهو جالس وسط المخضرة.

ونظر «جوليون الصغير» إلى الكلب. ولكنه رآه في غير وضوح لأن عينيه كانتا مظلمتين. وقال «جوليون الكبير»:

ـ إن نصيبك لن يقل عن مائة ألف جنيه يا بني. وقد رأيت أنه من الأفضل أن تعرف ذلك. فلم تبق أمامي مدة طويلة أعيشها وأنا في هذه السن. وأنا لن أشير إلى ذلك ثانية. كيف حال زوجتك؟ بلِّغها مودتي.

ووضع «جوليون الصغير» يده على كتف أبيه، ولمَّا لم ينبس أي منهما بكلمة، فإن هذا الفصل يكون قد بلغ ختامه.

وبعد أن شيَّع «جوليون الصغير» أباه إلى العربة عاد إلى غرفة الاستقبال، ووقف حيث كان يقف «جوليون الكبير»، مطلًّا على الحديقة الصغيرة. وحاول أن يتحقق من كل ما يعنيه هذا بالنسبة له. وتجلى في ذهنه، وهو «الفورسايتي»، مشهد الأملاك، فإن سنوات عيش الكفاف التي قضاها لم تنل من غرائزه الطبيعية، وفكر، على نحو عملي للغاية، في الرحلات، وفي ثياب زوجته، وتعليم أولاده، وشراء مُهر لـ«جولي»، وفي غير ذلك من آلاف الأشياء. ولكنه فكر أيضًا، وسط كل ما خطر له من أفكار، في «بوزيني» وعشيقته، وفي أغنية الطائر المضطربة: الفرح ـ المأساة! أيهما؟ أيهما؟

وعاد أمامه الماضي القديم، الماضي اللاذع المؤلم العاطفي العجيب الذي لا يُشترى بأي مال، ولا يمكن لشيء أن يعيده مع كل ما فيه من عذوبة ملتهبة.

وعندما عادت زوجته ذهب إليها دون تلكؤ، وضمها بين ذراعيه، وظل واقفًا مدة طويلة دون أن يتكلم، مغمض العينين، محتضنًا زوجته في حين كانت تنظر هي إليه، وفي عينيها نظرة عجب وحب وشك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل السابع والعشرون

رحلة إلى الجحيم

وبعد ليلة معينة أكد فيها «سومز» حقوقه أخيرًا! وتصرف تصرُّف الرجال، أفطر منفردًا.

أفطر على ضوء المصباح الغازي، فإن ضباب أواخر نوفمبر كان كأنه يلف المدينة بملاءة رهيبة إلى حد أن أشجار «الميدان» لم تكن تُرى من نافذة غرفة الطعام إلا بصعوبة.

وطفق يأكل في مثابرة، ولكن كان ينتابه أحيانًا شعور أشبه بالعجز عن ابتلاع طعامه. أكان محقًّا في إذعانه لتلك اللهفة التي سيطرت عليه في الليلة الماضية، وفي تحطيم المقاومة التي طالما تحملها من تلك المرأة التي هي قرينته، والتي ارتبطت به قانونًا وشرعًا؟

لقد لاحقته على نحو غريب ذكرى وجهها الذي حاول أن ينزع عنه يديها ـ بقصد تهدئتها ـ وذكرى نشيجها المكتوم الرهيب الذي لم يسمع مثله قط، والذي يُخيَّل إليه الآن أنه ما زال يسمعه، كذلك ما زال يلاحقه هذا الشعور الغريب، غير المحتمل، بتأنيب الضمير والخجل، هذا الشعور الذي أحسه وهو واقف ينظر إليها، على ضوء لهب الشمعة الوحيدة، قبل أن ينسل في صمت.

وبعد أن تصرف على هذا النحو عجب الآن من نفسه على نحو ما.

ومنذ ليلتين مضتا اصطحب السيدة «ماكاندر» إلى منزل «وينيفريد دارتي» لتناول العشاء هناك. وقالت له، وهي تتطلع إلى وجهه بعينيها الحادتين المخضوضرتين: «أزوجتك إذن صديقة حميمة للسيد «بوزيني»؟».

وأخذ يفكر في كلماتها إذ لم يجترئ على سؤالها عن قصدها.

وأثارت تلك الكلمات في نفسه غيرة عنيفة تحولت بفعل انحراف غريزته الغريب إلى لهفة أعنف.

ولعله لم يكن ليقدم قط على ما أقدم عليه لولا كلمات السيدة «ماكاندر» الاستفزازية. لم يكن ليقدم عليه قط لولا استفزازها، ولولا ذلك الحادث، وهو أنه وجد مرة باب غرفة زوجته مفتوحًا، فمكنه ذلك من التسلل إليها وهي نائمة.

وأزال النعاس شكوكه، ولكن الصباح عاد بها ثانية. ووجد عزاء في فكرة واحدة: لن يعرف أحد ما حدث، فالأمر ليس من نوع تلك الأمور التي يمكنها أن تتحدث عنها.

وعندما بدأت «مركبة» عمله اليومي ـ التي تحتاج احتياجًا ماسًّا إلى «شحم» الأفكار النيرة العملية ـ عندما أخذت تنطلق مرة أخرى، بقراءته لخطاباته؛ بدأت شكوكه الشبيهة بالكابوس تبدو في الجانب الخلفي من ذهنه ذات أهمية أقل إسرافًا.

إن الحادث لم يكن في الواقع كبير الأهمية؛ والنساء يثرن حوله ضجيجًا في كتب القصص. ولكن «سومز» ـ في رأي المفكرين الجادين، وفي رأي المجرمين، وبحسب الأفكار التي قيل إنه طالما ظفر بالإطراء عندما كان يبديها أمام المحكمة التي تنظر قضايا «الإخلال بالتعهد» ـ لم يفعل شيئًا غير بذل جهده للحفاظ على قدسية الزواج، والحيلولة دون تخليها عن واجبها فيما إذا صح أنها تقابل «بوزيني»؛ ودون... لا، إنه لا يأسف على ما حدث.

أما وقد اتخذت الخطوة الأولى الآن في سبيل الوفاق، فإن الخطوات التالية ستكون نسبيًّا... نسبيًّا...

ونهض وسار إلى النافذة، مضطرب الأعصاب، وارتد صوت النشيج المكتوم إلى أذنيه، ولم يستطع منه خلاصًا.

وارتدى معطفه الوبري، وخرج إلى الضباب، ولما كان عليه أن يذهب إلى المدينة، فقد استقل قطار الأنفاق من محطة ميدان «سلون».

وظل النشيج المكتوم يلاحقه وهو جالس في ديوان الدرجة الأولى المملوء برجال الأعمال، ولذلك نشر جريدة «التايمز»، محدثًا تلك الخشخشة التي تغرق كل صوت منخفض عنها، وبعد أن تحصن وراءها طفق يطلع في مثابرة على الأنباء.

قرأ عن «مسجل» وجه في اليوم السابق إلى «هيئة تحكيم عليا» قائمة اتهامات أطول من المعتاد. وقرأ عن ثلاث جنايات قتل وخمس جنايات ذبح، وسبع جرائم حريق عمد، وزهاء إحدى عشرة جريمة من جرائم النهب والسلب ـ وهذا عدد كبير إلى حد يثير الدهشة ـ يُضاف إلى ذلك عدد عديد من جرائم أقل أهمية، وستنظر هذه الجرائم أمام المحكمة «في الدورة المقبلة». وانتقل من نبأ إلى نبأ وحافظ جيدًا على وضع الجريدة أمام وجهه.

وظلت ذكرى وجه «آيرين» المشوب بالدموع، والأصوات الصادرة من قلبها المحطم، غير منفصلة عن استرساله في القراءة.

كان هذا اليوم مزدحمًا بالعمل، فبالإضافة إلى المهام العادية المتعلقة بمهنته كان عليه أن يمر بمكتب «سمساريه» السيدين «جرين» و«جريننج»؛ ويصدر لهما أمرًا ببيع أسهمه في شركة «نيو كولياري ليمتد» التي كان أقرب إلى الشك منه إلى العلم اليقين بأن أعمالها راكدة (وقد انهار هذا المشروع، بعد ذلك، شيئًا فشيئًا وبيع آخر الأمر إلى وكالة أمريكية بثمن زهيد). وكان عليه أيضًا أن يحضر مداولة طويلة بمكتب «وتربوك» مستشار الملكة، يشترك فيها «بولتر» ومستشار الملكة المساعد «فيسكي» و«وتربوك» مستشار الملكة نفسه.

وكان من المتوقع أن تُنظر قضية «فورسايت» ضد «بوزيني» في اليوم التالي أمام القاضي «بينثام».

والقاضي «بينثام»، وهو أقرب إلى أن يكون سليم الإدراك من أن يكون واسع الإلمام بالقانون، يعد في نظرهم أحسن رجل يستطيعون أن يظفروا به لمعالجة القضية. لقد كان قاضيًا «قويًّا».

وأبدى «وتربوك» مستشار الملكة، اهتمامًا كبيرًا بـ«سومز»، رابطًا ذلك، على نحو مبهج، بإهماله «بولتر» و«فيسكي» إهمالًا يكاد يكون خشنًا، مدفوعًا بدافع الغريزة، أو بالشائعات التي هي أقوى من الغريزة، شاعرًا بأن «سومز» صاحب ملك.

وظل متمسكًا تمسكًا عجيبًا بالرأي الذي سبق أن عبَّر عنه كتابة، وهو أن المسألة ستتوقف إلى حد كبير على الأدلة التي ستساق في أثناء المحاكمة، ونصح «سومز» ألا يكون شديد الحذر في تقديم تلك الأدلة، وأبدى في هذا الصدد بضع ملحوظات حسنة التوجيه. وقال: «قليل من الإيهام يا سيد «فورسايت»... قليل من الإيهام...»، وبعد أن قال ذلك ضحك في رصانة، وأطبق شفتيه إطباقًا شديدًا، وحك رأسه في أسفل الموضع الذي أزاح عنه شعره المستعار، مشبهًا في ذلك تمامًا سراة الفلاحين الذين يود أن يعده الناس منهم. ولعله يُعتبر أكبر محام في قضايا «فسخ الخطوبة».

واستقل «سومز» قطار الأنفاق في عودته إلى بيته.

وكان الضباب أسوأ ما يكون في محطة ميدان «سلون»، وتحسس الناس طريقهم وهم يدخلون ويخرجون من خلال الظلمة الراكدة الكثيفة. وشدت النساء مشابكهن على صدورهن ـ وكن قلة ـ ووضعن المناديل على أفواههن. ولاحت العربات على التوالي، مظلمة الأشكال، متوَّجة بسائقيها البارزين كأشباح السحر، محاطة بهالة غامضة من أنوار مصابيحها التي بدا أنها تغرق في الضباب قبل وصولها إلى الأرصفة، وكانت تلك العربات تفرغ من فيها من سكان المدينة الهاربين كالأرانب إلى جحورهم.

وهذه الأشكال الشبيهة بالأشباح لم يلتفت بعضها إلى بعض، وقد التف كل منها بقطعة غطائه من الضباب. ولم يهتم كل أرنب منها إلا بنفسه في مزرعة الأرانب الهائلة هذه، لا سيما أولئك الذين يرتدون معاطف من فراء أغلى ثمنًا، ويستقلون قطارات الأنفاق لخوفهم من ركوب العربات في أيام الضباب.

بيد أنه كان هناك شخص غير بعيد من «سومز» ينتظر عند باب المحطة.

وكان كل «فورسايتي» يرى مثل هذا الشخص إما «قرصانًا» وإما «عاشقًا»: «بائس مسكين، يبدو عليه أنه في محنة!». وتدق قلوب «الفورسايتيين» الرحيمة دقات أسرع عطفًا على هذا العاشق المسكين المنتظر المتلهف وسط الضباب. ولكنهم كانوا يمرون على عجل لتيقنهم من أنهم لا يملكون وقتًا أو مالًا يوفرونه لأي عذاب غير عذابهم هم أنفسهم.

ولم يهتم بذلك الشخص المنتظر إلا شرطي يطوف في دركه من آنٍ إلى آنٍ، ذلك الشخص الذي كانت قبعته المترهلة تخفي بعض الإخفاء وجهًا محمرًّا من البرد، نحيلًا كل النحول، زائغ البصر، تنسل إليه يد صاحبه بين حين وحين لتهدئة جزعه، أو لتجديد عزمه الذي أبقاه منتظرًا هناك. ولكن العاشق المنتظر (لو أنه عاشق فعلًا) كان قد تعود تمحيص رجال الشرطة، أو كان شديد الاستغراق في قلقه، فإن عينه لم تطرف قط. إنها حالة شديدة، اعتاد صاحبها المواعيد والقلق والضباب والبرد. لو حدث فقط أن حضرت حبيبته آخر الأمر. عاشق أحمق! إن الضباب يستمر حتى حلول الربيع. وهناك أيضًا الثلوج والأمطار. وليس ثمة مكان تتوفر فيه الراحة. إن الخوف الناهش ينتابك إذا سألتها أن تبقى في بيتها!

«لقد نال الجزاء الذي يستحقه، فقد كان ينبغي له أن يرتب أموره ترتيبًا أفضل!».

هذا شأن كل «فورسايتي»، ولو استطاع هذا المواطن الأشد صلابة أن يستمع إلى صوت قلب العاشق المنتظر هناك وسط الضباب والبرد، لعاد إلى القول: «نعم، بائس مسكين! إنه لفي محنة!».

وركب «سومز» عربته، وسار بها خالعًا عويناته، إلى شارع «سلون»، واجتاز بها طوال شارع «برمبتون» حتى وصل إلى بيته، وقد بلغه في الساعة الخامسة.

ولم تكن زوجته بالبيت، فقد خرجت قبل ذلك بربع ساعة. أتخرج إلى ذلك الضباب الرهيب في مثل هذه الساعة من الليل! ما معنى هذا؟

وجلس إلى جوار المدفأة بغرفة الطعام، تاركًا بابها مفتوحًا، معانيًا أعمق الارتباك، محاولًا قراءة جريدة المساء. إن الكتاب لا يفيد، والجريدة اليومية هي الشيء الوحيد الذي يمكن أن يخدر جزعًا كجزعه.

لقد كان يستمد بعض الراحة من الأحداث المعتادة المدونة في الجريدة. وقرأ جميع الأخبار التالية: «انتحار ممثلة»، «توعُّك شديد يصيب أحد رجال السياسة» (وهو ذلك السياسي الذي يتألم دائمًا)، «طلاق أحد ضباط الجيش»، «حريق في منجم فحم». وساعده ذلك قليلًا، فهذه القراءة وصفة وصفها الذوق الطبيعي، وهو أعظم الأطباء جميعًا.

وكادت الساعة تبلغ السابعة عندما سمع صوت دخولها.

وكان «حادث» الليلة السابقة قد فقد أهميته منذ مدة على أثر وقوعه تحت وطأة قلقه بسبب خروجها الغريب إلى الضباب. ولكن ذكرى النشيج المنبعث من قلب «آيرين» الكسير عاودته الآن وقد عادت زوجته إلى البيت، وشعر بحالة عصبية لمجرد فكرة أنه سيواجهها.

وكانت الآن فوق السلم، ومعطفها الوبري يتدلى على ركبتيها، وطوق المعطف يكاد يخفي وجهها الذي سدلت عليه نقابًا كثيفًا.

ولم تلتفت لتنظر إليه، لا ولم تحدثه، ولم يكن أي شبح، أو أي شخص غريب، يستطيع أن يمر في صمت أشد من صمتها.

وجاءت «بيلسون» لتعد مائدة العشاء، وقالت له إن السيدة «فورسايت» لن تنزل إليه لأنها ستتناول حساءها في غرفتها.

إن «سومز» لم يغير عادته ولو لمرة واحدة، ولعل هذه هي أول مرة يجلس

فيها، طوال حياته، وأكمام قميصه متسخة، ولا يلحظ حتى ذلك وهو مسترسل وراء تأملاته في أثناء شرب نبيذه. وأرسل «بيلسون» إلى غرفة لوحاته لتوقد مدفأتها. ولم يلبث أن صعد إليها هو نفسه.

وأضاء مصباح الغاز. وأطلق زفرة عميقة حتى لكأنه وجد في نهاية الأمر هدوء باله بين ذخائر هذه اللوحات التي جابهته ظهورها. وهي مكدسة أكداسًا في كل أنحاء الغرفة الصغيرة. واتجه رأسًا إلى أعظم لوحاته جميعًا. وهي مرسومة بريشة «تيرنر» دون أي ريب. وإذ حملها إلى منصة الرسم أدار وجهها للنور. كان هناك اهتزاز يشوب لوحات «تيرنر»، ولكنه لم يستطِع أن يعقد نيته على التخلي عنها. ووقف مدة طويلة ينظر إلى الصورة، وقد اشرأب وجهه الشاحب الحليق إلى الأمام من فوق «ياقته» المنتصبة. وكأنه كان يجمع حسنات اللوحة وبدا في عينيه تعبير عن اللهفة. ولعله وجد نتيجة الجمع ضئيلة جدًّا. وأنزل اللوحة من «منصة الرسم» ليضعها إلى جانب الحائط، ولكنه توقف وهو يجتاز الغرفة، فقد خُيل إليه أنه يسمع نشيجًا.

لم يكن ثمة صوت إلا ذلك الشيء الذي ظل يزعجه في الصباح.

ولم يلبث بعد ذلك أن انسل إلى الدور السفلي بعد أن وضع الوقاء الكبير أمام النار الملتهبة.

وكانت الفكرة المستحوذة عليه هي أن يكون ناضرًا مع طلوع الغد، ومر وقت طويل قبل أن ينام.

وينبغي أن يتحول ذهننا الآن إلى «جورج فورسايت» لنتبين أحداث عصر ذلك اليوم المغلف بالضباب.

إن هذا «الفورسايتي» الذي يتحلى بروح الفكاهة، وبالروح الرياضية أكثر من سائر «الفورسايتيين» جميعًا، أمضى ذلك اليوم في قراءة قصة بمنزل أبويه في «برينسز جاردنز»، فمنذ الأزمة الأخيرة التي تعرضت لها شؤونه المالية اضطر إلى الإقامة «بمنزل الأسرة» ملتزمًا بوعد جعله «روجر» يقطعه على نفسه.

وخرج زهاء الساعة الخامسة، واستقل قطارًا من محطة «ساوث كينسنجتون» (كان كل إنسان يستقل قطار الأنفاق في ذلك اليوم). وكان ينوي أن يتعشى في «رد بوتيل»، ويمضي ليلته في لعب «البليارد» هناك في ذلك النُّزل الفريد في نوعه، فهو ليس بنادٍ، لا، ولا فندق، أو مطعم مموه بالذهب على نحو حسن.

وغادر القطار في محطة «تشارينج كروس»، مؤثرًا ذلك على النزول بمحطة «سانت جيمس بارك» التي اعتاد غالبًا أن ينزل بها، لعله يصل بذلك إلى شارع «جيرمين» سالكًا طرقًا أحسن إضاءة.

وعلى رصيف المحطة اجتذبت عينيه ـ ذلك أن عيني «جورج» كانتا حادتين على نحو يتفق مع مظهره المتزن الأنيق، وقد اعتاد أن يبحث عن ثغرات لإشباع مزاجه التهكمي ـ اجتذبت عينيه طلعة رجل قفز من أحد دواوين الدرجة الأولى، واتجه إلى باب الخروج وهو أقرب إلى الترنح منه إلى المسير. وقال «جورج» لنفسه: «قف إذن، يا فتاي العجيب! ماذا؟ إنه «القرصان!»». وتتبع بوجهه الكبير أثر «بوزيني». فلم يكن ثمة شيء يلهيه أكثر من رؤية رجل مخمور.

ووقف «بوزيني» أمامه، وكان يلبس قبعة مسترخية، ودار حوله، وارتد مندفعًا إلى العربة التي كان قد غادرها من توه. وأمسكه حمال من معطفه، فالقطار كان قد تحرك فعلًا.

ولمحت نظرة «جورج» المدربة وجه سيدة ترتدي معطفًا رماديًّا من الفراء، وتجلس إلى جوار نافذة القطار، لقد كانت السيدة «سومز»، وشعر «جورج» بأن ذلك أمر مثير للاهتمام!

واقتفى الآن أثر «بوزيني»، مقتربًا منه أكثر من ذي قبل، اقتفاه صاعدًا في السلم، ومارًّا بجامع التذاكر وخارجًا إلى الطريق. وتغير مع ذلك شعوره في أثناء ذلك الاقتفاء، فهو لم يعد يشعر بالفضول والتسلية فحسب، ولكنه شعر كذلك بالأسف على ذلك الفتى المسكين الذي لاحقه كظله. لم يكن

«القرصان» مخمورًا، ولكن يبدو أنه كان خاضعًا في تصرفه لعاطفة عنيفة، كان يخاطب نفسه، وكل ما استطاع «جورج» أن يلتقطه هو هذه الكلمات: «أوه يا إلهي!». ولم يبدُ عليه كذلك أنه يعرف ما يصنع، أو إلى أين يذهب. ولكنه شخص ببصره، وتردد وتنقل كرجل في غير وعيه. ولما كان «جورج» ماجنًا صرفًا في بحثه عن اللهو والتسلية فقد رأى أنه لا بد من تقصي أمر ذلك الفتى المسكين إلى النهاية.

لقد «وقع في الورطة»... «وقع في الورطة!»... وتعجَّب، أي شيء في الوجود قالته السيدة «سومز»، أي شيء في الوجود حدثته عنه وهما في عربة القطار. وكانت تبدو في حالة سيئة هي أيضًا! وأثارت حسرة «جورج» فكرة سفرها وحدها وهي على ما هي عليه من همٍّ.

وظل يتابع «بوزيني»، قريبًا من خلف ظهره ـ طلعة طويلة ضخمة، تلتزم الصمت، وتروغ في حذر ـ وخرجا إلى الضباب وهو يتابعه كظله، وكان في الأمر شيء أكثر من أن يكون مجرد مزحة! واحتفظ بيقظته على نحو مدهش، ذلك أن غريزة المطاردة، بالإضافة إلى الشفقة، استيقظت في نفسه.

وسار «بوزيني» رأسًا إلى الطريق العام، ظلام مترامٍ مخيم حيث لا يستطيع المرء أن يرى شيئًا أمامه يتجاوز ست خطوات، وحيث الصفير والأصوات الصادرة من كل مكان تسخر من حاسة معرفة الاتجاه. وحيث تقبل عليهما الأشكال فجأة، متدحرجة في بطء، ويبدو من حين إلى آخر ضوء كأنه جزيرة داكنة وسط محيط مظلم لا حد لها.

وسار «بوزيني» مسرعًا داخل هذه الهوة الخطرة من الليل، ومن خلفه سار «جورج» مسرعًا أيضًا. وإذا أراد الفتى أن يدفع «قرشيه» كي يركب عربة الباص لأوقفها لو كان ذلك في مقدوره! وأوسع المخلوق المطارَد خطاه، مجتازًا الشارع ومرتدًّا، غير متحسس طريقه كما يفعل سائر الناس وسط هذه الظلمة، ولكنه كان مسوقًا دون هوادة حتى لكأن «جورج» كان

يلوح بسوط من ورائه. وبدأ هذا الطراد الحثيث وراء رجل ممسوس يفتن لب «جورج» أعجب فتنة.

ولكن حدث الآن أن تطورت المسألة على نحو جعلها تبقى فيما بعد غضة واضحة في ذهنه، فعندما انتهى بهما الأمر إلى الوقوف وسط الضباب سمع كلمات ألقت الضوء فجأة على هذه التصرفات. فإن الذي قالته السيدة «سومز» لـ«بوزيني» في القطار لم يعد الآن طي الخفاء. لقد فهم «جورج» من الكلمات المتمتمة أن «سومز» فرض حقوقه على زوجة معرضة غير راغبة فيه، مقبلًا بذلك على أكبر عملية... على أعظم عملية من عمليات «الملكية».

وشردت مخيلته في مختلف نواحي هذا الوضع، وأثر ذلك فيه، وحزر شيئًا مما في قلب «بوزيني» من اللوعة، والبلبلة الجنسية، والبشاعة. وقال لنفسه: «نعم»، إن الأمر زاد قليلًا عن حده! ولا عجب أن يُصاب الفتى المسكين ببعض الخبل.

لقد لاحق طريدته حتى وجدها تجلس على مقعد تحت تمثال أسد من أسود «الطرف الأغر»، وهو وحش على هيئة أبي الهول، ضالٌ مثلهما في هوة الظلام. كان «بوزيني» يجلس هناك جامدًا صامتًا، ووقف «جورج» من خلفه، واتسم صبره على ملاحقته بلمسة من إخاء غريب. ولم يكن ينقصه بعض الذوق ـ وهو شعور شكلي ـ بعض الذوق الذي لا يسمح له بدس أنفه في هذه المأساة. وانتظر ساكنًا سكون الأسد الذي يعلوه. وشد طوق معطفه الوبري إلى ما فوق أذنيه، ساترًا احمرار خديه المكتنزين، ساترًا كل شيء ما عدا عينيه ونظرتهما الساخرة الشفيقة. وظل الرجال يمرون، عائدين من أعمالهم، سالكين طريقهم إلى نواديهم؛ رجال تظهر أشكالهم للعيان كأنها أشباح بشرانق الضباب، وتتوارى أيضًا عن العيان كالأشباح. ثم إن مزاج «جورج» التهكمي حمله ـ حتى في أثناء شعوره بالعطف ـ حمله على التشوف إلى جر هذه الأشباح من أكمامها، وقوله

لها: «هيه يا «جونيز»، إنكم لا ترون كثيرًا مشهدًا كهذا! هنا بائس مسكين قصت عليه حبيبته في التو قصة صغيرة عن زوجها... تعالوا، تعالوا! لقد وقع في المحنة كما ترون».

ورآهم بخياله يفغرون أفواههم حول العاشق المعذب. وكشر عن أنيابه إذ خطرت له فكرة وجود شبح من تلك الأشباح، متمتع بالاحترام، تزوج أخيرًا، وتمكن بما يكابده من عواطف المحبة أن يدرك بلمحة منه ما يجيش في صدر «بوزيني»، وتصور أنه يستطيع رؤية فمه يتسع أكثر فأكثر، ورؤية الضباب ينحسر وينحسر. ذلك أن «جورج» ينطوي على كراهية تامة للطبقة المتوسطة ـ لا سيما المتزوجين من أفرادها ـ وهذا غريب بالنسبة لذوي الروح الرياضية وهم على ما هم عليه من مكانة.

ولكنه بدأ يمل، فالانتظار لم يكن الصفقة التي ساوم عليها.

وقال لنفسه: «سيستطيع الفتى المسكين، على أي حال، أن يتغلب على ما يكابده. ومثل ذلك الأمر لا يحدث لأول مرة في هذه المدينة الصغيرة!». ولكن طريدته بدأت الآن تتمتم من جديد بكلمات تنم عن المقت والغضب الشديدين. ولمس «جورج» كتفه مدفوعًا بدافع فجائي.

ودار «بوزيني» حول نفسه:

ـ من أنت؟ ماذا تريد؟

وكان «جورج» يستطيع أن يصمد للموقف صمودًا كافيًا لو حدث ذلك على ضوء مصابيح الشوارع، أو في وضح هذه الحياة العادية التي هو خبير جريء الخبرة بها، ولكنه وقع فريسة لتأنيب ضمير غريب وهو محاط بهذا الضباب، حيث كل شيء مكفهر وهمي، وحيث لا يتسم شيء بقيمة الأمر الواقع الذي يقرنه «الفورسايتيون» بهذه الأرض. وبينما كان يحاول أن يحدق في عيني هذا المخبول العقل خطر له:

«إذا رأيت أحد رجال الشرطة فسأسلمه له، فهو غير خليق أن يُترك طليقًا».

ولكن «بوزيني» خطا إلى الضباب دون أن ينتظر جوابًا؛ وتبعه «جورج»،

ولعله احتفظ بمسافة أطول تفصله عنه، ولكنه جد في اقتفائه أكثر من أي وقت مضى.

وقال لنفسه: «أنا لا أستطيع مواصلة السير على هذا النحو مدة طويلة، فإن معجزة الخالق هي التي حالت دون وقوعه قبل ذلك تحت عجلات عربة من العربات»، ولم يعد يفكر في رجال الشرطة، فإن حمية «الرياضي» المقدسة اضطرمت في صدره من جديد.

وفي مكان أشد ظلمة من أي مكان آخر، اندفع «بوزيني» في خطوات هائجة. ولكن مقتفي أثره تبين أنه، في جنونه، أقرب إلى اتباع منهج في مسيره، فقد وضح أنه يتجه غربًا.

وقال «جورج» لنفسه: «إنه ذاهب حقًّا إلى «سومز»»! وكانت الفكرة جذابة، فهذه المطاردة ستنتهي إلى خاتمة مسلية، لقد كان يشعر دائمًا بنفور من ابن عمه.

واحتك «عريش» عربة مارة بكتفه وجعله يقفز إلى جانب الشارع، فهو لم يكن يقصد أن يُقتل في سبيل القرصان، أو أي إنسان غيره. بيد أنه، بإصراره الموروث، تشبث باقتفاء الأثر خلال الأبخرة التي محت كل شيء إلا ظل المطارد، والهالة المظلمة المحيطة بأقرب مصباح.

ثم أدرك «جورج» فجأة، بغريزة جوَّاب المدينة، أنه في حي «بيكاديللي». وهو يستطيع هنا أن يجد طريقه مغمض العينين. وبعد أن تخلص من عناء الالتباس الجغرافي، تحول ذهنه إلى محنة «بوزيني».

وبينما هو يجتاز الشارع الطويل بخبرة العليم بالمدينة، ارتدت إليه ذكرى صباه منبثقة، كما هي الحال، من خلال أشكال العاشقين الملتبسة، ذكرى ما زالت موجعة تعيد إلى أبخرة ضباب لندن هذا، وإلى ظلمته، رائحة القش، وسطوع القمر، وفتنة الصيف، ذكرى ليلة قضاها في أحلك بقعة ظليلة في مخضرة، وسمع تصريحًا من شفتي امرأة بأنه ليس بالرجل الوحيد الذي امتلكها. ومن ثم امتنع فترة من الزمن عن السير في حي «بيكاديللي»

المظلم؛ ولكنه عاد إلى الرقاد في ظل أشجار الحور الممتدة التي تحجب القمر، وفي قلبه نار موقدة، ووجهه منكفئ على الحشائش الزكية الرائحة، المرصعة بالأنداء.

وتمكن منه ميل إلى أن يطوق «القرصان» بذراعه، ويقول له: «دعك من هذا يا صديقي. إن الزمن يشفي كل داء، لنمضِ وننتهِ من الأمر!».

ولكن صوتًا صاح في وجهه، فجفل مرتدًّا. كانت عربة قد خرجت من الظلمة ثم عادت فاحتجبت طي الظلمة. وتبين «جورج» فجأة أنه فقد أثر «بوزيني». وجرى إلى الأمام وإلى الوراء، وشعر بخوف مسقم يفترس قلبه، ذلك الخوف المظلم الذي يعيش تحت أجنحة الضباب. وبدأ العرق ينبت في جبينه، ووقف ساكنًا كل السكون، منصتًا بكل ما يملك من قوة الإنصات. وقد أسر إلى «دارتي» قوله، في نفس ذلك المساء، خلال لعبهما «البليارد» في «رد بوتل»:

ـ ثم فقدت أثره.

وفتل «دارتي» شاربه الأسود في دماثة. وكان قد أحرز من توه ثلاثًا وعشرين إصابة في اللعب. وأخفق في «الرمية» الأخيرة.

وسأل رفيقه:

ـ ومن كانت المرأة؟

ونظر «جورج» متمهلًا إلى وجه «رجل العالم» الشاحب، السمين نوعًا، وتوارت ابتسامة صغيرة كالحة طي تجاعيد خديه وطي عينيه الثقيلتي الجفنين، وقال لنفسه: «لا، لا يا صديقي الذكي. إني لن أفضي إليك بالأمر». ذلك أنه على رغم اختلاطه بـ«دارتي» اختلاطًا كبيرًا، يراه على شيء من الخسة.

وقال لـ«دارتي»:

ـ أوه، إنها سيدة أو أخرى من الخليلات الصغيرات.

وغطَّى طرف عصا «البليارد» بالطباشير.

وصاح «دارتي»:

ـ خليلة!

واستعمل تعبيرًا أشد تورية:

ـ إني استوثقت من أن صديقنا «سو...».

وقال «جورج» مقتضبًا الحديث:

ـ هل استوثقت حقًّا؟ اللعنة! لقد اقترفت خطأ إذن!

لقد أخطأ المرمى. وحرص على أن يتجنب الإشارة إلى الموضوع مرة أخرى حتى حدث حوالي الساعة الحادية عشرة، وهو ينظر إلى الشراب «في حالة اصفراره» ـ على حد تعبيره الشعري ـ حدث أن أزاح الستار جانبًا. وأطل على الطريق. وكانت ظلمة الضباب الفاحمة قد أخذت تخف قليلًا بفعل مصابيح «رد بوتل»، ولم تبدُ للعيان هيئة آدمي أو أي شيء من الأشياء. وقال:

ـ ليس بيدي أن أمتنع عن التفكير في ذلك القرصان، فلعله يتجول هناك الآن تحت ستر ذلك الضباب.

وأضاف في اكتئاب غريب:

ـ هذا إذا لم يصبح جثة هامدة.

وقال «دارتي» الذي انبثقت في ذهنه ذكرى انهزامه أمام «بوزيني» في مطعم «ريتشموند»:

ـ جثة هامدة! إنه بخير، وأراهن بجنيه مقابل عشرة جنيهات على أنه نشوان.

ودار «جورج» إليه وبدا مهيبًا حقًّا وقد اكتسى وجهه الكبير بنوع من الاكفهرار الوحشي. وقال:

ـ إنه لم يذق الخمر! ألم أقل لك إنه «وقع في المحنة!».

الفصل الثامن والعشرون

نظر القضية

اضطر «سومز»، في صباح يوم قضيته ـ التي كانت ثاني قضية مقيدة بجدول القضايا ـ اضطر ثانية إلى مغادرة بيته دون أن يرى «آيرين»، وكان سيان عنده أن يراها أو لا يراها لأنه لم يكن قد قرر بعد أي موقف يتخذه منها.

وقد طلبوا إليه أن يحضر إلى المحكمة حوالي منتصف الساعة العاشرة ليكون متأهبًا في حالة انتهاء القضية الأولى بسرعة، (وهي قضية إخلال بالتعهد) بيد أن هذا لم يحدث، فقد استبسل طرفا الخصومة في القضية الأولى استبسالًا أتاح للمحامي «وتربوك» مستشار الملكة، فرصة ينمي فيها شهرته الكبيرة التي توطدت من قبل فعلًا في مثل هذا النوع من القضايا. وكان خصمه هو «رام»، المحامي الآخر الشهير في قضايا الإخلال بالتعهد، كانت معركة بين عملاقين.

ولم تنطق المحكمة بالحكم إلا قبيل استراحة الغداء مباشرة، وغادر المحلفون مقصورتهم نهائيًا. وخرج «سومز» سعيًا إلى شيء من الطعام يأكله، ووجد «جيمس» واقفًا إلى جوار منضدة الغداء الصغيرة، منحنيًا على «سندويتش» وكأس من «الشيري» موضوعين أمامه، وبدا أشبه ببجعة في بريّة الأروقة. وكان يعكر الفراغ الشاسع في القاعة الرئيسية الكبرى حيث استرسل الأب والابن في التفكير وهما واقفان معًا، كان يعكره بين

حين وحين وفي لحظات خاطفة مروق المحامين على عجل وهم يرتدون «الروب»، والشعر المستعار، أو ظهور امرأة عجوز عرضًا، أو رجل رث السترة ينظر بطريقة تنم عن الخوف، أو شخصين أجرأ من أبناء جيلهما يجلسان إلى جوار النافذة ويتناقشان، ويرتفع صوتهما مع انتشار رائحة كرائحة بئر مهملة، ممتزجة بما يشبه عبق الأروقة، مركبة تركيبًا يؤلف نكهة لا يماثلها إلا انتشار نكهة جبن نقي ترتبط ارتباطًا لا ينفصم بدور العدالة البريطانية.

ولم يلبث «جيمس» أن قال لابنه:

ـ متى تنظر المحكمة قضيتك؟ أحسب أنها ستنظرها مباشرة؛ ولن أعجب إذا قال «بوزيني» هذا شيئًا ما؛ ففي اعتقادي أن عليه أن يقول شيئًا، لأنه سيفلس إذ خسر الدعوى.

وقضم قطعة كبيرة من «السندويتش»، وملأ فمه بجرعة من شراب «الشيري». وقال:

ـ تريد أمك أن تحضر أنت و«آيرين» الليلة لتناول العشاء.

وتراقصت ابتسامة باردة على شفتي «سومز»، والتفت إلى أبيه. ولو أتيح لأحد أن يرى النظرة الباردة المختلسة، المتبادلة بينهما على النحو الذي تبادلاها، فإنه يعذر إذا هو لم يقدر التفاهم الوثيق المتوطد بينهما.

وأفرغ «جيمس» كأسه في جرعة واحدة، وسأل خادم المطعم:

ـ كم المبلغ؟

ولدى عودة «سومز» إلى قاعة المحكمة احتل من فوره مكانه الملائم في المقعد الأمامي إلى جانب محاميه. وتأكد من المكان الذي جلس فيه أبوه بإلقاء نظرة جانبية خافية حتى لا يورط أحدًا.

وكان «جيمس» ـ وهو يجلس إلى الوراء، ويداه موشجتان فوق مقبض مظلته ـ مستغرقًا في التفكير فوق طرف المقعد الواقع خلف مقاعد المحامين مباشرة، حيث يستطيع أن ينصرف من فوره بعد الانتهاء من نظر القضية.

وكان يعد تصرف «بوزيني» مثيرًا للحنق من نواحيه كافة، ولكنه لم يشأ أن يصطدم به، شاعرًا بأن لقيانه سيكون مربكًا.

ولعل ساحة هذه الجلسة، المجاورة لجلسة قضايا الطلاق، كانت الساحة القضائية المحببة إلى النفوس بنوع خاص، فقضايا القذف العلني والإخلال بالتعهد، وغير ذلك من القضايا التجارية، كانت تنظر هناك غالبًا. وقد احتل المقاعد الخلفية خلق غفير ممن تربطهم بالقانون صلة. وبدت للعيان في الرواق قبعة سيدة أو قبعتان.

وامتلأت على الأثر مقاعد الصفين الواقعين أمام «جيمس» رأسًا بالمحامين المترافعين الذين تحلوا بالشعر المستعار، وجلسوا هناك ليدونوا ملاحظاتهم ويتسلوا بالحديث وينتظروا في تأهب. ولكن اهتمامه لم يلبث أن انصرف عن هؤلاء المحامين الذين هم مصابيح للعدالة أقل نورًا. وذلك لدى دخول «وتربوك» مستشار الملكة، في «روبه» الحريري الذي حفت أجنحته حفيفًا. وبوجهه الأحمر الفطن الذي يسنده شارب قصير أشهب. وبدا مستشار الملكة الشهير أنه يمثل تمامًا الرجل الذي يستطيع أن يحرج الشاهد، على حد ما اعترف به «جيمس» جهارًا.

وقد حدث أنه لم يرَ «وتربوك» من قبل قط. برغم خبرته كلها. وهو يعجب أشد الإعجاب بالمحامي الذي يحسن مناقشة الشهود. شأنه في ذلك شأن كثيرين من «الفورسايتيين» المنتمين إلى الفرع الأقل شأنًا في مهنة المحاماة. وتراخت نوعًا ثنايا خديه الطويلة الكئيبة بعد أن رآه. لا سيما بعد أن تبين الآن أن «سومز» هو وحده الذي يمثله محامٍ يرتدي «الروب» الحريري.

ولم يكد «وتربوك» مستشار الملكة، يدور ليتحادث مع المحامي الذي يعاونه حتى ظهر القاضي «بينثام» نفسه، وهو رجل نحيل، أشبه بدجاجة، منحني القامة قليلًا، حليق الوجه البادي تحت شعره المستعار الأبيض كالثلج. ووقف «وتربوك» كما وقف سائر الموجودين في قاعة الجلسة، وظل على قدميه حتى جلس القاضي. ونهض «جيمس» قليلًا، فقد كان

مسترخيًا في جلسته. ولم تكن لديه فكرة عن بينثام. فقد تعشى معه مرتين في منزل «بوملي توم»، ولم يفصله عنه وهو جالس إلى المائدة غير مدعو واحد. وكان «بوملي توم» في الواقع محاميًا ضئيل الشأن برغم نجاحه الكبير. و«جيمس» هو الذي أعانه في خطوته الأولى. وكان «جيمس» منفعلًا أيضًا، لأنه تبين من توه أن «بوزيني» غير موجود في قاعة الجلسة.

وظل يفكر: «والآن، ماذا يقصد بتخلفه عن الحضور؟».

وعندما نودي الخصمان في القضية نهض «وتربوك» مستشار الملكة، ودفع أوراقه إلى الوراء، وعلق «الروب» على كتفه، وإذ دار بنظرته فيما حوله نصف دورة، كرجل يوشك أن يقذف الكرة بالمضرب، طفق يخاطب المحكمة.

قال إن الوقائع غير متنازع عليها. وكل ما هو مطلوب من سيادة القاضي أن يفسر الرسالة التي بعث بها موكله إلى المُدعى عليه، وهو مهندس مبانٍ، وذلك فيما يتعلق بزخرفة منزل يملكه. وقال إنه يقر بأن الرسالة لا يمكن أن تعني إلا أمرًا واحدًا واضحًا كل الوضوح. وبعد أن سرد في اختصار تاريخ المنزل الذي أقيم في «روبن هل»، والذي وصفه بأنه «قصر»، وبعد أن ذكر وقائع النفقات الفعلية، استرسل في دفاعه على النحو التالي: «إن موكلي السيد «فورسايت» رجل نبيل. صاحب أملاك. إنه آخر من ينازع في قضية عادلة ترفع عليه، ولكنه صادف تصرفات من مهندسه بصدد منزله الذي أنفق في سبيل تشييده، كما سمع سيادة القاضي، مبلغ اثني عشر... اثني عشر ألف جنيه، وذلك المبلغ يزيد كثيرًا عما قدره في الأصل، هذا من حيث المبدأ، وإني لا أستطيع أن ألح في إبراز ذلك، من حيث المبدأ أيضًا، وفي سبيل مصلحة أناس آخرين، صادف تصرفات شعر معها بأنه مضطر إلى رفع هذه الدعوى. وأنا أسترعي نظر سيادتكم إلى أن النقطة التي يرتكز عليها المهندس في دفاعه غير جديرة بالتدبر الجدي لحظة واحدة...».

ثم قرأ الرسالة.

إن موكله، وهو «رجل ذو مكانة مُعترف بها»، مستعد للوقوف أمام حاجز المحكمة، وحلف اليمين على أنه لم يأذن قط، ولم يدر بخلده قط أن يأذن في صرف أي مبلغ يتجاوز الحد الأقصى المتفق عليه، وهو مبلغ اثني عشر ألفًا وخمسين جنيهًا، ذلك المبلغ الذي سبق تحديده في وضوح، ولا داعي لتضييع مدة أخرى من وقت المحكمة، فهو سيدعو السيد «فورسايت» من فوره.

ومضى «سومز» إلى حاجز المحكمة. وكانت هيئته كلها تثير الدهشة بما هي عليه من رباطة الجأش: سواء في ذلك وجهه الشاحب الحليق الذي بدا الآن على قدر من العجرفة، وعيناه اللتان يفصل بينهما خط صغير، وشفتاه المطبقتان، ورداؤه المنسق تنسيقًا لا مبالغة فيه، واكتساء إحدى يديه بقفاز في حين ظلت الأخرى عارية، وقد أجاب عن الأسئلة الموجهة إليه في صوت خافت نوعًا، ولكنه واضح النبرات، وكانت شهادته في أثناء استجوابه تنم عن التحفظ.

ـ ألم يستعمل عبارة «حرية التصرف»؟

ـ لا.

ـ هيا، هيا!

ـ العبارة التي استعملها هي «حرية التصرف في حدود الشروط الواردة في هذه الرسالة».

ـ أيمكن أن تخبر المحكمة هل لغة هذه العبارة إنجليزية؟

ـ نعم!

ـ وما رأيه فيما تعنيه؟

ـ هو ما نصت عليه!

ـ أهو مستعد لإنكار أن هناك تناقضًا في النصوص؟

ـ نعم.

ـ أهو إيرلندي؟

ـ لا.

ـ أهو رجل نال قسطًا وافرًا من التعليم؟

ـ نعم.

ـ ويصر مع ذلك على ما قرره؟

ـ نعم.

وجلس «جيمس» في أثناء هذا الاستجواب الذي ذكرناه ـ والذي طال بعد ذلك كثيرًا، ودار مرة بعد أخرى حول «المسألة القانونية اللطيفة» ـ جلس واضعًا يده وراء أذنه وشاخصًا ببصره إلى ابنه.

كان فخورًا به! ولم يستطع إلا أن يشعر بأنه لو كان في مثل هذه الظروف لأغراه الموقف بأن يتوسع في إجاباته. ولكن غريزته أوحت إليه أن هذا التحفظ هو عين المطلوب. بيد أنه تنفس الصعداء عندما دار «سومز» على مهل، ونزل من منصة الشهادة دون أن يطرأ على تعبير وجهه أي تغيير.

وعندما جاء دور محامي «بوزيني» للمرافعة أمام القاضي ضاعف «جيمس» انتباهه، وعاد يفحص قاعة المحكمة، مرة بعد مرة، ليرى هل «بوزيني» مختبئ هناك في مكان ما.

وبدأ «شانكري» مرافعته وهو في حالة عصبية، وأوقعه غياب «بوزيني» في موقف حرج. وبذل لذلك جهده في تحويل غيابه إلى منفعة.

قال إنه ليس بوسعه إلا أن يخشى وقوع حادث لموكله، فقد كان يتوقع تمامًا حضوره للإدلاء بأقواله. وفي هذا الصباح أرسلوا من يبحث عن السيد «بوزيني» في كل من مكتبه ومنزله على السواء، (وبرغم أنه لم يجهل أن مكتب «بوزيني» ومنزله يجمعهما مكان واحد إلا أنه رأى مع هذا ألا يعلن ذلك)، ولكن لم يعرف أحد أين مكانه، وهو يعد ذلك منذرًا بالسوء لعلمه بمدى لهفة السيد «بوزيني» على الإدلاء بأقواله. ثم إنه لم يتلقَّ، مع ذلك، تعليمات بطلب التأجيل، وعلى هذا فهو يحسب أن من واجبه الاستمرار في مرافعته، والحجة التي استند عليها، شاعرًا ببعض الاطمئنان إليها، والتي لا بد

أن موكله كان سيؤيدها بشهادته لو لم يحل، لسوء الحظ، حائل دون حضوره، هي أن تعبيرًا مثل «حرية التصرف» لا يمكن تحديده وتقييده، وتجريده من معناه بأي حشو من القول يأتي بعد ذلك. وهو يستطيع أن يذهب في دفاعه إلى ما هو أبعد من هذا فيقول إن الرسالة تدل على أن السيد «فورسايت» لم يخطر له قط أن ينكر مسؤوليته عن أي عمل أوصى به مهندسه، أو نفذه. كذلك لم يخطر للمدَّعى عليه قط بالتأكيد إنفاق مثل هذه الزيادة الطارئة في المصروفات، بل إنه، وفقًا لما أبداه في رسائله، لم يكن يرغب قط في مواصلة العمل ـ وهو عمل في غاية الدقة، أداه المهندس في عناية وكفاءة كبيرتين ليرضي ذوق خبير صعب الإرضاء، ذوق رجل واسع الثراء، رجل من أصحاب الأملاك. وركز القول على هذه المسألة تركيزًا شديدًا. ولعله استعمل، في تركيزه هذا، عبارات قوية نوعًا عندما قال إن هذه قضية لا مبرر لها، لم يتوقعها أحد، ولم يسبق لها مثيل حقًّا في طبيعتها. ولو أتيحت لسيادة القاضي فرصة تولي الأمر بنفسه، والذهاب إلى ذلك المنزل البديع، ورؤية أناقته الرائعة، وجمال الزخرفة التي زينه بها موكله ـ وهو فنان بلغ الذروة في مهنته الموقرة ـ فإنه مقتنع بأن سيادة القاضي لن يسمح لحظة واحدة بهذا، وأنه لن يستعمل عبارة أقل قوة من قوله إن المدعي اجترأ على التملص من مسؤوليته القانونية.

وإذ تناول نصوص رسائل «سومز» مس مسًّا خفيفًا قضية «بوالو» ضد شركة «ذي بلاستد سيمنت». وقال: «إني أشك في صحة ما قرره هذا المرجع، وأسلم، على أي حال، بأنه في مصلحتي تمامًا، بقدر ما هو في مصلحة صديقي». ثم أخذ يناقش «المسألة اللطيفة» في دقة، وقرر مع كل المراعاة الواجبة أن عبارة السيد «فورسايت» تبطل نفسها. وبما أن موكله ليس بالرجل الموسر، فالأمر بالنسبة له خطير. إنه، مهندس معماري موهوب جدًّا، وسمعته المهنية معرضة بعض التعرض للخطر. واختتم مرافعته بما هو أقرب إلى الإهابة الشخصية بالقاضي ـ على أساس أنه (أي القاضي)

محب للفنون ـ الإهابة به أن يظهر أنه حامي حمى الفنانين من شر يد رأس المال الحديدية التي تقسو عليهم أشد القسوة عرضًا ـ لقد قال «عرضًا» ـ وقال كذلك: «كيف تكون حال المهن الفنية إذا كان في وسع أصحاب الأملاك من أمثال السيد «فورسايت» أن يرفضوا، ويسمح لهم أن يرفضوا، تنفيذ التزاماتهم المتعلقة بالأعمال التي كلفوا غيرهم القيام بها...». وهو يطلب الآن المناداة باسم موكله إذ يمكن أن يكون قد وجد نفسه قادرًا على الحضور في آخر لحظة.

ونادى حُجاب المحكمة باسم «فيليب بوزيني» ثلاث مرات. وتردد صدى النداء ترددًا ذا كآبة غريبة في قاعة المحكمة وأروقتها.

وأحدث نداء هذا الاسم الذي لم يظفر برد تأثيرًا عجيبًا في نفس «جيمس». وكان أشبه بنداء كلبك الضائع في الطرقات. وأخذ هذا الشعور الذي دب دبيبه ـ الشعور بافتقاد رجل ـ أخذ ينكأ شعور «جيمس» بالراحة والطمأنينة والاستمتاع. لقد شعر بالانزعاج، وإن لم يستطع معرفة السبب في ذلك.

ونظر الآن إلى ساعته، وكانت الساعة قد بلغت الثالثة إلا ربعًا! وسينتهي الأمر كله بعد ربع ساعة، أين يمكن أن يكون هذا الفتى؟

ولم يتخلص من النوبة التي أصابته إلا عندما نطق القاضي بالحكم.

وانحنى القاضي العالم إلى الأمام وراء منصته الخشبية التي احتمى بها من الأميين الذين هم أكثر سوقية. وتساقط النور الكهربي المضاء فوق رأسه مباشرة. تساقط على وجهه، وأشربه لونًا برتقاليًّا بدا واضحًا تحت تاج شعره المستعار الأبيض، وكبرت أمام الأعين سعة ثيابه الرسمية الفضفاضة. وأشعت طلعته بأكملها وهي تواجه الجو المغبر نسبيًّا في قاعة الجلسة، وكأنها جسد جليل مقدس. وتنحنح، ورشف رشفة ماء، وحطم سن قلم ضغطه على مكتبه، وبسط يديه السمينتين أمامه، وبدأ يقرأ الحكم.

ولاح القاضي «بينثام» لـ«جيمس» أكبر بكثير مما يمكن أن يتصوَّر، ومرجع ذلك إلى هيبة القضاء. ولعل الشخص المتسم بطبيعة أقل واقعية

من «جيمس»؛ لعله يعذر إذا هو أخفق في النفاذ من هذه الهالة، واستخرج من ورائها «الفورسايتي» العادي الذي يتجول ويتحدث في الحياة اليومية متخذًا اسم سير «والتر بينثام». وأعلن حكمه الذي تضمن العبارات الآتية:

> الوقائع في هذه الدعوى غير متنازع عليها، ففي يوم ١٥ من مايو الماضي كتب المدعى عليه للشاكي يطلب إليه السماح له بالانسحاب من وضعه المهني الخاص بزخرفة منزل المدعي إلا إذا رضي هذا الأخير بـ«حرية التصرف» في العمل. وفي يوم ١٧ من مايو رد عليه المدعي بما يلي: «وإني إذ أمنحك «حرية التصرف»، بناء على طلبك، أود أن تعلم، دون لبس، أن جملة النفقات التي يستهلكها المنزل حتى يتم تسليمه إليَّ، كامل الزخرفة، بما في ذلك أجرك، ينبغي ألا تتجاوز اثني عشر ألف جنيه. (بحسب ما اتفقنا عليه)». وفي يوم ١٨ من مايو أجاب المدعى عليه بما يلي: «أخشى أن تكون مخطئًا إذا ظننت أني أستطيع تقييد نفسي بحساب الجنيه في مسألة دقيقة كزخرفة منزل». وفي ١٩ من مايو كتب المدعي ما يلي: «إني لم أقصد أن أقول قط إنك إذا تجاوزت في الإنفاق مبلغ عشرين جنيهًا، أو حتى مبلغ خمسين جنيهًا، فسيقع بيننا خلاف على ذلك. وما دام الأمر كذلك فأرجو أن تعيد النظر في إجابتك السابقة. إن لك «حرية التصرف» في الحدود الواردة في رسالتي، وآمل أن تعمل على إتمام الزخرفة». وفي يوم ٢٠ من مايو أجاب المدعى عليه إجابة مختصرة على هذا النحو: «حسنًا جدًّا».
>
> بيد أن المدعى عليه تحمل في إتمامه لهذه الأعمال الزخرفية ديونًا ونفقات ارتفعت بمجموع تكاليف المنزل إلى مبلغ اثني عشر ألفًا وأربعمائة جنيه، وقد سدد المدعي هذه المصروفات ورفع هذه الدعوى ليسترد من المدعى عليه مبلغ ثلاثمائة وخمسين جنيهًا، وهو القدر الزائد على مبلغ الاثني عشر ألفًا وخمسين جنيهًا الذي قرر المدعي أنه حدده في الرسالة على أنه أقصى مبلغ مسموح للمدعى عليه أن ينفقه.

والمسألة التي عليَّ أن أبت فيها هي هل المدعى عليه مسؤول عن رد هذا المبلغ إلى المدعي. وفي رأيي أنه مسؤول عن ذلك.

إن الذي قاله المدعي، في الواقع، هو ما يلي: «إني أطلق يدك في إتمام أعمال الزخرفة هذه بشرط ألا تتجاوز النفقات مبلغ اثني عشر ألف جنيه، فإذا جاوزت هذا الحد بإنفاق مبلغ خمسين جنيهًا مثلًا، فإني لا أعدك مسؤولًا عن ذلك، أما إنفاق ما يزيد على ذلك فإنك لا تمثلني فيه، وأنا أرفض تحمل تبعة ذلك».

والأمر الذي لا يبدو واضحًا في نظري هو هل كان المدعي يحالفه التوفيق فيما إذا رفض تحت وطأة مختلف الظروف تحمل تبعة العقود التي التزم بها وكيله، ولكنه لم يتبع هذه الخطة، وقبل التبعة، وعاد فطالب المدعى عليه بحقوقه وفقًا لشروط التزام هذا الأخير.

وفي رأيي أن للمدعي الحق في استرداد هذا المبلغ من المدعى عليه.

وقد حاول المدعى عليه أن يظهر أنه ليس ثمة مبلغ تحدد في تلك الرسالة أو اتجهت النية إلى تحديده. فإذا كان الأمر كذلك فأنا لا أجد سببًا يدعو الشاكي إلى أن يدون في الرسالة مبلغ الاثني عشر ألف جنيه، ثم مبلغ الخمسين جنيهًا. ومعارضة المدعى عليه تجرد هذه الأرقام من كل معنى. والجلي في نظري، من نص الرسالة المؤرخة باليوم العشرين من مايو، أنه رضي بعرض واضح كل الوضوح من واقع الشروط التي ينبغي له أن يلتزم بها.

ولهذه الأسباب حكمت المحكمة للمدعي بالمبلغ المطالب به مع المصروفات القضائية.

وتنهد «جيمس»، وانحنى فتناول مظلته التي كانت قد وقعت «محدثة صوتًا» على أثر النطق بهذه الكلمات: «أن يدون في الرسالة...».

وبعد حل اشتباك قدميه غادر قاعة المحكمة مسرعًا، واختطف عربة دون أن ينتظر ابنه، (كان عصر ذلك اليوم صافيًا أشهب) ومضى بها رأسًا إلى منزل «تيموثي» حيث وجد «سويذن» وقص عليه، وعلى السيدة «سيبتموس

سمول»، والعمة «هيستر»، جميع إجراءات المحاكمة، وأكل في أغلب فترات التوقف عن حديثه فطيرتين كاملتين.

واختتم الحديث بقوله:

ـ لقد أحسن «سومز» التصرف، وأدار عقله إلى الاتجاه الصحيح، وهذا لن يسر «جوليون»، وهو أمر سيئ بالنسبة لذلك الفتى «بوزيني»، وسيصيبه الإفلاس، وهذا لن يدهشني.

وبعد فترة صمت طويلة كان يشخص خلالها قلقًا إلى نار المدفأة، أضاف:

ـ لم يكن موجودًا هناك، إني لأعجب لماذا لم يحضر؟

وتردد صوت وقع أقدام. وظهرت في الناحية الخلفية من غرفة الاستقبال طلعة رجل بدين، أحمر الوجه، أسمر الشعر، موفور الصحة. وارتسمت سبابة يده المرفوعة على سترته السوداء «الفروك».

وقال في صوت متذمر:

ـ حسنًا، يا «جيمس»، إني لا أستطيع... لا أستطيع أن أبقى.

ودار، وغادر الغرفة.

كان ذلك الرجل «تيموثي».

ونهض «جيمس» من مقعده، وقال:

ـ ها هو ذا! ها هو ذا! كنت أعلم أن هناك شيئًا خطـ...

تمالك جأشه، ولزم الصمت، شاخصًا إلى الأمام كأنه رأى طلعة شؤم.

الفصل التاسع والعشرون

«سومز» يسوق الخبر

لم يتجه «سومز» إلى منزله رأسًا، بعد خروجه من قاعة المحكمة، فقد شعر بصدوف عن المدينة، وقادته، هو أيضًا، حاجته إلى من يشاركه المشاعر في انتصاره. واتخذ طريقه إلى منزل «تيموثي» في شارع «بيزوتر»، ولكنه سلكه سائرًا على قدميه متمهلًا.

وكان أبوه قد انصرف من توه، واستقبلته السيدة «سمول» والعمة «هيستر» ـ وهما ملمتان بالقصة كلها ـ استقبلتاه استقبالًا حارًا. وكانتا متيقنتين من أنه يشعر بالجوع بعد إدلائه بكل تلك الأقوال. ولا بد لـ«سميذر» أن تقدم إليه فطائر أخرى بعد أن أكل أبوه العزيز كل ما كان موجودًا منها. ولا بد له من وضع قدميه على المقعد ليستريح، ومن تناول كأس من خمر البرقوق أيضًا، فهي مقوية جدًا.

وكان «سويذن» لا يزال موجودًا، فقد تأخر عن المعتاد لشعوره بأنه في حاجة إلى الرياضة، «وتململ» إذ سمع اقتراح إحضار المأكل والمشرب، فها هم أولئك شبان وقعوا في ورطة وأخذوا يفيقون منها. وكانت كبده مصابة إلى حد أنه لا يستطيع احتمال فكرة أن أحدًا سواه يشرب خمر البرقوق.

وعلى أثر ذلك تقريبًا انصرف وهو يقول لـ«سومز»:

ـ وكيف حال زوجتك؟ خبرها عني أنها إذا لم تكن متكاسلة، وشاءت أن تحضر وتتعشى معي في هدوء، فإني سأقدم لها زجاجة «شمبانيا» لا تحصل على مثلها كل يوم.

وإذ أطل من أعلى قامته، محملقًا في «سومز»، ضم قبضة يده الغليظة المكتنزة الصفراء وكأنه يعتصر بينها كل هذه التفاهات. وخرج متهاديًا على مهل، ملقيًا بصدره إلى الأمام.

وغادر كلًّا من السيدة «سمول» والعمة «هيستر» وهما مذعورتان، فقد كان «سويذن» غريب التصرف جدًّا!

وكانتا تتوقان إلى سؤال «سومز» كيف ستتلقى «آيرين» نتيجة القضية، بيد أنهما لم تجهلا أنه لا ينبغي لهما ذلك، فهو قد يقول شيئًا بمحض رضاه ليلقي بعض الضوء على هذا الأمر؛ على السؤال الحالي الذي ينفث النار في حياتهما، السؤال الذي يعذبهما عذابًا لا يحتمل بسبب اضطرارهما إلى السكوت. وقد علم حتى «تيموثي» بالأمر الذي كاد أن يكون له تأثير خطير على صحته. ثم ماذا ستفعل «جون» كذلك؟ إن هذه أيضًا عملية مضاربة مثيرة، إن لم تكن خطرة!

وهما لم تنسيا قط زيارة «جوليون الكبير» التي لم يزرهما بعدها مرة واحدة. ولم تنسيا قط الشعور الذي أحدثته هذه الزيارة في نفوس الحاضرين جميعًا، وهو الشعور أن الأسرة لم تعد كما كانت، فهي آخذة في الانهيار.

ولكن «سومز» لم يعنهما أي معونة، إذ جلس واضعًا ساقًا على ساق، متحدثًا عن مدرسة «باربيزون» للرسامين، تلك المدرسة التي وقف عليها أخيرًا. قال إن هؤلاء هم رجال المستقبل، وهو لن يدهشه أن يغدق عليهم المال. وقد استرعت انتباهه لوحتان لرسام يدعى «كوروت»، شيئان ساحران. وإذا استطاع أن يحصل عليهما بثمن معقول فسيقدم على شرائهما، وهو يرى أنهما ستساويان ثمنًا غاليًا في يوم من الأيام.

ولم تستطع السيدة «سيبتموس سمول»، لا، ولا العمة «هيستر» ـ وهما تبديان من الاهتمام ما لا يمكن إلا أن تبدياه ـ لم تستطيعا أن ترضيا كل الرضا بمماطلته لهما على هذا النحو.

إن هذا مثير للاهتمام ـ مثير للاهتمام إلى أقصى حد ـ ثم إن «سومز» بارع إلى حد أنهما كانتا واثقتين من أنه سيحصل على شيء ما من هاتين الصورتين إذا استطاع أي إنسان ذلك، ولكن ما هي خطته الآن وقد كسب الدعوى؛ أسيترك لندن من فوره، ويقيم في الريف، أم ماذا تراه صانعًا؟

وقال «سومز» إنه لا يدري ماذا سيصنع، ولكنه يظن أنهما سينتقلان إلى المنزل الريفي قريبًا. ونهض وقبَّل عمتيه.

وما تلقت العمة «جولي» هذا الشاهد على اعتزامه الرحيل حتى طرأ عليها تغير مفاجئ، وكأنما أصابتها شجاعة رهيبة. وبدا أن كل بضعة لحم في وجهها تحاول أن تتملص من النقاب الخفي الذي يحجبها.

ونهضت رافعة قامتها إلى أقصى طولها الذي يزيد على الطول المتوسط وقالت:

ـ كان في نيتي أن أفضي بشيء منذ زمن طويل يا عزيزي، وإذا لم يكن هناك أحد سواي يفضي به، فقد استقر رأيي على...

وقاطعتها العمة «هيستر» قائلة:

ـ حذارِ يا «جوليا»... إنك تقولين ذلك...

وتنهدت بقوة وأردفت:

ـ على مسؤوليتك الشخصية.

وواصلت السيدة «سمول» القول وكأنها لم تسمع شيئًا:

ـ أحسب أنه ينبغي لك أن تعلم يا عزيزي أن السيدة «ماكاندر» رأت «آيرين» تسير مع «بوزيني» في «ريتشموند بارك».

وتساقطت العمة «هيستر» على مقعدها، وكانت قد نهضت قبل ذلك هي أيضًا، وأشاحت بوجهها. حقًّا إن «جولي» قد بالغت في الأمر جدًّا، وما كان

ينبغي أن تقدم على مثل هذه الأمور وهي ـ أي العمة «هيستر» ـ موجودة في الغرفة، وانتظرت، مقطوعة الأنفاس، ما سيقوله «سومز».

واحمر «سومز» ذلك الاحمرار الخاص الذي يتركز دائمًا بين عينيه، ورفع يده كأنه يريد أن يتخير إصبعًا من أصابعها، وعض ظفرًا من أظافره عضة رقيقة؛ ثم قال متحدثًا في بطء من بين شفتيه المطبقتين:

ـ السيدة «ماكاندر» حاقدة كهرَّة!

وغادر الغرفة دون أن ينتظر جوابًا.

وكان عند ذهابه إلى منزل «تيموثي» قد عقد العزم على الخطة التي سيتبعها لدى وصوله إلى بيته، سيذهب إلى «آيرين» ويقول لها:

«حسنًا، إني كسبت قضيتي، وانتهى الأمر! ولست أريد أن أقسو على «بوزيني»، وسأرى إذا كنت أستطيع أن أصل معه إلى اتفاق ما، إني أضغط عليه. ودعينا الآن نفتح صفحة جديدة، سنبحث عن مستأجر لهذا المنزل ونخرج من ذلك الضباب، وننتقل من فورنا إلى «روبن هل». إني ـ إني لم أقصد قط أن أغلظ في معاملتك! لنتصافح... و...».

ولعلها ترضى أن يقبِّلها، وتنسى!

وعندما خرج من منزل «تيموثي» لم تعد نيته في مثل تلك البساطة، فالغيرة والشك المتأججان اللذان داما شهورًا تعالى لهيبهما بين جوانحه. فهو سيضع حدًّا قاطعًا لمثل هذا الأمر، وسيمنعها من جر سمعته إلى مواطن الدنس. وهي إذا لم تستطع أن تحبه، أو لم تشأ أن تحبه وفقًا لما يقتضيه واجبها، وحقه عليها، فينبغي لها ألا تخدعه مع رجل غيره! إنه سيحملها المسؤولية! ويهددها بالطلاق، وسيرغمها تهديده على تقويم سلوكها، فهي لا تستطيع أن تواجه ذلك التهديد. ولكن... ولكن، كيف يكون الأمر فيما إذا استطاعت مواجهته؟ وترنَّح، إن ذلك لم يخطر له ببال. كيف يكون الأمر إذا استطاعت مواجهته؟ كيف يكون الأمر لو اعترفت؟ وكيف يكون موقفه إذن؟ سيضطر إلى الطلاق!

الطلاق! إن كانت النهاية هكذا، فهذه الكلمة تورث الشلل. إنها تختلف أشد الاختلاف عن جميع المبادئ التي هدته في حياته، وهاله افتقارها إلى التفاهم، وأحس كأنه ربان سفينة يمضي إلى أحد جانبيها، ويلقي في اليم أثمن بضائعه. وبدا لـ«سومز» أن إلقاءه ما يملك في اليم بيديه أمر بعيد عن الفطنة، ويسيء إلى سمعته في مهنته. وعليه أن يتخلص من المنزل الذي يقع في «روبن هل»، والذي أنفق في سبيله كل هذا المال الوفير، وتوقع منه الكثير، وبذل تضحية. وهي! إنها لن تظل منتمية إليه حتى باسمها! ستخرج عن نطاق حياته، وهو... إنه لن يراه بعد ذلك أبدًا!

واخترق في العربة شارعًا بطوله دون أن يتخطى فكرة أنه لن يراها بعد ذلك أبدًا!

بيد أنه قد لا يكون ثمة شيء تعترف به، والأرجح حتى الآن، أنه ليس ثمة شيء تعترف به. فهل من الحكمة أن يدفع الأمور إلى ذلك الحد البعيد؟ هل من الحكمة أن يضع نفسه في موضع قد يتراجع فيه عن قوله؟ إن ما يترتب على هذه القضية سيدمر «بوزيني»، والرجل الذي يصيبه الدمار يستميت، أي شيء يستطيع أن يصنعه؟ لعله يسافر إلى الخارج، فالذين يصيبهم الدمار يرحلون دائمًا إلى الخارج. ماذا «يستطيعان» أن يصنعا إذا «هما» أقدما على السفر فعلًا، دون أن يكون معهما مال؟ خير له أن ينتظر ويرى على أي نحو ستنقلب الأمور. وهو يستطيع، إذا اقتضت الحال، أن يضعها تحت المراقبة.

وعاوده إيلام الغيرة، (وهو على الإطلاق كالشدة المتولدة من ألم الضرس) وكاد يصرخ. ولكن عليه أن يستقر على رأي، ويحدد منهجًا ما للعمل قبل الوصول إلى بيته. بيد أن العربة وصلت إلى الباب دون أن يقرر شيئًا.

ودخل شاحب الوجه، مبتل اليدين بالعرق، متوجسًا من لقائها، متلهفًا عليه، جاهلًا ما سيقول أو سيفعل.

وكانت الخادمة «بيلسون» في الردهة. وإذ سألها: «أين سيدتك؟» أجابته أن السيدة «فورسايت» غادرت المنزل قرب الظهر. وأخذت معها صندوقًا وحقيبة.

وجذب كم معطفه الوبري من قبضتها، وتصدى لها صائحًا:

ـ ماذا؟ ما هذا الذي قلته؟

وأضاف إذ تذكر بغتة أن عليه ألا يفضح مشاعره:

ـ أي رسالة تركتها لتبلغيها إليَّ؟

ولاحظ وهو يشعر بخوف خفي نظرة الذعر البادية في عيني الخادمة:

ـ السيدة «فورسايت» لم تترك أي رسالة يا سيدي.

ـ لم تترك رسالة؛ حسنًا جدًّا. شكرًا. في هذا الكفاية. إني سأتعشى خارج المنزل.

ونزلت الخادمة إلى الدور السفلي، بعد أن غادرته وهو لا يزال يرتدي معطفه الوبري، ويقلب بطاقات الزيارة الموضوعة في آنية خزفية قائمة على صندوق في الردهة، مصنوع من خشب البلوط الغليظ المنقوش:

السيد والسيدة «باريهام كولتشر». السيدة «سيبتموس سمول». السيدة «بينز». السيد «سولومون ثورنورذي». السيدة «بيليس». الآنسة «هيرميون بيليس». الآنسة «وينيفريد بيليس». الآنسة «إيلا بيليس».

بحق الشيطان من هم أولئك الناس جميعًا؟ لقد بدا أنه نسي كل الأشياء المألوفة. كانت الكلمات «ليست هناك رسالة» «صندوق وحقيبة» تلعب في ذهنه لعبة «المداورة». من غير المعقول أنها لم تترك أي رسالة، وجرى صاعدًا إلى الدور العلوي وهو لا يزال يرتدي معطفه الوبري، وطوى في وقت واحد كل درجتين قفزًا على نحو ما يفعل الشاب المتزوج عندما يعود إلى بيته ويصعد راكضًا إلى غرفة زوجته.

كان كل شيء أنيقًا ناضرًا، طيب الرائحة. كان كل شيء مرتبًا أتم ترتيب. وبدا على الفراش الكبير المكسو بغطاء حريري لازوردي ذلك الكيس

الذي صنعته وطرزته بيديها لتضع فيه متعلقات المنام. وثوى «شبشبها» على استعداد عند أسفل السرير. بل حتى الأغطية بدت عند الرأس مقلوبة الأطراف كأنما هي في انتظارها.

وقامت على المنضدة فرش للأسنان مموَّهة بالفضة، وزجاجات خاصة بحقيبة زينتها. وهذه الأدوات كلها هدايا منه إليها. لا بد أن خطأ ما قد حدث، فأية حقيبة أخذتها؟ ومضى إلى الجرس لاستدعاء «بيلسون»، ولكنه تذكر في الوقت المناسب ألا بد له من أن يتظاهر بأنه يعرف المكان الذي ذهبت إليه «آيرين»، ويتلقى المسألة على أنها أمر طبيعي، ويستخلص بنفسه معنى ما حدث.

وأغلق عليه الباب، وحاول التفكير، ولكنه شعر بأن ذهنه يدور، ولم تلبث الدموع أن غشيت عينيه قسرًا عنه.

ونظر إلى نفسه في المرآة وهو يخلع معطفه على عجل.

كان شديد الشحوب، وعم وجهه كله لون أشهب، وصب الماء، وشرع يغسل وجهه محمومًا.

وكانت تفوح من فرشاة أسنانها المموهة بالفضة رائحة مخففة من نوع العطر الذي تدهن به شعرها، وما شم هذه الرائحة حتى عاد سقم الغيرة الحارق فأنشب فيه أظفاره.

ولبس معطفه الوبري، وهبط السلم، وخرج إلى الشارع ركضًا.

ولم يفقد، مع ذلك، سيطرته على نفسه كلية. وبينما هو يجتاز شارع «سلون» أخذ يبتدع حجة يتذرع بها في حال عدم عثوره عليها عند «بوزيني». ولكن ماذا يكون الأمر لو وجدها هناك؟ وعادت قدرته على اتخاذ قرار فأخفقت من جديد. ووصل إلى المنزل دون أن يعرف ماذا يصنع لو وجدها هناك. وكان وقت العمل قد فات، والباب الخارجي لمكتب «بوزيني» مغلقًا. ولم تعرف المرأة التي فتحت له الباب هل «بوزيني» موجود أم لا: فهي لم تره في ذلك اليوم. بل لم تره منذ يومين

أو ثلاثة؛ وهي لا تقوم على تدبير شؤونه الآن. ولا يقوم أحد آخر بذلك. فهو...

وقطع عليها «سومز» حديثها. فهو لا بد أن يصعد ويرى بنفسه ما هنالك. وصعد شاحب الوجه صارمه.

وكانت الشقة العليا غير مضاءة، وبابها مغلقًا. ولم يرد أحد على دقة الجرس، ولم يتمكن من أن يسمع صوتًا. واضطر إلى النزول وهو يرتجف تحت معطفه الوبري، والبرد القارس ينفذ إلى قلبه. ونادى عربة. وطلب إلى السائق أن يقله إلى «بارك لين».

وحاول في أثناء الطريق أن يتذكر آخر مرة أعطاها «شيكًا»، لا يمكن أن يكون معها أكثر من ثلاثة جنيهات أو أربعة. ولكن هناك «مجوهراتها». وذكر وهو يشعر بعذاب مروع كم مبلغ المال الذي تستطيع أن تحصل عليه ثمنًا لها. إنه يكفي لسفرهما إلى الخارج، يكفي لنفقتهما مدة أشهر! وحاول أن يحسب حساب ذلك. ووقفت العربة. ونزل دون أن يتم حسابه.

وسأله الخادم هل السيدة «سومز» في العربة. فقد سبق أن قال له سيده (جيمس) إنهما سيتناولان العشاء في المنزل.

وأجاب «سومز»:

ـ لا، فالسيدة «سومز» مصابة ببرد.

وأسف الخادم.

وخيل إلى «سومز» أنه ينظر إليه متفحصًا؛ وسأله بعد أن تذكر أنه لا يرتدي ثياب السهرة.

ـ أهنا ضيوف سيتناولون العشاء يا «ورمسون»؟

ـ لا يا سيدي، ما عدا السيد والسيدة «دارتي».

وخيل إلى «سومز» ثانية أن الخادم ينظر إليه في فضول، فاختل اتزانه. وقال:

ـ إلى أي شيء تنظر؟ ماذا دهاك، هيه؟

واحمر وجه الخادم، وعلق المعطف الوبري على المشجب، وغمغم شيئًا أشبه بقوله: «لا شيء يا سيدي، أنا واثق ألا شيء يا سيدي». وانصرف متسللًا.

وصعد «سومز» إلى الدور العلوي. ومر على غرفة الاستقبال دون أن يلقي نظرة، وصعد رأسًا إلى مخدع أبويه.

وبينما «جيمس» يقف إلى جانب، مرتديًا قميص نومه وصدريته اللتين حسَّنتا الخطوط المقوَّسة لجسمه الطويل النحيل، منحني الرأس، وطرف رباطه الأبيض يطل منحرفًا من تحت شاربه الأبيض «الدندرياري»، وعيناه تحدجان بنظرهما في تركيز شديد، وشفتاه مكشرتان، كان يوثق مشابك مشد زوجته. وتوقف «سومز»، وشعر ببعض الاختناق إما لأنه صعد في السلم بسرعة شديدة، وإما لسبب آخر. وهو لم يُطلب إليه... لم يُطلب إليه قط أن...

وسمع صوت أبيه يقول، وكأن شوكة يغص بها حلقه: «من هذا؟ من هناك؟ ماذا تريد؟». وسمع صوت أمه يقول: «تعالي هنا يا «فيليس»، واشبكي لي هذا، فسيدك لن يتمكن من شبكه أبدًا».

ورفع يده إلى حلقه. وقال بصوت أجش:

ـ إني أنا... «سومز»!

ولاحظ دهشة «إميلي» العطوف حامدًا لها ذلك:

ـ حسنًا يا ولدي العزيز!

وقول «جيمس»، وقد سقط منه المشبك:

ـ ماذا! «سومز»! ماذا جاء بك؟ ألست في صحة جيدة؟

وأجاب على نحو آلي:

ـ أنا بخير.

ونظر إليهما وبدا أن الإدلاء إليهما بالنبأ مستحيل.

وكان «جيمس» سبَّاقًا إلى الشعور بالخطر، وبدأ يقول:

ـ لا يبدو عليك أنك بخير. أحسبك أصبت ببرد. إنها الكبد، ولن أعجب لذلك، وستعطيك أمك...

مكتبة
t.me/soramnqraa

ولكن «إميلي» تدخلت في هدوء:

ـ هل اصطحبت «آيرين»؟

وهز «سومز» رأسه، وتمتم:

ـ لا، إنها... إنها هجرتني!

وتركت «إميلي» المرآة التي كانت واقفة أمامها، وفقدت طلعتها الفارعة الممتلئة جلالها، وتحولت إلى امرأة متدفقة الإنسانية وهي تقبل على «سومز» راكضة:

ـ يا بني العزيز! يا بني العزيز!

ووضعت شفتيها على جبينه، وربتت على يده.

كذلك دار «جيمس» إلى «سومز» وبدا وجهه أكبر سنًّا. وقال:

ـ هجرتك؟ ماذا تعني... أهجرتك! إنك لم تخبرني قط أنها ستهجرك.

وأجاب «سومز» في تأكيد:

ـ وكيف كنت أستطيع أن أعرف! وما العمل؟

وأخذ «جيمس» يسير جيئة وذهابًا، وبدا وهو من غير سترة، غريب الهيئة شبيهًا باللقلق. وغمغم:

ـ ما العمل! وما أدراني ما العمل؟ وأية فائدة ترجى من توجيه السؤال إليَّ؟ ما من أحد يفضي إليَّ بشيء، ثم يأتي الجميع ويسألونني ما العمل؛ إني أود أن أعلم كيف يتسنى لي أن أخبرهم! ها هي ذي أمك إنها تقف هناك ولا تقول شيئًا، والذي ينبغي أن أقوله هو أن عليك أن تتبعها.

وابتسم «سومز»، ولم تكن ابتسامته الخاصة المتعجرفة تبدو قط من قبل مثيرة للشفقة. وقال:

ـ أنا لا أعرف أين ذهبت.

وقال «جيمس»:

ـ لا تعرف أين ذهبت! ماذا تعني بقولك إنك لا تعرف أين ذهبت؟ وإلى أي مكان تظن أنها ذهبت؟ إنها مضت في أثر «بوزيني»، هذا هو المكان الذي ذهبت إليه، وأنا لم أكن أجهل على أي نحو سينقلب الأمر.

وفي أثناء مدة الصمت الطويلة التي أعقبت ذلك شعر «سومز» بيد أمه تضغط يده. وبدا له أن كل ما حدث كأنما حدث وهو غير قادر على التفكير والعمل.

واختلج وجه أبيه الأحمر المغبر كأنما هو يوشك أن يبكي، وتفجرت منه كلمات بدت كأنها تنشق عن بعض تشنجات روحه.

ـ ستحدث فضيحة؛ لقد قلت ذلك دائمًا.

وأردف عندما لم يقل أحد شيئًا:

ـ وأنتما تقفان هكذا أنت وأمك!

وقالت «إميلي» بصوت هادئ، أميل إلى الامتعاض:

ـ كفى الآن يا «جيمس»! سيصنع «سومز» كل ما في وسعه.

وقال «جيمس» وهو يشخص إلى الأرض، منكسر النفس قليلًا:

ـ حسنًا... إني لا أستطيع مساعدتك، فالسن تتقدم بي. لا تندفع في تسرع شديد يا ولدي.

وتردد صوت أمه من جديد:

ـ سيبذل «سومز» ما في وسعه ليردها ثانية، وهو لن يتحدث في ذلك. وأنا على يقين من أن كل شيء سينتهي نهاية حسنة.

وقال «جيمس»:

ـ حسنًا، أنا لا أرى كيف يمكن أن ينتهي كل شيء نهاية حسنة. وإذا هي لم تكن قد رحلت مع ذلك الفتى «بوزيني»، فنصيحتي إليك ألا تعيرها أذنًا مصغية، ولكن عليك أن تتبعها وتردها إليك.

وشعر «سومز» مرة ثانية بيد أمه تربِّت على يده، علامة على موافقتها، وغمغم من بين أسنانه، وكأنه يردد صيغة ما من قسم مقدس: «سأفعل ذلك!».

ونزل ثلاثتهم معًا إلى غرفة الاستقبال. وكانت الفتيات الثلاث قد اجتمعن هناك مع «دارتي». ولو أن «آيرين» حضرت أيضًا لاكتملت حلقة الأسرة.

وغاص «جيمس» في مقعده ذي الذراعين، والتزم الصمت حتى أعلن موعد العشاء، باستثناء كلمة تحية قالها لـ«دارتي» الذي يزدريه ويخشاه على نحو خليق دائمًا برجل تعوزه النقود. والتزم «سومز» الصمت أيضًا. وانفردت «إميلي» ـ وهي امرأة ذات شجاعة هادئة ـ بمواصلة حديث مع «وينيفريد» عن موضوعات تافهة، وهي لم تكن متمالكة الجأش في سلوكها وحديثها يومًا ما على نحو ما كانت عليه هذا المساء.

وكانوا قد انتهوا إلى قرار محصله ألا يتحدث أحد عن فرار «آيرين»، بيد أن أحدًا منهم لم يدلِ برأي عن الخطة المثلى التي ينبغي اتباعها. ولم يكد يشك أحد ـ كما يستخلص من اللهجة التي اتخذوها فيما يتعلق بحديثهم عن الأمور وهي تتحول إلى ما تحولت إليه فيما بعد ـ في أنهم اعتبروا نصيحة «جيمس» سليمة، وهي: «لا تعر ما تقوله لك أذنًا مصغية، اتبعها، وردها إليك»، مع استثناء هنا، واستثناء هناك. ولم يحدث ذلك في «بارك لين» وحسب، ولكن حدث كذلك بين أعضاء أسرة «نيكولاس»، وأسرة «روجر»، وفي منزل «تيموثي».

وكان هذا الرأي بالذات سينتقل إلى جماعة «الفورسايتيين» الأكثر عددًا في مختلف أرجاء لندن، بيد أن تلك الجماعة امتنع عليها إصدار حكمها نظرًا لأنها تجهل الموضوع.

ومن ثم قدم «ورمسون» ومساعده العشاء خلال صمت يكاد يكون تامًّا، برغم ما بذلته «إميلي» من جهود. وظل «دارتي» عابسًا، وشرب من الخمر أكبر كمية وصلت إليها يده. ونادرًا ما كانت هؤلاء الفتيات يتبادلن الحديث في أي وقت من الأوقات. وسأل «جيمس» ذات مرة عن «جون»، وبم تشغل نفسها في هذه الأيام. ولم يتيسر لأحد أن يجيبه عن سؤاله، وعاد فاستغرق

في تجهمه. ولم يتهلل وجهه إلا عندما حكى «وينيفريد» عن «بابليوس» الصغير كيف أنه منح مستجديًا قرشًا مزيفًا. وقال عندئذ:

ـ آه! إنه طفل صغير حاذق. ولست أدري كيف تصبح حاله إذا سار على هذا المنوال. إني أسميه طفلًا صغيرًا ذكي الفؤاد!

ولكن ذلك لم يكن إلا ومضة عابرة.

وتعاقبت أصناف الطعام في جو من الوقار تحت الأضواء الكهربية التي سطعت فوق المائدة، ولكنها لم تكد تبلغ تحفة الزينة الرئيسية المعلقة على الحائط، وهي اللوحة المدعوة «قطعة من البحر» المرسومة بريشة «تيرنر»، وهي تكاد لا تتألف إلا من جبال وأناس يشرفون على الغرق. وقدمت «الشمبانيا»، ثم زجاجة من نبيذ «بورتو» المعتَّق الذي يرجع به العهد إلى ما قبل التاريخ، ولكن بدا كأن يدًا باردة لهيكل عظمي هي التي تقدمه.

وغادر «سومز» البيت في الساعة العاشرة، وقال ردًّا على الأسئلة الموجهة إليه إن «آيرين» ليست بخير؛ وشعر بأنه لا يستطيع أن يثق بنفسه أكثر من ذلك. وقبلته أمه قبلتها الكبيرة الرقيقة. وشد هو على يدها، واصطبغت وجنتاه باحمرار من الحمية. ومضى إلى سبيله في مهب ريح باردة تصفر صفيرًا كئيبًا في أركان الشوارع تحت قبة سماء ذات زرقة صافية كزرقة الصلب، وذات حيوية بنجومها المتلألئة؛ ولم يلاحظ تحية النجوم الثلجية، لا، ولا خشخشة الأوراق المتموجة على شجر الدلب، ونساء الليل السائرات على عجل في معاطف فراء رثة، ووجوه المتشردين المنقبضة وهم قابعون في أركان الشارع. لقد حل الشتاء! ولكن «سومز» سار مسرعًا إلى بيته ذاهلًا عما حوله. وارتجفت يده وهو يتناول الخطابات الأخيرة من القفص السلكي المذهب الذي تلقى إليه الرسائل من شق بالباب.

ولم تكن هناك رسالة من «آيرين».

دخل غرفة الطعام، وكانت النار ساطعة هناك، ومقعده مزحزحًا إلى ناحيتها، «وشبشبه» معدًّا، وصندوق الخمر، وعلبة «السجائر» المنقوشة،

موضوعين على المائدة. ولكنه أطفأ النور بعد أن حدق فيما حوله دقيقة واحدة فحسب، وصعد إلى الدور العلوي.

وكانت هناك نار موقدة أيضًا في غرفة تبديل الملابس، ولكن غرفتها «هي» كانت مظلمة باردة، وهذه الغرفة الأخيرة هي التي دخلها «سومز».

وأنارها بالشموع إنارة شديدة. وظل مدة طويلة يذرع الغرفة رائحًا غاديًا فيما بين السرير والباب. ولم يستطع أن يتعود فكرة أنها هجرته حقًّا. وبدأ يفتح كل مأوى وكل درج، وكأنه لا يزال يبحث عن رسالة ما، أو عن سبب ما، أو استقراء لأسرار حياته الزوجية جميعها.

كانت ملابسها هناك ـ وكان يعجبه منها دائمًا أن تحرص على الاعتناء بهندامها، ويلح عليها في ذلك فعلًا ـ إنها لم تأخذ إلا عددًا قليلًا جدًّا من ثيابها، ثوبين أو ثلاثة على أكثر تقدير، فالأدراج كانت ملأى، درجًا بعد درج، بأنسجة تيلية وحريرية لم تمسسها يد.

ولعل الأمر لم يكن، بعد كل هذا، إلا نزوة عارضة جعلتها ترحل إلى شاطئ البحر لقضاء بضعة أيام تغييرًا للجو. ولو أنه ليس ثمة شيء غير هذا، وأنها ستعود حقًّا، فهو في هذه الحالة لن يرتكب أبدًا ما ارتكبه في تلك الليلة المشؤومة السابقة على ليلة أمس، ولن يقدم على تلك المجازفة ثانية ـ برغم أن ما ارتكبه يدخل في نطاق واجبها كزوجة، وبرغم أنها تخصه هو ـ إنه لن يقدم على تلك المجازفة أبدًا، فهي ـ كما هو واضح ـ ليست متمتعة بقواها العقلية تمامًا!

ومال على الدرج الذي تحتفظ فيه بمجوهراتها، ولم يكن مغلقًا، وطاوعه عندما سحبه. ووجد مفتاح صندوق المجوهرات في قفله، وأدهشه ذلك إلى أن تذكر أنه لا بد فارغ دون ريب، وفتحه.

وكان الصندوق بعيدًا عن أن يكون فارغًا، فجميع الأشياء التي أعطاها إياها كانت مجزأة في أقسام صغيرة من الصندوق، مكسوة بالمخمل الأخضر، حتى ساعتها كانت موجودة.

وظهرت في القسم المخصص لها رسالة مثبتة هناك، مطوية على شكل مثلث الزوايا، ومكتوب عليها بخط يد «آيرين»: «سومز فورسايت». وجاء بها: «أظن أني لم آخذ معي شيئًا مما أعطيته لي، أو أعطاه لي أهلك». وكان ذلك هو كل شيء.

ونظر إلى المشابك، وإلى الأساور المرصعة بالماس واللؤلؤ، وإلى الساعة الذهبية الصغيرة المسطحة ومجموعة ماسها الكبيرة المحاطة بفصوص الياقوت، وإلى السلاسل والخواتم حيث كل منها موضوع في موضعه. وعندئذ اندفعت الدموع إلى عينيه. وتساقطت على المجوهرات.

ولم يكن ثمة شيء تستطيع أن تصنعه، أو شيء صنعته، يكشف له على هذا النحو معنى فعلتها الخفي. ولعله، في هذه اللحظة، كاد يدرك كل ما يتطلب الإدراك، كاد يدرك أنها كرهته، بل ظلت تكرهه عدة سنوات؛ وأنهما، في مختلف نياتهما ومقاصدهما، أشبه بإنسانين يعيشان في عالمين مختلفين، وأنه لم يعد له أي أمل، ولم يكن له قط أي أمل، حتى برغم أنها كابدت العذاب، وحالتها قمينة بالشفقة عليها.

وفي لحظة الانفعال هذه خان «الفورسايتي» طبيعته الكامنة في أعماقه ـ نسي نفسه، ومصالحه، وأملاكه ـ وكاد يصبح قادرًا على أي شيء، لقد ارتفع إلى الأثير النقي لإنكار الذات وإنكار النفعية.

وهذه اللحظات تمر سراعًا.

ونهض كأنه طهَّر نفسه من ضعفها بالدموع. وأغلق الصندوق. وحمله في بطء. وهو يكاد يرتعش. ودخل به الغرفة الأخرى.

الفصل الثلاثون

انتصار «جون»

كانت «جون» تنتظر حظها، متفرسة، صباحًا ومساء، في أشد أعمدة الصحف سماجة، وثابرت على ذلك مثابرة حيَّرت «جوليون الكبير» في بادئ الأمر. وعندما واتاها الحظ تلقفته بكل ما يتصف به خلقها من شدة العناد وثباته.

وستظل تذكر طوال حياتها ـ أكثر مما تذكر أي شيء آخر ـ ذلك الصباح الذي رأت فيه، آخر الأمر، نبأ قضية «فورسايت» ضد «بوزيني» منشورًا في جريدة «التايمز» ضمن جدولها الموثوق به، الخاص بالأنباء القضائية. وقد ورد هذا النبأ تحت عنوان «الدائرة الثالثة عشرة» المنعقدة برئاسة القاضي «بينثام».

واستعدت أن تخاطر بكل شيء في رمية الميسر هذه، كما يجازف المقامر بآخر قطعة نقود لديه. ولم يكن من طبعها أن تفكر في الهزيمة. ولا يمكن معرفة كيف علمت بأن إخفاق «بوزيني» في الدعوى أمر مؤكد، اللهم إلا أن يكون مرجع ذلك إلى غريزة المرأة عندما تحب، وعلى أساس هذا الافتراض بنت مع ذلك خططها كما لو أنها تبنيها على شيء مؤكد.

وفي منتصف الساعة الحادية عشرة كانت «جون» تقف مترقبة في رواق الدائرة الثالثة عشرة، وظلت هناك حتى انتهت المحكمة من نظر قضية

«فورسايت» ضد «بوزيني». ولم يثر غياب «بوزيني» جزعها، فقد أحست بالفطرة أنه لم يدافع عن نفسه، ونزلت من المحكمة على عجل، بعد انتهاء المحكمة، واستقلت عربة مضت بها إلى مسكنه.

ومرت من باب الشارع المفتوح، كما مرت من أمام مكاتب الأدوار الثلاثة السفلى، دون أن تلفت نظر أحد. ولم يبدأ ما واجهته من صعوبات إلا عند بلوغ الدور الأخير.

ولم يجبها أحد على دق الجرس، وأصبح عليها أن تقرر أتنزل إلى الدور السفلي، وتسأل هناك البواب أن يدعها تدخل وتنتظر عودة السيد «بوزيني»، أم تبقى صابرة خارج بابه، واثقة من أن أحدًا لن يصعد إليها؟ وقررت أن تسلك المسلك الأخير.

ومضت عليها مدة ربع ساعة وهي تجلس على عتبة السلم، في انتظار تجمد له الأطراف. مضت هذه المدة قبل أن يخطر لها أن «بوزيني» اعتاد ترك مفتاح منزله تحت بساط الباب، وبحثت عنه فوجدته هناك، وأمضت بضع دقائق قبل أن تستطيع عقد عزمها على استعماله، وسمحت لنفسها بالدخول آخر الأمر، وتركت الباب مفتوحًا حتى يستطيع من يحضر أن يتبيَّن أنها جاءت في مهمة.

إنها ليست «جون» نفسها التي قامت بتلك الزيارة المضطربة منذ خمسة أشهر، فهذه الأشهر الخمسة، أشهر العذاب وكبح النفس، جعلتها أقل حساسية. وقد ظلت مدة طويلة عاكفة على التفكير في هذه الزيارة، مدققة أشد التدقيق إلى حد أن مخاوف تلك الزيارة استبعدت من قبل، وهي لم تذهب إلى هناك الآن لتخفق هذه المرة أيضًا، لأن أحدًا لن يستطيع معاونتها إذا هي أخفقت.

ولم يظل جسمها الدقيق النشط ساكنًا لحظة واحدة في تلك الغرفة، ولكنه كبعض إناث الحيوان في رقابتها لأبنائها، جعل يهيم من حائط إلى حائط، ومن نافذة إلى باب، وكانت تلمس بإصبعها هذا الشيء مرة، وذاك

الشيء مرة أخرى. وكان الغبار متراكمًا في كل مكان بحيث لا يمكن أن تكون يد التنظيف قد امتدت إليه منذ أسابيع. ورأت «جون» ـ وهي سريعة إلى إدراك أي شيء يمكن أن ينعش أملها ـ رأت في ذلك دليلًا على أنه، في سبيل الاقتصاد، اضطر إلى الاستغناء عن خادمه.

وأطلت على غرفة النوم، ووجدت سرير النوم مفروشًا على نحو غير متقن، وكأنما فرشته يد رجل. وبعد أن أرهفت أذنيها، اندفعت إلى الغرفة، ونفذت ببصرها إلى خزائن حاجياته، ولم يكن هناك إلا بضعة قمصان وأطواق، وحذاء ملوث بالطين، كانت الغرفة خالية حتى من المفروشات.

وارتدت منسلة إلى غرفة الجلوس، ولاحظت الآن غياب جميع الأشياء الصغيرة التي زينت بها تلك الغرفة. فالساعة التي كانت مملوكة لأمه، والمنظار المكبر الذي كان معلقًا فوق المقعد المستطيل، وكتابان قديمان، ثمينان حقًا، من كتب جامعة «هارو» التي تلقى أبوه العلم بها، وأخيرًا وليس آخرًا، تلك القطعة الخزفية اليابانية التي أهدته إياها هي نفسها، كل هذه الأشياء توارت. وبرغم الغيظ الذي أثارته في نفسها الجياشة بالنخوة فكرة معاملة الدنيا له على هذا النحو، فإن اختفاء هذه الأشياء جعلها تتفاءل تفاؤلًا سعيدًا بنجاح خطتها.

وبينما كانت تنظر إلى المكان الذي كانت التحفة الخزفية اليابانية موضوعة فيه شعرت في يقين غريب بأن أحدًا يرقبها، ولما دارت رأت «آيرين» عند الباب المفتوح.

ووقفتا صامتتين مدة دقيقة، وكل منهما تحدق في الأخرى. ثم تقدمت «جون» ومدت يدها، بيد أن «آيرين» لم تصافحها.

ووضعت «جون» يدها خلف ظهرها، عند رفض مصافحتها، وشخصت عيناها غضبًا. وانتظرت من «آيرين» أن تتكلم. وبينما هي تنتظر على هذا النحو أخذت تستوعب ـ ومن يدري أي سورة من الحنق والغيرة والارتياب والفضول تملكتها عندئذ ـ أخذت تستوعب كل دقائق وجه صاحبتها وردائها وقامتها.

كانت «آيرين» ترتدي معطفها الوبري الرمادي الطويل. وانحسرت قبعة السفر الموضوعة على رأسها عن خصلة شعر ذهبية بادية فوق جبهتها. وكانت ضخامة معطفها الناعم قد جعلت وجهها يبدو صغيرًا كوجه طفل.

ولم تصطبغ وجنتاها بأي لون ـ على عكس وجنتي «جون» ـ ولكنهما كانتا في لون العاج الأبيض، وانقبض جلدهما كأنما ذلك بفعل البرد، ودارت حول عينيها دوائر سود. وكانت تمسك بإحدى يديها باقة من زهر البنفسج.

والتفتت إلى «جون»، ولم ترتسم على ثغرها ابتسامة، وإذا هاتان العينان الكبيرتان السوداوان العالقتان بالفتاة تجعلانها تشعر بشيء من التعويذة القديمة، برغم غضبها المذعور.

وقد بدأت الحديث على أي حال:

ـ ماذا أتى بكِ؟

ولكن شعورها بأنها هي نفسها قمينة أن يوجه إليها نفس السؤال جعلها تردف:

ـ هذه القضية البشعة. إني جئت أخبره... أنه خسرها.

ولم تقل «آيرين» شيئًا، ولم تتحول عيناها قط عن وجه «جون»، وصاحت الفتاة:

ـ لا تقفي هكذا كأنك منحوتة من حجر!

وضحكت «آيرين»:

ـ أتمنى على الله أن أكون كذلك!

ولكن «جون» أشاحت بوجهها، وصاحت:

ـ كفي عن الكلام! لا! لا تخبريني أنا لا أريد أن أسمع! أنا لا أريد أن أسمع شيئًا عن سبب مجيئك. أنا لا أريد أن أسمع!

بدأت تذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا في سرعة، وكأنها طيف قلق، وصاحت فجأة:

ـ إني حضرت أولًا. وليس في وسعنا أن نبقى هنا نحن الاثنتين معًا!

وحامت ابتسامة على وجه «آيرين»، ثم خمدت كأنها ومضة من نور. ولم تتحرك. وعندئذ أدركت «جون» أن وراء لين هذا الوجه وسكونه شيئًا يائسًا مصممًا، شيئًا زحزحته مستحيلة، شيئًا خطرًا. ونزعت عنها قبعتها. ورفعت كلتا يديها إلى جبينها وأزاحت إلى الوراء خصلة من شعرها البرونزي. وصاحت متحدية:

ـ ليس لكِ حق في بقائك هنا.

وأجابت «آيرين»:

ـ ليس لي حق البقاء في أي مكان...

ـ ماذا تعنين؟

ـ إني تركت «سومز». وكنت أنت تريدين دائمًا أن أتركه!

ووضعت «جون» يديها على أذنيها.

ـ إياك أن تتكلمي! أنا لا أريد أن أسمع شيئًا، أنا لا أريد أن أعرف شيئًا، من المستحيل أن أشتبك معكِ في عراك! ماذا يدعوك إلى الوقوف هكذا؟ لماذا لا تنصرفين؟

وتحركت شفتا «آيرين»، وبدا أنها تقول: «وأين أذهب؟»

ودارت «جون» إلى النافذة. واستطاعت أن ترى صفحة ساعة في الشارع تحتها. كانت الساعة تكاد تبلغ الرابعة، وهو قد يأتي في أي لحظة! والتفتت ناظرة من فوق كتفها، وقد تشوه وجهها من الغضب.

ولكن «آيرين» لم تتحرك، وظلت دون انقطاع تدير باقة البنفسج الصغيرة وتلويها بيدها المكسوة بالقفاز. وانحدرت على وجنتي «جون» دموع الغيظ وخيبة الأمل. وقالت:

ـ كيف أمكنك أن تحضري. إنك كنت لي صديقة منافقة!

وضحكت «آيرين» ثانية. وأدركت «جون» أنها لعبت بورقة خاطئة، وانهارت قواها، وتصاعدت زفراتها:

ـ لماذا أتيت؟ إنك حطمت حياتي، وتريدين الآن أن تحطمي حياته!

وارتجف فم «آيرين». والتقت عيناها بعيني «جون» في نظرة حزينة إلى حد جعل الفتاة تصيح بين الزفرات:

ـ لا، لا!

ولكن «آيرين» أحنت رأسها حتى لمس صدرها. ودارت فخرجت على عجل، مخفية شفتيها بباقة البنفسج الصغيرة.

وجرت «جون» إلى الباب، وسمعت وقع الأقدام الهابطة دون انقطاع، وصاحت:

ـ عودي، يا «آيرين»! عودي!

وتبدد وقع الأقدام.

ووقفت الفتاة في أعلى السلم مرتبكة ممزقة النفس، لماذا رحلت «آيرين» وتركتها تسود الميدان؟ ماذا قصدت؟ أتركته لها حقًّا؟ أم أنها...؟ ووقعت فريسة لحيرة تنهش القلب، و«بوزيني» لم يحضر.

وحوالي الساعة السادسة من بعد ظهر ذلك اليوم عاد «جوليون الكبير» من شارع «ويستاريا» حيث يكاد الآن ينفق فيه بضع ساعات من كل يوم، وسأل هل حفيدته في الدور العلوي. وعندما قيل له إنها حضرت من توها أرسل إلى غرفتها من يطلب منها النزول والتحدث معه.

وكان قد استقر رأيه على أن يقول لها إنه تصالح مع أبيها؛ وأن الأمور السالفة ينبغي أن تظل أمورًا سالفة في مستقبل الأيام. وأنه لن يعيش بمفرده بعد الآن، أو لن يعيش بمفرده «فعلًا» في هذا البيت الكبير وهو سيتركه، وسيحصل لابنه على بيت في الريف حيث يستطيعون الذهاب إليه جميعًا والإقامة فيه. وإذا لم ترضَ «جون» بذلك ففي وسعها الحصول على مرتب، والعيش بمفردها. وهذا لن يختلف كثيرًا عن الحاضر لأنها لم تبدِ له أي عطف منذ زمن طويل.

ولكن وجه «جون»، عندما نزلت كان منقبضًا ومثيرًا للشفقة. وبدت في عينيها نظرة متوترة حزينة. وقبعت في موضعها القديم فوق ذراع مقعده.

والذي قاله لها جدها لا يقارن إلا قليلًا بالبيان الواضح الحاسم المؤلم الذي رتبه في ذهنه بعناية كبيرة. وأحس قلبه الألم كما يحسه القلب الكبير لعصفورة أم حين يطير وليدها ويحطم جناحيه. وتعطلت كلماته حتى لكأنه يعتذر عن انحرافه في آخر الأمر عن طريق الفضيلة واستسلامه لغرائز أقرب إلى الفطرة، مزدريًا المبادئ الأشد متانة.

وبدا عليه أنه متوتر الأعصاب خشية من أن يكون إعلان نياته على هذا النحو مثالًا سيئًا يعرضه على حفيدته. وعندما وصل الآن إلى النقطة الحاسمة أصبحت طريقته رقيقة للغاية في إيعازه إليها أنها تستطيع العيش بمفردها، وترضى بهذا العيش في جملته. وقد قال لها:

ـ وإذا تصادف يا عزيزتي، ووجدت أنك لم تستطيعي الاستمرار في العيش معهم، ففي وسعي أن أصحح لك الوضع، ويمكنك أن تحصلي على ما ترغبين فيه. ولن يعوزنا أن نجد شقة صغيرة تستطيعين أن تقيمي بها في لندن، وأستطيع أنا أن أتردد عليك دون انقطاع.

وأضاف قوله:

ـ ولكن الطفلين شيئان صغيران عزيزان!

ثم تلألأت عيناه خلال شرح سياسته المعدلة ذلك الشرح الخطير، الجلي نوعًا:

ـ إن هذا سيذهل أعصاب «تيموثي» الضعيفة، وسيجد هذا الشيء الصغير النفيس قولًا يقوله حول هذا الموضوع، فإن لم يكن ذلك أكون أنا مغفلًا!

ولم تكن «جون» قد تكلمت بعد. وظل وجهها غير مرئي وهي جاثمة هكذا على ذراع مقعد جدها، ورأسها يعلوه. ولكنه لم يلبث أن شعر بخدها الدافئ يلتصق بخده. وأدرك أنه ليس في موقفها مما قاله، على أي حال، شيء يثير القلق. وبدأ يستجمع قواه، وقال:

ـ ستميلين إلى أبيك، فهو شاب محبوب. وهو لم يكن قط شديد الجفوة، ولكنه سهل المعاملة. وستجدينه ذا موهبة فنية وما إلى ذلك.

وذكر «جوليون الكبير» لوحاته المرسومة بالألوان المائية، البالغة ما يقرب من اثنتي عشرة لوحة، الموضوعة في خزانة مقفلة بغرفة نومه، ذلك أنه لم يعد يراها، كما رآها حتى اليوم، أشياء ضئيلة القيمة، بعدما أوشك ابنه أن يصبح الآن صاحب ملك.

وقال:

ـ أما فيما يتعلق بـ«زوجة أبيك»...

واستعمل كلمة «زوجة أبيك» في شيء من الصعوبة.

ـ فإني أسميها امرأة مهذبة، ولن أعجب إذا كانت قطعة من السيدة «جوميدج»، ولكنها مغرمة جدًّا بـ«جو»، والطفلان...

لقد كرر الحديث عنهما، والحديث عنهما يتحدر فعلًا كأنغام الموسيقى خلال تبريره المهيب لتصرفاته.

ـ والطفلان شيئان صغيران حلوان!

وهذه الكلمات ـ لو علمت «جون» ـ إنما تجسد من جديد حبه الرقيق للأطفال الصغار، لكل صغير وكل ضعيف، ذلك الحب الذي حمله فيما مضى على هجر ابنه بسببها وهي بعد صغيرة جدًّا، وهو الذي ينتزعه الآن منها وقد دار الزمن دورته.

ولكنه بدأ ينزعج من صمتها وسألها متبرمًا:

ـ حسنًا، ما قولك؟

وانزلقت «جون» إلى ركبتيه. وبدأت تقص قصتها بدورها. فمن رأيها أن كل شيء سيسير على خير وجه، وهي ترى أن ليست هناك أي صعوبات، وهي لا تهتم فتيلًا بما يظنه الناس.

وتلوى «جوليون الكبير»، هيه! سيظن الناس الظنون إذن. لقد حسب أنهم قد يكفون عن ذلك بعد مرور كل هذه السنين! ليكن ما يكون، فهو لا قبل له بذلك! بيد أنه لم يستطع الموافقة على طريقة حفيدته في عرض الأمر، إذ عليها أن تهتم بما يظنه الناس.

ولم يقل شيئًا برغم ذلك؛ فقد اختلطت مشاعره اختلاطًا شديدًا وتناقضت إلى حد لا يتيح التعبير عنها.

واستطردت «جون» تقول لا، إنها لا تهتم بذلك، فأي شأن للآخرين بالأمر؟ إنما هناك شيء واحد فقط. وأدرك «جوليون الكبير» من فوره، وهي تضغط بخدها على ركبته، أن ذلك ليس بالشيء الزهيد، وبما أنه سيشتري منزلًا بالريف فلماذا لا يشتري ـ في سبيل إرضائها ـ منزل «سومز» البديع في «روبن هل»؟ لقد تم بناؤه، وهو كامل الحسن، ولن يقطن فيه أحد الآن. إنهم سيكونون سعداء جميعًا هناك!

وتنبه «جوليون الكبير» على الفور، ألن يقطن «صاحب الملك» إذن في منزله الجديد؟ إنه لم يعد يشير إلى «سومز» الآن قط دون أن ينعته بهذا اللقب.

وقالت «جون»:

ـ لا. إنه لن يقطن فيه. وهي تعرف ذلك.

وكيف عرفتْ ذلك؟

إنها لم تستطع أن تذكر له كيف عرفت، ولكنها عرفت. بل كادت تعرف ذلك عن يقين. إن الأمر يبدو بعيد الاحتمال جدًّا، ولكن الظروف تغيرت، وما زالت كلمات «آيرين» ترن في ذهنها: «لقد تركتُ «سومز»... أين أذهب؟».

ولكنها لزمت الصمت فيما يتعلق بهذا الشأن.

لو أن جدها أقدم فقط على شراء المنزل، وسوَّى الأمر المتعلق بتلك الدعوى التعسة التي لم يكن ينبغي رفعها قط على «فيل»! فإن هذه ستكون أحسن تسوية بالنسبة لهم جميعًا، وللأمور كلها، فلقد تستقيم الأمور كلها!

ووضعت «جون» شفتيها على جبينه، وضغطتها بشدة.

ولكن «جوليون الكبير» تخلص من مداعبتها، واتشح وجهه بتلك النظرة القضائية التي تعاوده كلما اشتغل بالأعمال. وسألها:

ـ ماذا تعنين؟ إن هناك أمرًا وراء هذا كله، هل قابلت «بوزيني»؟

وأجابت «جون»:

ـ لا، ولكن ذهبت إلى منزله.

ـ ذهبت إلى منزله؟ ومن صحبك إلى هناك؟

وواجهته «جون» في حزم:

ـ ذهبت وحدي. لقد خسر تلك القضية، ولا يهمني أن يكون تصرفي سليمًا أو خاطئًا، ولكني أريد أن أساعده... وسأساعده!

وعاد «جوليون الكبير» فسألها:

ـ أرأيته؟

وبدا كأن نظرته نفذت من عيني الفتاة إلى روحها.

وأجابت «جون» من جديد:

ـ لا، فهو لم يكن هناك. وقد انتظرته، بيد أنه لم يحضر.

وبدرت حركة من «جوليون الكبير» تدل على أنه سُري عنه. ووقفت وأطلت عليه. وكم كانت دقيقة خفيفة صغيرة، ولكن كم كانت أيضًا ثابتة مصممة. وبرغم ما كان عليه من قلق وغيظ فإنه لم يقطب ويبدد تلك النظرة المركزة. وسيطر عليه شعوره بأنه انهزم، وأفلت الزمام من يديه، وتقدمت به السن... وقال آخر الأمر:

ـ آه! أرى أنك ستزجين بنفسك في ورطة يومًا من الأيام، فأنت تريدين أن تنهجي نهجك في جميع الأمور.

وأضاف إذ عاودته نوبة من نوباته الفلسفية الغريبة:

ـ إنك وُلدت على هذه الحال، وستظلين عليها حتى تموتي!

ونظر إلى طفلته الجامحة في حزن، وهو الذي فرض رأيه دائمًا في معاملاته مع رجال الأعمال، ومجالس الإدارات، و«الفورسايتيين» من كل صنف، وأولئك الذين ليسوا من صنف «الفورسايتيين»، ذلك أنه رأى فيها تلك الصفة التي يعجب بها، في غير وعي، أكثر مما يعجب بأي صفة أخرى. وقال متمهلًا:

ـ أتعرفين ما يقول الناس إنه يحدث؟

واصطبغت «جون» بلون قرمزي:

ـ نعم ولا... أنا أعلم... ولا أعلم... بيد أني لا أهتم!

وضربت الأرض بقدمها. وقال «جوليون الكبير» وهو يخفض بصره:

ـ أعتقد أنك تظفرين به لو خمدت أنفاسه!

وخيَّم صمت طويل قبل أن يعاود الحديث:

ـ أما عن شراء المنزل، فأنت تجهلين ما تتحدثين عنه!

وقالت «جون» إنها لا تجهل ذلك، فهي تعلم أنه يستطيع شراءه لو أراد. وما عليه إلا أن يدفع المبلغ الذي يساويه.

ـ المبلغ الذي يساويه! أنت لا تعرفين شيئًا عن هذا الأمر. إني لن أذهب إلى «سومز»، ولن يكون لي أي شأن مع هذا الفتى.

ـ ولكنك لست في حاجة للذهاب إليه، وتستطيع أن تتوجه لعمي «جيمس». وإذا لم يكن في وسعك شراء المنزل فهل تدفع «الطلبات القانونية» لتلك الدعوى؟ إني أعلم أنه في أزمة مالية شديدة، وقد تبينت ذلك. وتستطيع أن تقتطع ذلك من مرتبي!

وأشعت ومضة من عيني «جوليون الكبير».

ـ أقتطع ذلك من مرتبك! طريقة جميلة! أرجو أن تخبريني ماذا ستصنعين بغير مرتبك؟

ولكن فكرة انتزاع المنزل من «جيمس» وابنه بدأت تسيطر عليه في الخفاء؛ فقد سمع في «سوق «فورسايت»» تعليقًا كبيرًا على الأمر، وامتداحًا للمنزل أدعى إلى الشك. إنه فني البناء أكثر مما يلزم، وموقعه بديع. وأخذه من «صاحب الملك» الذي تعلق به فؤاده سيكون انتصارًا نهائيًا على «جيمس»، ودليلًا عمليًا على أنه سيجعل من «جو» صاحب ملك، ويعيده إلى مكانته اللائقة حيث يبقيه هناك في أمان؛ ويقتص نهائيًا من جميع أولئك الذين رأوا أن ينظروا إلى ابنه على أنه بائس منبوذ مفلس!

إنه سيرى! سيرى! وقد يكون الموضوع مفروغًا منه. إنه لن يدفع ثمنًا خياليًّا، ولكن إذا أمكن الشراء، فلعله لن يتأخر عنه!

وأدرك إدراكًا أشد خفاء أنه لن يستطيع رفض طلبها.

ولكنه لم يورط نفسه، وقال لـ«جون» إنه سيفكر في الأمر.

الفصل الحادي والثلاثون

رحيل «بوزيني»

لم يكن «جوليون الكبير» يستسلم لقرارات متسرعة. وكان من المرجح أن يظل يقلِّب الرأي في أمر شراء منزل «روبن هل» لو أن وجه «جون» لم ينبئه أنه لن ينعم براحة البال قبل الإقدام على شرائه.

وسألته في اليوم التالي، وهما يفطران، متى ينبغي أن تأمر بإحضار العربة؛ فقال مبديًا شيئًا من البراءة:

ـ عربة! لماذا؟ أنا لا أنوي الخروج!

وأجابت:

ـ إذا لم تذهب مبكرًا فإنك لن تلحق بعمي «جيمس» قبل ذهابه إلى المدينة.

ـ «جيمس»! وما شأن عمك «جيمس»؟

وأجابت بصوت لم يظل يتظاهر معه بالجهل:

ـ المنزل.

فقال:

ـ أنا لم أستقر بعدُ على رأي.

ـ لا بد لك من الأمر! لا بد لك من الأمر! أوه! يا جدي، فكر فيَّ!

وزمجر «جوليون الكبير»:

ـ أفكر فيك! إني دائم التفكير فيك. ولكنك أنت التي لا تفكرين في نفسك. أنت التي لا تفكرين فيم تورط نفسها. حسنًا، اطلبي حضور العربة في الساعة العاشرة!

وفي الساعة العاشرة والربع كان يضع مظلته بالموضع المخصص لذلك في «بارك لين». ولم ير أن يخلع قبعته ومعطفه. وقال للخادم «ورمسون» إنه يريد لقاء سيده. ذهب إلى غرفة المكتب قبل أن يخطر الخادم صاحب البيت بمقدمه، وجلس هناك.

وكان «جيمس» لا يزال في غرفة الطعام يحادث «سومز» الذي حضر ثانية قبل الإفطار. وغمغم في عصبية عندما علم بمن جاء لزيارته:

ـ إني لأعجب ماذا يريد الآن؟

ثم نهض من مقعده، وقال لـ«سومز»:

ـ حسنًا، لا تقدم على أي أمر في تسرع. وأول ما ينبغي هو أن تعرف أين هي، وعليَّ أن أذهب في هذا الشأن إلى مكتب «شتاينار»، فرجاله أقدر رجال، وإذا لم يستطيعوا العثور عليها فلا يستطيع ذلك أحد آخر.

واستولت عليه رقة مفاجئة حركت مشاعره، وغمغم مخاطبًا نفسه:

ـ إنها لسيدة صغيرة مسكينة. ولست أدري ماذا كان يخطر ببالها!

وخرج وهو يتمخط.

ولم يقف «جوليون الكبير» لدى رؤية أخيه، ولكنه مد إليه يده، وصافحه مصافحة «الفورسايتي».

وجلس «جيمس» في مقعد آخر إلى جوار المائدة، ومال برأسه على يده، وقال:

ـ حسنًا، كيف حالك. نحن لا نراك كثيرًا في هذه الأيام!

ولم يعر «جوليون الكبير» هذه الملاحظة اهتمامًا، وسأل:

ـ كيف حال «إميلي»؟

وواصل قوله دون أن ينتظر ردًا:

ـ جئت إليك في شأن تلك المسألة الخاصة بالشاب، «بوزيني». وقد قيل لي إن المنزل الجديد الذي شيده أشبه بالفيل الأبيض.

وقال «جيمس»:

ـ أنا لا أعرف شيئًا عن الفيل الأبيض. والذي أعلمه أنه خسر قضيته، وأنه سيفلس.

ولم يتأخر «جوليون الكبير» عن انتهاز الفرصة التي أتاحها هذا القول، وأجاب موافقًا:

ـ لن يدهشني ذلك البتة! وهو إذا أفلس فإن صاحب الملك ـ أي «سومز» ـ لن يحصل على نقوده. والذي كنت أفكر فيه الآن هو أنه إذا كان «سومز» لا ينوي أن يقيم فيه.

وإذ رأى كلًّا من الدهشة والريبة في عيني «جيمس» واصل قوله مسرعًا:

ـ أنا لا أريد أن أعرف شيئًا. وأعتقد أن اتخاذ «آيرين» موقفًا مشددًا أمر لا يعنيني. ولكني أفكر أنا نفسي في شراء منزل بالريف، غير بعيد عن لندن، وإذا ناسبني هذا المنزل فلن أقول إني قد أمتنع عن إلقاء نظرة عليه، على أن أعرف الثمن.

وأنصت «جيمس» إلى هذا القول في مزيج من الشك والريبة والفرح يخالطه خوف من أن يكون هناك شيء وراء ذلك، وتلونه بقية من ثقته القديمة الموثوق بها في حسن نية أخيه الأكبر، وصدق حكمه. وكان هناك قلق أيضًا نابع مما يمكن أن يكون «جوليون الكبير» قد سمعه، وكيف سمعه. وهناك نوع من الرجاء ناشئ من فكرة أنه لو كانت علاقة «جون» بـ«بوزيني» قد انقطعت نهائيًّا فيصعب أن يبدو جدها تواقًا إلى مساعدة ذلك الشاب.

ووقع في حيرة تامة. ولما كان لا يود أن يظهر تلك الحيرة، أو يتورط بحال من الأحوال، فقد قال:

ـ قيل لي إنك بصدد تعديل وصيتك إلى ما هو في مصلحة ابنك.

ولم يقل له أحد ذلك. ولم يكن منه إلا أنه أضاف واقعة رؤيته لـ«جوليون الكبير»

في صحبة ابنه وحفيديه إلى واقعة سحبه وصيته من مكتب المحامين «فورسايت، باسترد وفورسايت»، وأصابت رميته، وسأله «جوليون الكبير»:

ـ من أنبأك بذلك؟

وقال «جيمس»:

ـ أنا على ثقة من أني لا أعرف، فلست ممن يتذكرون الأسماء، والذي أعلمه أن أحدًا أنبأني بذلك، لقد أنفق «سومز» على ذلك المنزل مالًا كثيرًا، ومن غير المحتمل أن يتخلى عنه إلا نظير ثمن طيب.

وقال «جوليون الكبير»:

ـ حسنًا، لو ظن أني سأدفع ثمنًا خياليًّا فإنه يكون مخطئًا؛ فأنا لا أملك المال الذي يبدو أنه يملكه حتى أبدده. ودعه يحاول ويبيعه في مزاد علني، ويرى أي ثمن سيحصل عليه. وقد سمعت أنه ليس بالمنزل الذي يروق كل إنسان!

وأجاب «جيمس» الذي كان يرى هذا الرأي فيما بينه وبين نفسه:

ـ إنه منزل خليق بنبيل، «سومز» هنا لو أنك تود أن تراه.

وقال «جوليون الكبير»:

ـ لا، فأنا لم أصل في هذا الصدد إلى ذلك الحد. والأرجح أني لن أصل إليه، وفي وسعي أن أتبين ذلك جليًّا ما دمت أُقَابل على هذا النحو!

فزع «جيمس» قليلًا؛ فهو يثق بنفسه عندما يصل الأمر إلى الأرقام الفعلية في الصفقات التجارية لأنه يتعامل في هذه الحالة مع الوقائع لا مع الناس، ولكن المفاوضات الأولية الشبيهة بما يقع له الآن تقلقه، فهو يحار فلا يعرف أي مدى يستطيع أن يبلغه. وقال:

ـ حسنًا، أنا لا أعرف شيئًا عن هذا الأمر، فـ«سومز» لا يفصح لي عن شيء وأحسب أن عليه أن يباشره بنفسه، والمسألة ليست إلا مسألة ثمن.

وقال «جوليون الكبير»:

ـ أوه! لا تدعه يمن عليَّ بجميل في هذا.

ووضع قبعته على رأسه حانقًا.

وفُتح الباب، ودخل «سومز». وقال وهو يبتسم ابتسامة غير مكتملة:

ـ هنا في الخارج شرطي يطلب عمي «جوليون».

ونظر إليه «جوليون الكبير» نظرة غاضبة، وقال «جيمس»:

ـ شرطي؟ أنا لا أعرف شيئًا عن الشرطي.

وأضاف ناظرًا إلى «جوليون الكبير» نظرة ارتياب:

ـ ولكني أحسب أنك أنت تعرف شيئًا عنه وأحسب أنه أولى بك أن تقابله.

وكان أحد مفتشي الشرطة يقف في الردهة متراخيًا متأملًا بعينيه الزرقاوين الذابلتين، الثقيلتي الجفون، أثاث تلك الردهة الإنجليزي القديم الذي انتقاه «جيمس» من محل مبيعات «مافروجانو» في ميدان «بورتمان».

وقال له «جيمس»:

ـ ستجد أخي في الغرفة هناك.

ورفع المفتش إصبعه في احترام إلى قبعته الشاحبة، ودخل غرفة المكتب.

ونظر إليه «جيمس» لدى دخوله الغرفة شاعرًا بإحساس غريب. وقال لـ«سومز»:

ـ حسنًا أحسب أنه لا بد لنا أن ننتظر ونرى ما يريد، لقد جاء عمك إلى هنا بشأن المنزل.

وارتد فدخل غرفة الطعام مع «سومز» ولكنه لم يستطِع أن يهدأ. وعاد فغمغم:

ـ والآن ما الذي يريده؟

وأجاب «سومز»:

ـ من تقصد؟ مفتش الشرطة؟ لقد أرسلوه إلى هنا من «ستانهوب جيت» وهذا هو كل ما أعرفه. وأنا لن أعجب إذا كان العم «جوليون» المنشق هذا قد ابتز مالًا.

ولكنه كان قلقًا كذلك على الرغم من هدوئه.

وعقب عشر دقائق دخل عليهم «جوليون الكبير» الغرفة، وسار حتى وصل إلى المائدة، ووقف هناك وهو يلتزم الصمت التام، ويشد شاربه الأبيض الطويل، ورفع «جيمس» إليه بصره محدقًا فاغر الفم، فهو لم يرَ أخاه قط يبدو على هذا النحو.

ورفع «جوليون الكبير» يده، وقال متباطئًا:

ـ «بوزيني» الشاب دهسته عربة في الضباب، ولقي حتفه.

ثم قال وهو يقف مطلًّا من علٍ على أخيه وابن أخيه متطلعًا إليهما بعينيه العميقتين:

ـ وهناك... بعض... أقوال... تُقال... عن انتحاره.

وسقط فك «جيمس»:

ـ «انتحار»! وماذا يدعوه إلى ذلك؟

وأجاب «جوليون الكبير» عابسًا:

ـ الله أعلم إذا كنت أنت وابنك لا تعلمان!

ولكن «جيمس» لم يحر جوابًا.

ذلك أن حياة الرجال المتقدمي السن، حتى «الفورسايتيون» منهم، لها تجاربها المريرة. وعابر السبيل الذي يرى هؤلاء وهم متدثرون بالعرف والغنى ورغد العيش، لا يشك لحظة في أن هذه الأشباح الداكنة قد سقطت في الطريق. إن كل رجل متقدم السن ـ حتى سير «والتر بينثام» نفسه ـ وقفت فكرة الانتحار عند مدخل نفسه ولو مرة واحدة، على الأقل، منتظرة بعتبة الباب أن تدخل، ممنوعة عن غشيان غرفة النفس الداخلية بحقيقة تطرأ مصادفة، أو بخوف خفي، أو بأمل مؤلم. ويصعب على «الفورسايتيين» ذلك التخلي النهائي عن أملاكهم. أوه! إنه لأمر صعب! وهم نادرًا ما يحققونه، ولعلهم لا يحققونه أبدًا. وكم كانوا قريبين منه، مع ذلك، في بعض الأحيان!

وكان الأمر كذلك حتى مع «جيمس»! وصاح وهو غارق في خواطره المشوشة:

ـ إني رأيت في جريدة أمس ذلك النبأ. «عربة تدهس رجلًا في الضباب!» ولم يعرفوا اسمه وقتئذ!

ونقل بصره من وجه إلى وجه وهو مرتبك النفس. ولكنه كان ينبذ بفطرته طوال الوقت، تلك الشائعة المتعلقة بالانتحار، فهو لم يجرؤ على الاحتفاء بتلك الفكرة الشديدة التعارض مع مصالحه، ومع مصالح ابنه، ومصالح كل «فورسايتي» وحاول مقاومتها، ولما كان بطبعه ينبذ دائمًا، بلا وعي، كل ما لا يستطيع قبوله وهو آمن، فقد تغلب شيئًا فشيئًا على خوفه، كان الحادث قضاء وقدرًا! لا بد أنه كان كذلك!

وقطع عليه «جوليون الكبير» تأملاته:

ـ حدثت الوفاة في الحال. وبقيت جثته في المستشفى طوال يوم أمس ولم يكن هناك شيء يدلهم على من يكون المتوفى. وسأذهب الآن إلى هناك، وخير لك أن تذهب أنت وابنك أيضًا.

ولما لم يعارضه أحد منهما تقدمهما في الخروج من الغرفة.

وكان اليوم ساكنًا صافيًا ساطعًا، فاستقل «جوليون الكبير» عربة مكشوفة للانتقال بها من «ستانهوب جيت» إلى «بارك لين» ولاحظ مغتبطًا، متكئًا في صدر العربة على الوسائد اللينة، عاكفًا على إتمام تدخين سيجاره، صوت الهواء المرهف، وضجيج العربات والمارة، وذلك المرح الذي يكاد يكون «باريسيًّا»، والذي يبعثه في شوارع لندن أول يوم صاف يحل بعد شوط الضباب والمطر. وشعر «جوليون الكبير» بسعادة كبيرة، سعادة لم يشعر بمثلها منذ شهور. وغاب عن ذهنه إقراره لـ«جون»، فقد كان مستقبل ابنه الزاهر فوق كل شيء عنده، وكذلك ملازمته لحفيدته في المستقبل، (وكان قد اتفق على لقاء «جوليون الصغير» في نفس هذا الصباح بنادي «هوتش بوتش» لمناقشة الموضوع من جديد) وهناك الانفعال المبهج الذي سيتولد من نزال مقبل، وانتصار مقبل على «جيمس» وعلى صاحب الملك، فيما يتعلق بموضوع المنزل.

وطلب إسدال غطاء العربة الآن، فهو لم يعد يستمتع بمظاهر الجذل. ثم إنه لا يصح أن يُرى «الفورسايتيون» مع أحد مفتشي الشرطة.

وداخل تلك العربة تحدث المفتش مرة ثانية عن حادث الوفاة:

ـ لا لم يكن الضباب كثيفًا جدًّا هناك. ويقول سائق العربة إن السيد لا بد كان لديه متسع من الوقت ليرى ما هو متعرض له. وبدا أنه يسير إلى العربة رأسًا، والظاهر أنه كان يكابد ضنكًا شديدًا، فقد وجدنا في مسكنه سندات رهن عديدة وحسابه في المصرف يدل على أنه بلا رصيد، وهناك القضية المذكورة في صحف اليوم.

وانتقلت عيناه الزرقاوان الباردتان من واحد إلى آخر من «الفورسايتيين» الثلاثة الموجودين في العربة.

وبينما «جوليون الكبير» يرقب ما يحدث من الركن الذي يقبع فيه رأى وجه أخيه يتغير، والنظرة المفكرة القلقة البادية عليه تزداد عمقًا. فقد استيقظت كل شكوك «جيمس» ومخاوفه لدى سماعه كلمات المفتش: «يكابد ضنكًا شديدًا»، «سندات رهن»، «حساب بلا رصيد»، ويبدو أن هذه الكلمات التي كانت بالنسبة له، طوال حياته، كابوسًا يزعجه من بعيد، يبدو أنها جعلت ذلك الشك في الانتحار حقيقة مقطوعًا بها، ينبغي التفكير فيها مهما كان الأمر. وبحث عن عين ابنه، ولكن «سومز» الذي تشبه عينه عين الفهد، «سومز» الصموت الجامد لم يجبه بنظرة. وتملكت «جوليون الكبير»، وهو يقوم برقابته، ويحزر التحالف الدفاعي المتبادل بينهما، تملكته رغبة مسيطرة في وجود ابنه إلى جانبه، وكأن هذه الزيارة لجثة رجل متوفى معركة يتحتم عليه فيها أن ينازلهما كليهما بمفرده إذا لم يكن ابنه معه. وظلت تطن في ذهنه فكرة كيف يبقى اسم «جون» بعيدًا عن هذه المسألة. و«جيمس» له ابنه الذي يساعده! فلماذا لا يرسل هو أيضًا في طلب «جو»؟

وبعد أن أخرج بطاقة زيارة من جيبه خط عليها بالقلم الرصاص الرسالة التالية:

«تعال من فورك، وقد أرسلت لك العربة».

ولدى نزوله من العربة أعطى سائقها تلك البطاقة، وطلب إليه أن يذهب في أقصى سرعة ممكنة إلى نادي «هوتش بوتش» وأن يعطي البطاقة للسيد «جوليون فورسايت» إذا وجده هناك، ويعود به من فوره؛ فإذا لم يجده هناك فعليه انتظاره حتى يحضر.

وتبع الآخرين صاعدًا السلم في بطء، متكئًا على مظلته، وتوقف لحظة ليلتقط أنفاسه. وقال المفتش:

ـ هذه هي المشرحة يا سيدي. ولكن تريث كما تشاء.

وفي الغرفة «العارية» المبيضة الحيطان، الخالية من كل شيء إلا خطًّا من شعاع شاب الأرض النظيفة، في هذه الغرفة ثوى هيكل مغطى بقطعة من نسيج، وأمسك المفتش طرفها بيده الضخمة الثابتة، وقلبها إلى الخلف. وحدق فيهم وجه لا يبصر، ومن كلتا ناحيتي ذلك الوجه المتحدي الذي لا يبصر أطل «الفورسايتيون» الثلاثة؛ وأخذت تعلو وتهبط في نفس كل منهم عواطف خفية ومخاوف ورأفة منبعثة من طبيعته هو نفسه، وكأن هذه المشاعر أمواج الحياة الصاعدة الهابطة التي تقوم دونها هذه الحيطان البيض، والتي حيل الآن بينها وبين «بوزيني» إلى الأبد. وإن ذلك الميل الكامن في كل منهم الخاص بطبيعته، ذلك «الزنبرك» الجوهري الغريب الذي يحوله في دقة من حال إلى حال، والذي يختلف دون انقطاع عن ميل أي مخلوق سواه، يضطره إلى انتهاج نهج مختلف من التفكير. لقد وقف كل منهم على هذا النحو بعيدًا عن الآخرين، قريبًا على نحو غريب، منفردًا بالموت، صامتًا منخفض البصر.

وسأل المفتش بصوت ناعم:

ـ هل تحققت يا سيدي من شخصية هذا السيد!

ورفع «جوليون الكبير» رأسه، وأومأ بالإيجاب. ونظر إلى أخيه الواقف إزاءه، نظر إلى تلك القامة الطويلة النحيلة المستغرقة في التفكير وهي تطل

على الميت، وإلى وجهها المنير، وعينيها الشهباوين المجهدتين، ونظر إلى هيكل «سومز» الأبيض الجامد الواقف جوار أبيه، وتبخر خلال هذه الوقفة البيضاء الطويلة في حضرة الموت كل ما خالجه من مشاعر ضد «هذين الاثنين». ومن أين يجيء؟ وكيف يجيء ذلك الموت؟ ذلك الانقلاب لكل ما كان يجري قبله، ذلك الانتقال الأعمى إلى الطريق المؤدي إلى أين؟ ذلك الإخماد الأسود للنار الموقدة! ذلك الهرس الثقيل الوحشي الذي لا بد أن يبتليه جميع الناس وهم يحتفظون بسلامة نظرهم وشجاعتهم حتى يصلوا إلى النهاية المحتومة! برغم أنهم صغار، حشرات، لا معنى لهم! ومرقت ومضة عبر وجه «جوليون الكبير» فقد خرج «سومز» متسللًا في صمت بعد أن غمغم بشيء للمفتش.

ثم رفع «جيمس» عينيه فجأة، وكان في نظرته المريبة المضطربة توسل غريب، وكأنما هي تقول: «أنا أعلم أني لست ندًّا لك». وبعد أن بحث عن منديل جفف جبينه، وإذ انحنى مطلًّا على الميت، حزينًا ضئيلًا، دار وغادر الغرفة مسرعًا.

وقف «جوليون الكبير» جامدًا كالموت، محدق العينين في الجثة. ومن يدري فيم كان يفكر، أكان يفكر في نفسه عندما كان شعره أسود كشعر الفتى الميت الثاوي أمامه؟ أكان يفكر في نفسه مع معركته التي بدأت توًّا، والمعركة الطويلة... الطويلة التي أحبها، المعركة التي انتهت بالنسبة لذلك الشاب وهي لم تكد تبدأ، أم في حفيدته وآمالها المحطمة، أم في تلك المرأة الأخرى، أم في غرابة هذا وحسرته، أم في سخرية تلك الخاتمة وغموضها ومرارتها... في العدالة! ليست هناك عدالة للناس فهم كانوا ولا يزالون في ظلام دائم!

أو لعله خطر له، بوحي من فلسفته، أن الأولى به أن يبتعد عن ذلك كله! أن ينتهي منه كما انتهى هذا الشاب المسكين.

ولمس أحد كتفه.

وصعدت دمعة فبللت جفنه، وقال:

ـ حسنًا. لا خير في بقائي هنا، يحسن بي أن أنصرف. تعال إليَّ في أقرب وقت تستطيعه يا «جو».

وانصرف مطأطئ الرأس.

وحل دور «جوليون الصغير» في الوقوف إلى جانب الميت، وخُيِّل إليه أنه يرى من حول الجثة جميع «الفورسايتيين» يقفون منقطعي الأنفاس خائري القوى. إن الضربة كانت شديدة السرعة.

إن القوى الكامنة في كل مأساة ـ القوى غير المنكورة التي تجاهد خلال التيارات المتضاربة لتصل إلى نهايتها الساخرة ـ التقت واختلطت بقصف الرعد وألقت بضحيتها خارج الحياة، وبعجت جميع من حوله وسوَّتهم بالأرض.

أو، على أي حال، هكذا بدا لـ«جوليون الصغير» أنه يراهم راقدين حول جثة «بوزيني».

وطلب إلى المفتش أن يروي له ما حدث، وعاد هذا الأخير ففصَّل الوقائع كما عرفناها، شأنه كشأن رجل لا تُتاح له فرصة كهذه في كل يوم، وقال:

ـ يتوفر هنا يا سيدي شيء يزيد على ما يبدو للعين. أنا نفسي لا أعتقد في حكاية الانتحار أو في محض وقوع حادث. فالأرجح بحسب ما أرى أنه كان يعاني وطأة ضغط عقلي شديد، فلم يلتفت إلى ما حوله. ولعلك تستطيع أن تلقي بعض الضوء على هذه الأشياء.

وأخرج من جيبه لفافة صغيرة، ووضعها على المائدة، وإذ فضها بعناية كشف عن منديل سيدة يشبك طياته دبوس مطلي بذهب «فينيسي» حال لونه وقد سقط فصه من مكانه. وصعدت إلى أنف «جوليون الصغير» رائحة أزهار جافة من البنفسج.

وقال مفتش الشرطة:

ـ وجد هذا في جيب صداره، وقطع الاسم من المنديل!

وأجاب «جوليون الصغير» في صعوبة:

ـ أخشى أن أكون عاجزًا عن مساعدتك.

ولكن نهض أمامه في وضوح شديد ذلك الوجه الذي رآه مرتعدًا سعيدًا على ذلك النحو الشديد لدى قدوم «بوزيني»! لقد فكر فيها أكثر مما فكر في ابنته وفيهم جميعًا، فكر فيها وهي تبدو بنظرتها العميقة الناعمة، وجهها الرقيق المستسلم منتظرة قدوم الرجل الميت، ولعلها تنتظره حتى في هذه اللحظة صابرة ساكنة تحت أشعة الشمس.

ومشى حزينًا متجهًا من المستشفى إلى بيت أبيه، متأملًا فيما قد تؤدي إليه هذه الوفاة من تحطيم أسرة «فورسايت». إن الرمية مرقت فعلًا من حصون أفرادها وأصابت خشب شجرة الأسرة نفسه. وهم قد يبدون مزدهرين في كل مظاهرهم كما كانوا من قبل، محتفظين بهيئة الشجاعة في أعين لندن، ولكن جذع الشجرة مات، وأذبله نفس السهم الذي جندل «بوزيني». وستحل الآن الشجيرات الصغيرة محل الشجرة الكبيرة، وتتكفل كل منها بحاسة الملكية تكفلًا من نوع جديد.

وقال «جوليون الصغير» لنفسه: «يا شجرة «الفورسايتيين» الطيبة! إن خشبك أسلم أخشاب بلادنا!».

أما فيما يتعلق بسبب الوفاة، فلا شك أن أفراد أسرته سينكرون بقوة شبهة الانتحار التي تتهدد سمعتهم إلى حد بعيد! وسيعتبرونها حادثًا عرضيًّا، أو ضربة من ضربات القدر، وسيشعرون في أعماق نفوسهم بأنها تدخل من العناية الإلهية. إنها جزاء، ألم يعرض «بوزيني» للخطر المال والحياة الزوجية، وهذان من ممتلكاتهم التي لا تقدر بثمن؟ وسيتحدثون عن ذلك الحادث المشؤوم الذي وقع لـ«بوزيني» الشاب وقد لا يتحدثون عنه، فالسكوت قد يكون أفضل!

أما فيما يتعلق به، فقد عد ما قرره سائق عربة الباص عن الحادث ضئيل القيمة جدًّا، فما من أحد أحب إلى حد الجنون، يقدم على الانتحار بسبب الحاجة إلى المال، ثم إن «بوزيني» ليس من ذلك النوع الذي تمتلئ نفسه

يأسًا بسبب ضائقة مالية. ولذلك رفض هو أيضًا فكرة الانتحار هذه، فإن وجه الميت نهض أمامه دليلًا واضحًا على ذلك. لقد غادر الدنيا في ريعان صباه، والاعتقاد على ذلك النحو بأن حادثًا اجتث «بوزيني»، وهو مندفع أشد اندفاع وراء عاطفة، كان أكثر من شيء مثير لشفقة «جوليون الصغير».

ثم تخيَّل بيت «سومز» على نحو ما هو عليه الآن وما سيكون عليه من الآن فصاعدًا. وومض خط شعاع البرق ومضه الواضح غير المتحفظ فوق عظام عارية ذات نواحٍ عابسة إذ انحسر اللحم الذي كان يخفي حقيقتها.

كان «جوليون الكبير» يجلس وحده بغرفة الطعام في «ستانهوب جيت» عندما حضر ابنه. وبدا شديد الشحوب وهو جالس في مقعده الكبير ذي الذراعين. وكانت عيناه وهما تنتقلان بين الحيطان بما عليها من صور تمثل الحياة ساكنة، لا سيما صورة «مراكب الصيد الهولاندية عند الغروب»، الفريدة في نوعها، كانتا تبدوان كأنهما تمران بنظراتهما على حياته هو نفسه، وما اشتملت عليه من آمال ومكاسب وانتصارات. وقال:

ـ «جو»! أهو أنت، لقد أفضيت بالنبأ إلى «جون» الصغيرة المسكينة، ولكن هذا ليس كل ما في الأمر. أستذهب إلى «سومز»؟ أحسب أنها تحمل نفسها المسؤولية، ولكن لا أستطيع بحال أن أحتمل التفكير فيها وهي تحبس نفسها هناك منفردة.

وإذ رفع يده النحيلة المعروقة، ضم قبضتها بشدة.

الفصل الثاني والثلاثون

عودة «آيرين»

سار «سومز» في الشوارع مسرعًا، وعلى غير هدى، بعد أن غادر «جيمس» و«جوليون الكبير» المشرحة. وقد غير حادث موت «بوزيني» الفاجع ألوان الأشياء جميعًا، فلم يعد هناك أثر لما كان يشعر به، وهو أن ضياع دقيقة واحدة قد يكون مشؤومًا. وهو لن يجازف الآن أيضًا بالإفضاء إلى أي إنسان بنبأ هروب زوجته حتى ينتهي التحقيق.

وكان قد استيقظ في صباح ذلك اليوم مبكرًا قبل قدوم ساعي البريد، وتناول بنفسه من صندوق الخطابات أولى الرسائل الواردة إليه. وبرغم أنه لم يجد بينها رسالة من «آيرين» فقد انتهز فرصة، فأخبر «بيلسون» بأن سيدتها قامت برحلة إلى شاطئ البحر، وقال إنه قد يرحل هو نفسه، ويمكث هناك من يوم السبت إلى يوم الاثنين. وقد أتاح له هذا وقتًا حتى يتنفس الصعداء، ولا يترك حجرًا دون أن يقلبه حتى يعثر عليها.

ولكنه لم يعرف الآن كيف يقضي يومه، بعد أن حالت وفاة «بوزيني» بينه وبين اتخاذ أي خطوات ـ تلك الوفاة التي كانت بمثابة إنفاذ قطعة من الحديد المحمي في قلبه، وبمثابة رفع ثقل هائل عنه ـ وهام على وجهه في الطرقات، هنا وهناك، ناظرًا إلى كل وجه يصادفه، في حين تفترسه مئات الهموم.

وفكر فيه وهو يهيم على وجهه، في ذلك الذي فرغ من تجواله ومن تربصه، ولم يعد في وسعه أن يحوم حول منزل «سومز» ثانية.

وسبق له أن مر باللافتات التي تضمَّنت نبأ التحقق من شخصية المتوفى، واشترى الصحف ليرى ماذا تقول. وكان بوده أن يتوقف عند ذلك أشهرًا لو استطاع. وتوجه إلى المدينة واختلى بالمحامي «بولتر» مدة طويلة.

وبينما هو في طريق عودته إلى منزله مر حوالي الساعة الرابعة والنصف بسلم باب «جونسون»، وقابل هناك «جورج فورسايت» الذي أبرز لـ«سومز» جريدة مسائية وهو يقول:

ـ اسمع! هل اطلعت على هذا النبأ عن القرصان المسكين؟

وأجاب «سومز» في جمود كجمود الحجر:

ـ نعم.

وحملق «جورج» فيه. إنه لم يمل قط إلى «سومز». وهو يحمله الآن تبعة موت «بوزيني». لقد قضى عليه «سومز»، قضى عليه بتلك الفعلة الخاصة بالملكية التي دفعت بالقرصان إلى الجري على غير هدى بعد ظهر ذلك اليوم المشؤوم.

وكان يدور في ذهنه هذا الخاطر: إن ذلك الفتى المسكين كان مسلوب العقل بفعل الغيرة وبرغبته في الأخذ بالثأر إلى حد أنه لم يسمع شيئًا من صوت «الأومنيبوس»، وسط ذلك الضباب الجهنمي.

لقد قضى عليه «سومز»، وكان هذا الحكم باديًا في عيني «جورج».

وقال آخر الأمر:

ـ إنهم يتحدثون في ذلك عن الانتحار، وهذا القول لا يمكن أن ينهض على قدميه.

وهز «سومز» رأسه وغمغم:

ـ حادث عرضي.

وشد «جورج» قبضته على الجريدة وحشا بها جيبه، ولم يستطع مقاومة تسديد رمية فاصلة:

ـ هيه! أكل شيء يزدهر في بيتك؟ ألم تُرزق بعد بأطفال؟

ومر «سومز» محتكًّا به ومضى أبيض الوجه كدرجات سلم «جوبسون» مرفوع الشفة كأنه يزمجر.

ولدى وصوله إلى بيته، ودخوله الردهة الصغيرة المضاءة بعد فتح الباب بمفتاح القفل، كان أول ما لفت نظره وجود مظلة زوجته المذهبة موضوعة في الصندوق المكسو؛ فنزع معطفه الوبري وسارع إلى غرفة الجلوس.

وكانت الستائر مسدلة نظرًا إلى حلول المساء، واشتعلت في الموقد نار ساطعة منبعثة من كتل خشب الأرز، ورأى في ضوء تلك النار «آيرين» تجلس على المقعد المستطيل في ركنها المألوف. وأغلق الباب في هوادة، واتجه صوبها بيد أنها لم تتحرك ولم يبدُ عليها أنها رأته. وقال:

ـ إنك عدتِ إذن؟ لماذا تجلسين هنا في الظلام؟

ثم لمح وجهها الشديد البياض الشديد الجمود إلى حد أن بدا كأن الدم لا بد توقف عن الجريان في عروقها، ولمح عينيها اللتين بدتا كبيرتين جدًّا كأنهما عينا بومة داكنتان كبيرتان واسعتان مذعورتان.

كانت وهي تلتف بمعطفها الوبري الرمادي مضطجعة على وسائد المقعد، ذات شبه غريب ببومة أسيرة مكومة في ريشها الناعم وراء قضبان قفصها، فقد قوامها اعتداله اللدن، وكأنها انهارت على أثر قيامها برياضة قاسية، وكأنه لم يعد هنا سبب يدعوها إلى أن تبدو جميلة لدنة القوام معتدلته.

وكرر قوله:

ـ إنك عدتِ إذن.

ولم ترفع بصرها قط، وكذلك لم تنطق بكلمة، وظل ضوء النار يتلاعب على وجهها الجامد.

وحاولت فجأة أن تنهض، ولكنه منعها، وعندئذ فقط أدرك ما لم يدرك. لقد عادت كحيوان أصيب بجرح مميت. عادت دون أن تعرف إلى أين

تتجه أو ماذا تفعل. وكان منظر هيئتها وهي ملتفة بمعطفها الوبري يكفيه ليدرك ما لم يدرك.

لقد علم عندئذ علم اليقين أن «بوزيني» كان عشيقها، علم أنها اطلعت على نبأ وفاته، ولعلها اشترت مثله جريدة وقرأتها في ركن شارع معرض لتيار هوائي.

لقد عادت إذن بمحض إرادتها، عادت إلى القفص الذي ذبلت فيه إلى حد الرغبة في الخلاص منه، وإذ أدرك المعنى المروِّع الكامل لهذا، ود لو يصيح: «اذهبي بجسدك الكريه الذي أحبه إلى خارج بيتي! ابتعدي بوجهك الأبيض المثير للشفقة الشديد القسوة والنعومة، ابتعدي به قبل أن أسحقه. اغربي عن بصري؛ لا تدعيني أراك ثانية!».

ولدى ترديد هذه الكلمات غير المنطوقة، خُيل إليه أنه يراها تنهض وتبتعد كأنها امرأة تشاهد حلمًا رهيبًا تناضل في سبيل التنبه منه. تنهض وتخوض في الظلام والبرد دون أن يخطر لها خاطر عنه، ودون حتى الشعور بوجوده.

ثم صاح مناقضًا ما لم يفصح عنه بعد:

ـ لا، ابقي هناك!

ودار مبتعدًا عنها فجلس في مقعده المعتاد القائم في الناحية الأخرى من الموقد.

وجلسا صامتين.

وقال «سومز» لنفسه: «علام هذا كله؟ وفيم أشقى على هذا النحو؟ ماذا اقترفت يداي؟ الخطأ ليس خطئي!».

وعاد فنظر إليها وقد تكوم جسدها كعصفور يموت بعد إصابته، يُرى صدره المسكين يخفق بعد امتصاص الهواء منه، وعيناه التعستان تصوبان إليك، أنت الذي أصابه، نظرة بطيئة لينة، غير منظورة، تودعان بها كل ما هو طيب، تودعان بها الشمس والهواء، وأليفهما.

على هذا النحو جلسا إلى جوار النار في صمت، وقد اتخذ كل منهما جانبًا من الموقد.

وبدأ الدخان الذي ينبعث من كتل خشب الأرز المشتعلة، والذي أحبه «سومز» كثيرًا، بدا كأنه يخنق حلق «سومز» حتى لم يعد في وسعه أن يحتمله أكثر من ذلك. وخرج إلى الردهة، ودفع الباب ففتحه على مصراعيه ليبتلع الهواء البارد الذي دخل عندئذ، ثم خرج إلى الميدان بغير قبعة، وبغير معطف.

وبينما هو يسير إلى جانب سياج الحديقة جاء صوبه قط يتمسح في الطريق. وقال «سومز» لنفسه: «عذاب! متى ينتهي عذابي؟».

وفي عرض الطريق، أمام الباب الأمامي لأحد المنازل، ظهر رجل يعرفه اسمه «راتر» يحك حذاءه، وكأن لسان حاله يقول: «أنا السيد هنا». وواصل «سومز» سيره.

وعلى مسافة بعيدة دقت في الجو الصافي أجراس الكنيسة التي تم فيها زواجه بـ«آيرين»، وكانت تدوي لتتدرب على الاحتفال بميلاد المسيح، وأغرقت جلجلة الأجراس أصوات حركة المرور. وشعر بلهفة على شرب خمر قوية الأثر تسلمه إلى هدوء عدم المبالاة، أو تثير فيه ثورة غضب عنيفة. آه لو استطاع فقط أن يتخلص من نفسه، أن يتخلص من الشرك الذي شعر لأول مرة في حياته أنه يحيط به. آه لو استطاع فقط أن يذعن للفكرة التي تقول له: «طلِّقها، اطردها من بيتك! إنها نسيتك فانسها!».

آه لو استطاع فقط أن يذعن لهذه الفكرة: «دعها تذهب لحالها، فقد تعذبت إلى حد كبير!».

آه لو استطاع فقط أن يذعن لتلك الرغبة: «اجعل منها أمة، فهي في قبضتك!».

آه لو استطاع فقط أن يذعن لتلك الرؤيا التي تراءت له فجأة: «ماذا يهمك من ذلك كله؟»، لو استطاع أن ينسى نفسه دقيقة، وينسى أن لما يفعله أهمية، وينسى أن أي شيء يفعله لا بد أن يضحي فيه بشيء ما.

آه لو استطاع فقط أن يعمل مدفوعًا بدافع تلقائي!

لم يستطع أن ينسى شيئًا، لم يستطع الإذعان لأية فكرة، لأية رؤيا، لأية رغبة. فالأمر كله شديد الخطورة، إن قفصًا لا ينحطم يضيق الخناق من حوله.

وفي الناحية النائية من الميدان كان الغلمان من بائعي الصحف ينادون معلنين عن جرائدهم المسائية؛ وامتزجت صيحاتهم الشيطانية بأصوات أجراس تلك الكنيسة متشاحنة معها.

وسد «سومز» أذنيه. ومر على ذهنه في مثل ومض البرق خاطر مؤداه أنه لولا المصادفة فلعله كان هو الذي يرقد جثة هامدة بدلًا من «بوزيني»، ولعلها كانت، بدلًا من انكماشها هناك كالطائر المصاب، بعينين يدب إليهما الموت، لعلها كانت...

ولمس شيء لين قدمه، كانت القطة تتمسح فيها. وانفجرت من صدر «سومز» زفرة رجته رجًّا من قمة رأسه إلى أخمص قدمه. ثم عاد كل شيء فاستسلم طي الظلام إلى السكون حيث بدا لـ«سومز» أن المنازل تحدق فيه، وبين جدران كل منزل منها سيد وسيدة خاصان به، وقصة خفية: قصة سعادة أو شقاء.

وعلى حين فجأة رأى أن بابه هو نفسه مفتوح، وأن رجلًا أدار ظهره يقف هناك وقد بدا هيكله أسود على الضوء المنعكس من الردهة: وجاش شيء أيضًا في صدره، وتسلل مقتربًا من ذلك الرجل.

واستطاع «سومز» أن يرى معطفه ملقى فوق المقعد المصنوع من خشب البلوط المنقوش، وأن يرى السجاجيد الفارسية، والطاسات الفضية، وصف الصحاف الخزفية المعلقة على طول الحائط؛ وهذا الرجل المجهول الواقف هناك.

وسأله بحدة:

ـ ما الذي تريده يا سيدي؟

ودار إليه الزائر، وكان «جوليون الصغير»، وقال:

ـ كان الباب مفتوحًا: أأستطيع أن أرى زوجتك لمدة دقيقة واحدة؟ فلديَّ رسالة أريد أن أنقلها إليها.

وحدجه «سومز» بنظرة جانبية طويلة. وغمغم صارم الوجه:

ـ زوجتي لا تستطيع رؤية أحد.

وأجاب «جوليون الصغير» بلطف:

ـ إني لن أعطلها أكثر من دقيقة واحدة.

ومر «سومز» محتكًّا به، وسد في وجهه الطريق، وقال ثانية:

ـ إنها لا تستطيع أن ترى أحدًا.

ونفذت نظرات «جوليون الصغير» إلى الردهة، متجاوزة «سومز» ودار هذا الأخير. وكانت «آيرين» تقف على عتبة باب غرفة الجلوس، وعيناها موحشتان متلهفتان، وشفتاها مفترقتان، ويداها ممدودتان. ولدى رؤيتها كلا الرجلين انطفأ ذلك النور في وجهها، وتساقطت يداها إلى جانبيها، ووقفت جامدة كالحجر.

ودار «سومز»، والتقت عيناه بعيني زائره، ولدى رؤية النظرة المنبعثة منهما أفلت منه صوت شبيه بالعواء. وقلص شفتيه مبديًا شبح ابتسامة، وقال:

ـ هذا بيتي. وأنا أدير شؤوني الخاصة بنفسي. وقد قلت لك مرة، وأعيد ما قلته ثانية إننا لا نستقبل الآن أحدًا.

وصك الباب في وجه «جوليون الصغير».

مكتبة
t.me/soramnqraa

الكاتب

«جون جالزورذي» (١٨٦٧-١٩٣٣) روائي وكاتب مسرح وشاعر إنجليزي، سليل عائلة إنجليزية عريقة، درس القانون لكنه لم يعمل محاميًا، وقرر أن يسافر حول العالم متابعًا عمل عائلته المرتبط بالسفن. أثناء رحلاته تعرف على الكاتب «جوزيف كونراد» ودامت الصداقة بينهما مدة طويلة. من بين أعماله مسرحية «الصندوق الفضي» التي عُرضت في لندن عام ١٩٠٦، ومسرحية «عدالة» التي عُرضت عام ١٩١٠، في إطار حملة لتحسين ظروف المعيشة داخل السجون البريطانية. أشهر أعماله «ملحمة أسرة فورسايت»، وهو عمل ضخم مكوَّن من ست عشرة رواية. حصل «جالزورذي» على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٣٢. تم تحويل رواية «صاحب الملك» إلى مسلسل تلفزيوني شهير عام ١٩٦٧، أعاد الاهتمام مرة أخرى إلى «جالزورذي» وأعماله.

المترجم

محمد مفيد الشوباشي (١٨٩٩-١٩٧٢) أديب وناقد ومترجم مصري، تخرج في كلية الحقوق عام ١٩٢٦، من مؤلفاته: «ألمع ساعات الحرج في تاريخ الإنسانية»، و«الأدب الثوري عبر التاريخ»، ورواية «الخيط الأبيض». كما ترجم أعمالًا لتوماس هاردي وتورجينيف وراسين وسارتر.

telegram @soramnqraa

«صاحب المِلك» هي الرواية الأولى في «ملحمة أسرة فورسايت»، أشهر ما كتب «جون جالزورذي»، الحاصل على جائزة نوبل في الأدب عام ١٩٣٢. تحوَّلت الملحمة إلى عدة أفلام ومسلسلات إذاعية وتلفزيونية ناجحة، وتُعد من روائع الأدب الإنجليزي ومن كلاسيكياته الأكثر شعبية.

عائلة «فورسايت» هي إحدى عائلات الطبقة المتوسطة العليا التي كانت تمتلك كثيرًا من العقارات في بريطانيا في أواخر القرن التاسع عشر. تضطرب حياة «سومز فورسايت» وزوجته «آيرين» حينما يعهد «سومز» إلى المهندس الشاب «بوزيني» ببناء بيت له خارج المدينة، إذ يتعلق «بوزيني» بالجميلة «آيرين». تطلب «آيرين» الانفصال ويرفض زوجها، فتتطور الأحداث، وتخرج عن سيطرة أبطالها بطريقة لم يكن أحد يتصورها.

بسخرية ذكية، وبكثير من الرحمة أيضًا، يرسم «جالزورذي» صورة للمجتمع الإنجليزي الفيكتوري المخملي. نُقدِّمها هنا بترجمة محمد مفيد الشوباشي الأمينة والبديعة.

الكرمة
0 033255 926603